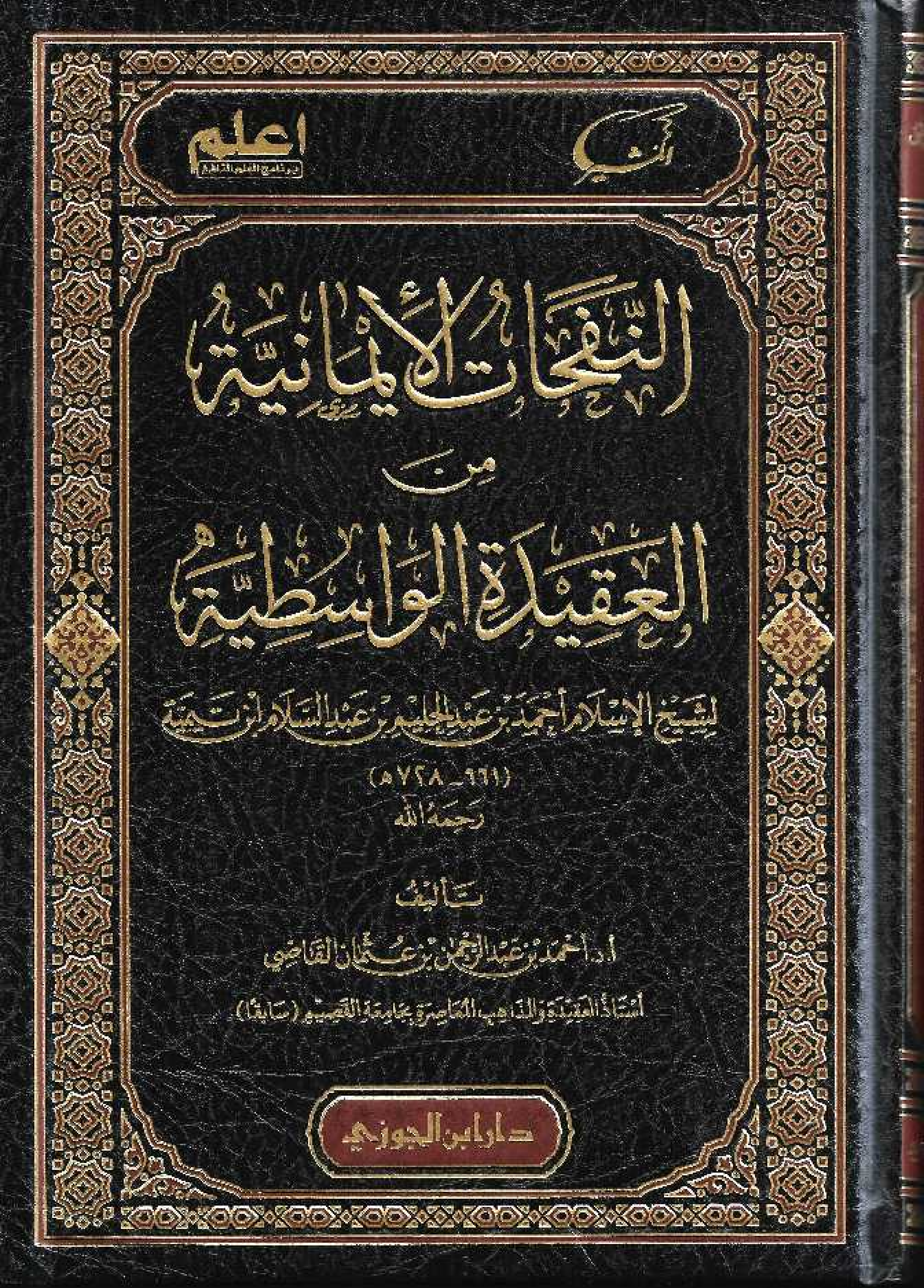

اعلم
النفحات الإيمانية
من
العقيدة الواسطية
لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية
(٦٦١-٧٢٨هـ)
رحمه الله
تأليف
أ.د أحمد بن عبد الرحمن بن عثمان القاضي
أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقاً)
دار ابن الجوزي

النّفَحَاتُ الْإِيمَانِيَّةُ
مِنَ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ

الطبعة الأولى

١٤٤٤هـ - ٢٠٢٣م

النَّفَحَاتُ الْإِيمَانِيَّةُ مِنَ الْعَقِيدَةِ الْوَاسِطِيَّةِ

لشيخ الإسلام

تَقِيُّ الدِّينِ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ

ابن تيميَّة رحمه الله تعالى

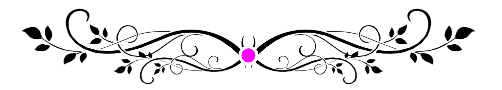
(٦٦١هـ ـ ٧٢٨هـ)

تأليف

أ. د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي

أستاذ العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة القصيم (سابقًا)





مقدمه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. **أما بعد:**

فإن الله تعالى نزَّل الذكر وتكفَّل بحفظه، فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩]، وحفظه يشمل حفظ لفظه، ومعناه؛ فأما لفظه فقد صانه الله من التحريف والزيادة والنقصان، وحال بينه وبين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويكتبون الكتاب بأيديهم، كما قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ فانقطعت أطماعهم، وغُلَّت أيديهم أن ينالوه بسوء، غير أن أهل الأهواء والبدع عمدوا إلى محاولة تحريف معناه، بالعدول عن مراده: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾ [آل عمران: ٧]، فرغبوا عن طريقة السلف الصالح؛ من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، وتبعوا المناهج الدخيلة، وعكَّروا صفو السُّنَّة المحضة، فقيّض الله من الراسخين في العلم، على مرِّ القرون، من ينتدب لكشف شبهاتهم، وتزييف باطلهم، وإعادة الحق إلى نصابه.

وكان من أولئك الأئمة المجددين، على رأس القرن الثامن الهجري، شيخ الإسلام، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، ابن تيمية

الحراني (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ) ـ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعة ـ الذي ظهر في زمن غربةٍ من الدين الصحيح، وظهورٍ لمقالات المتكلمين، وطرق الصوفية والمبتدعين، فأحيا الله به ما اندرس من مذهب السلف، ودرَّس، وألَّف، وناظر، وجاهد جهادًا كبيرًا.

ومن جملة ما خطَّ بنانه، وأبدع بيانه، عقيدة متينة مختصرة، في مجمل اعتقاد السلف، كتبها إجابةً لسؤال ورده من أحد قضاة «واسط»، فنسبت إليه، وذاع صيتها في الآفاق، وعرفت باسم: «العقيدة الواسطية»، وكان شيخ الإسلام يُحيل إليها في المناظرات، التي عقدت له بتدبير من خصومه، ويستشهد بها على موافقته لعقيدة السلف، وقد اعتنى بها العلماء قديمًا وحديثًا، حفظًا، ودرسًا، وشرحًا، وتعليقًا.

وقد أتاح الله لي شرح هذه العقيدة المباركة مرَّات وكرَّات، في مناسبات عديدة، ودروس متتابعة، في مواطن كثيرة، ولله الحمد أولًا وآخرًا، وجرى تفريغ بعض تلك الدروس المسجلة صوتيًّا، وتحريرها كتابيًّا، فراجعتها، ورتبتها، ووثَّقت نقولها، وخرَّجت أحاديثها وآثارها، وأصلحت عباراتها بما يتناسب مع النشر العام، وسميتها:

(النفحات الإيمانية من العقيدة الواسطية)

وأسأل الله أن يجعل عملي خالصًا لوجهه، نافعًا لعباده، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

كتبه

أ.د. أحمد بن عبد الرحمٰن بن عثمان القاضي

عنيزة: ١/٦/١٤٤٤هـ

ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية[1]

اسمه، ومولده، وأسرته:

أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر بن محمد ابن تيمية الحراني، ثم الدمشقي، الحنبلي، تقي الدين،

---

(١) ممن ترجم له قديمًا: ابن كثير في: البداية والنهاية: (١٤/ ١٦٣)، وابن رجب في: الذيل على طبقات الحنابلة: (٢/ ٣٨٧)، والذهبي في: تذكرة الحفاظ: (٤/ ١٤٩٦)، وسير أعلام النبلاء: (١/ ٧٦)، وابن حجر في: الدرر الكامنة: (١/ ١٥٤)، والكتبي في: فوات الوفيات: (١/ ٦٢)، واليافعي في: مرآة الجنان: (٤/ ٢٧٧)، وابن تغري بردي في: النجوم الزاهرة: (٩/ ٢٧١)، والمنهل الصافي: (١/ ٣٣٦)، والشوكاني في: البدر الطالع: (١/ ٦٣)، وابن الوردي في: تاريخ ابن الوردي: (٢/ ٤٠٦ ـ ٤١٣)، وغيرها، ومما أفرد في ترجمته من كتب المتقدمين: العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، لابن عبد الهادي، الرد الوافر، لابن ناصر الدين الدمشقي، الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، للبزار، الصارم المنكي في الرد على السبكي، لابن عبد الهادي، جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، غاية الأماني في الرد على النبهاني، للألوسي، القول الجلي في ترجمة الشيخ تقي الدين، ابن تيمية الحنبلي، لصفي الدين الحنفي البخاري، الكواكب الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، والشهادة الزكية في ثناء العلماء على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي. وأما ما كتبه المعاصرون من الكتب والمقالات، فيصعب حصره، وقد ذكر الشيخ محمد بن إبراهيم الشيباني، حفظه الله، في كتابه: (أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية: ١٨٨ ـ ٢١١) مسردًا بنحو ستين مؤلفًا معاصرًا، فضلًا عن عشرات البحوث، والندوات المعقودة، حول تراثه رَحِمَهُ اللَّهُ).

أبو العباس، شيخ الإسلام. ولد سنة٦٦١هـ في بيت علم ودين؛ فأبوه عبد الحليم: شهاب الدين، أبو المحاسن، أبو أحمد، فقيه حنبلي، ولد سنة ٦٢٧هـ، بحران، وهاجر إلى دمشق سنة ٦٦٧هـ، وتولى مشيخة دار الحديث السكرية. كان صاحب دين وخلق وكرم. توفي سنة ٦٨٢هـ، في دمشق. وجده عبد السلام: مجد الدين، أبو البركات، فقيه حنبلي، من أئمة المذهب، وإمام مقرئ ومحدث ومفسر، وأصولي ونحوي. ولد سنة ٥٩٠هـ، بحران، وارتحل إلى بغداد سنة ٦٠٣هـ، وأقام بها ست سنين في طلب العلم، وبرع فيه. وتوفي بحران، سنة ٦٥٢هـ. وله تصانيف كثيرة، منها (المنتقى من أحاديث الأحكام)، و(المحرر في الفقه)، وغيرها.

كما كان إخوته وأعمامه وبنو عمه، من أهل الفضل، والعلم، والدين.

نشأته، وطلبه للعلم:

قال ابن عبد الهادي: قال الحافظ أبو عبد الله الذهبي: (نشأ رَحِمَهُ اللَّهُ في تصون تام، وعفاف، وتأله، وتعبد، واقتصاد في الملبس، والمأكل. وكان يحضر المدارس، والمحافل في صغره، ويناظر، ويفحم الكبار، ويأتي بما يتحير منه أعيان البلد في العلم. فأفتى وله تسع عشرة سنة؛ بل أقل. وشرع في الجمع والتأليف من ذلك الوقت، وأكب على الاشتغال، ومات والده، وكان من كبار الحنابلة، وأئمتهم، فدرّس بعده بوظائفه، وله إحدى وعشرون سنة. واشتهر أمره، وبعد صيته في العالم، وأخذ في تفسير الكتاب العزيز، في الجُمَع، على كرسي، من حفظه؛ فكان يورد المجلس، ولا يتلعثم؛ وكذا كان الدرس بتؤدة، وصوت جهوري، فصيح.

وقال بعض قدماء أصحاب شيخنا، وقد ذكر نبذة من سيرته:

أما مبدأ أمره، ونشأته، فقد نشأ، من حين نشأ، في حجور العلماء، راشفًا كؤوس الفهم، راتعًا في رياض التفقه، ودوحات الكتب الجامعة لكل فن من الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة، والاشتغال، والأخذ بمعالي الأمور، خصوصًا علم الكتاب العزيز، والسُّنَّة النبوية، ولوازمها. ولم يزل على ذلك خلفًا صالحًا، سلفيًّا، متألهًا عن الدنيا، صيِّنًا، تقيًّا، برًّا بأمه، ورعًا، عفيفًا، عابدًا، ناسكًا، صوامًا، قوامًا، ذاكرًا لله تعالى في كل أمر، وعلى كل حال، رجاعًا إلى الله تعالى في سائر الأحوال، والقضايا، وقافًا عند حدود الله تعالى، وأوامره، ونواهيه، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر بالمعروف. لا تكاد نفسه تشبع من العلم؛ فلا تروى من المطالعة، ولا تمل من الاشتغال، ولا تكل من البحث، وقلَّ أنْ يدخل في علم من العلوم، من باب من أبوابه، إلا ويفتح له من ذلك الباب أبواب، ويستدرك مستدركات في ذلك العلم على حذاق أهله؛ مقصُودُه الكتاب والسُّنَّة، ولقد سمعته، في مبادئ أمره، يقول: إنه ليقف خاطري في المسألة، والشيء، والحالة التي تشكل عليّ، فأستغفر الله تعالى ألف مرة، أو أكثر، أو أقل، حتى ينشرح الصدر، وينحل إشكال ما أشكل. قال: وأكون إذ ذاك، في السوق، أو المسجد، أو الدرب، أو المدرسة، لا يمنعني ذلك من الذكر، والاستغفار، إلى أن أنال مطلوبي)[(١)].

مصنفاته:

كان شيخ الإسلام آية في سعة الاطلاع، وقوة البديهة، واستحضار المعاني، ووفرة الحافظة، مع سيولة القلم، وسرعة الكتابة، فملأ الدنيا

---

(١) العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ابن عبد الهادي المقدسي: (ص٩ ـ ١١).

تصنيفًا؛ فربما كتب جوابًا لسؤال، المصنفات الطوال، وهذا هو الأكثر، وربما كتب ابتداءً في مسألة رآها؛ قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (يكتب في اليوم والليلة من التفسير، أو من الفقه، أو من الأصلين، أو من الرد على الفلاسفة والأوائل، نحوًا من أربعة كراريس، أو أزيد! وما أُبعِد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة)[(١)]، وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وأما تصانيفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ فهي أشهر من أن تذكر، وأعرف من أن تنكر. سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمصار. قد جاوزت حد الكثرة، فلا يمكن أحد حصرها، ولا يتسع هذا المكان لعد المعروف منها، ولا ذكرها)[(٢)]، وقد عدَّ ابن عبد الهادي العشرات من مؤلفاته؛ ما بين مصنف كبير، ومتوسط، وصغير، وقاعدة، وإجازة، ووصية، وعرَّف بعامتها[(٣)].

ثناء العلماء عليه:

أطبق الراسخون في العلم والفضل والإنصاف، من معاصريه ولاحقيه، من مختلف المذاهب، على فضله وتقدمه، وتمكنه، ونصحه، وتنسكه؛ قال فيه الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وهو أكبر من أن ينبه على سيرته مثلي! فلو حلفت بين الركن والمقام، لحلفت أني ما رأيت بعيني مثله، ولا هو رأى مثل نفسه في العلم). وقال المزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه. وما رأيت أحدًا أعلم بكتاب الله، وسُنَّة رسوله، ولا أتبع لهما منه). وقال ابن الزِّملِكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (كان إذا سئل عن فن من العلم، ظن الرائي، والسامع، أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحدًا

(١) نقلًا عن العقود الدرية: (ص٣٦).
(٢) الذيل على طبقات الحنابلة، ابن رجب: (١/ ٣٤٤).
(٣) انظر العقود الدرية: (ص٣٨ ـ ١١١).

لا يعرفه مثله. وكان الفقهاء، من سائر الطوائف، إذا جلسوا معه، استفادوا في مذاهبهم منه، ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك. ولا يعرف أنه ناظر أحدًا فانقطع معه، ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع، أم غيرها، إلا فاق فيه أهله، والمنسوبين إليه. وكانت له اليد الطُولى في حسن التصنيف، وجودة العبارة، والترتيب، والتقسيم، والتبيين)[(١)]. وأمثال هذا الثناء كثير في كل عصر ومصر.

ابتلاؤه وسجنه:

سار رحمه الله على طريق الأنبياء، فناله ما ينال أتباعهم من الابتلاء، واللأواء، حتى آواه طلب ما عند الله إلى سجن القلعة، بدمشق، بسبب كيد الكائدين من المبتدعة، والمخالفين، قال ابن رجب رحمه الله: (وبقي مدة في القلعة، يكتب العلم ويصنفه، ويرسل إلى أصحابه الرسائل، ويذكر ما فتح الله به عليه في هذه المرة، من العلوم العظيمة، والأحوال الجسيمة. وقال: قد فتح الله علي في هذا الحصن، في هذه المرة، من معاني القرآن، ومن أصول العلم بأشياء، كان كثير من العلماء يتمنونها، وندمت على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن. ثم إنه منع من الكتابة، ولم يترك عنده دواة، ولا قلم، ولا ورق، فأقبل على التلاوة، والتهجد، والمناجاة، والذكر.

قال شيخنا أبو عبد الله ابن القيم: سمعت شيخنا شيخ الإسلام ابن تيمية، قدس الله روحه، ونور ضريحه، يقول: إن في الدنيا جنة، من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. قال: وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟! أنا جنتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي، لا تفارقني،

---

(١) العقود الدرية: (ص١٢ ـ ١٣).

أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة. وكان في حبسه في القلعة يقول: لو بذلت ملء هذه القلعة، ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسبَّبوا فيه من الخير ـ ونحو هذا. وكان يقول في سجوده، وهو محبوس: اللَّهُمَّ أعِنِّي على ذكرك، وشكرك، وحسن عبادتك، ما شاء الله. وقال مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه، وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ۝١٣﴾ [الحديد: ١٣].

قال شيخنا: وعلم الله، ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من الحبس، والتهديد، والإرجاف، وهو مع ذلك أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرُّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت بنا الظنون، وضاقت بنا الأرض: أتيناه، فما هو إلا أن نراه، ونسمع كلامه، فيذهب عنا ذلك كله، وينقلب انشراحًا، وقوة، ويقينًا، وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته، قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فأتاهم من رَوحها ونسيمها وطيبها، ما استفرغ قواهم لطلبها، والمسابقة إليها)[١].

وفاته:

كانت وفاة شيخ الإسلام، ابن تيمية، حدثًا مجلجلًا، كما كانت حياته بيانًا مدويًّا، وظهر فيها من كرامات الصالحين، ما يليق بمجدد من مجددي الدين، وقد وصف ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ تلك الخاتمة السعيدة،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة: (١/ ٣٤٤).

والجنازة المهيبة، بقوله: (كانت وفاته في سحر ليلة الاثنين، عشري ذي القعدة، سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، وذكر مؤذن القلعة على منارة الجامع، وتكلم به الحرس على الأبراج، فتسامع الناس بذلك، وبعضهم أُعلم به في منامه، وأصبح الناس، واجتمعوا حول القلعة، حتى أهل الغوطة، والمرج، ولم يطبخ أهل الأسواق شيئًا، ولا فتحوا كثيرًا من الدكاكين التي من شأنها أن تفتح أول النهار، وفتح باب القلعة.

وكان نائب السلطنة غائبًا عن البلد، فجاء الصاحب إلى نائب القلعة، فعزاه به، وجلس عنده، واجتمع عند الشيخ في القلعة خلق كثير من أصحابه، يبكون ويثنون، وأخبرهم أخوه، زين الدين عبد الرحمٰن، أنه ختم، هو والشيخ، منذ دخلا القلعة، ثمانين ختمة، وشرعا في الحادية والثمانين، فانتهيا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥])[1].

۞ ۞ ۞

(١) ذيل طبقات الحنابلة: (١/٣٤٣ ـ ٣٤٤).

التعريف بـ «العقيدة الواسطية»

الواسطية: رسالة كتبها شيخ الإسلام ابن تيمية، في قعدة بعد العصر، وهي رسالة لطيفة، موضوعها: مجمل اعتقاد السلف؛ لأن التصنيف في الاعتقاد يقع على أنحاء؛ فمن المصنفين من يصنف في مجمل الاعتقاد، فينتظم أبواب الاعتقاد دون إطناب، ومنهم من يؤلف في باب من أبواب الاعتقاد؛ كأن يؤلف جزءًا في مسألة القرآن، أو الرؤية، أو الإيمان، أو الصفات، ومنهم من يصنف في الردود، ونقض الشبهات، وهكذا.

ومن الناحية الفنية؛ منهم من يصنف نثرًا، ومنهم من يصنف نظمًا، وكل هذا من تقريب العلم، لا حرج.

وقد تناول الشيخ في الواسطية أبواب الاعتقاد، بشكل عام، فتكلم عن صفات الله تعالى، وما ينبغي له، وثنَّى باليوم الآخر، ثم ذكر مسائل الإيمان، والقدر، والصحابة والأولياء. وبيَّن وسطية أهل السُّنَّة والجماعة، ومنهجهم في الاتِّباع والاستدلال، وفي الأخلاق والسلوك، ومكملات الإيمان؛ فكانت بديعة في بابها، جمعت بين العلم والعمل، فحظيت بقبول وانتشار، واعتنى بها العلماء قديمًا، وحديثًا.

سبب تسميتها بالواسطية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مجلس المناظرة، الذي عقده له نائب السلطنة، بشأن الاعتقاد: (فَأَنَا أُحْضِرُ عَقِيدَةً مَكْتُوبَةً؛ مِنْ نَحْوِ

سَبْعِ سِنِينَ قَبْلَ مَجِيءِ التتر إلَى الشَّامِ... ثُمَّ أَرْسَلْت مَنْ أَحْضَرَهَا وَمَعَهَا كَرَارِيسُ بِخَطِّي مِنْ الْمَنْزِلِ فَحَضَرَتْ «الْعَقِيدَةُ الواسطية» وَقُلْت لَهُمْ: هَذِهِ كَانَ سَبَبُ كِتَابَتِهَا أَنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ مِنْ أَرْضِ وَاسِطٍ بَعْضُ قُضَاةِ نَوَاحِيهَا ـ شَيْخٌ يُقَالُ لَهُ: «رَضِيُّ الدِّينِ الواسطي» مِنْ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ ـ قَدِمَ عَلَيْنَا حَاجًّا وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالدِّينِ وَشَكَا مَا النَّاسُ فِيهِ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَفِي دَوْلَةِ التتر مِنْ غَلَبَةِ الْجَهْلِ وَالظُّلْمِ وَدُرُوسِ الدِّينِ وَالْعِلْمِ، وَسَأَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ لَهُ عَقِيدَةً تَكُونُ عُمْدَةً لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ، فَاسْتَعْفَيْت مِنْ ذَلِكَ، وَقُلْت: قَدْ كَتَبَ النَّاسُ عَقَائِدَ مُتَعَدِّدَةً؛ فَخُذْ بَعْضَ عَقَائِدِ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ؛ فَأَلَحَّ فِي السُّؤَالِ، وَقَالَ: مَا أُحِبُّ إلَّا عَقِيدَةً تَكْتُبُهَا أَنْتَ فَكَتَبْت لَهُ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ وَأَنَا قَاعِدٌ بَعْدَ الْعَصْرِ، وَقَدْ انْتَشَرَتْ بِهَا نُسَخٌ كَثِيرَةٌ؛ فِي مِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَغَيْرِهِمَا)[(١)].

فتبيّن أن سبب تسميتها: النسبة إلى بلدة «واسط» في العراق، التي ينتمي إليها السائل: رضي الدين الواسطي، والنسبة إلى البلدان، في ذلك الزمان، كثيرة؛ كالحموية، والتدمرية، والقبرصية، والمراكشية، لشيخ الإسلام، والتبوكية، والمدنية، لتلميذه ابن القيم.

وأما قول بعضهم: نسبة إلى الوسطية؛ لكون أهل السُّنَّة والجماعة وسطًا بين فرق الأمة، كما بيّنه الشيخ رحمه الله في أثناء الرسالة! فلا يصح، إذ لو كان كذلك لسميت: الوَسَطية، وشيخ الإسلام نفسه سماها الواسطية، وبيَّن سبب التسمية، وفي بعض النسخ عنونت بالعقيدة الواسطية، عقيدة الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة؛ لأن الشيخ ذكر هذا في مقدمتها.

(١) مجموع الفتاوى: (٣/ ١٦٣ ـ ١٦٤).

مميزات هذه العقيدة:

تمتاز هذه العقيدة بالمزايا التالية:

أولًا: اشتمالها على مجمل اعتقاد السلف.

ثانيًا: غناؤها وثراؤها بالأدلة النقلية؛ القرآنية والنبوية، فلو قارنت بينها وبين متن من متون المتكلمين لوجدت الفرق الهائل! فالسلف إذا صنفوا يقدمون كلام الله على كلامهم، ولا يذكرون مسألة إلا بدليلها، فكأنما تسير في روضات غنَّاء، تتأنق فيهن! وإذا طالعت كتب المتكلمين فكأنما تسير في صحراء جرداء، لا تجد فيها دليلًا ينعش القلب من كلام الله، أو كلام نبيّه ﷺ، وإنما هي جلاميد حروف، وعبارات مغلقة، ومعان عسرة.

ثالثًا: تضمنها للدلائل العقلية، ففي بعض مواضعها يذكر الشيخ أدلة عقلية في بيان بعض حقائق الإيمان؛ ولا افتراق بين العقل والنقل، فإن القرآن العظيم دلَّل على الأصول العظيمة بالحجج، والأساليب العقلية، وهل الأمثال، وما أكثرها في القرآن، إلا أقيسة عقلية؟ فلا يظن ظان أن هؤلاء المتكلمين أسعد بالعقل من السلف؛ بل السلف أسعد بالعقل والنقل منهم، والعقل الذي انتحلوه عقل مضطرب؛ ليس على القسطاس المستقيم؛ فالنقل يصوب العقل، ويُحكم مساره، ويضبط آلته؛ فالعقل آلة بمنزلة العين؛ فمثلًا، لو دخلت مسجدًا وهو مظلم، لربما ارتطمت بعمود، أو عثرت بآدمي أو كرسي، مع أنك تملك عينين! وحينما تضيء المصابيح ينكشف لك المكان؛ تمشي سويًّا، وتنتفع بعينيك.

وكذلك النقل مع العقل، فالنقل نور من الله سبحانه وتعالى؛ يضيء للعقل، فيستنير ويصبح آلة مفيدة، لا عطب فيها، ولا خلل؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ

أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

رابعًا: تضمنها بيان وسطية أهل السُّنَّة والجماعة في منهج الاستدلال، والأخلاق، والأعمال، وهذا أمر مهم؛ لأن ثمرة الاعتقاد تظهر في الأخلاق، والسلوك، والعمل؛ فلا بد من العناية بالآثار المسلكية للمسائل العقدية.

خامسًا: الوضوح، واليسر، والسهولة، في بيان أمهات الاعتقاد، بخلاف تعقيدات المتكلمين، وتهويمات الصوفية والباطنيين، وتلك صفة الكتاب، قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

والواسطية من المتون التي يوصى بحفظها، سيما وأنها حافلة بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، فيحفظ طالب العلم في كل مسألة دليلًا، أو أكثر، يستدل به عند دعاء الحاجة، بالإضافة إلى الجمل السلفية، التي تواتر عليها السلف، وانتظمها المصنف في أثنائها، وحفظها بحمد الله سهل، والله الموفق.

جهود العلماء في شرح هذه الرسالة:

وقد عُني العلماء بهذه الرسالة، فممن شرحها وعلّقَ عليها:

١ ـ الشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي (١٣٠٧ ـ ١٣٧٦هـ) رَحِمَهُ اللهُ في كتيب اسمه: (التنبيهات اللطيفة على ما احتوت عليه العقيدة الواسطية من المباحث المنيفة)، وهو من أقدم شروحها.

٢ ـ الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٣١١ ـ ١٣٨٩هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ له (تقريرات جمعها الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن بن قاسم).

٣ ـ الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع (١٣٠٠ ـ ١٣٨٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ له تعليقات على الواسطية.

٤ ـ الشيخ عبد العزيز بن محمد السلمان (١٣٣٧ ـ ١٤٢٢هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (الكواشف الجلية عن معاني الواسطية)، وله كتاب آخر اسمه: (الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية) على طريقة السؤال والجواب.

٥ ـ الشيخ زيد بن عبد العزيز بن فياض (١٣٥٠ ـ ١٤١٦هـ)، في كتابه: (الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية).

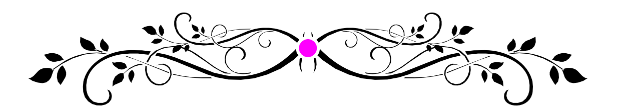
٦ ـ الشيخ محمد خليل هراس (١٣٣٤ ـ ١٣٩٥هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (شرح العقيدة الواسطية).

٦ ـ الشيخ عبد العزيز بن ناصر الرشيد (١٣٣٣ ـ ١٤٠٨هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية).

٧ ـ شيخنا محمد بن صالح العثيمين (١٣٤٧ ـ ١٤٢١هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: (شرح العقيدة الواسطية).

٨ ـ الشيخ عبد الله بن محمد الغنيمان، حفظه الله، في كتابه: (السبائك الذهبية بشرح العقيدة الواسطية).

ولا يكاد يوجد أحد من أهل العلم السلفيين المعاصرين، إلا وشرحها واعتنى بها؛ إما بشرح مطبوع أو مسموع، وهذا من الخير الذي ادخره الله لمؤلفها.



خطبة الكتاب

قال المؤلف رحمه الله تعالى:

(الحمد لله الَّذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، وأَشْهَدُ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا).

الشَّرْح

هذه خطبة الكتاب، وقد جرت عادة المصنفين أن يستهلوا مكتوباتهم بالبسملة، أو الحمدلة، أو بهما معًا، والبسملة آكد في المكاتيب، والحمدلة آكد في الخطب.

والصحيح، من أقوال أهل العلم، أنّ البسملة آية مستقلة تُفتتح بها السور، وهي بعض آية من سورة النمل؛ فجميع سور القرآن مفتتحة بالبسملة إلا سورة واحدة، هي سورة براءة؛ قال بعض الناس: لأنها سورة نزلت بالعذاب، وفيها آية السيف، والبسملة فيها ذكر الرحمة، فلا يتناسب هذا مع هذا، لكن هذا ليس بصواب، فهناك سور من القرآن تضمنت ذكر العذاب، ففي سورة محمد: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، ومع ذلك فهي مفتتحة بالبسملة، وإنما كان سبب عدم إثبات البسملة في سورة براءة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، لما كتبوا المصحف، شكُّوا: هل سورة براءة تتمة لسورة الأنفال، أم هي سورة

مستقلة؟ فإن سورة الأنفال قصيرة مقارنةً بالسبع الطوال؛ فصار عندهم تردد: أهي سورة مستقلة، أم أنها وسورة التوبة سورة واحدة؟ فاكتفوا بوضع خط بين السورتين، ولم يثبتوا البسملة.

وليست البسملة، على الصحيح، من السبع المثاني؛ لدليلين:

الدليل الأول: قال الله تعالى، في الحديث القدسي: (**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي**)[1]، فابتدأ بالحمدلة، ولم يبتدأ بالبسملة، و«الصلاة»: اسم من أسماء الفاتحة.

الدليل الثاني: قوله، في هذا الحديث السابق: (**فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾، قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ**)[2]، فدل على أن هذه الآية الرابعة هي المنصَفة؛ قبلها ثلاث، وبعدها ثلاث.

فالابتداء بالبسملة، في المكاتيب والخطب، مشروع لأمرين:

الأمر الأول: اقتداء بكتاب الله العزيز.

الأمر الثاني: اقتداء بهدي المرسلين؛ فقد كتب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾ [النمل: ٣٠]، وكذا نبيّنا ﷺ، خاتم النبيين، كان يصدر مكاتيبه ببسم الله الرحمٰن الرحيم؛ فحينما أراد أن يكتب صلح الحديبية أملى على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**»، قَالَ سُهَيْلٌ: أَمَّا الرَّحْمٰنُ، فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا هُوَ وَلَكِنِ اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ كَمَا كُنْتَ تَكْتُبُ، فَقَالَ

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

المُسْلِمُونَ: وَاللهِ لَا نَكْتُبُهَا إِلَّا بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ**»[(١)]، ولما كتب إلى ملوك الأرض كتب: «**بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ**»[(٢)].

وأما ما روي من الأحاديث من البداءة بالبسملة، كحديث: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَقْطَعُ**»[(٣)]، أو «**أجذم**»، أو «**أبتر**»، وفي بعضها «**لَا يُبْدَأُ فيه بحمد الله**»[(٤)]، وهو أصح من لفظة البسملة، فكلها ضعيفة، ويغنينا عنها ما تقدم من كتاب الله، وهدي رسول الله ﷺ؛ فهما كافيان للأخذ بهذه السُّنَّة، وعليه عمل المسلمين إلى يومنا هذا.

وأما البداءة بالحمدلة في الخطب، فشواهده كثيرة، في الصحاح والسنن، وعلى ذلك درج الخلفاء الراشدون، والصحابة، والتابعون.

قوله: ﴿بِسْمِ﴾: جار ومجرور، والجار والمجرور لا بد له من متعلق، وهو: فعل محذوف مقدر بما يناسب المقام؛ فإذا كان الإنسان يريد أن يأكل، فتقديره: بسم الله آكل، وإذا أراد أن يشرب، فتقديره: بسم الله أشرب، وإذا أراد أن يدخل بيته، فتقديره: بسم الله أدخل، وهكذا، وفي هذا المقام ينبغي أن يكون التقدير: بسم الله أكتب، أو بسم الله أصنف، وبالنسبة للقارئ: بسم الله أقرأ.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٧٣١).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٧)، ومسلم: رقم (١٧٧٣).
(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع: رقم (١٢١٠).
(٤) أخرجه أبو داود: رقم (٤٨٤٠)، والنسائي، في السنن الكبرى: رقم (١٠٢٥٥)، وابن ماجه: رقم (١٨٩٤) باختلاف يسير، وأحمد: رقم (٨٧١٢)، بنحوه. وذكره النووي في الأذكار: (١٤٩)، وقال: حديث حسن روي موصولًا ومرسلًا، ورواية الموصول جيدة الإسناد.

قوله: (**اسم**): الاسم هو ما عيّن مسماه، وهو مأخوذ إما من السّمو، وهو الرِّفعة، وإما من السِّمة، وهي العلامة.

قوله: ﴿ٱللَّهِ﴾: علم على ذاته سبحانه، وهو أعرف المعارف، وإليه مرجع الأسماء الحسنى، حتى إن الله ﷻ يُحيل جميع الأسماء الحسنى إليه؛ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الحشر: ٢٢ ـ ٢٤]، ولهذا قال بعض العلماء: (الله) هو الاسم الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى؛ لأنه يدل على جميع صفات الكمال لله تعالى.

وأصل كلمة: الله: (إلٰه) على وزن فِعال، قاله الزجاج[(١)]، فخُففت فصارت الله، والإلٰه هو المألوه، فهو فِعَال، ويراد به مفعول، وهذا كثير في اللغة، كقولنا: كتاب، ويراد به مكتوب، وفراش، ويراد به مفروش، وغراس، ويراد به مغروس، وليس المراد به «آلِه» بكسر اللام، على وزن فاعل، كما ادعى بعض المتكلمين؛ بل «إلٰه» بمعنى مألوه؛ أي: معبود، وهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيمًا؛ فهو مشتق من أَلَه، يألَه، أَلُوهة، من الوله، وهو الانجذاب، والتعلق بالمألوه، والحقيق بغاية المحبة والتعظيم هو الله، سبحانه، دون ما سواه.

قوله: (﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾﴾): سمى نفسه باسمين كريمين، لطيفين، رقيقين، من أسمائه الحسنى؛ الرحمٰن الرحيم، وكلاهما دال على اتصافه تعالى بصفة الرحمة.

---

(١) انظر: تفسير أسماء الله الحسنى: (ص٢٥).

والفرق بين «الرحمٰن» «والرحيم» من وجهين:

الوجه الأول: أن الرحمٰن يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا ذاتيًّا، والرحيم يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًّا، بمعنى أن الله ﷻ من صفاته الذاتية؛ اللازمة له، سبحانه، التي لا تنفك عنه، صفة الرحمة، وأما الرحيم فإنه يدل على اتصاف الله بالرحمة اتصافًا فعليًّا، بمعنى: أنه يوصلها إلى المرحومين؛ فالرحمٰن يدل على الرحمة الواسعة، والرحيم يدل على الرحمة الواصلة، ورحمة الله واسعة؛ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا﴾ [غافر: ٧]، وقال: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

الوجه الثاني: أن الرحمٰن يدل على الرحمة العامة، التي تشمل كل شيء، والرحيم يدل على الرحمة الخاصة، التي تكون للمؤمنين؛ بدليل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣].

قوله: (**الحَمْدُ للهِ**): الحمد فعل يُنبئ عن تعظيم المحمود؛ لاتصافه بصفات الكمال، ونعوت الجلال.

والفرق بين الحمد والمدح: أن الحمد مقرون بتعظيم ومحبة، والمدح لا يلزم منه ذلك؛ فقد تمدح شخصًا لا تحبه، فتصف شخصًا من الكفار بالشجاعة، والقوة، والكرم، والإقدام، وأنت لا تحبه؛ فلا يكون ذلك حمدًا؛ بل مدحًا.

فإذا تكرر الحمد صار ثناءً، ولهذا قال الله ﷻ في الحديث القدسي: (**قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣﴾، قَالَ اللهُ تَعَالَى:**

أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي)[١]، فلما تكرر الحمد صار ثناءً، والثناء مأخوذ من ثني الثوب، وهو رد بعضه على بعض.

وقدم لفظ (الحمد) على لفظ الجلالة (الله) ليدل على الاستغراق؛ يعني: الحمد كله مستحق لله، فهو أهل الثناء، والحمد، والمجد، كأنما تقول: أثبت لله جميع صفات الكمال، ونعوت الجلال.

وينبغي التفطن لحكمة اقتران الأذكار الكريمة بعضها ببعض؛ (سبحان الله)، و(الحمد لله)، و(الله أكبر)؛ فمعنى التسبيح: التنزيه؛ أي: تنزيه الله تعالى عن ثلاثة أشياء: النقائص، والعيوب، ومماثلة المخلوقين؛ لكن لا يتم الأمر إلا بالحمد، وهو وصف الرب بصفات الكمال، ونعوت الجلال؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**»[٢]. وإتباع ذلك بالتكبير لكي يبين أن اتصاف الله ﷻ بصفات الكمال، ونعوت الجلال، على وجه لا يشاركه فيه أحد، لا يدانيه فيه أحد؛ فيحصل بذلك التوحيد التام في أسماء الله وصفاته؛ فينبغي استحضار هذه المعاني، في أدبار الصلوات، فتعتقد تنزيه الله، أولًا، ثم تثبت له صفات الكمال، ثانيًا، ثم تفرده بها، على وجه لا يماثله فيه أحد.

وما أكثر الحمد في القرآن، فقد جاء لفظ (الحمد لله)، ثلاثًا وعشرين مرة، والسور المبدوءة بالحمد في القرآن خمس، وهي: (الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر).

قوله: (**الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ**): الرسول: هو

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٣٩٥).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٣).

محمد ﷺ، فليس اسم جنس؛ بل اسم عين على محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فإنه قد قال في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]؛ **فمضمون الرسالة المحمدية أمران:**

الأول: الهدى: وهو العلم النافع.

الثاني: دين الحق: وهو العمل الصالح.

فالدين إما أمر علمي، وإما أمر عملي، فمن تأمل شريعة الإسلام وجد أنها مكونة من شرائع ظاهرة، وهي الإسلام، ومن اعتقادات باطنة، وهي الإيمان؛ فالله تعالى قد بعث نبيّه محمدًا ﷺ، بالأمرين معًا.

قوله: (**لِيُظْهِرَهُ عَلَة الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِالله شهيدًا**): هذا اقتباس من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾ [الفتح: ٢٨].

قوله: (**لِيُظْهِرَهُ**): أي: يعليه، **والظهور نوعان**: ظهور بالحجة والبرهان، وظهور بالسيف والسنان، وقد وقع الأمران:

الأمر الأول: ظهور هذا الدين على سائر الملل والأديان بالحجة والبرهان؛ فهذا لا يتخلف أبدًا، فمن قارن دين الإسلام بالأديان المحرفة، ناهيك عن الأديان الوثنية، والأفكار الفلسفية، وجد البون الشاسع، والفرق العظيم، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]؛ فدين الإسلام ظاهر بالحجة والبرهان، وكل من أراد أن يعيب الإسلام، أو ينال من كتابه، أو من نبيّه، باء بالخسران؛ ولهذا صمد الإسلام هذه القرون المتطاولة، على كثرة أعدائه، وترصدهم له، وبقي شامخًا، عزيزًا، مُقنعًا؛ لا يتمكن أحد من خصومه، من الملاحدة، والمستشرقين، أن ينالوا منه، وإن أجلبوا بخيلهم ورجلهم، فإنهم يرتدّون على أدبارهم خاسئين.

الأمر الثاني: الظهور بالسيف والسنان، وقد وقع، بحمد الله، فيما مضى من القرون، فإن نبيَّنا ﷺ، قال: «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها**»[(١)]، وجرى في المائة الأولى، من تاريخ الإسلام، أن طبق الإسلام المعمورة، وقد توفي رسول الله ﷺ، مطلع السنة الحادية عشرة من الهجرة، وقال في آخر عمره، وقد خرج إلى أصحابه: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا، لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الأَرْضِ أَحَدٌ**»[(٢)]، ومراده أن أهل ذلك القرن يفنون، وهم خير القرون؛ قرن الصحابة، رضوان الله عليهم، فما مضت مائة سنة إلا وقد بلغ الإسلام أطراف الصين شرقًا، والمحيط الأطلسي غربًا، وأسوار القسطنطينية، وبلاد الغال (فرنسا) شمالًا، وأواسط أفريقيا جنوبًا، والقرن الأول، أفضل قرون هذه الأمة، وهو الحقيق بلقب «القرن الذهبي»، لا زمن المأمون، كما يدعي العصرانيون، العقلانيون، فصدق الله عبده، ونصر جنده، وأظهر دينه على الدين كله؛ قال الشاعر:

كيف لا أذكر أجدادًا لهم ... فتكة الإعصار عند الغضب

وجوادًا قبّلت حافره ... لجّة البحر تجاه المغرب

وملوك الصين تُهدي تُربها ... لفَتَانا في صحاف الذهب[(٣)]

يُشير إلى قتيبة بن مسلم الباهلي رَحِمَهُ اللَّهُ حين أقسم أن لا يرجع من فتوحاته في المشرق حتى يطأ بلاد الصين بقدميه، وتبذل له ملوكها

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٨٨٩).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (١١٦)، ومسلم: رقم (٢٥٣٧).
(٣) للشاعر هاشم الرفاعي، من قصيدته (دين وعروبة)، التي يقول في مطلعها:
(أيُّها السائِرُ بينَ الغَيهَبِ ... عاثرُ الخَطوِ جليَّ التَّعبِ).

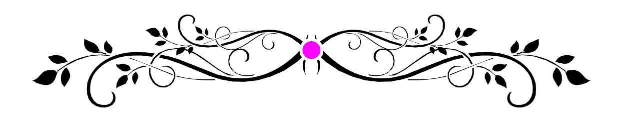
الجزية، فما كان منهم إلا أن وضعوا تراب الصين على صحاف الذهب، وبعثوا به إليه ليفي بنذره.

وإلى موسى بن نصير رَحِمَهُ اللَّهُ حين مضى في فتوحاته حتى خاض بجواده ضفة الأطلسي، في أقصى بلاد المغرب، وقال: والله لو أعلم أن خلفك أرضًا يُعبد فيها غير الله لخضتك! وجاز المسلمون إلى الأندلس، التي تسمى الآن إسبانيا والبرتغال، وتخطوا جبال البرانس، ودخلوا بلاد الغال، التي تسمى الآن: فرنسا، ومكثوا فيها نحو خمسين سنة، حتى وقعت معركة بلاط الشهداء[(١)]، بقيادة عبد الرحمٰن الغافقي رَحِمَهُ اللَّهُ واستشهد فيها، وكانت سنة مائة وأربعة عشرة للهجرة، فانحسر المد الإسلامي عن بلاد أوروبا، وقد كانت خطة المسلمين أن يجتاحوا أوروبا من غربها حتى يبلغوا القسطنطينية في شرقها، ثم إن الله تعالى أعاد الكرّة للمسلمين، في عهد العثمانيين، حتى اكتسحوا أوروبا الشرقية بأكملها، ولا يزال الإسلام، بحمد الله، يمتد، إلى يومنا هذا، فلا يوجد دين على وجه الأرض ينخرط الناس فيه، ويعتنقونه طواعية، كما الإسلام! وهي حقيقة مذهلة، ومدوية، لكن تتواطأ الآلة الإعلامية الغربية على إخفائها وكتمها، خشية أن تتنامى بشكل أكبر؛ فإن الذين يعتنقون الإسلام يوميًّا في أركان الأرض كثير، مع قلة الدعم، والموارد؛ لأنه دين الله الموافق للفطرة، والعقل، فتحقق بذلك موعود الله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

ومما يروى في التاريخ أن أمير المؤمنين، هارون الرشيد رَحِمَهُ اللَّهُ رأى سحابة تعبر في السماء، فقال لها: أمطري، أو لا تمطري، أمطري أنى شئت فسيأتيني خراجك، وهذا يدل على سعة رقعة البلاد المفتوحة، وأن هذه السحابة إن أمطرت في بلاد المسلمين، فستأتيه زكاة غلّتها، وإن أمطرت في بلاد الكفار، فسيبذلون الجزية.

---

(١) ويعرفها الغرب باسم (تور بواتييه).



معنى الشهادتين

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وأَشْهَدُ أَن لَّا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا).

الشَّرْح

بعد حمد الله تعالى، ثنَّى المصنف بالشهادتين، ومعنى (**أَشْهَدُ**): أي: أقر وأعترف وأجزم، كما لو كنتُ مشاهدًا لذلك بعيني رأسي، وإنما عبّر بالشهادة، مع أن الشهادة معاينة بالبصر، لقوة اليقين، والشهادة الأولى أعظم شهادة؛ لأعظم مشهود به، من أعظم شاهد، قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

قوله: (**لَّا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ**): كلمة التوحيد، أول الإسلام، وأوسطه، وآخره؛ فلا يُحكم بإسلام امرئ حتى يلفظ بالشهادتين، وهي بوابة الإسلام، قال النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّ الإِسْلَامِ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ**»(١). وهي آخر الإسلام أيضًا، فقد قال النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَ آخِرُ**

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٥)، ومسلم: رقم (٢٢)

كَلَامِهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١).

وإلٰه بمعنى: مألوه؛ أي: معبود، كما تقدم، فمعناها: لا معبود بحق إلا الله، وإنما احتجنا إلى تقييدها (بحق)؛ لأن الله أخبرنا أن ثم آلهة مدعاة؛ قال الله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾ [الأنبياء: ٤٣]، ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الفرقان: ٣]، فالنفي في الشهادة ليس منصبًّا على الوجود، وإنما على الصحة، والأحقية.

وما من نبي بعثه الله إلا بادأ قومه بهذه الجملة: «يا قوم: اعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره»؛ قالها نوح، وهود، وصالح، وشعيب عليهم السلام كما رتّبهم الله، في سورة الأعراف، وكذلك في سورة هود، وفي سورة المؤمنون، جميعهم يقول: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥] [هود: ٥٠، ٦١، ٨٤]، [المؤمنون: ٢٣،٣٢]، وقال الله على سبيل الإجمال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فيجب أن يعتصم بهذه الكلمة، فإنها المنجاة في الدنيا والآخرة، ومن لم يأت بها فلا حظ له، ولا نصيب.

قوله: (**لَّا إِلٰهَ**): نفي لكل إلٰه، **وقوله**: (**إِلَّا اللهُ**): إثبات الإلٰهية، وحصرها في الله تعالى، وهذا أبلغ ما يكون في التوحيد والإفراد؛ لأنه إذا جاء الإثبات بعد النفي أفاد الحصر، ويسمى «الاستثناء المفرغ من أعم الأحوال». مثال ذلك: لو قلت: زيد قائم. أفاد قيام زيد، لكن لا ينفي وجود قائم مع زيد؟ فربما قال قائل: محمد قائم، وإبراهيم قائم،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٨٢٧)، ومسلم: رقم (٩٤)، كلاهما بلفظ: «مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ»، وأخرجه أبو داود: رقم (٣١١٦)، باللفظ المذكور.

وعمرو قائم، أيضًا، لكن إذا قلت: لا قائم إلا زيد. أفاد أن زيدًا هو القائم، ومن سواه غير قائم، ولما ذكر الله التوحيد، بغير هذه الصيغة، أتبعه بما يثبت الإفراد؛ قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]، حتى لا يقول قائل نعم هو واحد، لكن ثمَّ غيره.

قوله: (وَحْدَهُ): تأكيد للإثبات.

قوله: (لا شَرِيكَ لَهُ): تأكيد للنفي.

ولهذا كانت التلبية النبوية هي التوحيد، كما قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه في سياق حجة النبي ﷺ: «**فَأَهَلَّ بِالتَّوْحِيدِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنَّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ**»[1].

التوحيد وبيان أنواعه

قوله: (إِقْرَارًا بِهِ وَتَوْحِيدًا): مفعول لأجله؛ أي: أني أتيت بهذه الشهادة لقصد الإقرار والتوحيد، أو هي حال من الشاهد؛ أي: حال كوني مقرًا، موحدًا له سبحانه بذلك، دون ما سواه.

والتوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

النوع الأول: **توحيد الربوبية**: هو توحيده سبحانه بأفعاله؛ من الخلق والملك والتدبير، فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله، وهو أمر قد فطر الله عليه البشر، فلا ينكره إلا الشُّذَّاذ

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٢١٨).

الجاحدون؛ كفرعون حين قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٣]، وهو أشهر من عُرف بإنكار الربوبية.

النوع الثاني: **توحيد الألوهية**: وهو توحيد الله بأفعال العباد، بصرف جميع أنواع العبادة لله، وعدم صرفها لسواه؛ سواء كانت عبادة قلبية: كالخوف، والرجاء، والمحبة، والتوكل، والاستعانة، والاستغاثة، أو كانت عبادة بدنية: كالصلاة، والصيام، والحج، وإماطة الأذى عن الطريق، أو عبادة مالية: كالزكاة، والصدقة، أو عبادة قولية: كالدعاء، والذكر، والتلاوة.

فجميع أنواع العبادات لا يجوز صرفها لغير الله؛ هذا توحيد العبادة، الذي بعث الله به المرسلين، وهو حلبة الصراع، ومعترك النزاع بين الأنبياء، وأقوامهم؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، فلم يكن الأقوام ينازعون في توحيد الربوبية، وإن شاب توحيدهم شوائب، لكنهم يُنازعون في توحيد الألوهية.

النوع الثالث: **توحيد الأسماء والصفات**: وهو الاعتقاد الجازم بأن ما وصف الله تعالى به نفسه، من صفات الكمال، ونعوت الجلال، فهو مُستحق له، على وجه لا يُماثله فيه أحد، كما قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، فله سمع ليس كالأسماع، وله بصر ليس كالأبصار، وله وجه ليس كالوجوه، ويدان ليستا كالأيدي، فكل ما وصف الرب به نفسه فإنا نُقِره ونثبته كما أثبته ربنا، على وجهٍ لا يُماثل ما للمخلوقين.

ومن العلماء من يجعل التوحيد قسمين:

القسم الأول: **توحيد المعرفة والإثبات**: هو توحيد الربوبية، والأسماء والصفات؛ لأنه توحيد علمي.

القسم الثاني: **توحيد القصد والطلب**: هو توحيد العبادة، الذي هو توحيد الألوهية، وهو التوحيد العملي، ولا معارضة بين التقسيمين، وإنما هو نوع من التفنن في الإجمال والتفصيل، وتقريب العلم لطالبيه.

قوله: (وَأَشْهَدُ): أي: أُقر وأعترف وأجزم، اعترافًا وإقرارًا لا شك، ولا تردد فيه.

قوله: (أَنَّ مُحَمَّدًا): علم على نبينا ﷺ، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

قوله: (عَبْدُهُ): وصفه بالعبودية ردٌّ على أهل الغلو.

قوله: (وَرَسُولُهُ): وصفه بالرسالة ردٌّ على أهل الجفاء.

وهكذا الحق دومًا وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين، فنصف نبيّنا ﷺ، بما وصفه به ربه؛ فإن الله تعالى وصفه بالعبودية، في أشرف المقامات:

١ ـ في أشرف ليلة مرت به، وهي ليلة الإسراء والمعراج، قال الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١].

٢ ـ في أشرف أحواله، وهو حال تنزل القرآن، واتصال كلام الله تعالى به، قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١].

٣ ـ في أشرف وظيفة يقوم بها بشر، وهي الدعوة إلى الله ﷻ، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ [الجن: ١٩]؛ فالوصف بالعبودية لله شرف، وأي شرف! قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ومما زادني شرفًا وتيهًا ... وكدت بأخمصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك: يا عبادي ... وأن صيرت أحمد لي نبيًّا

فالوصف بالعبودية لله وصف كريم، ومَن ادَّعى الخروج عن حد العبودية فهو كافر زنديق؛ فمَن زعم أنه في حل من الأوامر والنواهي، وأنه بلغ درجة سقطت عنه التكاليف، فقد كفر بالله العظيم، وهذا يصدر من زنادقة الصوفية، الذين يزعمون شهود الحقيقة الكونية، والتحلل من الحقيقة الشرعية، ويقول قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره ... مني ففعلي كله طاعات

ويرخي لنفسه الزمام، ويطأ الحرام، بدعوى أنه بلغ درجة اليقين، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩]، هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

أما الوصف بالرسالة فهو، أيضًا، وصف شرفي للنبي ﷺ حيث اصطفاه الله تعالى لكي يكون مهبط وحيه، ومحضن كلامه؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، ولما قال بعض المشركين: ﴿لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ۝٣١﴾ [الزخرف: ٣١]، ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فالله هو الرزاق، وهو الوهاب؛ قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فاصطفاء الله لنبِّيه بالرسالة مبني على علم وحكمة.

فوصفه ﷺ بالعبودية ردٌّ على أهل الغلو، الذين يطرون النبي ﷺ، إطراء لا ينبغي إلا لله، وهذا يقع من المداحين في الموالد، وغيرها؛ يتجارى بهم الغلو في المديح، كما يتجارى الكَلَب بصاحبه، حتى إنهم يخلعون على النبي ﷺ أوصافًا لا تنبغي إلا لله، ومن القصائد المشهورة في هذا قصيدة البوصيري، التي يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذًا ... بيدي فضلًا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ... ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غلوٌّ فاحش، فأين توحيد الله، إذا صرف اللواذ، وطلب العفو من غيره؟! وماذا أبقى لله إذا كان يجعل الدنيا والآخرة، وما في اللوح المحفوظ بعض ما للنبي ﷺ؟! هذا من الغلو، الذي نهى عنه النبي ﷺ بقوله: «**لَا تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ، وَرَسُولُهُ**»[(١)]، وعَنْ مُطَرِّفٍ، قَالَ: (قَالَ أَبِي: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «**السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**» قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**»)[(٢)].

وفي وصفه بالرسالة ردٌّ على أهل الجفاء، الذين لا يعطون النبي ﷺ، حقه؛ من الإكرام، والإجلال، والتوقير؛ قال تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، فتجب نصرة النبي ﷺ، ظاهرًا وباطنًا، وتوقيره لفظًا ومعنى.

قوله: (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ): قال الإمام أحمد: (**آله**): أتباعه على دينه إلى يوم القيامة؛ لأن الآل مشتقة من الأَوْل، وهو الرجوع، فكل من انتمى إلى النبي ﷺ، واتبعه، فهو مِن آله.

وذهب بعض الشراح إلى أن الآل إذا قُرنت بالأصحاب فإنها

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد: رقم (٢١١)، قال الألباني: (صحيح)، وأخرجه أبو داود: رقم (٤٨٠٦)، وأحمد: رقم (١٦٣٠٧)، قال ابن حجر: رجاله ثقات، وقد صححه غير واحد من العلماء.

تختص بالمؤمنين من أهل بيته، وهم البطون الخمسة: (آل عقيل، وآل علي، وآل جعفر، وآل الحارث بن عبد المطلب، وآل العباس)، الذين لا تحل لهم الصدقة، فالمؤمنون من هذه البطون هم آل النبي ﷺ.

قوله: (وَصَحْبِهِ): جمع صاحب، أو صحابي، وهو من لقي النبي ﷺ، في حياته مؤمنًا به، ومات على ذلك.

شرح التعريف:

(هو من لقي النبي ﷺ): وهذا خير من قول بعضهم: من رأى؛ لأنه ربما كان أعمى، وقيدها بعض العلماء، بقوله: **(في حياته)**؛ ليخرج بذلك من رآه بعد موته، وهذا ليس له إلا مثال واحد؛ أبو ذؤيب الهذلي، هاجر إلى المدينة في اليوم الذي مات فيه النبي ﷺ، فرأى النبي ﷺ، بعين رأسه، وهو مسجى؛ قد مات؛ فلا يُعد صحابيًّا؛ لأنه لم يلق النبي ﷺ، في حياته.

(مؤمنًا به): فلو أنه لقي النبي ﷺ، حال كفره لم يثبت له وصف الصحبة، حتى لو أسلم بعد ذلك، وهذا ينطبق على كثيرين لقوا النبي ﷺ، في الموسم، حين كان يعرض نفسه على القبائل، ولم يؤمنوا به، ثم آمنوا بعد أن أظهر الله الإسلام، ولم يلقوا النبي ﷺ، حال إيمانهم.

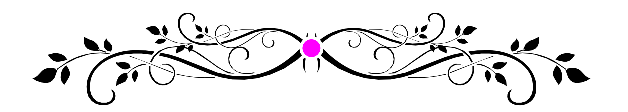
(ومات على ذلك): فلو لقيه مؤمنًا به، ثم ارتد؛ زال عنه وصف الصحبة؛ لأن الردة تبطل جميع العمل، لكن إن رجع إلى الإسلام، عاد له وصف الصحبة، وهذا، أيضًا، ينطبق على كثيرين، ممن وقعت منهم ردة، وحاربهم الصديق، ثم فاءوا إلى الإسلام، ومنهم طليحة بن خويلد الأسدي، الذي كانت له صحبة، ثم ارتد وادّعى النبوة، ثم منّ الله عليه،

ورجع إلى الإسلام[١].

قوله: (وَسَلَّمَ تسليمًا مَزِيدًا): التسليم: دعاء بالسلامة، أو تحية، أو كلاهما، ولا مانع من اجتماعهما، أما الدعاء له بالسلامة في حياته فهو أمر بيِّن، حتى يدفع الله عنه السوء، ويعصمه من الناس، وأما بعد موته فدعاء بالسلامة لدينه وسُنَّته، وقد يقال: المقصود سلامة جسده الشريف، فإنه قد وقع في غضون التاريخ أن قومًا من الزنادقة أرادوا سرقة جسده الشريف، وسعوا في ذلك! في قصة مشهورة، إبان حكم الملك عماد الدين زنكي رَحِمَهُ اللهُ حتى تمكن من الإيقاع بهم وقتلهم.



(١) انظر: تدريب الراوي: (٢/ ٢٠٨).



بيان الفرقة الناجية المنصورة وأوصافها

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(أَمَّا بَعْدُ؛ فَهَذَا اعْتِقَادُ الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ).

الشَّرْح

قوله: (**أَمَّا بَعْدُ**): هذه كلمة يؤتى بها عند إرادة الدخول في صلب الموضوع، ومعناها: «مهما يكن من شيء»، ففيها إقبال على ما هو بصدده، والفصاحة تقتضي أن يكون ما بعدها حرف الفاء الرابطة.

قال ابن مالك[1]:

أمّا كمهما يك من شيءٍ وفا لتلو تلوها وجوبًا ألفا

وبعض الشراح يقول: هي كلمة يؤتى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر، وهذا غير دقيق؛ لأنه لو كان كذلك لكان مقتضى ذلك أننا كلما أردنا أن ننتقل من بحث إلى بحث نقول: أما بعد؛ فالصحيح أنه يؤتى بها للدخول في صلب الموضوع.

وكان النبي ﷺ، يستعملها في خطبه، فيحمد الله ويثني عليه، ثم يقول: «**أما بعد**». وكذلك يفعل في مكاتيبه؛ فاستعمالها فيهما من السُّنَّة.

(١) ألفية ابن مالك: باب: (أمّا ولولا ولوما).

قوله: (فَهَذَا): اسم إشارة، والمشار إليه: ما سيذكره المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ لاحقًا.

قوله: (اعْتِقَادُ): وهو **لغةً**: مصدر اعتقد، يعتقد؛ مأخوذ من العقد، والعقد: هو الربط والشد، والحزم؛ تقول: عقدت الحبل؛ أي: شددته، وربطته، وعقدت البيع، أو النكاح، إذا أثبته وأمضيته؛ فسميت المعارف اليقينية، والمعاني القلبية المؤكدة: عقائد؛ لأنها تفيد معنى الجزم، والقطع؛ فالعقائد لا يصلح فيها الشك، والتردد.

واصطلاحًا: حكم الذهن الجازم، وقد يكون حكمًا عقليًّا، وقد يكون حكمًا حسيًّا، وقد يكون حكمًا إيمانيًّا، وهو المراد هنا.

فحكم الذهن الجازم عقليًّا: كقولك: الواحد نصف الاثنين.

والحكم الحسي: كقولك: السماء فوقنا، والأرض تحتنا.

والحكم الإيماني: كقولك: الله ربنا، محمد نبيّنا، القرآن كتابنا، الإسلام ديننا.

قوله: (الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ الْمَنْصُورَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ: أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ): وصف الشيخ أهل الحق **بأربعة أوصاف**:

الوصف الأول: (الْفِرْقَةِ النَّاجِيَةِ): وهي الناجية من البدع، والضلال في الدنيا، ومن النار في الآخرة؛ وذلك أنهم اعتصموا بالكتاب والسُّنَّة، وقد قال النبي ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَإِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَتَفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ**»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «**مَنْ كَانَ**

على مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي»[(١)]، فلما نجوا في الدنيا من البدع والضلالات، أعقبهم ذلك نجاة في الآخرة من النار؛ ولهذا سميت: الفرقة الناجية.

الوصف الثاني: (**الْمَنْصُورَةِ**): هذا الوصف استمده المصنف من الحديث الصحيح: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ**»[(٢)]؛ فأخبر النبي ﷺ، ببقاء طائفة من الأمة منصورة، (ظاهرة)، والظهور معناه العلو، إما بالحجة والبيان، أو بالسيف والسنان، أو بهما معًا، كما تقدم؛ فهذه الفرقة، ولله الحمد، لم تخل منها الأرض، من عهد النبي ﷺ، إلى يومنا هذا، لكنها تقوى وتضعف، وتزيد وتنقص، بما يبتلي الله ﷻ به عباده، قال تعالى: ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍۗ﴾ [محمد: ٤]، فأحيانًا تنتشر أعلام السُّنَّة، ويفشو العلم، ويتبين الحق، وأحيانًا يقع العكس؛ فتكثر البدع، ويفشو الجهل، ويصبح أهل السُّنَّة في الناس قليل.

قوله: (**إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**): أي: إلى قرب قيامها؛ لأنه ﷺ أخبر أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق: «**لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ: اللهُ اللهُ**»[(٣)]؛ فينقطع ذكر الله من الأرض، ولا يبقى إلا شرار الخلق؛ ينزو بعضهم على بعض كما تنزو الحمر، فعليهم تقوم الساعة، وأما هذه الفرقة، فبقاؤها إلى قرب قيام الساعة؛ لقوله ﷺ: «**ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ**

---

(١) حديث الافتراق رواه بألفاظ مختلفة أحمد: رقم (١٢٤٧٩)، والترمذي: رقم (٢٦٤٠) وحسنه، وأبو داود، رقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه: رقم (٣٩٩٢)، والمروزي في السُّنَّة: رقم (٥٩)، والحاكم: رقم (١٠، ٤٤٣)، وقال: هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث، وصححه الألباني في صحيح الجامع: رقم (٢٠٤٢).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٩٢٠).

(٣) أخرجه مسلم: رقم (١٤٨).

رِيحًا كَرِيحِ الْمِسْكِ مَسُّهَا مَسُّ الْحَرِيرِ، فَلَا تَتْرُكُ نَفْسًا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا قَبَضَتْهُ»[(١)]، فيستنقذهم الله تعالى من شرار الخلق، الذين تقوم عليهم الساعة.

الوصف الثالث: (**أَهْلِ السُّنَّةِ**): السُّنَّة: **لغة**: الطريقة، مِن سنَّ سُنَّة؛ أي: خطَّ دربًا، وشقَّ طريقًا، **واصطلاحًا**: الطريقة التي كان عليها النبي ﷺ، في أمور الدين كلها؛ الاعتقادية والعملية، ولهذا درج المصنفون الأوائل، من أهل السُّنَّة والجماعة، على تسمية مصنفاتهم في أصول الدين والملة: كتاب السُّنَّة، ككتاب السُّنَّة، لعبد الله ابن الإمام أحمد، وكتاب السُّنَّة للأثرم، وغيرهما كثير.

وليس المراد بالسُّنَّة هنا ما عند المحدثين أو الفقهاء؛ لأن لفظ السُّنَّة له استعمالات متعددة، فالسُّنَّة عند الفقهاء: ما يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه؛ فهي أحد الأحكام التكليفية الخمسة: الوجوب، والتحريم، والاستحباب، والكراهة، والإباحة، وعند المحدثين: ما أُضيف إلى النبي ﷺ، من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خِلقية، أو خُلقية، وعند الأصوليين: ما أضيف إليه ﷺ، من قول، أو فعل، أو تقرير؛ لأن عنايتهم بالأحكام؛ فالسُّنَّة عند المتقدمين تعني: الاعتقاد.

الوصف الرابع: (**الْجَمَاعَةِ**): وهم السواد الأعظم، وغيرهم أهل التفرق، ذلك أن الله، تبارك وتعالى، قد أمر عباده بالاجتماع والائتلاف، ونهاهم عن التفرق والاختلاف؛ فقال سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ﴾ [الشورى: ١٣]، فإقامة الدين تكون بالاجتماع عليه، والتناصر فيما بينهم، ومن لازم ذلك الاجتماع على إمام واحد،

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٩٢٤).

يبايعونه، على السمع والطاعة، بالمعروف، ويصلون خلفه الجُمَع والأعياد، ويقاتلون تحت رايته، ولا ينابذونه؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال النبي ﷺ: «**وإِنَّ اللهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي ـ أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ ـ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللهِ مَعَ الجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ**»(١). فأهل السُّنَّة والجماعة هم عمود المسلمين، على مر القرون، وهم أهل الاجتماع والائتلاف، وغيرهم أهل التفرق، والاختلاف.

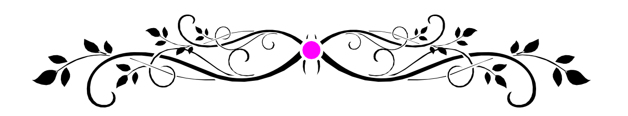
فأوصاف أهل السُّنَّة والجماعة أوصاف شرعية؛ مستمدة من ناطق الكتاب وصحيح السُّنَّة، فيُنبسون إلى الأوصاف الحميدة التي زينهم الله تعالى بها، ولو تعددت، فإن تعددها لا يعني أنهم فرق مختلفة، فهم أهل السُّنَّة، وهم أهل الحديث، وهم الطائفة الناجية، وهم الفرقة المنصورة، وهم السلفيون؛ فهذه أسماء لمسمى واحد.

وأما أهل البدع فإنهم يُنسبون إما إلى مقالاتهم؛ كالقدرية، نسبة إلى إنكارهم القدر، والجبرية، نسبة إلى قولهم بالجبر، والخوارج، نسبة إلى خروجهم، وربما نسبوا إلى رؤسائهم، كالجهمية، نسبة إلى الجهم بن صفوان(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢١٦٧) وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه، وأخرجه الحاكم: في المستدرك، رقم (٣٩١). وحسنه السيوطي، في الجامع الصغير، رقم (١٨١٨)، وقال ابن العربي في عارضة الأحوذي: (وإن لم يكن لفظه صحيحًا فإن معناه صحيح)، رقم (٥/ ٢٧)، وصححه الألباني، بدون لفظ (ومن شذ شذ في النار).

(٢) الجهم بن صفوان: قال عنه الذهبي: أبو محرز، الراسبي مولاهم، السمرقندي، الكاتب، المتكلم، رأس الضلال، ورأس الجهمية، كان صاحب ذكاءٍ وجدل... وكان ينكر الصفات، وينزه الباري عنها بزعمه، ويقول بخلق =



الإيمان وأركانه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَهُوَ الإيمانُ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإِيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ).



الشَّرْح

قوله: (وَهُوَ): مرجع الضمير إلى الاعتقاد، في قوله: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية.

قوله: (الإيمانُ باللهِ وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، والإيمَانِ بِالْقَدَرِ خِيْرِهِ وَشَرِّهِ): اقتبس الشيخ هذه الجملة من حديث جبريل المشهور؛ حين ابتعث الله أفضل رسول ملكي، إلى أفضل رسول بشري، فسأله عن الإيمان، فأجاب النبي ﷺ بهذا الجواب البيّن الجلي؛ فقال: «**أَنْ تُؤْمِنَ باللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكِتَابِهِ، وَلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ**»[(١)]؛ هذه أصول الإيمان، فمن أراد تعريف الإيمان، فلن يجد تعريفًا خيرًا من تعريف النبي ﷺ.

= القرآن، ويقول بأن الله في الأمكنة كلها. وقد أخذ مقالته عن سلفه الجعد بن درهم، فأذاعها ونشرها، ولهذا صارت المعطلة تنسب إليه؛ فيقال: (الجهمية)، لا (الجعدية)، وكان قد خرج مع الحارث بن سريج على بني أمية؛ فقتله سلم بن أحوز، صاحب شرطة نصر بن سيار، عام ١٢٨هـ.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٧٧)، ومسلم: رقم (١٠)، واللفظ له.

ومبحث الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة قد يراد به أحد أمرين:

الأمر الأول: المُؤمَنُ به، وهو أركان الإيمان، كما وقع في جواب النبي ﷺ، وهي الأصول الستة، وإن شئت فقل: الخمسة، كما يعبر بعض العلماء؛ على اعتبار أن القدر داخل في الإيمان بالله.

الأمر الثاني: حقيقته وحدُّه وتعريفه، وأنه قول وعمل، وزيادته ونقصانه، وبيان ما يعارضه من الكفر وأنواعه.

والمقصود هنا: أركانه، ونشير إليها بإجمال:

الركن الأول

الإيمان بالله

وهو أعظمها وأجلها، ولا يتم الإيمان بالله إلا بالإيمان **بأربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بوجوده.

الأمر الثاني: الإيمان بربوبيته.

الأمر الثالث: الإيمان بألوهيته.

الأمر الرابع: الإيمان بأسمائه وصفاته.

الأمر الأول: **الإيمان بوجوده سبحانه**، وأن وجوده هو الوجود الحق، والمتكلمون يقولون: واجب الوجود؛ لأن وجوده مفتقر إلى وجود غيره، ومن سواه: ممكن الوجود؛ لأن وجود غيره مفتقر إلى وجوده، وقد تضافرت الأدلة، من العقل، والشرع، والحس، والفطرة، على وجود الله.

الأمر الثاني: **الإيمان بربوبيته**، وهو اعتقاد أنه الخالق المالك المدبر؛ فعلى هذه الثلاثة تدور معاني الربوبية، وتوحيد الربوبية: توحيد الله بأفعاله؛ كالخلق، والملك، والتدبير.

الأمر الثالث: **الإيمان بألوهيته،** وهو اعتقاد أنه الإلٰه المستحق للعبادة وحده، دون ما سواه؛ فلا يصرف أي نوع من أنواع العبادة لغيره، سبحانه.

الأمر الرابع: **الإيمان بأسمائه وصفاته،** وهو إثبات الأسماء الحسنى والصفات العلى التي أثبتها الله تعالى لنفسه في كتابه، أو أثبتها له نبيّه ﷺ، في سُنَّته، وتوحيده بها باعتقاد تفرده بها؛ فلا يماثله فيها أحد، وهو ما أفاض فيه المصنف لاحقًا.

الركن الثاني

الإيمان بالملائكة

ولا يتم إلا بتحقيق **أربعة أمور**:

الأمر الأول: الإيمان بوجودهم، وأن وجودهم حق؛ فليسوا قوى معنوية؛ بل خلق حقيقي، وعالم غيبي؛ خلقهم الله من نور.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم باسمه، ومن لم نعلم اسمه فإننا نؤمن به إجمالًا: فنعلم من أسمائهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ومنكر ونكير، وهاروت وماروت، ومالك، ومن لم نعلم اسمه، وهم الأكثر، فإننا نؤمن بهم إجمالًا.

الأمر الثالث: الإيمان بما علمنا من صفاتهم؛ فقد وصفهم الله تعالى بجملة من الأوصاف؛ كقوله: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ [فاطر: ١]، ووصفهم نبيّه ﷺ فقال: «**أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائكةِ الله من حَمَلة العرش: إن ما بين شَحمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سبع مئةِ عام**»[(١)].

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٢٧)، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: إسناده جيد، =

الأمر الرابع: الإيمان بما علمنا من أعمالهم، ووظائفهم، ولملائكة الرحمٰن وظيفة عامة مشتركة، وهي عبادة الله، وتسبيحه، وطاعته؛ قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الصافات: ١٦٥، ١٦٦]، وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠]، وقال الله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٨]، وقال: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧]، ولبعضهم وظائف وأعمال خاصة.

الركن الثالث

الإيمان بالكتب

ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأنها منزلة من عند الله حقًّا؛ فليست كلام ملك، ولا كلام رسول؛ بل هي كلام الله حقًّا.

الأمر الثاني: الإيمان بما علمنا اسمه منها باسمه، وما لا نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا: فنعلم من كتب الله: التوراة، والإنجيل، والزبور، والقرآن، وصحف إبراهيم وموسى؛ فنؤمن أن الله تعالى أيد أنبياءه بكتب، لتبقى حجةً على الناس، ونورًا، وهدىً لهم.

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارها؛ ذلك أن الله تعالى أخبرنا بأن من قبلنا كانوا: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣]، و﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة: ٤١]، وأنهم: ﴿يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾

= (٨/ ٢٣٩)، وصححه الحافظ ابن حجر في الفتح: (٨/ ٦٦٥).

[البقرة: ٧٩]، فلما كان الأمر كذلك، وصارت محل الريبة والظنة؛ لم يكن لنا أن نصدق شيئًا من أخبارها، إلا بأثارة من علم، ودليل صحيح.

وقد قسم العلماء المأثور من كتب أهل الكتاب قبلنا، ويسمونها «الإسرائيليات»، **إلى ثلاثة أقسام:**

القسم الأول: ما شهد كتابنا بصحته؛ كذكر خلق آدم، وذكر الطوفان، وقصة إبراهيم، ولوط، ويوسف، وموسى، وآيات عيسى ابن مريم؛ من إبراء الأبرص، والأكمه، وإحياء الموتى، فهذا نؤمن به من حيث الجملة؛ لشهادة كتابنا به.

القسم الثاني: ما شهد كتابنا ببطلانه؛ وهو ما أدخلوه في كتب الله ﷻ من الباطل، كزعمهم أن لوطًا ﷷ شرب الخمر، وزنى بابنتيه، وزعمهم أن سليمان ﷺ، عَبَد الأصنام؛ فهذا نرده؛ لشهادة كتابنا بكذبه.

القسم الثالث: ما لا نجد في كتابنا ما يشهد بصحته، ولا يشهد ببطلانه، فهذا النوع لا نصدقه ولا نكذبه، لقول النبي ﷺ: «**مَا حَدَّثَكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَلَا تُصَدِّقُوهُمْ، وَلَا تُكَذِّبُوهُمْ، وَقُولُوا: آمَنَّا. إِلَى ﴿وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾، فَإِنْ كَانَ بَاطِلًا لَمْ تُصَدِّقُوهُ، وَإِنْ كَانَ حَقًّا لَمْ تُكَذِّبُوهُ**»(١)، ولكن هذا النوع تجوز روايته لمن كان عالمًا فقيهًا؛ لقول النبي ﷺ: «**وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ**»(٢)، وقد قال معاوية ﷛ عن كعب الأحبار: (وَإِنْ كُنَّا مَعَ ذَلِكَ لَنَبْلُو عَلَيْهِ الكَذِبَ)(٣)، ولم يرد ﷛ أن كعبًا يتعمد الكذب، وإنما أراد أنهم يجدون في مروياته ما يعلمون بطلانه، ومخالفته للواقع، بما أنعم الله عليهم من الكتاب، والحكمة.

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٣٦٤٤).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٦١).
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٧٣٦١).

الأمر الرابع: العمل بما أُنزل إلينا منها، وهو القرآن العظيم، فلا بد من الحكم به، فإن الله تعالى ذكر التوراة، ثم ثنَّى بالإنجيل، ثم ثلَّث بالقرآن، فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]؛ أي: حاكمًا ومؤتمنًا، وقاضيًا، وشاهدًا، وناسخًا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٨]، فلا يجوز العمل بما سبق إلا أن يقره شرعنا، فشرع من قبلنا شرع لنا، ما لم يرد شرعنا بخلافه، بدليل أن الله تعالى قال: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥]، فأقر الله ﷻ هذا، ثم زاد: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾ [المائدة: ٤٥]، وقد جاء في حديث، بإسناد جيد: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ بِنُسْخَةٍ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذِهِ نُسْخَةٌ مِنَ التَّوْرَاةِ، فَسَكَتَ، فَجَعَلَ يَقْرَأُ وَوَجْهُ رَسُولِ اللهِ يَتَغَيَّرُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: ثَكِلَتْكَ الثَّوَاكِلُ، مَا تَرَى بِوَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَنَظَرَ عُمَرُ إِلَى وَجْهِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ غَضَبِ اللهِ وَغَضَبِ رَسُولِهِ رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**رَضِينَا بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا**». فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ بَدَا لَكُمْ مُوسَى فَاتَّبَعْتُمُوهُ وَتَرَكْتُمُونِي، لَضَلَلْتُمْ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَلَوْ كَانَ حَيًّا وَأَدْرَكَ نُبُوَّتِي، لَاتَّبَعَنِي**»)[1].

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٥١٥٦)، والدارمي: رقم (٤٤٩)، واللفظ له.

الركن الرابع

الإيمان بالرسل

ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بأن رسالتهم من عند الله حقًّا: فإن الله اصطفاهم، واختارهم عن علم وحكمة؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥]، ورد على المتنقصين، فقال: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ٣١ أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ﴾ [الزخرف: ٣١، ٣٢]؛ فالنبوة لا تُنال بالكسب، ولا تُنال بالرياضة، ولا تُنال بالمجاهدة، كما زعم ذلك بعض زنادقة الصوفية، كما أنها لا تُنال بالقوى الطبعية والعقلية، كما ادعى ذلك ابن سينا والفلاسفة؛ فزعموا أن للنبوة ثلاثة شرائط: القوة القدسية، والقوة التخيلية، والقوة التأثيرية! فمن توفرت فيه هذه الخصائص صار نبيًّا تلقائيًّا! وكل هذا من الباطل؛ بل هي اصطفاء من الله، عن علم وحكمة.

الأمر الثاني: الإيمان بمن علمنا اسمه منهم، ومن لم نعلم اسمه فإنا نؤمن به إجمالًا: وفي القرآن العظيم، ورد ذكر خمسة وعشرين رسولًا نبيًّا، وفي السُّنَّة، ذكر يوشع بن نون، فهذا أقصى علمنا بأسمائهم، وإلا فإن رسل الله كثر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦]، ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ﴾ [غافر: ٧٨].

الأمر الثالث: تصديق ما صح من أخبارهم: كقول النبي ﷺ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ**

مَا شِئْتَ»[(١)]، ومن أخبارهم ما قص الله تعالى علينا في كتابه؛ كقصة موسى وفرعون، وسائر أنبيائه، وما حدَّث به نبيّه ﷺ، في الأحاديث الصحيحة، من أخبار الأنبياء السابقين.

الأمر الرابع: العمل بشريعة من أُرسل إلينا منهم: وهو محمد ﷺ.

الركن الخامس

الإيمان باليوم الآخر

ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بما يكون في القبر: وهما أمران: فتنة القبر، وعذاب القبر، أو نعيمه، وسيأتي الكلام عليهما، لاحقًا.

الأمر الثاني: الإيمان بالبعث، وهو إخراج الناس من قبورهم أحياء يوم القيامة، كما وصف النبي ﷺ: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»[(٢)]: حفاة غير منتعلين، عراة غير مكتسين، غرلًا غير مختونين، وفي رواية: «**بُهمًا**»[(٣)]؛ أي: ليس معهم شيء.

الأمر الثالث: الإيمان بالحساب: وسيأتي ذكر الفرق بين محاسبة الكفار، ومحاسبة المؤمنين، وذكر نوعي حساب المؤمنين.

الأمر الرابع: الإيمان بالجزاء: وهو الجنة أو النار؛ فالجنة: هي الدار التي أعدها الله نعيمًا لأوليائه المتقين، والنار: هي الدار التي أعدها الله عذابًا لأعدائه الكافرين، وهما مخلوقتان، باقيتان، لا تفنيان.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦١٢٠).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: رقم (٢٨٥٩)، واللفظ له.
(٣) أخرجه أحمد رقم (١٦٠٤٢).

الركن السادس

الإيمان بالقدر

ولا يتم إلا بتحقيق أربعة أمور:

الأمر الأول: الإيمان بعلم الله المحيط بكل شيء.

الأمر الثاني: الإيمان بكتابة الله للمقادير قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة.

الأمر الثالث: الإيمان بمشيئة الله النافذة، وقدرته التامة.

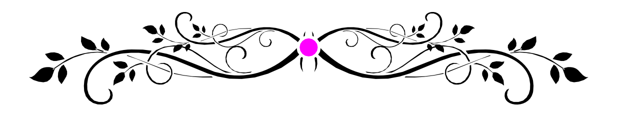
الأمر الرابع: الإيمان بخلق الله لجميع الأشياء؛ ذواتها وصفاتها وحركاتها، وسيأتي تفصيله في موضعه.

وبهذا البيان تنتظم مفردات أركان الإيمان الستة، وينبغي لطالب العلم أن يُحسن تصوره، وتقسيمه؛ ليتمكن من بيانه لعموم الناس؛ فإن الناس في أمس الحاجة إلى إدراك هذه التفاصيل.

وأكثر ما بيَّنه المصنف في هذه العقيدة الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والإيمان بالقدر، وأما الإيمان بالملائكة والكتب والرسل، فجرت إشارة عابرة إليه.

وبعد أن ذكر الشيخ الأصول العامة لمجمل العقيدة الإسلامية دخل في شيء من التفصيل والبيان.





طريقة أهل السُّنَّة في أسماء الله وصفاته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ: الإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ؛ بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١]).

الشَّرْح

قوله: (وَمِنَ الإيمَانِ بِاللهِ): من هنا للتبعيض؛ فقد أسلفنا أن الإيمان بالله يتضمن أربعة أمور: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، فاختار منها الشيخ ما مست الحاجة إليه في سؤال السائل، ووقع فيه الخلاف، واللغط، في زمانه، وهو ما يتعلق بأسمائه وصفاته، فذكر قاعدة أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب، وهي: (الإيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ، مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ): فلما علموا أن الله ﷻ غيب، ولا سبيل للقول عليه إلا ببرهان، ولا يمكن العلم بما ينبغي له، وما يُنزه عنه، إلا بخبر صادق عنه، عوَّلوا على الوحيين: الكتاب والسُّنَّة، واطَّرحوا ما سواهما، وذلك أن العقول تقطع أن أي شيء من الأشياء لا يمكن معرفة صفته إلا بإحدى ثلاث طرق: إما برؤيته، أو برؤية نظيره، أو بخبر صادق عنه؛ هذه هي الطرق

الممكنة، ولا يمكن العلم بصفة الرب ﷻ إلا بالطريق الثالثة؛ لأننا لم نرَ ربنا فنصفه، ولا نبيّنا ﷺ رآه؛ فقد سئل: هل رأيت ربك؟ قال: «**نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ**»، أو قال: «**رَأَيْتُ نُورًا**»[(١)]، وذلك أنه رأى الحُجُب، كما قال: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[(٢)]، ولما سئلت عائشة رضي الله عنها: هل رأى محمد ربه؟ قالت: (لَقَدْ قَفَّ شَعَرِي مِمَّا قُلْتَ)، وفيه: (مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَأَى رَبَّهُ، فَقَدْ كَذَبَ)[(٣)].

أما رؤية نظيره، فهي أشد امتناعًا؛ لأنه لا نظير له سبحانه، حتى يُقاس عليه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ٢٢]، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤].

فلم يبق إلا الطريق الثالثة: وهي: الخبر الصادق عنه، وقد أخبرنا الله تعالى في كتابه عن أسمائه وصفاته، في مواضع عدة، وأخبرنا نبيّنا ﷺ، عن ربه، في أحاديث عدة؛ فكان متعينًا أن نلزم هذا الطريق، ولا نُثبت لله الأسماء والصفات بمجرد العقل؛ بل نُثبت ما دل عليه النقل الصحيح؛ هذه طريقة أهل السُّنَّة والجماعة: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد ﷺ، في سُنَّته.

قوله: (مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ): احترز المصنف من أربعة أمور؛ فالأول والثاني محذوران في جانب النفي، والثالث والرابع محذوران في جانب الإثبات.

الأول: **التحريف**: **وهو لغة**: التغيير، يقال: حرَّف الكلام؛ يعني:

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٧٨). (٢) أخرجه مسلم: رقم (١٧٩).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٤٨٥٥)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٧٧).

غيّره عن وضعه، وكما تقول: انحرفت السيارة، إذا تغير مسارها؛ قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١].

والتحريف نوعان:

النوع الأول: **التحريف اللفظي**: وقد ذكر العلماء له **ثلاث صور**:

الأولى: زيادة حرف؛ كمن حرَّف قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]: فقال: استولى، فزاد حرفًا.

الثانية: زيادة كلمة؛ كمن حرَّف قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، فقال: وجاء أمر ربك، فزاد كلمة.

الثالثة: تغيير الشكل؛ فإن اللغة العربية تنضبط معانيها بالشكل، والإعراب، الذي يكون على أواخر الكلم؛ كمن حرَّف قوله الله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ۝١٦٤﴾ [النساء: ١٦٤]، فغير الضمة في اسم الجلالة إلى فتحة، ليجعل الله تعالى مُكلَّمًا لا متكلِّمًا، وإنما إعرابها: (كَلَّمَ): فعل ماض مبني على الفتح، (اللهُ): لفظ الجلالة فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره، (مُوسَى): مفعول به منصوب بفتحة مقدرة، (تَكْلِيمًا): مفعول مطلق مؤكد للفعل؛ فنصب المحرِّف لفظ الجلالة؛ ليجعل الله مفعولًا به مقدمًا، وموسى فاعلًا مؤخرًا.

وقد حاول بعضهم أن يستنطق أحد القراء المشهورين، وهو أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ اللهُ ليقرأ له هذه الآية على هذا النحو: (وكلم اللهَ موسى تكليمًا)، ويطير بها في الآفاق، فتفطن لمراده، وقال: فما تصنع، يا ابن اللخناء، بقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟ فإنه لا يستطيع تحريفها كما يشاء، وينسب الكلام إلى غير الله.

النوع الثاني: **التحريف المعنوي**، وهو باب واسع لا حد له؛ فإن المحرف لا يتعرض لرسم الكلمة، ولا لشكلها؛ بل يثبت اللفظ على ما هو عليه، ويقول: ليس المراد به كذا، المراد به كذا وكذا؛ فيثبت لله الوجه، ويقول: المقصود بالوجه الثواب، ويثبت لله اليد، ويقول: المقصود باليد النعمة أو القدرة، ويثبت لله المجيء، ويقول: المقصود مجيء أمره، أو ملائكته، أو رحمته، وهكذا.

والتحريف المعنوي أكثر من اللفظي؛ لأن القرآن العظيم محفوظ مصون، منقول بالتواتر؛ فأكثر ما يقع التحريف في المعنى. لكنَّ أهل التحريف لا يسمون عملهم تحريفًا، وإنما يسمونه تأويلًا؛ تلطيفًا لشناعته، والواقع أنه تحريف لا تأويل؛ لأن لفظ «التأويل»، في أصل وضعه في اللغة، لا يدل على ما ذهبوا إليه من المجاز، والتأويل منه ما هو صحيح، ومنه ما هو فاسد؛ فالصحيح ما دل عليه الدليل الصحيح، والفاسد ما لا دليل عليه صحيح؛ فأوهموا أنهم سلكوا مسلكًا يحتمل الصواب، لكنهم في الواقع سلكوا مسلك التأويل الفاسد، الذي لا يمكن أن يكون إلا تحريفًا؛ ففيهم شَبه ممن قال الله عنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]، وقد جرى من اليهود ذلك؛ فحرفوا تحريفًا لفظيًّا، حين قيل لهم: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فَعَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ، أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «**قِيلَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ**: ﴿وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾؛ **فَبَدَّلُوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاهِهِمْ، وَقَالُوا: حَبَّةٌ فِي شَعْرَةٍ**»[1]، وجرى منهم التحريف المعنوي للتوراة؛ فارتكبوا محارم الله تعالى بأدنى الحيل؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٠٣)، ومسلم: رقم (٣٠١٥).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَاتَلَ اللهُ اليَهُودَ إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ**»(١).

فالواجب أن نسمي الأمور بأسمائها، وهذا مما وفق له المصنف؛ بأن سمى التأويل الذي عليه المتكلمون تحريفًا، وسمى التفويض الذي يدعيه المفوضة تجهيلًا.

الثاني: **التعطيل**: **والعطل لغة**: الخلو والفراغ، قال تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الحج: ٤٥]؛ أي: خالية من الماء، وتقول العرب: امرأة معطال، إذا اكتفت بجمالها عن لبس الحلي، ويقول الشاعر مخاطبًا محبوبته:

لا تنكري عطل الكريم من الغنى   فالسيل حرب للمكان العالي(٢)

أي: لا تستغربي أن ليس لي مال وجِدة؛ لأن الرجل الكريم إذا وقع شيء في يده فرقه يمنة ويسرة، كماء السماء إذا نزل على رؤوس الجبال سحَّ منها؛ فعطل الكريم؛ أي: خلو يده من المال، ونقول: عطلة صيفية، لخلوها من الدراسة، ورجل عاطل، لمن لا عمل له.

واصطلاحًا: جحْد، أو نفي، أو إنكار أسماء الله تعالى، كلها، أو بعضها.

والتعطيل ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: **التعطيل الكلي**: وأهله درجات:

الدرجة الأولى: القرامطة الباطنية، وهؤلاء أشد الناس تعطيلًا، وهم الذين ينفون النقيضين؛ يقولون عن الله تعالى: لا موجود ولا

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٢٣٦)، ومسلم: رقم (١٥٨١).
(٢) قاله أبو تمام في قصيدته التي مطلعها: (كُفي وغَاكِ، فإنَّني لكِ قَالي).

معدوم، لا حي ولا ميت، لا عالم ولا جاهل! مع أنه يستحيل نفي النقيضين، كما يستحيل اجتماع النقضين؛ فالوجود والعدم نقيضان؛ الشيء إما أن يكون موجودًا، وإما أن يكون معدومًا، والسكون والحركة نقيضان: إما أن يكون الشيء ساكنًا، أو يكون متحركًا، والعلم والجهل نقيضان: إما أن يكون متصفًا بالعلم، أو مسلوبًا عنه؛ فيكون جاهلًا.

والحامل لهم على هذا القول، الذي ينبو على الأسماع، وتأباه العقول والفطر، قولهم: لو قلنا بالإثبات؛ لشبهناه بالموجودات، ولو قلنا بالنفي؛ لشبهناه بالمعدومات، فننفي النفي والإثبات! قلنا: قد وقعتم في شر مما فررتم منه؛ فإنكم بذلك شبهتموه بالممتنعات، ومن شبهه بالمعدومات، أو بالموجودات، أهون حالًا منكم؛ فيمتنع عقلًا أن يكون الشيء لا موجود، ولا معدوم، ويمتنع ألا يُوصف بحركة، ولا سكون؛ لا بحياة، ولا بموت؛ فهؤلاء غلاة الغلاة تعطيلًا.

الدرجة الثانية: الجهمية، المنسوُبون إلى جهم بن صفوان السمرقندي، وهؤلاء نفوا عن الله تعالى الأسماء والصفات؛ قالوا: لا يُمكن أن يُوصف الله تعالى باسم، ولا صفة؛ لأن إثبات الأسماء والصفات له، تشبيه له بالموجودات، فمن قال: عليم، سميع، بصير، وله علم، وسمع، وبصر، فقد شبهه بالموجودات؛ لأن الموجودات تُسمى بهذه الأسماء، وتوصف بهذه الصفات؛ فيُقال: فلان عليم، وسميع، وبصير، وله علم، وسمع، وبصر. ويعتقدون أن الله هو الوجود المطلق بشرط الإطلاق؛ أي: لا يتقيد باسم، ولا بوصف؛ لأنك إذا سميته، أو وصفته، فقد قيدت إطلاقه؛ بزعمهم!

والجواب: إنّ هذا الوجود لا يوجد إلا في الأذهان، ولا يمكن أن

يوجد في الأعيان؛ كما يتخيل الإنسان فكرة ذهنية، لا وجود لها خارج الذهن؛ فكل موجود حقًّا لا بد أن يكون متصفًا بصفات، ولو لم يكن إلا صفة الوجود، فكيف بالحياة، والعلم، والقدرة والغنى، وغيرها؟ لكننا نُثبت لله تعالى صفات الكمال، ونعوت الجلال، على وجه لا يُشاركه فيها أحد؛ فينتفي المحذور.

والواقع أن الجهمية فرُّوا من تشبيهه بالموجودات، فوقعوا في تشبيهه بالمعدومات، فأتوا بأعظم الكفر والإلحاد؛ قال ابن القيم في النونية:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان

الدرجة الثالثة: المعتزلة؛ الذين أثبتوا الأسماء ونفوا الصفات؛ فيقولون: سميع بلا سمع، بصير بلا بصر، عليم بلا علم، قدير بلا قدرة، حي بلا حياة! فأثبتوا لله أسماءً بمنزلة الأعلام المحضة، وعطلوا دلالتها على الصفات! والفرق بين الجهمية والمعتزلة فرق صوري؛ فالجهمية أكثر اطرادًا، حين قالوا: ليس له اسم ولا صفة، والمعتزلة تناقضوا، حين أثبتوا أسماءً عريَّة من الصفات.

فإذا قيل لهم: إن الله تعالى قد سمى نفسه سميعًا يسمع؛ فقال: في صدر سورة المجادلة: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: ١]، قالوا: المقصود بالسمع: انتفاء الصمم، والمقصود بالعلم: انتفاء الجهل، والمقصود بالقدرة: انتفاء العجز؛ ففسروا الصفات الثبوتية بالسلبية؛ أي: أن أضدادها مسلوبة عن الله؛ يفعلون ذلك فرارًا من إثبات الصفات. وهذا من السفسطة[١]، فما قيمة إثبات أسماء لا تتضمن أوصافًا؟!

(١) السفسطة: إنكار البدهيات.

فالعرب لا تسمي عليمًا إلا من كان ذا علم، ولا تسمي بصيرًا إلا من كان ذا بصر، ولا تسمي سميعًا إلا من كان ذا سمع، كما لا تسمي كاتبًا إلا من يكتب، ولا راكبًا إلا من يركب، ولا راميًا إلا من يرمي.

فأسماء الله عند المعتزلة أعلام، لا أوصاف؛ بمعنى: أنها مجرد ألقاب محضة، لا تدل على وصف، وهذا إنما يكون في حق المخلوق، لا الخالق؛ كأن يُسمى أحدٌ (صالح)، وهو طالح، أو (أمين)، وهو لص، أو (شجاع)، وهو جبان؛ فهذا يوجد في الناس؛ لأن أسماء الآدميين أعلام، ولا يلزم أن تكون أوصافًا.

أما أهل السُّنَّة والجماعة فيعتقدون أن أسماء الله تعالى أعلام وأوصاف؛ أعلام باعتبار دلالتها على ذاته سبحانه، وأوصاف من حيث تضمن كل اسم من هذه الأسماء الحسنى وصفًا خاصًّا، فالسميع، والبصير، والعليم، والقدير، والحكيم تدل على ذات الله تعالى، وعلى صفات السمع، والبصر، والعلم، والقدرة، والحكمة؛ فكل اسم من هذه الأسماء يستقل بمعنىً خاص، مع دلالتها على موصوف واحد؛ فإذا قيل: هل أسماء الله الحسنى من قبيل المترادفات، أم من قبيل المتباينات؟ فيُقال: هي مترادفة، باعتبار دلالتها على الذات، ومتباينة، باعتبار دلالتها على الصفات.

القسم الثاني: **التعطيل الجزئي: وهو نوعان:**

النوع الأول: **التأويل**: وهو صرف معاني النصوص عن ظواهرها، وحملها على معانٍ مجازية؛ بدعوى أن الظاهر يقتضي التشبيه، وأن العقل يقتضي صرفها عن ظاهرها؛ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في الفتوى الحموية: (فيا ليت شعري بأي عقل يُوزن الكتاب والسُّنَّة، فرضي الله عن الإمام مالك بن أنس حيث قال: «أو كَلما جاءنا رجل أجدل من رجل تركنا ما

جاء به جبريل إلى محمد ﷺ لجدل هؤلاء؟»)[(١)].

وقد وقع هذا لطوائف من المتكلمين، وهم الكُلابية؛ أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، وأتباع أبي العباس القلانسي، وأتباع الحارث بن أسد المحاسبي، والأشاعرة؛ أتباع أبي الحسن الأشعري، والماتريدية؛ أتباع أبي منصور الماتريدي، وهؤلاء، وأمثالهم، يقال لهم: الصفاتية، وسموا بذلك؛ لأن الأصل عندهم إثبات الصفات لله ﷻ، خلافًا للجهمية والمعتزلة، وهم يُعظمون السلف، ويُجلونهم، ويَرْوُون الحديث، ويشتغلون بالفقه، وسائر علوم أهل الإسلام، ويعدون أنفسهم متكلمي أهل السُّنَّة، ويردون على المعتزلة والجهمية؛ لكن أشكلت عليهم بعض شبهاتهم، ولم يحسنوا فهم طريقة السلف، فضلوا في مواضع، وجاء منهجهم ملفقًا بين طريقة السلف في الإثبات، وطريقة الجهمية والمعتزلة في النفي، فوقعوا في التعطيل الجزئي؛ إما في الصفات الخبرية، وإما في الصفات الفعلية، أو في كليهما.

والصفات الخبرية: هي التي سبيل إثباتها الخبر فقط، ولا مدخل للعقل فيها، مثل: الوجه، واليدين، والعينين، والساق، والقدم.

والصفات الفعلية: هي المتعلقة بمشيئة الله وحكمته، يفعلها متى شاء، كيف شاء؛ كالاستواء، والنزول، والمحبة، والفرح، والعَجَب، والمجيء، والإتيان.

فاقتصروا على إثبات صفات المعاني؛ كالصفات السبع التي يُثبتها الأشاعرة وهي: (الحياة، والسمع، والبصر، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام).

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى: (٢٧٢).

قال الناظم من الأشاعرة[١]:

حــيٌّ عــلــيــمٌ قــادرٌ مــريــد   سَـمِـعْ بـصـيـرٌ مـا يـشـا يُـريـدُ
مـتـكـلـمٌ ثـم صـفـات الـذات   لـيـست بغيـرٍ أو بـعـين الـذات

وظنوا أن إثبات الصفات الخبرية والفعلية يستلزم لوازم فاسدة، فسلطوا عليها معاول التأويل، فصاروا يقولون: المراد بكذا كذا؛ من أنواع المجازات.

النوع الثاني: **التفويض**، وهو إثبات ألفاظ نصوص الصفات، وتفويض معانيها، واعتقاد أنه لا يعلم ذلك إلا الله؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لما حكى مقالة أهل التفويض: (فتبين أن قول أهل التفويض الذين يزعمون أنهم متبعون للسُّنَّة والسلف من شر أقوال أهل البدع والإلحاد)[٢].

وزعموا أن هذه طريقة السلف، وأن السلف آمنوا إيمانًا مجملًا، ولم يُحققوا، ولم يُدققوا، كما فعل الخلف؛ ولهذا أطلقوا عبارتهم البائرة: (طريقة السلف أسلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم)؛ فالسلف، بزعمهم، مفوضة! وحاشا السلف أن يكونوا كذلك؛ لأن التفويض جهل، والسلف لا يجهلون معاني ما أخبر الله تعالى به، وأخبر به نبيّه ﷺ؛ بل هم أهل العلم والتحقيق والإيمان، ولا شك أن هذه العبارة تحمل مادة بطلانها في ذاتها؛ لأنها متناقضة، والتناقض معيار الفساد،؛ فإن العلم والحكمة شرطا حصول السلامة، والسلامة ثمرة العلم والحكمة، فلا يمكن الفصل بين القضيتين، والحق أن طريقة السلف أسلم، وأعلم، وأحكم.

---

(١) إبراهيم اللقاني في (جوهرة التوحيد).
(٢) درء تعارض العقل والنقل: (١/ ٢٠٥).

ومذهب أهل السُّنَّة مذهب مطرد؛ يصدق بعضه بعضًا، موافق لدلالة الكتاب والسُّنَّة، وهم أسعد الناس بقول الله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [طه: ٢]، فكما لم يشق نبيّهم ﷺ بالقرآن لم يشقوا به كذلك؛ بل فرحوا به، واطمأنوا إليه، واعتقدوا معناه ودلالته، وهكذا المؤمنون دومًا؛ ألم تروا أن الله تعالى أثنى على مؤمني أهل الكتاب! فقال: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥١ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤﴾ [القصص: ٥١ ـ ٥٤]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ [الرعد: ٣٦]، فهكذا ينبغي أن يكون حال المؤمن مع كتاب الله؛ أن يكون أعظم مفروح به، وأن يعتقد أنه حق على حقيقته، وأنه دالّ على الحق بذاته، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، فالقرآن بذاته كاف في النذارة والبلاغ؛ لا يحتاج إلى تأويلات خارجية، كما يدعي هؤلاء المتكلمون؛ فأسعد الناس بالقرآن هم أهل السُّنَّة والجماعة، وأما من سواهم، من المتكلمين؛ من المعطلة، والممثلة، فقد شقوا بالقرآن، صاروا يحملونه على غير مراد الله تعالى، ومراد نبيّه ﷺ، ويتكلفون في ذلك أشد التكلف.

فلا بد من الاحتراز من التحريف والتعطيل في جانب التنزيه، كما يحترز من التمثيل والتكييف في جانب الإثبات؛ لأن هؤلاء المعطلة يدعون أنهم قصدوا تنزيه رب العالمين، لكنه تنزيه أفضى إلى التعطيل والتجهيل، فلم يكن تنزيهًا؛ بل عاد بأعظم المسبّة، والمذمة؛ حتى آل أمرهم إلى إحدى طريقتين: التأويل، أو التفويض، يقول الناظم

من الأشاعرة[(١)]:

وكلّ نصٍّ أَوهَمَ التشبيها   أَوِّلْهُ أو فَوِّضْ ورُمْ تنزيهَا

وهذا اعتراف صريح بوقوعهم في الوهم.

وقال السيوطي[(٢)]:

وما أتى به الهدى والسنن   من الصفات المشكلات نؤمن
بها كما جاءت منزهينا   مؤولينا أو مفوضينا
والجهل بالتفصيل ليس يقدح   بالاتفاق والسكوت أصلح

وهذا اعتراف صريح بوقوعهم في الإشكال؛ أما أهل السُّنَّة والجماعة فعلى بيّنة من ربهم، وعافية في دينهم.

الفرق بين التحريف والتعطيل:

(**التعطيل**): هو نفي، أو إنكار، أو جحد صفات الله تعالى؛ كلها، أو بعضها. و(**التحريف**): هو تغيير النص لفظًا أو معنى؛ فكل محرف معطل، ولا عكس، وبيان ذلك: أن المعطل نفى ما أثبت الله تعالى لنفسه، والمحرف زاد على ذلك؛ بأن ادعى معنى بديلًا من عنده، فالمحرف عطّل وزيادة؛ فيأتي إلى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، فينفي الاستواء بالمعنى الذي أراده الله تعالى، وهو العلو، ثم يزيد على ذلك، ويزعم أن: المراد بالاستواء الاستيلاء؛ فقد عطل أولًا وحرّف ثانيًا. أما المعطل فإنه نفي الاستواء الحقيقي، ولم يذكر معنى بديلًا؛ كحال أهل التجهيل، الذين يسمون أنفسهم (المفوضة)؛ فإنهم يقولون: لله صفة اسمها: الاستواء، نثبت لفظها لكن

(١) إبراهيم اللقاني في (جوهرة التوحيد).

(٢) الكوكب الساطع في نظم جمع الجوامع في أصول الفقه: (خاتمة في العقائد).

لا نعقل لها معنى، فإذا قيل لهم: أهي العلو؟ كما يقول السلف، قالوا: لا! وإذا قيل لهم: أهي الاستيلاء؟ كما يقول الخلف، قالوا: لا! لا أحد يعلم معناها، ولا النبي ﷺ! وزعموا أن هذا مراد الله تعالى بقوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٧]؛ **فصار التحريف أعم من التعطيل**.

الأمر الثالث: **التكييف**: وهو حكاية كيفية الصفة، وهو ممتنع عقلًا، محرم شرعًا؛ قال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُواْ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، وروى اللالكائي، بسنده، عَنْ جَعْفَرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] كَيْفَ اسْتَوَى قَالَ: فَمَا رَأَيْتُ مَالِكًا وَجَدَ مِنْ شَيْءٍ كَمَوْجِدَتِهِ مِنْ مَقَالَتِهِ، وَعَلَاهُ الرُّحَضَاءُ، يَعْنِي: الْعَرَقَ، قَالَ: وَأَطْرَقَ الْقَوْمُ، وَجَعَلُوا يَنْتَظِرُونَ مَا يَأْتِي مِنْهُ فِيهِ، قَالَ: فَسُرِّيَ عَنْ مَالِكٍ، فَقَالَ: الْكَيْفُ غَيْرُ مَعْقُولٍ وَالِاسْتِوَاءُ مِنْهُ غَيْرُ مَجْهُولٍ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَكُونَ ضَالًّا، وَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ)[١].

والممنوع هو التكييف، أما الكيفية فلا شك أن لأفعال الله كيفية تليق به، لكنها مجهولة بالنسبة لنا.

الأمر الرابع: **التمثيل**: **وهو لغةً**: إثبات مماثل للشيء؛ كقولنا: هذا الكتاب مثل هذا الكتاب؛ لأنهما خرجا من مطبعة واحدة.

واصطلاحًا: تمثيل صفات الله بصفات خلقه ـ تعالى الله عن ذلك ـ؛ كقول الممثل: له سمع كسمعنا، وبصر كبصرنا، ووجه كوجوهنا، ويد كأيدينا.

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة: (٣/ ٤٤١).

والتمثيل محرم شرعًا؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ولهذا عبر شيخ الإسلام بلفظ التمثيل، ولم يعبر بلفظ التشبيه؛ لأن القرآن جاء بنفي التمثيل، ولم يقل: ليس كشبهه شيء، كما أنه ممتنع عقلًا؛ لاستحالة التسوية بين المخلوق، الناقص من جميع الوجوه، والخالق، الكامل من جميع الوجوه.

والفرق بين التمثيل والتشبيه هو: أن التمثيل: المطابقة من جميع الوجوه، والتشبيه: المطابقة من معظم الوجوه.

فيجب الحذر من المبالغة في التنزيه إلى حد التحريف والتعطيل، والمبالغة في الإثبات إلى حد التكييف والتمثيل؛ بل يثبت إثباتًا بلا تمثيل، وينزه تنزيهًا بلا تعطيل، كما جمع الله ذلك في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]؛ ولهذا قيل: المعطل يعبد عدمًا، والممثل يعبد صنمًا؛ فالمعطل بالغ في النفي، حتى صار معبوده لا حقيقة وجودية له! كما قال بعضهم للمعطلة: ما مثلكم إلا كرجل قال: في بيتنا نخلة. فقيل له: ألها جذع؟ قال: لا. قيل: ألها جذور؟ قال: لا. قيل: ألها سعف؟ قال: لا. قيل: أتحمل التمر؟ قال: لا. قال: فما في بيتكم نخلة؛ لأنه نفى جميع صفاتها وخصائصها؛ فصارت خيالًا في الأذهان، ولا وجود لها في الأعيان، وكذلك المعطلة يصفون الله تعالى بالسلوب؛ فيقولون: ليس بكذا، وليس بكذا، وليس بكذا، لهذا قال بعض السلف: إنما يحاولون أن ليس فوق السماء إلٰه.

والممثل يعبد صنمًا؛ لأنه تخيل صورة ذهنية اصطنعها في ذهنه، ولو بالغ في تكبيرها وتزويقها؛ فكل ما خطر ببالك فالله ليس ذلك.

الفرق بين التكييف والتمثيل:

الفرق الأول: أن التمثيل يتعلق بالذات، والقدر، والصفة،

والتكييف يتعلق بالصفة فقط؛ فإذا قلت: هذه النسخة من الكتاب مثل هذه النسخة من الكتاب، فهي مطابقة لها في كل شيء؛ في الوزن، وفي عدد الصفحات، وفي الألوان، وفي المحتوى؛ لأنهما خرجا من مطبعة واحدة، وبهذا الاعتبار **يكون التمثيل أعم من التكييف**؛ فكل مكيف ممثل، وليس كل ممثل مكيفًا.

الفرق الثاني: أن التمثيل لا بد أن يكون مقيدًا بمماثل، وأما التكييف فربما كان مقيدًا بمماثل، وربما كان وصفًا مطلقًا؛ فحين تقول: هذا مثل هذا، فلا بد من وجود شيء تُشير إليه، أو تُحيل عليه؛ تقيده به، أما عندما تحكي كيفية، فقد تحكي كيفية لها مثيل، وقد تحكي كيفية مطلقة؛ غير مقترنة بمماثل. مثال ذلك: لو أن إنسانًا، مثلًا، لم يرَ في حياته قط كيف تهبط الطائرة على مدرج المطار، وسأل من رآها: كيف تهبط الطائرة؟ فقال: مثل هبوط الطائر الفلاني؛ يحط رجليه في الأرض، ثم يجري ويخفف سرعته حتى يقف؛ فهذه كيفية مقيدة بمماثل معهود في ذهنه، وربما قال: إن الطائرة تهبط في أجواز الفضاء شيئًا فشيئًا، حتى إذا قاربت الأرض لامست عجلاتها مدرج المطار، ثم سحَّت، وكبحت سرعتها تدريجيًّا حتى تقف؛ فهذا تكييف ذهني مطلق؛ غير مقيد بمماثل، وبهذا الاعتبار **يكون التكييف أعم من التمثيل**؛ فكل ممثل مكيف، وليس كل مكيف ممثلًا.

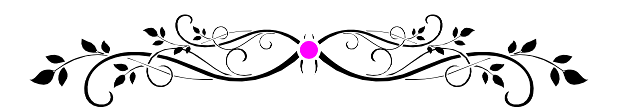
الفرق الثالث: أن التمثيل يكون غالبًا في الصفات الذاتية، والتكييف للصفات الفعلية. والمقصود أن نعلم أن الطريقة الواجبة الاتباع في صفات رب العالمين أن نُثبت لله تعالى ما أثبت لنفسه في كتابه، وما أثبته له نبيّه ﷺ، في سُنَّته، إثباتًا بلا تمثيل، وأن ننزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل، وهذا هو معنى **قوله**: (بَلْ يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]).

فقوله: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾): ردٌّ على أهل التمثيل وأهل التكييف.

قوله: (﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾): ردٌّ على أهل التحريف والتعطيل.

فكانت هذه الجملة القرآنية، وهي بعض آية، منهجًا لأهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب العظيم الخطير.





الإلحاد في أسماء الله وصفاته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ، وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ، وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ؛ لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَا كُفْءَ لَهُ، وَلَا نِدَّ لهُ، ولَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهَ وَتَعَالَى؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ، وَأَصْدَقُ قِيلًا، وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ).

الشَّرْح

قوله: (فَلَا يَنْفُونَ عَنْهُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ): لا يحل لأحد أن ينفي عن الله تعالى ما أثبت لنفسه من صفات الكمال؛ لأنه بذلك يستدرك على الله تعالى ما أضافه إلى نفسه الشريفة، وكأنما يقول؛ بلسان الحال، لا بلسان المقال، إنه أعلم بالله من الله، وأغير على الله من الله، وأحسن حديثًا من الله!

فإذا وصف الله نفسه بالاستواء، أو المجيء، أو النزول، أو الضحك، أو الفرح، أو العجب، أو الساق، أو اليدين، أو الوجه، فلا تستشنع شيئًا من ذلك، واعتقد له المثل الأعلى؛ إنما يقع الاستشناع لمن تبادر إلى ذهنه التمثيل؛ فيفر إلى التعطيل. أما من قدر الله حق قدره فإنه يعلم أن هذا الوصف، الذي وصف الرب به نفسه، ثابت على وجه يليق به، فلهذا كان أهل السُّنَّة يلزمون جانب الأدب؛ فلا ينفون عنه ما وصف

به نفسه في كتابه، أو صح عن رسوله الله ﷺ؛ فهذه الجملة ردٌّ على أهل التعطيل، وقد تقدم الكلام على التعطيل، وأنواعه، ودرجاته.

قوله: (وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ): هذه الجملة ردٌّ على أهل التحريف، الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويصرفون النص عن المعنى المراد لله، إلى معنى غير مراد لله، حتى ولو كان المعنى المنقول إليه لائقًا به، لكن إذا لم يكن هو مراده، فهو ضرب من التحريف، وعدوان وجناية على النصوص، ومن المعلوم أن الذين اشتُهروا بتحريف الكلم عن مواضعه هم اليهود؛ قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣]، وقال: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ [المائدة: ٤١]؛ فمن شابههم ففيه شعبة من يهودية، وقد تقدم الكلام عن التحريف، وأنواعه.

قوله: (وَلَا يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَاءِ اللهِ وآيَاتِهِ): **الإلحاد لغة**: الميل، ومنه سمي لحد القبر لحدًا؛ لأنه ميل عن سمْت الحفر؛ فحافر القبر يحفر بشكل رأسي، فإذا أراد أن يتخذ موضعًا للميت مال باتجاه القبلة؛ فسمي اللحد لحدًا؛ لميله عن سمت الحفر.

والإلحاد اصطلاحًا: الميل والعدول عمّا يجب اعتقاده، أو عمله.

وأفاد المصنف بأن الإلحاد نوعان:

النوع الأول: الإلحاد في أسمائه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

النوع الثاني: الإلحاد في آياته؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ﴾ [فصلت: ٤٠].

والإلحاد في أسماء الله له صور متعددة:

الصورة الأولى: تسمية الله بما لم يسم به نفسه؛ لأن أسماء الله

توقيفية، ليس لأحد أن يسمي الله بأسماء مبتكرة، مخترعة، من عند نفسه، وأسماء الله قديمة منذ الأزل؛ لم يخترعها الناس، كما زعمت الجهمية؛ بل الله سمى بها نفسه، وأعلمها أنبياءه، وأنبياؤه أعلموها أممهم؛ فمن سمى الله بما لم يسم به نفسه فقد وقع في الإلحاد في أسمائه.

ومن أمثلة ذلك: تسمية النصارى لله أبًا، يقولون في عبارتهم الكفرية: «الأب، والابن، وروح القدس، إله واحد»؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]. ف «الأب» ليس من أسماء الله الحسنى.

مثال ثان: تسمية الفلاسفة له: العلة الفاعلة، أو العقل الفعال.

فلا يجوز أن يُسمى الله إلا بما سمى به نفسه، لكن بعض الإطلاقات تأتي من باب الأخبار، لا من باب الأسماء؛ فالمتكلمون يعبرون عن الله بقولهم: واجب الوجود، وهذا ليس معنى مذمومًا بحد ذاته حتى نرده، وإنما هو خبر مطابق، ومرادهم أن وجوده لا يفتقر إلى وجود غيره؛ بل هو واجب الوجود بذاته سبحانه، الموجد لغيره، وربما جاراهم بعض أهل السُّنَّة في هذا التعبير لأنه لا يتضمن معنىً مذمومًا، لكن لا نسمي الله بالواجب، ولا نسمي أحدًا من الناس بعبد الواجب؛ لأنه ليس من الأسماء الحسنى.

الصورة الثانية: إطلاق أسمائه الحسنى على الأصنام، والمعبودات؛ كما وقع من المشركين، حيث اشتقوا من أسماء الله الحسنى أسماء مؤنَّثة لأصنامهم؛ كاللات، والعزى ومناة؛ فأخذوا اللات من اسم الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

الصورة الثالثة: اعتقادها دالة على التمثيل: أن يعتقد أن هذه الأسماء تدل على ما هو معهود في الأعيان من الأوصاف، فيعتقد أن سمعه كسمع المخلوق، وبصره كبصر المخلوق، ووجهه كوجه المخلوق، وهكذا.

الصورة الرابعة: تعطيلها عن مراد الله وتحريفها: لأنه ميل بها وعدول عما يجب اعتقاده؛ كأن يعتقد أن المراد بالوجه الثواب، أو المراد باليد النعمة أو القدرة، أو المراد بالمجيء مجيء أمره أو مجيء رحمته.

الصورة الخامسة: وصفه تعالى بصفات النقص والعيب؛ كما وقع من اليهود، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، لقولهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقولهم: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقولهم: إن الله يسأل القرض، وقولهم: إنه خلق السماوات في ستة أيام واستراح في اليوم السابع، وزعمهم أن الله ندم وبكى بعد الطوفان! إلى غير ذلك، مما يصفون الله به، من صفات العيب والنقص.

فكل ميل وعدول عما يجب اعتقاده في أسماء الله وصفاته فهو ضرب من الإلحاد، وقد يبلغ أحيانًا مبلغ الكفر؛ ككفر الجهمية، الذين أنكروا الأسماء والصفات، وقد يكون دون ذلك؛ كما وقع لدى أصحاب التعطيل الجزئي.

النوع الثاني: الإلحاد في آياته: **وينقسم إلى قسمين**:

القسم الأول: الإلحاد في الآيات الكونية: بنسبتها إلى غير الله، وادعاء مدبر لها سوى الله، وهذا يقع من الملاحدة؛ كزعمهم أن الطبيعة هي التي أوجدت الكون، أو أن الطبيعة أبدعت هذه الصورة، أو أن الطبيعة غضبت، فنشأ عن ذلك زلازل وبراكين! نسمع هذا على ألسنة

بعض الكُتّاب والإعلاميين، وما هذا إلا من نضح الإلحاد القائم على الكفر بالله، وجحد ربوبيته؛ فهذا النوع من الإلحاد مخرج عن الملة؛ فلا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبر إلا الله.

القسم الثاني: الإلحاد في الآيات الشرعية؛ بإنكارها، وجحدها، وهجر العمل بها، فإنكارها كأن يقول: هذا ليس كلام الله، أو يجحد ما دلت عليه من المعاني، وما تقتضيه من الأحكام، أو يترك العمل بها، وقد يبلغ مبلغ الكفر؛ كالإنكار والجحود، وقد يكون من الفسق؛ كترك العمل.

قوله: (**وَلَا يُكَيِّفُونَ وَلَا يُمَثِّلُونَ صِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ**): لما برَّأ المصنف أهل السُّنَّة من طريقة المحرفين والمعطلين، بقوله: لا ينفون، ولا يحرفون، ولا يلحدون، برأهم من طريقة، أهل التمثيل، فقال: ولا يكيفون، ولا يمثلون.

والتكييف والتمثيل في الناس أقل من التعطيل؛ فالوقوع في شبهة التعطيل، بدعوى التنزيه، أكثر من الوقوع في التمثيل والتكييف، بدعوى الإثبات؛ لأنه ظاهر الشناعة، والفطر السليمة، تستشنع تكييف الرب، وتمثيله بالمخلوقين؛ لأنهم يعتقدون بفطرهم أن الإلٰه الكامل لا يمكن أن يكون كالمخلوق الناقص؛ فلذلك يكون مذهب التمثيل مرفوضًا ببداهة العقول، أما التعطيل فإنه يسوَّغ باسم التنزيه، فيقع في حبائله كثير من الناس، والحق دومًا وسط بين طرفين، وعدل بين عوجين.

قوله: (**لأَنَّهُ سُبْحَانَهُ**): هذه الجمل التالية بمنزلة التعليل لما تقدم، من الجمل الخمس السابقة.

قوله: (**لَا سَمِيَّ لَهُ**): أي: لا أحد يساميه، ويضاهيه، ويستحق اسمه اللائق به، حتى لو اتفق اللفظ، فلا يلزم من ذلك اتفاق الحقيقة،

والدليل قوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، وهذا استفهام بمعنى النفي؛ لأن جوابه لا، وهو نفي مشبع بالإنكار على من اعتقد ذلك.

قوله: (وَلَا كُفْءَ لَهُ): أي: لا مكافئ له، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤].

قوله: (وَلَا نِدَّ لَهُ): الند هو النظير والمثيل، والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذه الثلاثة ألفاظ متقاربة.

قوله: (وَلَا يُقَاسُ بِخَلْقِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى): لأن من شرط صحة القياس اتفاق المقيس، والمقيس عليه في العلة، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، والدليل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، والقياس المنفي، هنا، هو قياس التمثيل وقياس الشمول، أما قياس الأَوْلى فإنه يُثبت في حقه سبحانه؛ قال ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ: (أَنَّ الْعِلْمَ الْإِلٰهِيَّ لَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ فِيهِ بِقِيَاسٍ تَمْثِيلِيٍّ يَسْتَوِي فِيهِ الْأَصْلُ وَالْفَرْعُ، وَلَا بِقِيَاسٍ شُمُولِيٍّ يَسْتَوِي أَفْرَادُهُ، فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُمَثَّلَ بِغَيْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَدْخُلَ هُوَ وَغَيْرُهُ تَحتَ قَضِيَّةٍ كُلِّيَّةٍ يَسْتَوِي أَفْرَادُهَا... وَلَكِنْ يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ قِيَاسُ الْأَوْلَى، سَوَاءً كَانَ تَمْثِيلًا أَوْ شُمُولًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]. مِثْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ لِلْمُمْكِنِ أَوْ لِلْمُحْدَثِ، لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، وَهُوَ مَا كَانَ كَمَالًا لِلْوُجُودِ غَيْرَ مُسْتَلْزِمٍ لِلْعَدَمِ بِوَجْهٍ، فَالْوَاجِبُ الْقَدِيمُ أَوْلَى بِهِ. وَكُلُّ كَمَالٍ لَا نَقْصَ فِيهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ، ثَبَتَ نَوْعُهُ لِلْمَخْلُوقِ وَالْمَرْبُوبِ الْمُدَبَّرِ، فَإِنَّمَا اسْتَفَادَهُ مِنْ خَالِقِهِ

وَرَبِّهِ وَمُدَبِّرِهِ، وَهُوَ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ. وَأَنَّ كُلَّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ فِي نَفْسِهِ، وَهُوَ مَا تَضَمَّنَ سَلْبَ هَذَا الْكَمَالِ، إِذَا وَجَبَ نَفْيُهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَالْمُمْكِنَاتِ وَالْمُحْدَثَاتِ: فَإِنَّهُ يَجِبُ نَفْيُهُ عَنِ الرَّبِّ تَعَالَى بِطَرِيقِ الْأَوْلَى)(١).

والمقصود: أنه ما من كمال إلا ولله منه المثل الأعلى؛ أي: الوصف الأعلى؛ فمثلًا: العلم، الحلم، القدرة، الحكمة، السمع، البصر، الحياة، هذه المعاني ثابتة لدى المخلوقين، وهي أيضًا ثابتة لله، لكن إثباتها لله تعالى إثبات مثلٍ أعلى؛ فالله الذي قال: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [الإنسان: ٢]، هو الذي قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، فهناك اشتراك في أصل الصفة، وهو السمع والبصر، لكن للمخلوق منه المثل الأدنى، وللخالق منه المثل الأعلى؛ فليس سمع كسمع، ولا بصر كبصر، مع وجود الاشتراك في أصل المعنى، فهذا هو قياس الأَوْلى، الذي كان يُثبته السلف، ويستعملونه في حِجاجِهم؛ يقولون: إذا كان للمخلوق كذا وكذا، من صفات الكمال، فالله أولى به؛ فكل كمال يكون للمخلوق فللَّه منه المثل الأعلى، سبحانه وبحمده، وواهب الكمال أولى بالكمال؛ فإذا كان الله وهب سمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وقدرة، وحياة، وغير ذلك؛ من الكمالات النسبية، فواهب الكمال النسبي له الكمال المطلق؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]؛ أي: البالغة في الحسن غايته.

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز: (١/ ٨٧ ـ ٨٨).

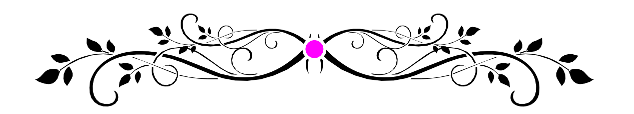
قوله: (فَإِنَّهُ سُبْحَانَهَ أَعْلَمُ بِنَفْسِهِ وَبِغَيْرِهِ): هذه جملة تعليلية أخرى؛ لأن العلم من شروط قبول الخبر؛ فما تقدم ذكره صادر عن علم، فكيف يأتي دعيٌّ في آخر الزمان، فيقول: يجوز على الله كذا، ويمتنع على الله كذا، ويصادم خبر الله، وخبر رسوله! قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قوله: (وَأَصْدَقُ قِيلًا): الصدق من شروط قبول الخبر؛ فخبره تعالى مطابق للواقع، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وهذا استفهام بمعنى النفي؛ أي: لا أحد، فما أخبر به سبحانه في كتابه فهو عين الحق؛ فليس لأحد أن يفتات على كلام الله، ويقول: ليس المراد بكذا كذا؛ بل المراد كذا، بناءً على مقدمات باطلة.

قوله: (وَأَحْسَنُ حَدِيثًا مِنْ خَلْقِهِ): البيان من شروط قبول الخبر، وكلامه تعالى غاية في البيان، فالقرآن موصوف بأنه: بيان، وتبيان، ومبين.

فهذه مسوغات قبول الخبر: العلم، والصدق، والبيان، كما أن أضدادها أسباب لرده، وهي: الجهل، والكذب، والفهاهة، وجميع أسباب قبول الخبر ثابت في حق الله تعالى، وحق نبيّنا ﷺ؛ فنبيّنا ﷺ أعلم الناس بربه، وأصدقهم كلامًا، وأوضحهم بيانًا، كما أنه أنصح الأمة للأمة؛ فأين تذهبون يا معشر المعطلة والمحرفين؟





تزكية الرسل وتكذيب مخالفيهم

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(ثُمَّ رُسُلُه صَادِقُونَ مُصَدَّقُون، بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصافات: ١٨٠ ـ ١٨٢]. فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ، وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ؛ لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ).

الشَّرح

هذا من حسن ترتيب المؤلف رحمه الله فإنه لما قرر وجوب قبول خبر الله، زكَّى الواسطة في التبليغ، وهم الرسل الكرام؛ من الملائكة والناس، الذين نزل عليهم الوحي، فأراد أن يوثّق هذه الحلقة، حتى لا يطعن طاعن في ثبوت الخبر.

قوله: (ثُمَّ رُسُلُه): الرسل جمع رسول، **وهم نوعان**:

النوع الأول: رسول بشري.

النوع الثاني: رسول ملكي.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، وقد زكَّى الله الرسول الملكي، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]، وزكَّى الرسول البشري، بقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ

قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحاقة: ٤٠ ـ ٤٢]، فنفى عنه الكهانة، والشعر، التي يُزخرف بها القول، وبيّن مصدره، بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحاقة: ٤٣].

قوله: (صَادِقُونَ): أي: فيما أخبروا به الناس.

قوله: (مُصَدَّقُون): فيما أُخبروا به من الله، وفي بعض النسخ (مصدوقون)؛ فالصدق يكتنفهم في التحمل والأداء، ففي هذا تزكية لرسل الله تعالى؛ فهم، صلوات الله وسلامه عليهم، قد بلّغوا الرسالة، وأدوا الأمانة، ونصحوا، فيما كُلفوا به من البلاغ.

ومن دلائل النبوة: أن الله تعالى يُقر النبي ﷺ على ما يتكلم به، وينسبه إليه؛ بل يؤيده، وينصره، وينقله من نصر إلى نصر، ومن هزيمة إلى نصر، ويكثر أتباعه، ويمكن لهم في الأرض، وهذا يدل على تصديقه له، ولو كان غير ذلك، لكان كما أخبر تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

قوله: (بِخِلَافِ الَّذِينَ يَقُولُونَ عَلَيْهِ مَا لَا يَعْلَمُونَ): القول على الله بغير علم من أعظم الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وهذا من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى؛ حتى جعله فوق الشرك؛ فالقول على الله بغير علم أعظم الذنوب.

والقائلون على الله بغير علم أصناف كثر:

الصنف الأول: الأفَّاكون الكذابون. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [النحل: ١٠٥].

الصنف الثاني: المنجمون، الذين يدعون الاستدلال بحركة الأجرام السماوية على الحوادث الأرضية.

الصنف الثالث: السحرة، الذين يفترون الكذب ويستعينون بالجن.

الصنف الرابع: الكهان، الذين يدَّعون الإخبار بالمغيبات والتنبؤ بالمستقبل.

الصنف الخامس: المتنبئون الكذابون، الذين يزعمون أنهم ينزل عليهم الوحي.

الصنف السادس: الرؤساء الجهال، الذين يفتون بغير علم، كما أخبر النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَمَاءِ، حتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا؛ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[(١)]، وهؤلاء إما أن يكون باعثهم الجهل، وإما أن يكونَ باعثهم الهوى، وحب الرئاسة؛ فمنهم من يقول بلا علم، ومنهم من يعلم، ولكن يحمله الهوى على القول على الله بغير علم.

الصنف السابع: المتهوكون، الذين يحرفون الكلم عن مواضعه في باب العقائد، وهم المتكلمون، الذين نَحَّو طريقة أهل السُّنَّة والجماعة القائمة في الاعتماد على الوحيين؛ الكتاب والسُّنَّة، وسلكوا مسلك المناطقة والفلاسفة؛ فإن المنطق والفلسفة علمان كانا موجودين في الأمم التي قبلنا، لا سيما اليونان، فرتبوا مقدمات منطقية ليتوصلوا بها إلى النتائج والحقائق؛ فتلقاهما المتكلمون من الجهمية والمعتزلة، ومن تأثر بهم من الصفاتية وقالوا: العقل مقدم على النقل، النقل تابع للعقل،

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٠٠)، ومسلم: رقم (٢٦٧٣).

العقل سيد، والنقل مُسود، وقلبوا القضية؛ فلم يستنيروا بنور الله؛ بل حكَّموا عقولهم في المسائل العقدية؛ فهؤلاء يَدخلون، أيضًا، في جملة الذين يقولون على الله ما لا يعلمون؛ تجدهم يقولون: ليس المراد بكذا كذا؛ بل المراد كذا؛ بلا أثارة من علم، ولو سألت أحدًا من المتكلمين: من أين لك أن استوى بمعنى استولى؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة أو النعمة؟ هل تروي في ذلك حديثًا عن النبي ﷺ، أو أثرًا عن صاحب، أو عن تابع؟ لم تجد شيئًا! ولو كان عندهم شيء ما ادخروه، لكنهم يقولون: نحن نجتهد في البحث عن المعاني اللائقة بالله!

سبحان الله!

أأنتم أعلم بالله من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أصدق قيلًا من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أحسن حديثًا من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أغير على الله من الله، ومن رسول الله؟!

أأنتم أنصح للناس من الله، ومن رسول الله؟!

هذا المسلك ضرب من القول على الله بغير علم؛ فلهذا برأ المصنف رحمه الله أهل السُّنَّة والجماعة منه، كما برأ الله رسله من القول عليه بغير علم.

قوله: (﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ﴾): سبحان: اسم مصدر بمعنى: تنزيهًا لله.

قوله: (﴿رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ﴾): هذا من إضافة الموصوف إلى الصفة، وأصل معنى العِزَّة: الشِّدة، تقول العرب: أرض عَزَاز؛ أي: شديدة، وهي الأرض الصلبة القوية المتماسكة، والله تعالى عزيز في ذاته، وفي

أسمائه وفي صفاته؛ فله العزة المطلقة ـ سبحانه ـ؛ عزة الامتناع، وعزة الغلبة، وعزة القدرة.

قوله: (﴿عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠﴾): أي: عما يصفه القائلون عليه بغير علم.

قوله: (﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾): هذا دعاء بالسلامة لرُسل الله تعالى؛ السلامة لذواتهم، والسلامة لدينهم من أن يخالطه وحي الشياطين.

قوله: (﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾): ابتدأ بالتنزيه، وختم بالتحميد؛ فجمعت الآية التنزيه والتحميد، وفي الحديث، «**وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ، أَوْ تَمْلأُ، مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**»[(١)].

قوله: (**فَسَبَّحَ نَفْسَهُ عَمَّا وَصَفَهُ بِهِ الْمُخَالِفُونَ لِلرُّسُلِ**): المخالفون للرسل تارة يصفونه بصفات العيب والنقص ومماثلة المخلوقين، أو يعطِّلونه عما ينبغي له من الأسماء الحسنى، والصفات العلى، أما رسل الله تعالى فقد سلمت مقالاتهم من كل شائبة نقصٍ، أو عيبٍ، أو تمثيلٍ، أو تعطيلٍ، في حق الله تعالى.

قوله: (**وَسَلَّمَ عَلَى الْمُرْسَلِينَ**): لقوله: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ١٨١﴾ [الصافات: ١٨١]. والسلامُ إما حكم لهم بالسلامة، أو تحية لهم.

قوله: (**لِسَلَامَةِ مَا قَالُوهُ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ**): اللام للتعليل، والجزاء من جنس العمل.

بقي في هذا المقام أن نضيف أمرًا؛ فنقول: وأصحاب رسول الله ﷺ صادقون مصدقون؛ صادقون فيما أخبروا به من بعدهم، مصدقون فيما

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٣).

أخبرهم به نبيّنا ﷺ؛ قال المصنف رحمه الله في الفتوى الحموية: (ثم من المحال أيضًا أن تكون القرون الفاضلة؛ القرن الذي بعث فيهم رسول الله ﷺ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، كانوا غير عالمين وغير قائلين في هذا الباب بالحق المبين؛ لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق وقول خلاف الصدق. وكلاهما ممتنع.

أما الأول، فلأن من في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم، أو نهمة في العبادة، يكون البحث عن هذا الباب والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه، أكبر مقاصده وأعظم مطالبه، أعني: بيان ما ينبغي اعتقاده، لا معرفة كيفية الرب وصفاته، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر.

وهذا أمر معلوم بالفطرة الوجدية، فكيف يتصور مع قيام هذا المقتضي الذي هو من أقوى المقتضِيات أن يتخلف عنه مقتضاه في أولئك السادة في مجموع عصورهم! هذا لا يكاد يقع في أبلد الخلق، وأشدهم إعراضًا عن الله، وأعظمهم إكبابًا على طلب الدنيا، والغفلة عن ذكر الله، فكيف يقع من أولئك؟!

وأما كونهم كانوا معتقدين فيه غير الحق أو قائليه، فهذا لا يعتقده مسلم ولا عاقل عرف حال القوم. ثم الكلام عنهم في هذا الباب أكثر من أن يمكن سطره في هذه الفتوى أو أضعافها، يعرف ذلك من طلبه وتتبعه)[١].

وقد أثنى عليهم الله في كتابه، وشهد لهم نبيّه ﷺ بأنهم خير القرون، فقال: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي**»[٢]؛ فيمتنع، ويستحيل استحالة تامة في

(١) الفتوى الحموية الكبرى: (١٨٢ ـ ١٨٥).

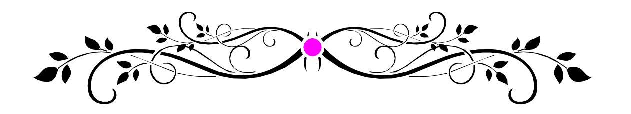
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: رقم (٢٥٣٣).

حق الصحابة، أن يكونوا جاهلين بالحق، أو ساكتين عن الحق، أو قائلين بالباطل؛ فتعين أن يكونوا قائلين بالحق، وهذا هو الواقع؛ فإن أصحاب نبيّنا ﷺ قد تحملوا هذا الدين، ونقلوه إلى من بعدهم، ولم يكتموا منه حرفًا واحدًا؛ كما في حديث مُعَاذٍ رضي الله عنه، قَالَ: (كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا**» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟ قَالَ: «**لَا تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا**»(١)، (وَأَخْبَرَ بِهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا)(٢).

وإذا كان الأمر كذلك، فناتجه أن باب العلم بالله، وأسمائه وصفاته، أوثق أبواب الدين إحكامًا، وإتقانًا، وبيانًا من عند الله، ومن عند رسول الله ﷺ، ومن عند صحابة رسول الله ﷺ، حتى وصل إلينا.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٥٦)، ومسلم: رقم (٣٠).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٢٨)، ومسلم: رقم (٣٢).



الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من القرآن الكريم

الجمع بين النفي والإثبات في صفات الله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَهُوَ سُبْحَانَهُ قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ. فَلَا عُدُولَ لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ؛ فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ).

الشَّرْح

أشار المصنف رَحِمَهُ الله إلى ضابطٍ، أو قاعدةٍ من قواعد الأسماء والصفات، وهو أن الله تعرف إلى عباده بالنفي والإثبات؛ الإثبات أمرٌ وجودي، والنفي أمرٌ عدمي.

وأي قضية، من القضايا، لا تتبين إلا بإثبات حقيقتها، ونفي ما يضادها، وهذا جارٍ في كل شيء؛ فإنك لا تتمكن من معرفة شيء من الأشياء إلا بالجمع بين النفي والإثبات، فلو أنك، مثلًا، أردت أن تشتري سلعةً ما؛ كجهاز حاسب، أو جوال، أو غير ذلك، فإنك تُخبر عن صفاته ومميزاته، فيقال لك: يمتاز بكذا وكذا، وليس بكذا وكذا، ولو تقدم إنسانٌ إلى وظيفة، أو تقدم خاطب لامرأة، أو نحو ذلك، جرى

السؤال عن الصفات الوجودية، وعن الصفات العدمية؛ فيقال مثلًا: هو كذا وكذا، من الصفات الإيجابية، وليس بكذا وكذا، من الصفات السلبية؛ فلا تكتمل المعرفة إلا بالجمع بين النفي والإثبات.

فلما علم الله تعالى من حال عباده أنه لا يحصل لهم العلم إلا بالجمع بين الأمرين، تعرف إليهم بالنفي والإثبات؛ فتارةً يثبت لنفسه أسماء الكمال، وصفات الجلال، وتارةً ينزه نفسه عن صفات النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين، وتارةً يجمع بين الأسلوبين في نصٍّ واحدٍ، كما سيتبين في الأمثلة.

قوله: (قَدْ جَمَعَ فِيما وَصَفَ وَسَمَّى بِهِ نَفْسَهُ بينَ النَّفْيِ وَالإِثْبَاتِ): الواقع أن الأسماء كلها ثبوتية، وليس هناك أسماء منفية، أما الصفات فهي التي تنقسم إلى صفاتٍ ثبوتية، وصفاتٍ منفية؛ فمن الصفات الثبوتية: العلم والقدرة، والسمع والبصر، ومن الصفات المنفية: أضدادها؛ كالجهل، والعجز، والصمم، والعمى؛ ففي العبارة شيءٌ من إجمال؛ فالنفي والإثبات يتعلقان بالصفات، أما الأسماء فكلها ثبوتية.

قوله: (فَلَا عُدُولَ): أي: لا ميل.

قوله: (لأَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَمَّا جَاءَ بِهِ الْمُرْسَلُونَ): لأنهم على خطاهم يسيرون؛ قال تعالى بعد ذكرهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].

قوله: (فَإِنَّهُ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ): المشار إليه ما جاء به المرسلون، والصراط: هو الطريق الواضح، جمع بين الوضوح والاستقامة، وهو الذي ندعو الله تعالى في كل ركعة أن يهدينا إليه، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ [الفاتحة: ٦]. وهو الصراط المعنوي، ومن استقام في

الدنيا على الصراط المعنوي، كان حقيقًا وحريًّا يوم القيامة أن يستقيم على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم، ومن كان في هذه الحياة الدنيا سريعًا مبادرًا للخيرات في الصراط المعنوي، كان يوم القيامة حقيقًا وحريًّا أن يكون سريعًا على الصراط الحسي، الذي يُضرب على متن جهنم؛ سواءً بسواء.

والصراط قد يضاف إلى الله، وقد يضاف إلى خلقه، فيقال: ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣]، باعتبار أن الله هو الذي نصبه، وقد يضاف إلى سالكيه كقوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، وقد عرّفه هنا بالثاني.

قوله: (صِرَاطُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ والصَالِحِينَ): هؤلاء هم طبقات المنعم عليهم، الذين فصّلهم الله تعالى بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩]، وهو المعنى الذي قصده النبي ﷺ، عند قبض روحه، فكان يشير بيده ويقول: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأَعْلَى**»[1]، وهم:

١ ـ **النَّبِيّون**: أعلى هذه الطبقات، والنبوة منحة ربانية واصطفاء إلٰهي، لا تُنال بالكسب، ولا بالرياضة، ولا بالمجاهدة؛ وإنما هي محض اصطفاء من الله: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، كما تقدم. وقد خُتمت النبوة ببعثة نبيّنا محمد ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٤٦٣)، ومسلم: رقم (٢٤٤٤).

وأنبياء الله يتفاضلون: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فأفضل الأنبياء والمرسلين: أولو العزم من الرسل، وهم، على الراجح، الخمسة الذين ذكرهم الله مجتمعين، في موضعين في كتابه: في سورة الأحزاب، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾ [الأحزاب: ٧]، وفي سورة الشورى، قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى: ١٣].

وأفضل هؤلاء الخمسة محمد ﷺ؛ لقوله: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ**»[(١)]، يليه في الرتبة إبراهيم الخليل، عليه الصلاة والسلام، وكلاهما خليلان للرحمٰن، ثم يليهما في الرتبة موسى عليه السلام ثم اُختلف في نوحٍ وعيسى؛ أيهما يُقدم.

قال السيوطي[(٢)]:

وخُص من بينهم محمدًا	بأنه خاتمهم والمبتدا
وبعثه للثقلين أجمعين	وفضله على جميع العالمين
يليه إبراهيم ثم موسى	ونوح والروح الكريم عيسى
وهم أولو العزم فمرسلو الأنام	فالأنبياء فالملائك الكرام

فإن قال قائل: فما موقفنا من النصوص الواردة في النهي عن المفاضلة والتخيير بين الأنبياء؛ كقول النبي ﷺ: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ**»[(٣)]، وقوله: «**مَا يَنْبَغِي لِعَبْدٍ أَنْ يَقُولَ إِنِّي خَيْرٌ مِنْ**

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٣٦١٥). (٢) الكوكب الساطع.
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٢٤١٢)، ومسلم: رقم (٢٣٧٤).

يُونُسَ بْنِ مَتَّى»[(١)]؟

فالجواب: إن هذا النهي فيما إذا وقعت المفاضلة على سبيل المفاخرة المجردة، أو على سبيل التنقص، والعيب للطرف الآخر، أما إذا كانت على سبيل الإخبار، وحكاية الحال؛ فلا شك أن الله قد فاضل بين أنبيائه ورسله.

٢ ـ **الصِّدِّيقُون**: جمع صدِّيق، وهي صيغة مبالغة، وهو الذي بلغ الغاية في التصديق؛ لأن التصديق درجات، ليس التصديق، كما تزعم المرجئة، شيئًا واحدًا، إما أن يُوجد كله، أو يُعدَم كله! فالناس ليسوا سواء في التصديق؛ من الناس مَن تصديقه ثابت كالجبال الراسيات، الراسخات، ومنهم من تصديقه في مهب الريح؛ لو عرضت له فتنة لعصفت به؛ قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾ [الحج: ١١]، وقال: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣]. ولهذا سُمي أبو بكر رضي الله عنه صدِّيقًا؛ لقوة تصديقه، ويُقال: إنه سمي بذلك لما وقع حادث الإسراء والمعراج، فجاءت قريش إليه، وقالت: (هَلْ لَكَ إِلَى صَاحِبِكِ يَزْعُمُ أَنَّهُ أُسْرِيَ بِهِ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ قَالَ: أَوَقَالَ ذَلِكَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: لَئِنْ قَالَ ذَلِكَ لَقَدْ صَدَقَ، قَالُوا: أَوَ تُصَدِّقُهُ أَنَّهُ ذَهَبَ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَجَاءَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، إِنِّي لَأُصَدِّقُهُ فِي مَا هُوَ أَبْعَدُ مِنْ ذَلِكَ أُصَدِّقُهُ فِي خَبَرِ السَّمَاءِ فِي غُدْوَةٍ أَوْ رَوْحَةٍ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه)[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٣٧٧)، ومسلم: رقم (٢٣٧٦).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك: رقم (٤٤٥٨)، والبيهقي في دلائل النبوة: (٢/ ٣٦٠)، =

ومما يدل على صدِّيقيته، وصدِّيقية عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ، حدث مرةً فقال: «**بَيْنَا رَجُلٌ يَسُوقُ بَقَرَةً إِذْ رَكِبَهَا فَضَرَبَهَا، فَقَالَتْ: إِنَّا لَمْ نُخْلَقْ لِهَذَا، إِنَّمَا خُلِقْنَا لِلْحَرْثِ**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ بَقَرَةٌ تَكَلَّمُ، فَقَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا، أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَبَيْنَمَا رَجُلٌ فِي غَنَمِهِ إِذْ عَدَا الذِّئْبُ، فَذَهَبَ مِنْهَا بِشَاةٍ، فَطَلَبَ حَتَّى كَأَنَّهُ اسْتَنْقَذَهَا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ الذِّئْبُ هَذَا: اسْتَنْقَذْتَهَا مِنِّي، فَمَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لَا رَاعِيَ لَهَا غَيْرِي**» فَقَالَ النَّاسُ: سُبْحَانَ اللهِ ذِئْبٌ يَتَكَلَّمُ، قَالَ: «**فَإِنِّي أُومِنُ بِهَذَا أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ**»[1].

فالتصديق درجات ومراتب ومنازل؛ يتفاوت الناس فيه تفاوتًا كبيرًا، فلهذا قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، فإذا كان العبد قوي الإيمان، راسخ التصديق، ثبته الله عند سؤال الملكين له في قبره: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيّك؟ فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد. وأما الكافر، أو المرتاب، أو الشاك، فيضطرب، ويقول: هاه، هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته؛ كان قد سمع بإذنيه، لكنه لم يتغلغل ويتجذر في قلبه.

٣ ـ الشُّهَدَاءُ: جمع شهيد، والشهيد من قُتل في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العليا، ولما كان هذا أمرًا خفيًّا؛ لا يطلع عليه إلا رب البريات، سبحانه وبحمده، نهى النبي ﷺ أن يقال: فلانٌ شهيد؛ لأننا لا

= وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره: رقم (١٥٨٣) مرسلًا.
قال الألباني، في السلسلة الصحيحة: بعد ذكر رواية مرسلة عن أبي سلمة، وهذا سند صحيح مرسل، وشاهد قوي لموصول عائشة (١/ ٦١٦).

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٧١).

نعلم عن خبيئة قلبه؛ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَاللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، وَالرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ**»[(١)]، وعَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ حَمِيَّةً، وَيُقَاتِلُ شَجَاعَةً، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً، فَأَيُّ ذَلِكَ فِي سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[(٢)].

ولا شك أن الجود بالنفس، أقصى غاية الجود، فإذا كان الإنسان يجود بنفسه لله، فهذه مرتبةٌ عليا، تدل على كمال إيمان صاحبها، وعلو مرتبته؛ فلهذا تكاثرت الأحاديث في فضل الشهادة في سبيل الله، وسميت «شهادة»؛ لأنه لما جاد بروحه، وعفَّر وجهه بالتراب لإعلاء كلمة الله، كان شهادة عملية بأن دين الله هو الحق.

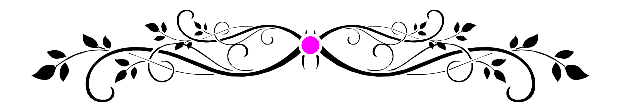
٤ ـ **الصَالِحُون**: جمع صالح، وهو الممتثل لأمر الله المجتنب لنهيه.

فعلى العبد المؤمن أن يختار لنفسه، ويطمح إلى إحدى المراتب الثلاث: الصديقية، أو الشهادة، أو الصلاح؛ هذه مراتب المنعم عليهم، ويسأل الله تعالى أن يلحقه بهم.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٠٣)، وترجم البخاري: (بَابُ لَا يَقُولُ فُلَانٌ شَهِيدٌ)، (٤/ ٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٢٣)، ومسلم: رقم (١٩٠٤).



الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى في سورة الإخلاص

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ مَا وَصَفَ اللهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الإِخْلَاصِ الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص]).

الشَّرْح

قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هِذِهِ الْجُمْلَةِ): المشار إليه: الجمع بين النفي والإثبات في وصف الله تعالى.

قوله: (سُورَةِ الإِخْلَاصِ): سميت بهذا الاسم؛ لأنها أخلصت في صفة الرحمٰن، وقيل: لأنها تخلص قارئها من الشرك؛ فإذا قرأ الإنسان سورة الإخلاص بيقين، تجرد قلبه من غير الله. ولهذا أرشد النبي ﷺ، من عرض له شيء من الشبهات ووساوس الشيطان أن يقرأها؛ فعن أبي هريرة، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِك شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ**»(١)، وفي رواية: «**فإذا قالوا ذلك فقولوا: اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ**

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٢٧٦)، ومسلم: رقم (١٣٤)، واللفظ له.

لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ثُمَّ لِيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

فإذا طاف بنفسك طائف من الشبهات المتعلقة بذات الباري ﷻ فافزع إلى هذه السورة، فإنها تخلص قلبك من هذه الخطرات الشيطانية.

قوله: (**الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**): عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[(٢)]، وقال في حديثٍ آخر: «**احْشُدُوا، فَإِنِّي سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[(٣)]، فاجتمع الناس، ظنوا أن النبي ﷺ، سيتلو عليهم سورًا طوالًا، فقرأ عليهم سورة الإخلاص، وقال: «**إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**».

ووجه كونها تعدل ثلث القرآن: أن القرآن العظيم، إما عقائد، أو أحكام، أو أخبار؛ فكانت سورة الإخلاص تتعلق بالثلث الأول؛ بل هي أساسه وأصله، فلهذا كانت تعدل ثلث القرآن؛ فجميع ما في القرآن من عقائد يؤول إليها؛ لأن مرجعه التوحيد العلمي.

وهي تعدل ثلث القرآن في الأجر والثواب، لا في الإجزاء، فلو أن إنسانًا نذر أن يختم القرآن، فقال: أقرأ سورة الإخلاص ثلاث مرات، فأكون وفيت بنذري؛ فيقال: كلا، هي لا تعدله في الإجزاء؛ لا يجزئك إلا أن تقرأ ما بين دفتي المصحف؛ لكنها تعدله في الثواب والأجر، كما أخبر النبي ﷺ، وهكذا أمثالها من النصوص؛ كقول النبي ﷺ: «**مَنْ**

---

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٢٢)، والنسائي في الكبرى: رقم (١٠٤٢٢)، وصححه شعيب الأرنؤوط.

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٥٠١٣).

(٣) أخرجه مسلم: رقم (٨١٢).

قَالَ: **لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، عَشْرَ مِرَارٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**»[(١)]، فلو قال من عليه كفارة قتل خطأ، وكفارة ظهار، وكفارة يمين، وكفارة جماع في نهار رمضان: أقولها عشر مرات، وتبرأ ذمتي؛ قيل: لا تجزؤك! فإنها تعدلها في الأجر، لا في الإجزاء؛ وعلى هذا قس.

قوله: (﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾): فيها إثبات وحدانية الله، فالله أحد، وإثبات أن (الأحد) من الأسماء الحسنى، فيجوز أن يُعبّد به، فنقول: عبد الأحد؛ وقد ورد في السُّنَّة معرفًا بالألف واللام، فعن عَبْدُ اللهِ بْنُ بُرَيْدَةَ الأسلمي، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ، ﷺ، سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ أَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ، لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ، وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ»، فَقَالَ: «**لَقَدْ سَأَلْتَ اللهَ بِالِاسْمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[(٢)]، وعن مِحْجَن بْنَ الْأَدْرَعِ، قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، الْمَسْجِدَ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ قَضَى صَلَاتَهُ، وَهُوَ يَتَشَهَّدُ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ يَا اَللهُ الْأَحَدُ الصَّمَدُ، الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ، أَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي، إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، قَالَ: فَقَالَ: «**قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**» ثَلَاثًا)[(٣)].

قوله: (﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾): فيها إثبات صمدية الله ﷻ وقد قيل في معناها أقوال، لا تعارض بينها:

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٩٣).

(٢) أخرجه أبو داود: رقم (١٤٩٣)، والترمذي: رقم (٣٤٧٥)، وابن ماجه: رقم (٣٨٥٧)، وصححه الألباني.

(٣) أخرجه أبو داود: رقم (٩٨٥)، والنسائي: رقم (١٣٠١)، وأحمد: رقم (١٨٩٧٤)، وصححه الألباني.

القول الأول: الصمد: من تصمد إليه الخلائق بحاجاتها؛ بمعنى: أنها تتوجه إليه بدعائها ومسألتها؛ كحال الناس يوم عرفة؛ الجميع رافعٌ يديه يسأل ويتضرع؛ يسأل الله تعالى طلبته، والله صمدٌ؛ يسمع جميع الدعوات، على اختلاف اللغات واللهجات، لمختلف الحاجات، ويجيب، سبحانه وبحمده.

القول الثاني: الذي لا جوف له؛ لأن الصمد بمعنى: الصمت، ووجه ذلك: أن الله، سبحانه وبحمده، غنيٌّ عما سواه، أما الذي له جوف؛ ففيه داخل ومنه خارج، فيكون غير مستغنٍ. أما الرب تعالى فإنه صمد؛ لا يحتاج إلى شيء يدخل، وشيء يخرج؛ لكمال غناه، بخلاف الآدميين؛ فإنهم يحتاجون إلى أفواهٍ يدخل منها الطعام والشراب، وإلى أدبار تخرج منها الفضلات؛ لكمال افتقارهم، لهذا ورد في الحديث: «**لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ**»[1].

القول الثالث: السيد الشريف، الذي بلغ الغاية في سؤدده وشرفه.

ولا تعارض بين هذه الأقوال، كما أسلفنا، فالله تعالى هو السيد الشريف، الذي تصمد إليه الخلائق بحاجاتها، وهو غنيٌّ عما سواه، سبحانه وبحمده.

قوله: (﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾): فيها نفي الولادة من الجهتين؛ من أعلى ومن أدنى؛ أي: نفى التسلسل من جهة الأبوة، ومن جهة البنوة؛ فهو سبحانه لم يلد، فلا يتسلسل منه مولود، كما ادعى

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦١١).

اليهود بقولهم: عزير ابن الله، والنصارى بقولهم: المسيح ابن الله، ومشركو العرب بقولهم: الملائكة بنات الله؛ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا وهمٌ، ويطرأ على بعض العقول، فتظن أن من كمال الله أن يكون له ولد؛ قياسًا على المخلوقين، والأمر ليس كذلك؛ فالمخلوق يحتاج إلى الولد؛ لأنه في حال كبره وضعفه يحتاج إلى من يعينه، أما الرب، سبحانه، فهو غنيٌّ عما سواه؛ فلا يحتاج إلى الولد، وأيضًا، فإن من شأن الولد أن يكون شبيهًا بأبيه، والله تعالى لا ند له، ولا نظير، ولا مثيل؛ قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]؛ فلو كان له ـ وحاشاه ـ ولد، لكان من جنس أبيه، فلكمال وحدانيته نزه الله نفسه عن الولد؛ قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الفرقان: ٢]، ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وعاب الله تعالى على مدَّعي ذلك فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠﴾ [التوبة: ٣٠]، وذلك أن الأمم الكافرة؛ من الهندوس، والبوذيين، واليونان، والرومان، وغيرهم، قالوا بالبنوة؛ فضاهاهم كفرة أهل الكتاب.

كما أنه سبحانه «لم يولد»؛ فليس متسلسلًا عن غيره، ولا أعلم قائلًا بأن الله تعالى متولدٌ عن كذا وكذا، لكن ذلك في الآية لاستيفاء القسمة، ونفي التسلسل من الجهتين، لكي لا يبقى باقيةً واحتمالًا يتنافى مع وحدانية الله تعالى.

قوله: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾): فيها نفي المكافئ والعدل عن الله، و(أَحَدٌ) نكرة في سياق النفي فأفادت العموم.

فقد جمعت هذه السورة العظيمة بين النفي والإثبات في صفة الرب تعالى؛ فآيتان في الإثبات، وآيتان في النفي، وتضمنت تعظيم الرب، وتنزيهه، والتعريف به؛ فينبغي الإكثار من تلاوتها، وقد ورد فيها فضائل خاصة، مبسوطة في كتب التفسير، والسُّنَّة.



الجمع بين النفي والإثبات في وصفه تعالى في آية الكرسي

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَم آيَةٍ فِي كِتابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَاۚ﴾؛ أي: لا يكرثه ولا يثقله، ولهذا كان من قرأ هذه الآية في ليلةٍ، لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح).

الشَّرْح

قوله: (وما وصف به نفسه): الواو عاطفة على قوله: وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص.

قوله: (في أعظم آية في كتابه): في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ، سأل أُبي بن كعب رضي الله عنه وهو أقرأ الصحابة للقرآن، فقال له: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟**» قَالَ: قُلْتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ: «**وَاللهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ**»(١)، يعني: هنيئًا لك العلم أبا المنذر.

وهذه الآية العظيمة مكونة من عشر جمل، تتراوح بين النفي والإثبات.

قوله: (﴿ٱللَّهُ﴾): الله هو الاسم الأعظم، الذي تؤول إليه جميع الأسماء، وهو أعرف المعارف، وقد تقدم بيان معناه، واشتقاقه.

قوله: (﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾): نفيٌ وإثبات؛ (فلا إلٰه) نفي الشريك عن الله تعالى؛ (إلا الله) إثبات الألوهية لله تعالى، فقد نفى الله تعالى كل آلهةٍ سواه، وأثبت الألوهية له وحده؛ فهذه الجملة متضمنة للجمع بين النفي والإثبات.

قوله: (﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾): إثبات اسمين كريمين، عظيمين، من أسماء الله الحسنى:

(**الحي**): من له الحياة التامة الكاملة، التي لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء، وقد يطلق اسم الحي على المخلوق من الآدميين، والحيوانات، والنباتات؛ كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ [يونس: ٣١]، لكن فرقٌ بين حياة وحياة؛ فحياة المخلوق مسبوقة بعدم؛ قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩﴾ [مريم: ٩]، ويلحقها فناء؛ قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٨﴾ [القصص: ٨٨]، وهو ينادي يوم القيامة: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٦]، فلا يجيبه أحد، فيجيب الجبار نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ۝١٦﴾ [غافر: ١٦]. أما حياة الربِّ، سبحانه، فهي حياةٌ

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٨١٠).

كاملةٌ، تامةٌ، موصوفةٌ بالسمع، والبصر، والعلم، والكلام، والفعل، والقدرة؛ غير مسبوقة بعدم، ولا يلحقها فناء.

(القيوم): أي: القائم بنفسه، المقيم لغيره، الغنيُّ عما سواه؛ فهو لا يستكثر بخلقه من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة، سبحانه وبحمده، ولا قيام لغيره إلا به؛ فالعرش، فما دونه، لا قيام لها إلا بالله؛ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١].

وقد ورد هذان الاسمان مقترنين في ثلاثة مواضع في القرآن:

الموضع الأول: آية الكرسي.

الموضع الثاني: مستهل سورة آل عمران: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢﴾ [آل عمران: ١، ٢].

الموضع الثالث: في سورة طه: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

قال بعض أهل العلم: إن هذين الاسمين هما اسم الله الأعظم، الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى؛ عَنْ أَنَس قَالَ: (كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي الْحَلْقَةِ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي. فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ جَلَسَ وَتَشَهَّدَ، ثُمَّ دَعَا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنْتَ، الْمَنَّانُ، بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ، إِنِّي أَسْأَلُكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَتَدْرُونَ بِمَا دَعَا؟**»، قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَقَدْ دَعَا اللهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ، وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى**»)[١].

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٢٦١١)، وأبو داود: رقم (١٤٩٥)، والترمذي: رقم (٣٥٤٤)، والنسائي: رقم (١٣٠٠)، وصححه الألباني.

وقيل: إن سبب كونهما اسم الله الأعظم، أنهما دالان على مجموع الصفات الذاتية، والفعلية؛ فاسمه ﴿ٱلْحَيُّ﴾ يدل على اتصافه بالصفات الذاتية الملازمة لذاته، سبحانه؛ فحياته كاملة؛ فيها جميع الصفات الحياتية؛ من السمع، والبصر، والإرادة، والعلم، والقدرة، والكلام، وغير ذلك، واسمه ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ يدل على صفاته الفعلية؛ فهو سبحانه الفعال، الخلاق، الرزاق؛ فاجتماع هذين الاسمين يدل على كمال الله تعالى في أسمائه، وصفاته؛ الذاتية، والفعلية.

قوله: (﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾): نفى الله تعالى عن نفسه وصفين:

السِّنَة: وهي النعاس، وهو مقدمة النوم.

والنوم: وهو ما يكون معه غياب الوعي والإدراك.

فالله تعالى قد نزه نفسه عن النوم، ومقدماته؛ قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ**»(١)؛ لأن النوم ناتج عن ضعف؛ فمهما أرِق الإنسان، لا بد أن ينام؛ لا بد أن يتهاوى بدنه، ويضعف ذهنه؛ فيخلد إلى الراحة، شاء أم أبى، لكن الربَّ ﷻ منزهٌ عن هذا الضعف.

قوله: (﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾): تضمنت هذه الجملة إثبات الملك المطلق لله، لكل ما في السماوات، وما في الأرض، وكل ملك أضيف إلى غيره فهو ملك نسبي، محدود مؤقت؛ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠]، وقال: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٧٩).

قوله: (﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾): هذا الاستفهام يراد به النفي؛ أي: لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه؛ فتضمنت هذه الجملة نفي الشفاعة عنده إلا بإذنه؛ فلا بد في الشفاعة المثبتة من إذن الله للشافع، كما في هذه الجملة، ورضاه عن المشفوع له؛ المذكور في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقد جمع الله بين الشرطين في قوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِى شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

فهذا معنى قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ [الزمر: ٤٤]؛ فالشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند ملوك الدنيا؛ الشفاعة عند ملوك الدنيا تقع إما رغبةً، أو رهبة؛ إما لكون المشفوع عنده يريد أن يستميل الشافع، ويتخذ عنده يدًا، أو ليدفع أذاه وسخطه، أما الله ﷻ فغنيٌّ عن خلقه، لا يفتقر إلى موالاة أحد، ولا يستدفع شر أحد، كما قال سبحانه وبحمده: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدًا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ﴾ [الإسراء: ١١١].

قوله: (﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾): إثبات كمال العلم لله؛ أي: ما استقبله الناس وما استدبروه، وقيل بالعكس، والمقصود: أن علم الله تعالى محيط بكل شيء؛ فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون؛ بل وما لم يكن كيف لو كان يكون.

قوله: (﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىۡءٍ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾): هذه جملة نفي، نفى أن ينال أحدٌ من علمه إلا بالقدر الذي يأذن به، كما في قصة موسى مع الخضر، قال النبي ﷺ: «**فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ البَحْرِ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ كَلَّمُوهُمْ أَنْ يَحْمِلُوهُمْ، فَعَرَفُوا الخَضِرَ فَحَمَلُوهُ بِغَيْرِ نَوْلٍ، فَلَمَّا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ جَاءَ عُصْفُورٌ، فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَنَقَرَ فِي**

البَحْرِ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ، قَالَ لَهُ الخَضِرُ: يَا مُوسَى مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِثْلَ مَا نَقَصَ هَذَا العُصْفُورُ بِمِنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ»(١) - تبارك الله! قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥]؛ وتأسف حين تسمع بعض المتهوكين السفهاء يقول: تمكن العلم الآن من استكشاف كل شيء! فكل هذه العلوم والمكتشفات وأضعافها ليست في علم الله إلا كنقطة من بحر؛ فلا يذهب بك الوهل إلى أن هذا كان قليلًا فيما مضى، وأما الآن فهو كثيرٌ!

قوله: (﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾): تضمنت إثبات الكرسي، وقد فسره ابن عباس رضي الله عنهما بأنه موضع القدمين، ومثل هذا لا يقوله الصحابي إلا عن توقيف، فله حكم المرفوع، فيكون تلقاه عن رسول الله ﷺ، وقد جاء في حديث: «**مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ**»(٢).

قوله: (﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾): تضمنت نفي العجز والضعف عن الله تعالى، وقد فسرها المصنف **بقوله:** (**لَا يُكْرِثُهُ وَلَا يُثْقِلُهُ**)؛ فقد يتوهم متوهم أن هذا مدعاة للتعب والكلال؛ فنفى الله عن نفسه ذلك؛ كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ [ق: ٣٨]، خلافًا لما ادعته يهود (في العهد القديم)، في (سفر التكوين)، إن الله تعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام، واستراح في اليوم السابع؛ تعالى الله عما يقولون.

قوله: (﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾): في هذه الجملة إثبات اسمين عظيمين:

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٠١)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٣٨٠).
(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه: رقم (٣٦١).

(**العلي**): فله العلو المطلق، **والعلو ثلاثة أنواع**:

النوع الأول: **علو الذات**: وهو أن الله تعالى بذاته فوق سماواته، مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيءٌ منه، ولا يجوز أن يعتقد أحد أن الله في كل مكان؛ كالهواء والنور؛ كما يقول بعض الناس: ربنا في كل مكان! هذا غير صحيح؛ بل علمه في كل مكان، أما هو بذاته، سبحانه وبحمده، فمنزهٌ عن مخالطة خلقه، لا يمكن أن يحويه شيءٌ من مخلوقاته؛ بل له العلو المطلق ﷻ في ذاته، وهو على علوه قريب، يعلم، ويسمع، ويرى، ويدبر الأمر، ويكشف الضر، إلى غير ذلك من صفات ربوبيته، وسيأتي له مزيد بيان في موضعه.

النوع الثاني: **علو القدر**: والمقصود به: كمال صفاته، فكل وصف كمال فهو مُستحقٌّ لله؛ ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ [الروم: ٢٧].

النوع الثالث: **علو القهر**: فقد خضع له كل شيء؛ قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]، فقد قهر جميع مخلوقاته، فلا شيء يخرج عن ملكه، وهذان النوعان الأخيران لم ينازع فيهما أحد من أهل القبلة، وإنما وقع التنازع في النوع الأول؛ وهو علو الذات، كما سيأتي.

قوله: (﴿ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾): تضمنت إثبات اسم الله العظيم، وما تضمنه من صفة العظمة، والله تعالى عظيمٌ في ذاته، وأسمائه، وصفاته؛ لا تحيط به العقول، ولا تبلغه الأوهام.

قوله: (وَلِهَذَا كَانَ مَنْ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ فِي لَيْلَةٍ؛ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنْ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ): قد دلَّ على هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (وَكَّلَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ

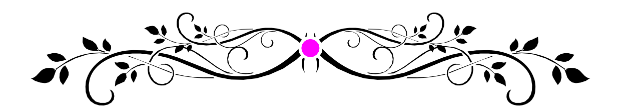
فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ: وَاللهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ**»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ، وَسَيَعُودُ**»، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ، لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً، وَعِيَالًا، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ**»، فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ، وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ، أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ، ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ، فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ**»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: «**مَا هِيَ**»، قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ - وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الخَيْرِ - فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ**

مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟»، قَالَ: لَا، قَالَ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ**»)[١].

فتَبيّن أن آية الكرسي قد جمعت بين النفي والإثبات في صفة الرحمٰن.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٣١١).



الجمع بين الأسماء المتقابلة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾ [الحديد: ٣]. وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]).

الشَّرح

قوله: (وقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾): هذه أربعة أسماء حسنى لله تعالى، أثبتها لنفسه في كتابه، وأثبتها نبيّه ﷺ، له في سُنَّته؛ فقال في مناجاته لربه: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَك شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَك شَيْءٌ**»[1]، فقد كفانا تعريفها نبيّنا ﷺ بأوضح عبارة؛ فلا نحتاج أن نقول: الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء؛ كما قال بعضهم، فما دام قد عرَّفها النبي ﷺ، فلا يعدل به تعريف.

قال ابن القيم رحمه الله: (فمعرفة هذه الأَسماءِ الأَربعة وهي: الأَول والآخر والظاهر والباطن، هي أَركان العلم والمعرفة؛ فحقيق بالعبد أَن يبلغ في معرفتها إِلى حيث ينتهي به قواه وفهمه.

واعلم أَن لك أَنت أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا؛ بل كل شيء؛ فله

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

أَول وآخر، وظاهر وباطن، حتى الخطرة واللحظة والنفس، وأَدنى من ذلك، وأكبر. فأَولية الله ﷻ سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه؛ فأَوليته سبقه لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته، سبحانه، فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه. وبطونه سبحانه إِحاطته بكل شيء، وبحيث يكون أقرب إليه من نفسه. وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأَسماءِ الأَربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية ومكانية، فأحاطت أَوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إِلى أَوليته، وكل آخر انتهى إِلى آخريته؛ فأَحاطت أَوليته وآخريته بالأَوائل والأَواخر. وأَحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إِلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأَول قدمه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوه وعظمته، والباطن قربه ودنوه. فسبق كل شيء بأَوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه. فلا تواري منه سماءٌ سماءً ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا؛ بل الباطن له ظاهر، والغيب عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأَسماءُ الأَربعة تشتمل على أَركان التوحيد، فهو الأَول في آخريته، والآخر في أَوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أَولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا)[1].

قوله: (﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾): جمعٌ بين النفي

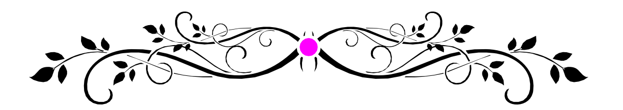
(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين: (١/ ٤٦ ـ ٤٨).

والإثبات، وقد تقدم معنى (الحي)، وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ﴾ تأكيد لمعنى الحياة، ودليل على أن إثبات الصفة نفي لنقيضها؛ خلافًا للجهمية، والقرامطة.

والتوكل: اعتماد القلب على الله ﷻ في جلب المنافع، ودفع المضار، وهو من أجل العبادات؛ ليس من أضعفها؛ كما يدعي بعض الصوفية! لأنه يدل على الثقة بالله سبحانه وتعالى وحسن الظن به.

وفي تعليقه على هذا الاسم الشريف، ونفي ما يناقضه، مناسبة، ظاهرة، بديعة؛ وذلك أن من توكل على غير الله فقد توكل على من يموت؛ فإذا مات الوكيل بقي الموكِّل بلا وكيل، أما الله تعالى فهو وكيلٌ لا يموت، سبحانه وبحمده؛ فيثمر ذلك طمأنينة القلب.





إحاطة علمه بجميع مخلوقاته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ سُبْحَانَه: ﴿ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢﴾ [التحريم: ٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ [سبأ: ٢]، ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فصلت: ٤٧]، ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: ١٢]).

الشَّرْح

شرع المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذكر آيات انتخبها من كتاب الله تدل على إثبات أسماء وصفات معينة؛ لم يقصد بها الحصر، والاستقصاء، وإنما أراد أن يبيّن أنّ طريقة أهل السُّنَّة والجماعة مطردة في الإثبات؛ سواء في ذلك الصفات الذاتية، والصفات الخبرية، والصفات الفعلية، وأن القول فيها واحد، وهو الإثبات، والإمرار، والإقرار؛ لا يُتعرض لها بتحريف ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل.

وابتدأ بذكر الآيات الدالة على علم الله تعالى من خلال أسمائه الحسنى: (العليم)، و(الخبير)، و(الحكيم)، وصفة (العلم) من أخص صفاته سبحانه وأشهرها.

قوله: (﴿ٱلْعَلِيمُ﴾): من له العلم المطلق؛ يؤمن أهل السُّنَّة والجماعة بعلم الله المحيط بكل شيء؛ جملةً وتفصيلًا، كليًّا وجزئيًّا، أزلًا وأبدًا؛ ما يتعلق بأفعاله سبحانه؛ كالخلق والرِّزق والإحياء والإماتة، وما يتعلق بأفعال عباده؛ كالطاعات والمعاصي؛ فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون.

والعلم من صفاته الذاتية، وليس العليم بمعنى العارف، فإن المعرفة انكشاف بعد جهل، والله تعالى قد أحاط بكل شيء علمًا؛ لا يجِدُّ له علم لم يكن علمه.

وعلم الله غير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان، بخلاف علم المخلوق؛ فإنه مسبوق بجهل، ويلحقه النسيان؛ قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٧]، يخرج الطفل من بطن أمه لا يعرف حتى اسمه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]، فينمو العلم، شيئًا فشيئًا، عن طريق هذه المنافذ، السمع، البصر، العقل، وتتراكم المعارف، حتى يصبح من أكبر العلماء، ويحمل الألقاب العلمية الرفيعة، ثم يهرم؛ فيأخذ في الانحدار؛ قال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، وإذا بهذا المخزون الذي تم جمعه، عبر عقود من الزمن، يأخذ في التحلل، والاضمحلال، فيُقال لهذا الشيخ الفاني: ما اسمك؟ فلا يعرف اسمه! أنحن في ليل أو نهار؟ فلا يعلم؛ لا يميز بين الأوراق النقدية، وقد كان يوم من الأيام يعُدها عدًّا، وينقدها نقدًا! أما علم الله تعالى فغير مسبوق بجهل، ولا يلحقه نسيان؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم: ٦٤]، كما إن علم الله شامل محيط، وعلم المخلوق قاصر؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾ [الإسراء: ٨٥].

ومن الآثار الإيمانية للإيمان بعلم الله طمأنينة المؤمن إلى شرع الله

وقدره، وامتلاء قلبه بإحاطة الله بجميع شؤونه الخاصة والعامة؛ فلا يشعر بالوحشة والقلق.

قوله: (﴿ٱلْحَكِيمُ﴾): من له الحكمة البالغة، والحكم النافذ.

فالله حكيم بمعنى: ذو الحكمة، **والحكمة لغةً**: وضع الشيء في موضعه، وضدها السفه والطيش، والإِحْكَام هو الإتقان، ومنه سميت الحَكَمة، وهي لجام الفرس؛ لأنها تحكم سيره، والله تعالى، حكيم في شرعه؛ فلا يشرع أمرًا إلا وفيه مصلحة محققة حالًا، أو مآلًا، كما أنه حكيم في قدره؛ فكل ما يقضيه الله تعالى، ويقدره، فهو الموافق للحكمة قطعًا؛ سواء ظهرت لنا هذه الحكمة، أم لم تظهر.

والله حكيم بمعنى: الحاكم في الدنيا والآخرة؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يحكم ما يشاء، ويقضي ما يريد، في هذه الحياة الدنيا، ويحكم في خلقه في الآخرة؛ ففريق في الجنة، وفريق في السعير.

ومن الآثار الإيمانية للإيمان بحكمة الله القناعة العقلية، والطمأنينة النفسية، لما يحكم به سبحانه شرعًا، وما يقضيه قدرًا؛ فلا يتسلل إلى قلب المؤمن شعور بالحيف، والظلم، والفوضى؛ فيذهب عنه كل وسواس بعدم حصول حكمة فيما قضاه أو شرعه؛ بل يعتقد يقينًا بأن الله لا يقضي عليه قضاء إلا كان خيرًا له، وأن المقدورات لا تقع فلتة، أو خبط عشواء، أو ضربة لازب؛ كما يعبر بعضهم! قد وزن الله تعالى الأمور بميزان دقيق، وقسطاس مستقيم، فحينئذٍ يطمئن المؤمن إلى قدره؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣]، كما يرضى بشرعه؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى

ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [النور: ٥١، ٥٢].

وهذا يدل على أن كل اسم من أسماء الله الحسنى له أثر علمي، وأثر مسلكي؛ فما أخبرنا الله تعالى، بهذه الأسماء لمجرد عدِّها بالأصابع والمسابح؛ بل لما لها من أثر بالغ على قلب الإنسان، وسلوكه.

قوله: (﴿ٱلۡخَبِيرُ﴾): من له الخبرة التامة، والخبرة: العلم ببواطن الأمور، ودقائقها وتفاصيلها، وقد وُجد من أهل البدع من يزعم أن الله يعلم علمًا كليًّا، لا جزئيًّا، ومنهم من يقول: إنه يعلم علمًا مجملًا، لا تفصيليًّا، والحق أن ربنا، سبحانه وبحمده، يعلم بالأشياء كليًّا وجزئيًّا، إجماليًّا وتفصيليًّا؛ لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، ويبين ذلك الآيات التي بعدها:

قوله: (﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾): الولوج: الدخول، ومما يلج في الأرض: الماء النازل من السماء؛ قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الزمر: ٢١]، والدواب، والدويبات، التي تتخذ لها جحورًا، وبيوتًا، في الأرض؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا وَيَعۡلَمُ مُسۡتَقَرَّهَا وَمُسۡتَوۡدَعَهَاۚ﴾ [هود: ٦]، والأموات يدفنون في الأرض، كما قال تعالى: ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ [طه: ٥٥].

قوله: (﴿وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾): مما يخرج من الأرض النبات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا﴾ [الأنعام: ٩٩]، العيون؛ قال تعالى: ﴿وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: ٣٤]، والناس من الأجداث؛ قال تعالى: ﴿وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف: ٢٥]، وهكذا تستخرج المعادن، والبترول، وغير ذلك؛ والولوج والخروج صورتان متقابلتان.

قوله: (﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾): مما ينزل من السماء المطر، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧]، والوحي؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤]، والملائكة؛ قال تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ [القدر: ٤]، والشهب؛ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ [الطور: ٤٤]، وغير ذلك.

قوله: (﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾): أي: يصعد ويرقى، ومما يعرج إلى السماء الملائكة الكرام؛ قال تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، والكلم الطيب؛ قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]، وممن رفع وعرج به عيسى ابن مريم عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨]، ونبيّنا محمد ﷺ، ليلة المعراج، وأرواح المؤمنين، إذا قبضت؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة. والنزول والعروج صورتان متقابلتان.

فكل شيء إما داخل في الأرض، وإما خارج منها؛ إما نازل من السماء، وإما صاعد فيها؛ فدلت هذه الآية على إحاطة علم الله تعالى بكل شيء.

قوله: (﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾)، مفاتح جمع مفتح، ومفاتيح جمع مفتاح، وهما بمعنى واحد، ومفاتح الغيب: علم الغيب وسره، وقد فسرها النبي ﷺ، بقوله: «**مَفَاتِحُ الغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ: لَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ إِلَّا اللهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي المَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللهُ**»(١)، وإذا تأملت في هذه الخمس وجدت أن الله سبحانه وتعالى منفرد بعلمها.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٦٩٧).

قوله: (﴿وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ﴾): الأرض إما بر، وإما بحر، والجو تابع للقرار، و(ما) بمعنى الذي، التي تشمل العاقل، وغير العاقل، وفي البراري كائنات مرئية، وغير مرئية؛ لا يحيط بها عد، وفي البحار أضعاف ذلك، ومن أتيح له أن ينظر في بعض البرامج، التي تحكي حياة البحار، أبهره، وأذهله ما فيها من أنواع المخلوقات العجيبة.

قوله: (﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾): «ورقة» نكرة في سياق الشرط، فتدل على العموم؛ فتشمل ورق الشجر، وغيره؛ يعلم متى انفكت من أصلها، ومتى وصلت إلى الأرض، وأنت لو استعملت على شجرة واحدة، داخل بيتك، لتحصي ما يسقط منها من ورق، لوجدت عناء شديدًا، ولم تحط بذلك علمًا، وربنا، سبحانه وبحمده، يعلم ما في الحدائق، والبساتين، والغابات الممتدة في الكرة الأرضية، من أوراق.

قوله: (﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ﴾): «حبة» نكرة في سياق الشرط، تدل على العموم؛ فتشمل كل حبة تخطر بالبال؛ ترفع حجرًا في البريَّة فتجد حبيبات ادخرتها الحشرات، في شق من شقوق الأرض؛ الله يعلمها! قال لقمان لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٍ مِّنۡ خَرۡدَلٍ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾ [لقمان: ١٦].

قوله: (﴿وَلَا رَطۡبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾): والأشياء إما رطبة، أو يابسة؛ الرطب كالنبات، واليابس كالحجر؛ فيتناول كل شيء.

قوله: (﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾): جواب الشرط. الكتاب: هو اللوح المحفوظ، الذي أحصى الله تعالى فيه كل شيء؛ قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾ [يس: ١٢]

فهذه الآية العظيمة تملأ قلب المؤمن يقينًا باطلاع الله تعالى على كل شيء، وأنه لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات، ولا في الأرض.

والأثر المسلكي لهذا الإيمان: الشعور برقابة الله واطلاعه؛ فإذا أوصد الأبواب، وأرخى الستور، ذكر أن الله يراه، وإذا حدثته نفسه بسوءٍ، ذكر أن الله يعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصدور؛ فيحمله ذلك على التعرض لمراضيه، والبعد عن مساخطه، لعلمه أن الله تعالى يعلم جميع أحواله؛ ويُقال: أنّ رجلًا خلا بامرأةٍ في ليلة مقمرة، فقال: إني أُحبك، فقالت: وأنا والله أُحبك. قال: وإني أُريد كذا وكذا؛ يعرِّض بالفاحشة، قالت: وأنا أريد مثلك. قال: فما الذي يمنعنا؟ ولا يرانا إلا الكواكب، قالت: فأين مُكوكبها؟ فخر مغشيًّا عليه.

كما أنه أيضًا يفيض على قلبه الطمأنينة؛ فإذا ضاقت به المذاهب، واستحكمت الأزمات، شعر أن الله تعالى يعلم حاله، ويسمع كلامه، ويرى مكانه، وأن بيده مفاتيح الفرج، فاطمأن، واستيقن، أنه ليس مفردًا، ولا مهملًا؛ بل هو في علم الله، وتحت سمعه وبصره.

قوله: (﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ﴾): «أنثى» نكرة في سياق الشرط، فتدل على العموم، فلا تختص بإناث بني آدم، كما قد يتبادر إلى الذهن؛ بل كل أنثى من المخلوقات، والله تعالى خلق المخلوقات من زوجين؛ ففي الطيور، والدواب، والأسماك، والحشرات والنبات، ذكور وإناث؛ بل حتى في الكائنات الدقيقة، (الميكروسكوبية)، ذكر وأنثى، فضلًا عن بني آدم؛ قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [الذاريات: ٤٩]، وقال: ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ [الرعد: ٣]؛ فعلم الله تعالى محيط بهذا كله.

كما أن قوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ﴾، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ يتعلق، أيضًا، بالتوقيت؛ فيعلق الحمل، ولا يشعر به الزوجان إلا بعد حين، لكن الله يعلمه، ويعلم وقت الوضع، كما قال: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ٨﴾ [الرعد: ٨]؛ فهذه دلائل الأسماء والصفات على إحاطة علم الله تعالى بجميع الذوات، والماجريات؛ فإذا امتلأ القلب بعلم الله المحيط بكل شيء، تعلق به، وشعر بالانجذاب إليه، وهذا فضل العلم بأسماء الله الحسنى.

قوله: (﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا ١٢﴾): هذا ختام الآية، التي صدرها: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالناظر، بعين البصر والبصيرة، في خلق السماوات والأرض، وما أودع الله تعالى فيهما من الآيات، وما ركبهما عليه من السنن الكونية، يثمر عنده العلم بهاتين **الحقيقتين**:

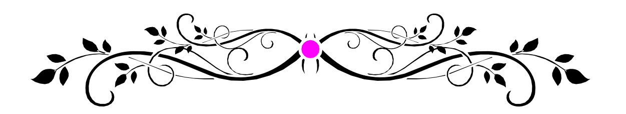
- أن الله على كل شيء قدير
- أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا.

فما كان هذا البناء العظيم، وهذا النظام البديع، ليتم ويجري، إلا لكون خالقهما قديرًا، عليمًا؛ فعلمه محيط بكل شيء؛ لا تخفى عليه خافية، و﴿لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [سبأ: ٣]، وقدرته نافذة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ٤٤﴾ [فاطر: ٤٤]، ومن قواعد أهل السُّنَّة والجماعة، في باب أسماء الله وصفاته، أن أسماء الله حُسنى؛ أي: بلغت في الحسن غايته؛ لأن حُسنى (فُعلى) صيغة مبالغة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ومن فروع هذه القاعدة أن اقتران

بعض الأسماء ببعض يعطيها حسنًا مضاعفًا، كما في هذه الآية؛ علمه مقترن بقدرته، وقدرته مبنية على علمه، فنتج عن ذلك إبداع الخلق وإحكامه.

أما المخلوقين؛ فمنهم من يعلم ولا يقدر، ومنهم من يقدر ولا يعلم؛ فربما وُجِد مهندس معماري يمكنه تصميم بناية شاهقة، لكنه لا يملك المواد الأولية، والأدوات؛ فلم ينتفع بعلمه في تحقيق المقصود، وربما وُجِد من يملك المواد والأدوات اللازمة، لكن لا علم عنده يمُكِّنه من التخطيط؛ فلم ينتفع بقدرته.





إثبات الرزق والقوة لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨]).

الشَّرْح

قوله: (﴿ٱلرَّزَّاقُ﴾): الرزاق: اسم من أسماء الله الحسنى؛ أي: كثير الرَزق؛ لأنها صيغة مبالغة، ورِزق الله نوعان: رِزق حسن، ورِزق غير حسن؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]؛ فدل على أن الرِّزق منه ما يكون حسنًا، وهو ما كان طيبًا مباحًا، ومنه ما يكون سوى ذلك، وقد تكفل الله؛ بمقتضى ربوبيته، لكل دابة برزقها؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]، ومن الناس من يسترزق بغير ما أحل الله.

والثمرة المسلكية، التي تنعكس على المؤمن بأن الله هو الرزاق، أن يطلب الرزق منه؛ كما قال: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، وتجد بعض الناس يقول: فلان قطع رزقي! لا يقطع رزقك فلان، ولا علان؛ الرزاق حقًّا هو الله ﷻ؛ فلا تظن أن أحدًا يحول بينك وبين رزقك؛ فقد قال ﷺ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ لَنْ يَمُوتَ حَتَّى يَسْتَكْمِلَ رِزْقَهُ، فَلَا تَسْتَبْطِئُوا الرِّزْقَ، وَاتَّقُوا اللهَ أَيُّهَا النَّاسُ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، خُذُوا مَا حَلَّ**

وَدَعُوا مَا حُرِّمَ»[(١)].

اعلم أن رزقك مقسوم، وعليك أن تطلبه، وليس معنى ذلك أن يتواكل الإنسان؛ فلا يطلب رزقه، ولهذا عقب النبي ﷺ، فقال: «**وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»، ولم يقل: دعوا الطلب، سيأتيكم رزقكم في بيوتكم؛ يعني: اطلب رزقك بسخاوة نفس، ولا تذهب نفسك حسرات، وتشعر بالشغف والتلهف؛ فهذا من آثار الإيمان بهذا الاسم الشريف.

قوله: (﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾): أي صاحب القوة؛ أي: من له القوة المطلقة، والفرق بين القوة، والقدرة: أن القدرة: التمكن من الفعل من غير عجز، والقوة التمكن من الفعل من غير ضعف؛ فالله تعالى قوي قادر، منزه عن الضعف، وعن العجز.

والآية دليل على إثبات الصفات لله تعالى؛ خلافًا للمعتزلة، الذين أثبتوا أسماء مجردةً عن الصفات، بمنزلة الأعلام المحضة، بناءً على أصلهم الفاسد بنفي الصفات الثبوتية عن الله؛ كما في قوله هنا: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقوله: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠]، وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٧]. فدلت الآيات على إثبات صفات: القوة، والرحمة، والعزة، والجلال والإكرام؛ فأين يذهب النفاة؟! والعرب لا تسمي كاتبًا إلا من قامت به صفة الكتابة، ولا راكبًا إلا من اتصف بالركوب، ولا راميًا إلا من زاول الرمي، وهكذا؛ فكل اسم من أسماء الله الحسنى فلا بد أن يتضمن صفة.

---

(١) أخرجه ابن ماجه: رقم (٢١٤٤)، والحاكم في المستدرك: رقم (٢١٣٥)، واللفظ له، وقال: على شرط مسلم، وابن حبان في صحيحه: رقم (٣٢٣٩)، وصححه الألباني.

ويقين القلب بأن الله هو القوي يقوي ثقة المؤمن بربه، ويمنحه الطمأنينة والركون إليه؛ فإذا قيل: إن أعداء الإسلام أقوياء؛ يملكون أسلحة دمار شامل، وقنابل ذرية وهيدروجينية وكيميائية، إلخ؛ علم أن الله هو القوي القادر، فيمتلأ قلبه ثقة بالله، وتوكلًا عليه، وحسن ظن به، فتحصل له الطمأنينة الحقيقية، لا الوهمية؛ فيلجأ إلى ربه، ويلوذ بجنابه، فينال من الثبات ما لا يقع لسائر الناس؛ قال تعالى، عن هود وقومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

قوله: (﴿ٱلْمَتِينُ﴾): أي: الشديد القوة؛ فلا يدركه تعب، ولا مشقة، سبحانه وبحمده.

۞ ۞ ۞

إثبات السمع والبصر لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى: ١١]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٥٨﴾ [النساء: ٥٨]).

الشَّرْح

هاتان الآيتان ساقهما المؤلف لإثبات اسمين شريفين، من أسمائه، متضمنين لصفتين، من صفاته، وهما السميع البصير المتضمنان للسمع والبصر.

قوله: (﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾): هذا التعبير أبلغ في امتناع الشبيه والمثيل من أن يقول: ليس مثله شيء؛ قال شارح الطحاوية: (وَفِي إِعْرَابِ كَمِثْلِهِ ـ وُجُوهٌ:

أَحَدُهَا: أَنَّ الْكَافَ صِلَةٌ زِيدَتْ لِلتَّأْكِيدِ، قَالَ أَوْسُ بْنُ حَجَرٍ:

لَيْسَ كَمِثْلِ الْفَتَى زُهَيْرٍ ... خَلْقٌ يُوَازِيهِ فِي الْفَضَائِلِ

وَقَالَ آخَرُ:

مَا إِنْ كَمِثْلِهِمُ فِي النَّاسِ مِنْ بَشَرِ

وَقَالَ آخَرُ:

وَقَتْلَى كَمِثْلِ جُذُوعِ النَّخِيلِ

فَيَكُونُ (مِثْلِهِ) خَبَرُ لَيْسَ وَاسْمُهَا شَيْءٌ. وَهَذَا وَجْهٌ قَوِيٌّ حَسَنٌ، تَعْرِفُ الْعَرَبُ مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهَا، وَلَا يَخْفَى عَنْهَا إِذَا خُوطِبَتْ بِهِ...

الْوَجْهُ الثَّانِي: أَنَّ الزَّائِدَ (مِثْلِ) أَيْ: لَيْسَ كَهُوَ شَيْءٌ، وَهَذَا الْقَوْلُ بَعِيدٌ؛ لِأَنَّ مِثْلَ اسْمٌ وَالْقَوْلُ بِزِيَادَةِ الْحَرْفِ لِلتَّأْكِيدِ أَوْلَى مِنَ الْقَوْلِ بِزِيَادَةِ الِاسْمِ.

الْوَجْهُ الثَّالِثُ: أَنَّهُ لَيْسَ ثَمَّ زِيَادَةٌ أَصْلًا؛ بَلْ هَذَا مِنْ بَابِ قَوْلِهِمْ: مِثْلُكَ لَا يَفْعَلُ كَذَا؛ أَيْ: أَنْتَ لَا تَفْعَلُهُ، وَأَتَى بِمِثْلٍ لِلْمُبَالَغَةِ، وَقَالُوا فِي مَعْنَى الْمُبَالَغَةِ هُنَا: أَيْ: لَيْسَ لِمِثْلِهِ مِثْلٌ لَوْ فُرِضَ الْمِثْلُ، فَكَيْفَ وَلَا مِثْلَ لَهُ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ)(١).

وعندي أن الوجه الثالث أقرب، ولا محوج لافتراض الزيادة، والمعنى: ليس كوصفه شيء، فإن المثل يأتي بمعنى الوصف، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]؛ أي: الوصف الأعلى، فيكون المنفي وجود شيء يماثل صفة الرحمٰن، وهذا معنى سائغ، قريب.

ونفي التمثيل من أصول العقيدة، فإن قال قائل: فما بال بعض أسماء الخالق والمخلوق متماثلة؛ كالحي، والسميع، والبصير، والعليم، والحليم، والرحيم، إلخ؟

فالجواب: إن هذا التماثل إنما هو في اللفظ، وفي أصل المعنى فقط، أما في الحقيقة، والكيفية، فلا تماثل فيها البتة؛ فالرب سميع بصير، والعبد سميع بصير، لكن ليس سمع كسمع، ولا بصر كبصر؛ فالاتفاق في الأسماء، لا في المسميات؛ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز: (١/ ١٢١ ـ ١٢٤).

قالت ـ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتِ الْمُجَادِلَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ، تَشْكُو زَوْجَهَا، وَمَا أَسْمَعُ مَا تَقُولُ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١])[1].

كما يقع الاشتراك في أصل المعنى؛ فالسمع هو إدراك الأصوات، والبصر هو إدراك المرئيات، ولا سبيل لنا أن نفهم الخطاب إلا بشيء معهود أصله في الأذهان، ولا يلزم منه المماثلة في الأعيان؛ فالله له المثل الأعلى في السمع، وله المثل الأعلى في البصر، وهكذا في سائر الصفات، وللمخلوق المثل الأدنى فيها؛ فسمعه يليق به، وبصره يليق به؛ فالاشتراك في المعنى الكلي المطلق الجاري في الأذهان، فإذا خرج إلى الأعيان وأضيف، تخصص، وزال الاشتراك بالكلية.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾): معنى ﴿نِعِمَّا﴾؛ أي: نعم ما، فحصل إدغام متماثلين كبير، فصارت (نعمّا)، ومن أراد أن يعظ نفسه، أو يعظ غيره، فعليه بموعظة القرآن؛ قال الله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقد وصفه الله بأنه موعظة؛ قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ [آل عمران: ١٣٨]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧]، وقال: ﴿وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [هود: ١٢٠]، وقال: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَـٰتٍ مُّبَيِّنَـٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [النور: ٣٤].

والوعظ: هو الكلام الرقيق الذي يحصل به الترغيب، أو الترهيب،

---

(١) أخرجه ابن ماجه: رقم (١٨٨)، والنسائي: رقم (٣٤٦٠)، وأحمد: رقم (٢٤١٩٥)؛ وأورده البخاري: تعليقًا ـ باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾ [النساء: ١٣٤] (٩/ ١١٧)، وصححه الألباني.

ولا أبلغ من موعظة القرآن، فإذا أردت أن تداوي نفسك من آفاتها فعليك بالقرآن العظيم؛ ففيه الدواء الناجع، وفيه الغذاء النافع، ولا شيء يعدله.

وبعض الناس قد يلجأ لشيء من الرقائق، والقصائد، والحكايات؛ يستلين بها قلبه، لكن لن يكون أثرها أبلغ، وأعمق، وأرسخ، من موعظة القرآن؛ فاتخذ القرآن، أيها المؤمن، منهجًا في الموعظة، والتربية.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾): تضمنت إثبات هذين الاسمين الشريفين، وما دلَّا عليه من صفتي السمع والبصر.

والأثر المسلكي للإيمان باسم الله (السميع) أثر عظيم! فمن علم يقينًا أن الله سميع، حمله إيمانه على أن يسمع منه ربه ما يرضيه، وأن لا يسمع منه ما يسخطه، فيلهج لسانه بالكلم الطيب؛ ففي الصحيح: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا دَرَجَاتٍ**»[١]، ويتحاشى أن يبدر منه شيء يسخطه؛ من الغيبة، والنميمة، والشتيمة، والخوض في الباطل، وقول الزور، وفي الصحيح: «**إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ، لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا، يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ**»[٢]؛ فلو استشعر المرء معنى اسم الله (السميع)؛ لعقل لسانه عما لا يرضي الله، وأطلقه بالخير؛ «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ**»[٣]، و﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨].

والأثر المسلكي للإيمان باسم الله (البصير) أثر بليغ! فمن امتلأ قلبه بأنَّ الله بصير، حرص أنْ يراه ربه على حال يرضى بها عنه؛ كأنْ يراه قانتًا آناء الليل ساجدًا، وقائمًا، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٤٧٨).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٤٧٨)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٩٨٨).
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٦٤٧٥)، ومسلم: رقم (٤٧).

أو يراه الله تعالى على حج، أو عمرة، أو صيام، أو صدقة، أو غير ذلك، وتحاشى أن يراه الله على حال تسخطه؛ كأن يراه على فجور، وظلم، وعدوان؛ ولهذا جاء في المواعظ: لا يكن الله أهون الناظرين إليك؛ فإذا كنت تتحاشى أن يراك أبوك، أو أخوك، أو من تجله على أمر مشين؛ فتذكر أنَّ الله يراك.

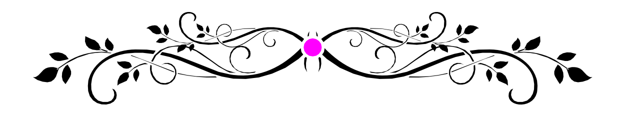
قال أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل   خلوت. ولكن قل: عليّ رقيب
ولا تحسبن اللَّه يغفل برهة   ولا أن ما تخفي عليه يغيب

كما أن علمك بأن الله سميع بصير يورثك الطمأنينة عند الدعاء، واليقين بالإجابة؛ فإذا تكيف المرء تكيفًا إيمانيًّا، واعتقد أن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، ويعلم حاله، اطمأن قلبه، وسكنت نفسه، وعلِم أنه وضع مسألته عند سميعٍ، بصيرٍ، مجيبٍ.

وحينما يعلم أن الله ﷻ يراه وهو مقدم على أمر من الأمور، التي يريد بها وجهه، ونصرة دينه فإنه يطمئن ويثبت، كما في قول الله ﷻ لموسى وهارون: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦]، فهذا سمع خاص، ورؤية خاصة، فاستصحب هذه المعاني، أيها المؤمن، تنتفع بأسماء الله وصفاته.

۞ ۞ ۞



إثبات المشيئة والإرادة الكونية لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]. وقوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]. وقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]).

الشَّرح

الإرادة الربانية تنقسم إلى قسمين:

- **إرادة كونية قدرية:** وهي بمعنى: المشيئة.
- **وإرادة شرعية دينية:** وهي بمعنى: المحبة.

ولا بد من معرفة الفرق بين الإرادتين؛ لأن من لم يميز بينهما وقع في أحد طرفي الضلالة؛ إما في ضلالة الجبرية، وإما في ضلالة القدرية.

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها، والإرادة الدينية الشرعية قد تقع، وقد لا تقع.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد يحبها الله ويرضاها، وقد لا يحبها، ولا يرضاها، والإرادة الدينية الشرعية لا بد أن يحبها ويرضاها.

الفرق الثالث: الإرادة الكونية القدرية قد تكون مقصودة لذاتها، وقد تكون مقصودة لمآلاتها، والإرادة الدينية الشرعية دومًا مقصودة لذاتها، فضلًا عن مآلاتها.

وبيان ذلك بشيء من التفصيل:

الفرق الأول: الإرادة الكونية القدرية لا بد من وقوعها، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، فكل ما أراده الله كونًا لا بد من وقوعه؛ أما الإرادة الدينية الشرعية فقد تقع، وقد لا تقع؛ فقد أراد الله منا الإيمان، وقال: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٣٦]، ومن الناس من يؤمن، ومن الناس من يكفر، وأراد منا الصلاة والزكاة؛ فقال: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]، ومن الناس من يصلي ويزكي، ومنهم من لا يصلي، ولا يزكي، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ومن الناس من يتقحم العسر، والله لا يريد بنا العسر.

الفرق الثاني: الإرادة الكونية القدرية قد تكون محبوبة لله، وقد تكون غير محبوبة لله؛ فمثلًا: أراد الله كونًا خلق محمد، وهذا محبوب لله، وأراد الله كونًا خلق إبليس، وهذا غير محبوب لله؛ أما الإرادة الشرعية؛ فكل ما أراده الله شرعًا فهو محبوب له؛ كالإيمان، والعمل الصالح.

الفرق الثالث: أن ما أراده الله كونًا وقدرًا قد يكون مرادًا لذاته، وقد يكون مرادًا لمآلاته؛ فمثلًا: أراد الله خلق محمد ﷺ، لذاته، ولما يترتب عليه من محبوباته؛ كتوحيده، وطاعته، وامتثال أمره، وغير ذلك، وأراد الله تعالى خلق إبليس، لا لذاته، وإنما لمآلاته؛ فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق

الجنة والنار، ولما وجدت التوبة والاستغفار، ولا رفع علم الجهاد، ولا جرى الأمر بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ بل ولما ظهرت معاني أسماء الله الحسنى؛ من أسماء الجلال، والكمال، والجمال؛ فإن ذلك لا يظهر إلا بتقدير الله تعالى لخلق إبليس، الذي يقع به الابتلاء، ويتمايز الناس فيه إلى مؤمن وكافر، ويترتب عليه الثواب والعقاب، وتتجلى فيه معاني أسمائه الحسنى.

فتبيَّن أن الله تعالى قد يشاء ما لا يحب، وقد يحب ما لا يشاء، لحكم غائية لا يعلمهن كثير من الناس؛ فلا بد من التمييز بين هاتين الإرادتين، إذا وردتا في النصوص؛ فإن كانت بمعنى المشيئة فهي إرادة كونية قدرية، وإذا كانت بمعنى المحبة فهي إرادة دينية شرعية.

وقد ابتدأ المصنف بذكر طائفة من الآيات الدالة على الإرادة الكونية:

قوله: (﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ [الكهف: ٣٩]): القائل هو الرجل المؤمن، في قصة صاحب الجنتين، فهو يعظ صاحبه قائلًا: ﴿وَلَوْلَآ﴾؛ أي: هلَّا، فهي عبارة تحضيض.

قوله: (﴿جَنَّتَكَ﴾): أي: بستانك، وسمي كذلك لأن الأشجار تُجِنُّه؛ أي: تستره.

قوله: (﴿قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾): أي: ما شاء الله كان، فهذه إرادة كونية؛ يذكره بأن كل شيء بإرادة الله، وأن ما أوتي ليس راجعًا إلى كسبه، وحذقه، وذكائه؛ بل هو فضل من الله، وبتقدير الله، كما أنه ليس دائمًا له؛ كما زعم بقوله: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾﴾ [الكهف: ٣٥]؛ فما شاء الله كان، ولا قوة إلا بالله.

قوله: (﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]): هذه إرادة كونية؛ لأنها بمعنى: المشيئة؛ ذلك أن الله

تعالى ذكر اختلاف الناس بعد الرسل، واقتتالهم، فقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]؛ فدل على أن اقتتالهم جرى بإرادة الله الكونية.

قوله: (﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾ [المائدة: ١]): بهيمة الأنعام: الإبل والبقر والغنم، والمستثنى الأول من الحل هو المذكور في قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ [المائدة: ٣]، والمستثنى الثاني يتعلق بالحال: ﴿غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾؛ فلا يحل لمن تلبس بإحرام، أو دخل في الحرم، الصيد؛ ولهذا كان من محظورات الإحرام الصيد؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾﴾ [المائدة: ٩٥]، والصيد هو كل حيوان بري، متوحش بطبعه، حلال.

والشاهد من الآية **قوله**: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾﴾)، وكأن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لحظ الحكم الكوني السابق فذكرها في سياق آيات الإرادة

الكونية، لكن لها وجه في إرادة الله الشرعية؛ لأن متعلقها الحلال والحرام.

قوله: (﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]):

الهداية عند أهل السُّنَّة نوعان:

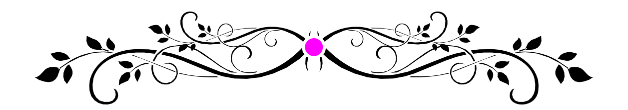
- **هداية توفيق وإلهام**: وهو مما اختص الله به قدرًا، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [القصص: ٥٦].

- **هداية دلالة وبيان**: وهذا مما يجريه الله على ألسنة أنبيائه، ورسله، وأتباعهم، من العلم النافع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد أنكرت القدرية والمعتزلة النوع الأول، وحملت آيات الهداية على النوع الثاني، وفسرت الإضلال: بتسمية الضال ضالًّا، وحسب! وسيأتي له مزيد تفصيل في باب القدر.

ومعنى الآية: من أراد الله كونًا أن يجعله من أهل الهداية يسّر له أسباب ذلك، وشرح صدره لقبول الحق؛ فتجده مغتبطًا بنعمة الله، مستبشرًا بموعود الله، ومن أراد الله أن يجعله من أهل الضلالة جعل ضيق العطن، شديد الضيق والتبرم من سماع الحق، وشبهه بمن يصَّعد في السماء؛ أي: يرقى في أجواز الفضاء، فيلحقه ضيق واختناق، وهذا أمر معروف بالتجربة، والعلوم الحديثة؛ وذلك أن نسبة الأكسجين تقل كلما ارتفع الإنسان، ولهذا تجد من يعاني من ضيق التنفس ينهى عن سكنى المناطق الجبلية؛ لقلة الهواء.

فدلت هذه الآيات على إثبات إرادة الله الكونية؛ فلا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.



إثبات المحبة والإرادة الشرعية لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]، ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ٩﴾ [الحجرات: ٩]، ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧﴾ [التوبة: ٧]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ٤﴾ [الصف: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ١٤﴾ [البروج: ١٤]).

الشَّرح

أردف المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات المشيئة بآيات المحبة؛ ليتبين الفرق بين نوعي الإرادة الكونية؛ وقد دلت هذه الآيات على إثبات صفة المحبة لله تعالى إثباتًا حقيقيًّا، لائقًا بجلاله؛ لا يستلزم شيئًا من لوازم المحبة البشرية؛ فلا يجوز تحريفها إلى معانٍ مجازية؛ بمحض الشبهات، والظنون الخاطئة.

قوله: (﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾ [البقرة: ١٩٥]): **الإحسان لغة:** الإتقان، ومنه قوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ**

يُتْقِنَهُ»[١]، وقوله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ ﷻ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[٢]؛ أي: يأتي به على الصفة الكاملة، فتكون العبادة تامة بشروطها، وأركانها وواجباتها، وسُننها.

والإحسان شرعًا: فسَّره النبي ﷺ، تفسيرًا لا مزيد عليه؛ فقال: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[٣]، فجعله أعلى مراتب الدين، **وفسره بأحد أمرين**:

المعنى الأول: **(أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ)** وهذه عبادة الطلب، وهي أعلاهما؛ بأن يعبد ربه عبادة الراغب إليه، المُشتاق إليه، فهو مُنجذب إليه، يسعي للوصول إليه.

المعنى الثاني: **(فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ)**، وهذه عبادة الهرب؛ يعني: إن لم تبلغ مرتبة المحبة، والانجذاب، والشوق، في عبادتك، فلا تنزل عن رُتبة الخوف، والشعور برقابته.

والمؤمن يتراوح بين هاتين الحالين؛ الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧].

فمن حقق الإحسان وسعى فيه نال محبة الله تعالى، وقد ذكر الله ذلك، بعد قوله سبحانه: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، فوقعت تعليلًا لما سبق، فالمنفق نفقة واجبة أو مُستحبة، محسن؛ والله يُحب المُحسنين.

---

(١) أخرجه أبو يعلى في مسنده: رقم (٤٣٨٦)، وقواه الألباني في الصحيحة نظرًا لشواهده: رقم (١١١٣).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٩٥٥).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٧٧)، ومسلم: رقم (٨).

قوله: (﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: ٩]):

القسط: العدل، والمقسطون: هم أهل العدل، الذين يعدلون في أموالهم، وأهليهم، وما ولوا، والعدل واجب، والفضل مُستحب؛ فالواجب على المؤمن أن يأتي بالحد الأدنى، الذي هو العدل، وما زاد فهو فضل؛ كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ [المُمتحنة: ٨]؛ فالبر فضل، والقسط فرض؛ فلا يجوز للمُسلم أن ينزل عن مرتبة العدل، حتى في تعامله مع الكافر؛ فإن من الناس من يظن أنه إذا تعامل مع كافر؛ يهودي، أو نصراني، أو بُوذي، أو غير ذلك من الملل الباطلة، فله أن يستطيل عليه بخداع أو غش، أو ينال منه بكلام أو مسبة! وهذا يُخالف أصول الإسلام القائمة على العدل؛ فلقد بعث النبي ﷺ، عبد الله بن رواحة رضي الله عنه إلى يهود خيبر، (وكان عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيهِمْ كُلَّ عَامٍ يَخْرُصُهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يُضَمِّنُهُمُ الشَّطْرَ، قَالَ: فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ شِدَّةَ خَرْصِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ، فَقَالَ: «يَا أَعْدَاءَ اللهِ أَتُطْعِمُونِي السُّحْتَ، وَاللهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ»، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ)[(١)].

وقد أمر الله تعالى بالقسط، وأخبر بمحبته للمقسطين، إثر قوله: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا﴾ [الحُجرات: ٩]، فمن استعمل العدل في أموره كلها فهو أهلٌ لمحبة الله.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه: رقم (٥١٩٩)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود: رقم (٢٦٥٨)، وقال الأرنؤوط: إسناده صحيح.

قوله: (﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٧﴾ [التوبة: ٧]): هذا في شأن المُعاهدين، فقد ذكرها بعد قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ [التوبة: ٧]؛ فإن الله تعالى لما أنزل سورة براءة، وقد تضمنت آية السيف، كان بين رسول الله ﷺ، وبين بعض قبائل العرب عُهود مطلقة، فلم تكن آية السيف لتقطعها؛ لأنه ليس من شأن أهل الإسلام الغدر، وغاية ما في الأمر أن إذا خِفنا منهم خيانة أن ننبذ إليهم على سواء؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ﴾ [الأنفال: ٥٨]، وإلا فالأصل الوفاء بالعهود إلى مُددها، فما داموا مُلتزمين بالعهد، فإنا نقابلهم بالمثل؛ فبيَّن أن هذه الاستقامة عُنوان تقوى الله ﷻ؛ لأن النفس قد يُزين لها إذا رأت من الطرف الآخر ضعفًا أن تثب عليه، فلا يحجزها من ذلك إلا تقوى الله ﷻ؛ لهذا كانت الجُملة مُعللة للحكم.

والتقوى: امتثال أوامر الله، واجتناب مناهيه، وحقيقتها: أن يقوم في القلب واعظ يمنع الإنسان من الوُقوع في محارم الله، ويحمله على فعل أوامره؛ قال ابن المعتز:

خل الذنوب كبيرها وصغيرها ذاك التُّقى
واصنع كماشٍ فوق أرض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة إن الجبال من الحصى

فتقوى الله أعظم ما أُعطي العبد؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحُجرات: ١٣]، وسُئِلَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَن أَكْرَمُ النَّاسِ؟ قالَ: «**أَتْقَاهُمْ للهِ**»[(١)]. وهذا التوقي في الدنيا يكون في الآخرة وقاية له من عذاب الله؛ فمن تقوى الله ﷻ حفظ العُهود، وعدم هدرها، كما قال

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٣٨٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٣٧٨).

النبي ﷺ: «**إِنِّي لَا أَخِيسُ بِالْعَهْدِ، وَلَا أَحْبِسُ الْبُرُدَ**»[(١)].

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]): جمع تائب، و(تاب، وثاب، وآب) بمعني متقارب **لغةً**؛ أي: رجع وعاد، وذلك أن التائب يرجع من المعصية إلى الطاعة، **واصطلاحًا**: الرجوع إلى الله تعالى من المعصية إلى الطاعة.

والتوبة من أشرف العبادات، وأحبها إلى الله؛ قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ**»[(٢)]، وقال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»[(٣)]، وقال: «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»[(٤)]؛ فالتوابون هم الذين يُكثرون التوبة.

فإن قال قائلٍ: إنّ من يُكثر التوبة فإنه يُكثر الذنب! **فالجواب**: أن هذا من طبيعة بني آدم، كما تقدم في الحديث، وقد جاء أن النبي ﷺ، قال: «**أَذْنَبَ عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى:**

---

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٢٧٥٨)، وأحمد: رقم (٢٣٨٥٧)، والنسائي في الكبرى: رقم (٨٦٢١)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٤٨٧٧)، والحاكم في المستدرك: رقم (٦٥٣٨).

(٢) أخرجه أحمد: رقم (١٣٠٤٩)، والترمذي: رقم (٢٤٩٩)، وابن ماجه: رقم (٤٢٥١)، والحاكم في المستدرك: رقم (٧٦١٧)، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٣) أخرجه مسلم: رقم (٢٧٤٩).

(٤) أخرجه مسلم: رقم (٢٧٤٧).

أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وتَعَالَى: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، فَقَالَ تَبارَكَ وتَعَالَى: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»(١)؛ أي: ما دام أنه يُذنب فيستغفر؛ مُستوفيًّا لشروط التوبة، فإني لا أزال أغفر له، وإنما كان الله تعالى يُحب التوابين؛ لأن التوبة عبادة تُنبئ عن تجدد الإيمان في القلب، لكن التوبة الممدوحة هي التوبة النصوح، التي تكون مُقترنة بالإيمان، والعمل الصالح؛ كما قرن الله بين هذه الخصال في أربعة مواضع من كتابه، فقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ۝٦٠﴾ [مريم: ٦٠]، وقال: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه: ٨٢]، وقال: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ۝٦٧﴾ [القصص: ٦٧].

و(**التواب**): اسم من أسماء الله الحسنى، كما أنه يوصف به العبد؛ فالعبد تواب لأنه يتوب إلى الله، والرب تواب لأنه يتوب على العبد؛ قال الله ﷻ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]: فـ ﴿تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: هذه توبته سبحانه، ﴿لِيَتُوبُوٓا۟﴾: أي: لتقع منهم التوبة، ثم إن توبة الرب على عبده تكون على **صورتين**:

أُولاهما: بتوفيق العبد للتوبة؛ **ثانيهما**: بقبول التوبة منه.

وهذا يُفسر معنى قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾ [التوبة: ١١٨]:

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٥٠٧)، ومسلم: رقم (٢٧٥٨)، واللفظ له.

أي: وفقهم للتوبة فتابوا، ثم تاب الله تعالى عليهم؛ قال الله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]، وأما توبة العبد إلى الرب فبالرجوع عن المعصية إلى الطاعة.

قوله: (﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]): جمع مُتطهر، **والطهارة نوعان:**

النوع الأول: الطهارة الحسية؛ وتكون من الحدث والنجس.

النوع الثاني: الطهارة المعنوية؛ وتكون من الكفر، والشرك، والنفاق، والظلم، والفسوق، والعصيان، والبدعة، وما أشبه؛ من الأمور المعنوية.

وكلا الأمرين مطلوب؛ قال تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ [المُدثر: ٤]؛ فالمؤمن حقًّا طاهر، ظاهرًا وباطنًا؛ فثوبه طاهر، وبدنه طاهر، وبُقعته التي يُصلي عليها، ويجلس عليها طاهرة؛ فهو لا يتلبس بالنجاسات، ولا يُباشرها، ولا يأكل النجاسات، ولا يشربها، وهو أيضًا مُتطهر في أُموره المعنوية؛ فلا يُلابسه شرك، ولا فسق، ولا عصيان، وإن وقع له شيء من ذلك تطهر منه، ولهذا قال: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾، ولم يقل: الطاهرين؛ لأنهم يتطهرون؛ ففيها معنى التفعُّل.

فدلت الآيات السابقة على إثبات صفة المحبة لله تعالى، وهذا أمر جلي، فإن قارئ القُرآن لا يشك في إثباتها لله تعالى؛ فالله ﷻ يُحب من الأشخاص، والأعمال، والأحوال، والأماكن، والأزمنة، ما يشاء؛ يُحب من الأشخاص: محمدًا ﷺ، وسائر أنبيائه، والمتقين، والمحسنيين، والمقسطين، والتوابين، والمتطهرين، ويُحب من الأعمال: الصلاة على وقتها، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله، وسائر مُراداته الشرعية، وبعضها أحب من بعض؛ فقد سئل النبي ﷺ: (أَيُّ العَمَلِ

أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ قَالَ: «**الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا**»(١)، ويُحب من الأحوال: السجود، قال النبي ﷺ: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ، وَهُوَ سَاجِدٌ، فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ**»(٢)، ويُحب ﷻ من الأماكن: مكة شرفها الله، والمدينة، وبيت المقدس، ويُحب سبحانه من الأزمنة: رمضان، وعشر ذي الحجة، وهكذا، فللَّه تعالى أن يُحب ما يشاء؛ من الأشخاص، والأعمال، والأحوال، والأزمنة، والأمكنة.

قوله: (﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]): هذه الآية دليل على أن المحبة تقع من الطرفين؛ فالمؤمنون يُحبون ربهم، والرب يُحب عباده المؤمنين المتبعين، لكن هذه المحبة من الله مشروطة باتباع نبيّه ﷺ، وتُسمى هذه الآية: «آية المحنة»؛ فقد ادعى قوم من اليهود والنصارى محبة الله، زمن النبي ﷺ، فابتلاهم الله بهذه الآية، وامتحنهم.

قوله: (﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤]): هذه الجملة جواب الشرط المذكور في أول الآية؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤]؛ ففيها وعيد على المرتدين، ووعد بالإتيان بقومٍ أخص أوصافهم محبة الله لهم، ومحبتهم إياه، وقد انطبق ذلك على أبي بكر الصديق ﷺ ومن معه من الصحابة، والتابعين، الذين قاتلوا المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ، وحكمها باق إلى يوم القيامة؛ ففيها دليل؛ كسابقتها، على وقوع المحبة من الطرفين.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفّٗا كَأَنَّهُم بُنۡيَٰنٞ مَّرۡصُوصٞ ۝٤﴾ [الصف: ٥]): هذه الآية في بيان محبة الله لمن جمع **هذه الأوصاف**:

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٢٧)، ومسلم: رقم (٨٥).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٤٨٢).

أولها: أن يكون القتال في سبيله.

ثانيها: أن يكون المقاتلون صفًّا متحدين.

ثالثًا: أن يكون المقاتلون متراصين متماسكين.

قوله: (﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج: ١٤]): المودة أعلى درجات المحبة، فالله ودود؛ أي: عظيم المحبة لأوليائه. والغفور: مُشتق من الغَفْر، وهو الستر والتجاوز؛ فالله يستر الذنب، ويتجاوز عنه، ومنه سُمي المغفر، الذي يُجعل على الرأس؛ لأنه يستر الرأس ويقيه.

فهذه آيات محكمات، تُسند فيها المحبة إلى الله ﷻ؛ فيجب أن نعتقد بأن من صفات الله تعالى المحبة، وهي صفة تليق به سبحانه وبحمده؛ لا تُشبه محبة المخلوقين، فلئن كانت محبة المخلوق شيء من الانعطاف، والرقة، ونحو ذلك، فمحبة الله لا يلزم عليها شيء من اللوازم البشرية.

وقد أثبت أهل السُّنَّة والجماعة هذه الصفة، وغصّ بها أهل البدع، من المتكلمين النُّفاة.

قال الشيخ مرعي الكرمي في حكاية تأويلهم: (المحبة: ميل القلب إلى ما يلائم الطبع، والله منزه عن ذلك، وحينئذٍ فمحبة الله للعبد: هي إرادة اللطف به، والإحسان إليه. ومحبة العبد لله: هي محبة طاعته في أوامره ونواهيه، والاعتناء بتحصيل مراضيه. فمعنى: يحب الله؛ أي: يحب طاعته وخدمته، أو يحب ثوابه وإحسانه، وهذا مذهب جمهور المتكلمين)[(١)]؛ فأنكروا المحبة من الطرفين!

والجواب على شبهتهم أن يقال: هذه محبة المخلوق، ومحبة الله

---

(١) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (٧٧).

تليق به، والله ليس كمثله شيء، وأنتم تُثبتون لله سمعًا، وبصرًا، مع أن المخلوق له سمع وبصر؛ فأثبِتوا له محبة كذلك.

- فإن قالوا: إن سمع الله يليق به، وبصر الله يليق به.

- قلنا: وكذلك محبة الله تليق به.

فلا فرق بين ما أثبتموه، وبين ما نفيتموه؛ فكل ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله، فإنا نُثبته؛ لأن الله أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، ولا يلزم من إثبات ذلك أن يلحقه شيء من اللوازم الباطلة؛ فإن الله ليس كمثله شيء.

وقولهم: لا يُمكن أن تقع المحبة من الطرفين؛ لأنه لا تجانس بينهما! مجرد دعوى؛ لا دليل عليها، والحق ما دل عليه الدليل الشرعي، والحسي الوجدي؛ فكل مؤمن يجد في قلبه شوقًا، وميلًا، ومحبة حقيقية لله ﷻ وهو قدر زائد على فعل الأوامر، واجتناب النواهي؛ بل ربما وقع من العبد إخلال بطاعة الله، وثبتت محبته لله له؛ كالرجل الذي كان يؤتى به إلى رسول الله، ﷺ، بسبب شُرب الخمر، فعن زيد بن أسلم قال: أُتِيَ بِابْنِ النُّعَيْمَانِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِرَارًا، أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعٍ، فَجَلَدَهُ فِي كُلِّ ذَلِكَ، فَقَالَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ: اللَّهُمَّ الْعَنْهُ مَا أَكْثَرَ مَا يَشْرَبُ، وَمَا أَكْثَرَ مَا يُجْلَدُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَلْعَنْهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[(١)]، يعني: عنده أصل المحبة، لكن دون محبة أهل الإيمان التام، والطاعة.

ودعوى أنه لا يُمكن أن تقع محبة بين غير مُتجانسين دعوى ساقطة؛ بل نقول: إنه تقع محبة بين الأشياء غير المُتجانسة، ألست مثلًا تُحب شُرب الماء؟ أنت جنس والماء جنس، ألست تُحب لعق العسل؟

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه: رقم (١٣٥٥٢).

وأنت جنس وهو جنس، أليس الرجل أحيانًا يُحب دابته؟ وهي حيوان، أليس بعضكم يُحب سيارته؟ يُحبها مع أنها جماد، ألم يقل النبي ﷺ: «**أُحُدٌ جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ**»[(١)]، وهو جبل، وهذا أمر معروف عند بني آدم؛ يُحب الإنسان أحيانًا بعض المجالس، وبعض البيوت، وبعض المراكب، وبعض الثياب؛ فلا تُرد النصوص المُحكمات بمثل هذه التعليلات المزعومة.

ودعوى أن محبة العبد لربه: طاعته، ومحبة الرب لعبده إثابته، وإن سموه تأويلًا، فهو في الحقيقة تحريف؛ لأنه تغيير لمُراد الله تعالى، وأهل السُّنَّة والجماعة يُثبتون لله ما أثبته لنفسه؛ من غير تحريف، ولا تعطيل، ومن غير تكييف، ولا تمثيل، والإثابة لازم المحبة، وليست المحبة، وقد تُحب صديقك محبة حقيقة، ونتيجة لهذه المحبة قد تُقدم له هدية، فتقديمك للهدية إثابة، وهي قدر زائد على مجرد المحبة، بدليل أنك يمكن أن تُحبه، ولا تُهديه؛ لعدم قُدرتك، أو لسبب من الأسباب؛ فالمحبة شيء، ولازمها شيء.

كما دلت الآيات السابقات على إثبات إرادة الله الشرعية، التي بمعنى: المحبة، وأنه لا يلزم من محبة الله للشيء وقوعه وتحققه؛ فقد يُحب ما لا يشاء، وقد يشاء ما لا يُحب، سبحانه وبحمده، وله في ذلك حكمة، فالله يحب مِنا الإحسان، والقسط، والتقوى، وأن نُقاتل في سبيله صفًّا، ونحو ذلك؛ من الأعمال الصالحات، ومع ذلك قد تقع، وقد لا تقع، بخلاف الإرادة الكونية؛ فإنه لا بد من وُقوعها، كما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٤٠﴾ [النحل: ٤٠].

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٤٢٢)، ومسلم: رقم (١٣٩٢).

والأثر المسلكي لإثبات صفة المحبة أن يحرص الإنسان على تحقيق محبة الله تعالى، وأن يكون محبًّا لله، ومحبوبًا لله، فإن هذه أعظم وشيجة بين العبد وربه، فإن الله لا يُعذب من يُحب؛ فيسعى المؤمن في تلمس أسباب محبة الله، التي ينال بها الدرجات العُلى؛ بتحصيل الأوصاف الشريفة، المنصوص عليها في كتابه.



إثبات اتصافه بالرحمة سبحانه وتعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾، ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨﴾ [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨]، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٦٤﴾ [يوسف: ٦٤]).

الشَّرح

هذه الآيات دلَّت على إثبات صفة الرحمة لله سبحانه وتعالى واستهلها، بـ(﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾)، وقد تقدم الكلام عليها، في أول هذا الشرح.

قوله: (﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]): جاءت هذه الجملة في سياق دعاء الملائكة: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ [غافر: ٧]؛ أي: أحاطت رحمتك وعلمك بكل شيء، و(كل) من ألفاظ العموم، و(رحمةً) تمييز، و(علمًا) معطوف عليه.

قوله: (﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣]): هذا يدل

على اتصاف الله بالرحمة الخاصة بالمؤمنين؛ لأن تقديم الجار والمجرور يدل على الاختصاص، ورحمة الله بالمؤمنين ظاهرة وخفية، في الدنيا والآخرة.

قوله: (﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]): قالها الله تعالى في سياق كلامه لموسى عليه السلام حين اختار من قومه سبعين رجلًا لميقات الله، فأخذتهم الرجفة، فدعاه، وأجابه، وفيها إضافة الصفة إليه سبحانه.

قوله: (﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]): أمر الله نبيّه ﷺ، أن يقول ذلك لضُعفاء المؤمنين الذين يأوون إليه: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وهذه كتابة كونية، ومعناها: أنه سبحانه أوجب الرحمة على نفسه؛ كقوله: «**إِنَّ اللهَ لَمَّا قَضَى الخَلْقَ، كَتَبَ عِنْدَهُ فَوْقَ عَرْشِهِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي**»[(١)]، لا كما تدعيه المعتزلة؛ من أنه يجب على الله فعل الصلاح، أو الأصلح، حتى إنهم يُوجبون على الله، بمحض عُقولهم، ما يستشنع الإنسان قوله، ويدعون أن العقل يقضي بذلك؛ فيقولون: يجب على الله أن يفعل كذا، ويمتنع عليه أن يفعل كذا، حسب ما تقضيهم عقولهم؛ فهم نُفاة الصفات، مُشبهة الأفعال.

قوله: (﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ [يونس: ١٠٧، الأحقاف: ٨]): تقدم معناهما.

قوله: (﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤]): هذا من كلام يعقوب ﷺ، لبنيه، حين طلبوا منه أن يرسل معهم أخاهم بنيامين؛ فدل على إثبات صفتي الحفظ والرحمة لله تعالى، وأنه أرحم

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٢٢)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٧٥١).

الراحمين؛ وذلك أن له المثل الأعلى من كل وصف، فالرحمة معنى مشترك؛ يُضاف إلى الخالق، وإلى المخلوق، لكن لله من الرحمة أعلاها، كما دلت عليه صيغة (أفعل)، التفضيل.

وقد أنكر المتكلمون صفة الرحمة، قالوا: الرحمة ضعف ورقة، والله مُنزه عن ذلك، وأولوها بالإنعام، أو إرادة الإِنعام! قال الشيخ مرعي الكرمي في حكاية تأويلهم: (**الرحمة لغةً**: رقة القلب وانعطافه، وذلك من الكيفيات التابعة للمزاج، والله منزه عنها. فالمراد بها في حقه تعالى: إرادة الخير والإحسان إلى من يرحمه، فإن أسماء الله تعالى تؤخذ باعتبار الغايات التي هي أفعال دون المبادئ التي هي انفعالات)[(١)].

والجواب عن شبهتهم أن نقول: هذا الذي وصفتموه رحمة المخلوق؛ فالمخلوق هو الذي إذا أدركته رحمة تضعضع وبكى، ولحقه ضعف ورقة، أما رحمة الله فلا يلزم منها هذه اللوازم البشرية؛ فللَّه رحمة تليق به، وللمخلوق رحمة تليق به، واتفاق الأسماء لا يستلزم اتفاق المسميات، وكما أنكم تثبتون لله حياة، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادة، وقُدرة، وكلامًا، وتقولون: إنها على ما يليق به، فقولوا مثل ذلك في صفة الرحمة، والآيات مُتكاثرة في إثباتها، وإضافتها إلى الله؛ فتفسير الرحمة بالإنعام، أو بإرادة الإنعام تحريف، وإن سميتموه تأويلًا؛ فالرحمة صفة حقيقية تليق به؛ بها يرحم المرحومين، وفرق بين حقيقة الصفة، وبين آثارها؛ فأنت ترى الفقير فترحمه، وقد تجد مالًا فتحسن إليه، وقد لا تجد فيَصدُق عليك قطعًا أنك رحمته.

والرحمة المُضافة لله ﷻ قد تكون الصفة، وقد تكون الرحمة المخلوقة؛ بحسب السياق، **ويتضح ذلك بمثالين**:

---

(١) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (٧١).

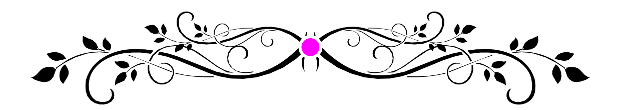
المثال الأول: عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قال: (قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، سَبْيٌ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ تَحْلُبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ، فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ ﷺ: «**أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟**» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «**لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»)(١)؛ فهذه الرحمة صفة الرب، رحمة حقيقية.

المثال الثاني: في الحديث: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(٢)؛ فهذه الرحمة المنزلة مخلوقة، وليست الصفة؛ بل هي آثار الصفة؛ كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

فتبيَّن بذلك وجوب إثبات اسم الله الرحمٰن، واسم الله الرحيم، ووجوب إثبات ما تضمناه من صفة الرحمة، وأنه لا يجوز تحريفها إلى الإنعام، أو إرادة الإنعام.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٩٩٩)، ومسلم: رقم (٢٧٥٤).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: رقم (٢٧٥٢).



إثبات الصفات الفعلية:
الرضا، والغضب، والسخط، والكره، والمقت

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ﴾ [النساء: ٩٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ٣﴾ [الصف: ٣]).

الشَّرح

صفات ربنا سبحانه وتعالى تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: **الصفات الذاتية**: وهي الملازمة لذاته سبحانه وتعالى التي لا تنفك عنه؛ فهو مُتصف بها دومًا؛ لا يُتصور أن يخلو الرب منها؛ كالعلم، والقُدرة، والسمع، والبصر، والحياة.

القسم الثاني: **الصفات فعلية**: وهي المتعلقة بمشيئته وحكمته؛ أي: يفعلها متى شاء كيف شاء؛ مثل صفة الاستواء، والنُزول، والإتيان، والضحك، والعجب.

وقد زعم نفاة الصفات أن إثبات الصفات الفعلية يلزم منه أن يكون الله ﷻ محلًّا للحوادث؛ لأن إثباتها لله يقتضي أن يكون طرأ عليه شيء لم يكن، وحينئذٍ إما أن يكون كمالًا أو نقصًا، ولا ريب أنه كمال، فإذا كان كمالًا فقد كان قبل ذلك غير متصف بالكمال، وهذا ممتنع، فلا بد من نفيها عن الله، وتأويل إضافتها إلى الله تأويلًا مجازيًّا.

وقد توصلوا بهذه الشُّبهة؛ (نفي حُلول الحوادث)، إلى إضلال كثير من الناس، وردوا كثيرًا من الصفات الفعلية، التي أثبتها الله تعالى لنفسه، أو أثبتها له نبيّه ﷺ.

والجواب عن ذلك يسير، وهو أن يقال: إن جنس هذه الصفات الفعلية قديم، وأنواعها وآحادها متجدد، بحسب ما تقتضيه مشيئته وحكمته؛ فالله، سبحانه وبحمده، لم يزل فعالًا، كما قال عن نفسه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [هود: ١٠٧]؛ فلا يُقال: حدث بعد أن لم يكن! فليس هناك تلازم بين الفعل والحدوث، بالمعنى الذي أراده المتكلمون، وإذا كان المخلوق يوصف بأنه مُتكلم، وفاعل، ولا يلزم من وصفه بالكلام والفعل، أن يكون طوال الوقت في كلام مستمر، وفعل دائب؛ بل يتكلم ويفعل بحسب الدواعي، ويعد ذلك كمالًا في حقه؛ فالخالق أولى بالكمال.

فأصل الصفة وجنسها ذاتي قديم، وآحادها وأفرادها فعلي حادث، فما أضافه الله تعالى لنفسه؛ من الصفات الفعلية، لا يُعد من الحُدوث الذي يقتضي نقصًا، وإن سُمي حُدوثًا، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥]؛ فوصف جديد كلامه، ووحيه بالحدوث، ولا يمكن أن يُقال: إنه لم يكمل بصفاته حتى حصل ذلك.

والمتكلمون وقعوا في مثل ما فروا منه؛ فإنه لو قِيل لهم: لم أنكرتم صفة الرحمة؟ لقالوا: لأن الرحمة ضعف ورقّة في النفس، وهذا من صفات المخلوقين؛ فيُقال لهم: فالإرادة التي أثبتموها ميل في النفس إلى التخصيص، وهذا من صفات المخلوقين؛ فيلزمكم، فيما نفيتموه، نظير ما فررتم منه، فيما أثبتموه.

والإرادة، التي يحيلون عليها في تأويلهم للصفات الفعلية، وصف للإنسان؛ بل ولغير الإنسان؛ قال تعالى: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧]؛ فلا يلزم من إضافة الوصف إلى عدة موصوفِين أن تكون الحقيقة والكيفية واحدة في جميعهم؛ بل هو بحسب من أُضيف إليه، فإذا أُضيف إلى الله ﷻ كان له منه المثل الأعلى، المُنزه عن كل شائبة نقص، وإذا أُضيف إلى المخلوق صار له منه المثل الأدنى، الذي يليق به؛ بل إن المخلوقات نفسها تتفاوت في هذه الإضافة؛ فالناس ليسوا سواءً في أسماعهم، ولا أبصارهم، ولا علومهم، ولا قدراتهم، ومع ذلك يُوصفون جميعًا بالعلم والسمع، والبصر، والعلم، والقدرة، باعتبار أصل المعنى؛ فإذا كان هذا التفاوت بين المخلوقين، فمن باب أولى أن يكون بين الخالق والمخلوق.

والمتكلمون اشمأزوا من إثبات الصفات الفعلية، ونقلوها إلى معان مجازية، غير مُرادة لله ﷻ بلا دليل، ولا أثارة من علم؛ بل بمحض الشبهات والظنون، والمقدمات العقلية الفاسدة. أما السلف ـ رحمهم الله ـ فساقوا القول، في صفات الله، سوقًا واحدًا، سواءٌ منها الذاتية، أو الفعلية، أو الخبرية؛ وهو الإقرار والإمرار.

قوله: (﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾ [المائدة: ١١٩، التوبة: ١٠٠، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨]): الرضا صفة معروفة، معهودة في الذهن، وهي

نقيض السخط؛ فللَّه من الرضا ما يليق به، وما يقتضي فعل ما يُحبه المرضي عنه، من إكرامه وإنعامه. لكن فرق بين المقتضي والمقتضى؛ فالمقتضي وصف قائم به، والمقتضى إكرامه وإنعامه على أوليائه.

وأما رضاهم عنه فمن جهتين:

- رضاهم به ربًّا ومعبودًا، لما علموه من صفات كماله، ونعوت جلاله؛ فعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنَّهُ قَالَ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**»[(١)].

- رضاهم عن جزيل عطائه، وصدق موعوده، كما قال أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، وقالوا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٤].

والأثر المسلكي للعلم بصفة الرضا، أن ذلك يحمل النفوس المؤمنة على طلب رضاه، والبحث عن مراضيه، من الأعمال والأقوال الصالحة، التي يحصل بها الرضا.

قوله: (﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [النساء: ٩٣]):

القتل أنواع ثلاثة: عمد، وشبه عمد، وخطأ.

فقتل العمد: أن يقصد من يعلمه آدميًّا معصومًا فيقتله، بما يغلب على الظن موته به.

(١) أخرجه مسلم: رقم (٣٨٦).

والقصد: هو العمد، والعلم هو التحقق من آدميته؛ فلا يظنه حيوانًا، أو طيرًا، والمعصوم هو المسلم، والمعاهد، والذمي، والمُستأمن، أما الحربي فليس بمعصوم.

فإن قَصَد من يعلمه آدميًّا معصومًا فأصابه بما يغلب على الظن موته به؛ بأن يُصيبه بمُثقّل، أو مُحدد، أو ببندقية، أو مسدس، أو سيف، أو خنجر.

وشبه العمد: أن يقصد جنايةً، لا تقتل غالبًا، ولم يجرحه بها؛ كما لو ضربه بعصى، أو وكزه، فمات؛ فهذا لا يحصل به الموت عادة.

وقتل الخطأ: أن يفعل ما له فعله، فيموت بسببه دون قصد؛ كما يقع في حوادث السيارات.

(﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ﴾): اسم من أسماء النار؛ سميت بذلك لجُهمتها، وظلمتها.

وظاهر الآية يدل على أن القاتل يخُلد في النار، وهذا مشكل على ما تقرر من أن أصحاب الكبائر، دون الشرك، لا يُخلدون في النار؛ فأُجيب بأنه لم يذكر هنا التأبيد، فدل على أنه يمكث مدة طويلة في نار جهنم، ومآله إلى الجنة.

ولا ريب أن إزهاق النفوس من أعظم الجرائم، حتى قال النبي ﷺ: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِم**»[(١)]، ولما رأى الكعبة قال: «**مَا أَطْيَبَكِ وَأَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ وَأَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ حُرْمَةً مِنْكِ، مَالِهِ،**

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم (١٣٩٥) والنسائي: رقم (٣٩٨٧).

وَدَمِهِ، وَأَنْ نَظُنَّ بِهِ إِلَّا خَيْرًا!»[(١)]، وقال: «**لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا**»[(٢)]، فدل على أن هذه الجريمة من أعظم الكبائر، التي تُورث صاحبها خلودًا ومُكثًا طويلًا في النار، وقواعد أهل السُّنَّة والجماعة تقضي بأن من ارتكب كبيرة، دون الشرك بالله، فإنه لا يُخلد تخليدًا مؤبدًا في النار؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ١١٦]، والقتل، لا شك، دون ذلك؛ فيكون داخلًا في عموم المشيئة.

قوله: (﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾): هذا موضع الشاهد، فالله تعالى قد أضاف الغضب إلى نفسه، فدل على إثبات صفة الغضب لله تعالى، على ما يليق به، والغضب في محله يُعد من الكمالات؛ بل إن الآدمي لو كان فاقدًا للغضب لعُدَّ ذلك نقصًا فيه، وعيبًا؛ لأنه إذا فقد الغضب لم يغر على محارمه، ولم ينتصر للحق، ولم يتمعر وجهه لانتهاك حرمات الله، ولم تأخذه الحمية للدين، إلى غير ذلك؛ ففاقد الغضب مذموم، ولهذا قال الله: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ٩٣]، ولم يقل: والفاقدين الغيظ، وعن عائشة ﵂: (وَمَا انْتَقَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللهِ، فَيَنْتَقِمَ لِلَّهِ بِهَا)[(٣)].

فالغضب المحمود، ما حمل صاحبه على أمر مطلوب شرعًا؛ كالجهاد في سبيل الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونُصرة المظلوم، وما أشبه ذلك، والغضب المذموم، ما حمله على أمر ممنوع

---

(١) أخرجه ابن ماجه: رقم (٣٩٣٢)، واللفظ له، والطبراني في الكبير: رقم (١٠٩٦٦).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٨٦٢).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٣٥٦٠)، ومسلم: رقم (٢٣٢٧).

شرعًا؛ كالعدوان، والثأر بالباطل، والجهر بالسوء من القول؛ كالسباب والقذف، ونحو ذلك.

فالغضب، في أصله، وصف كمال، لكن إذا استعمل في غير محله صار مذمومًا؛ فلهذا كان لربنا سبحانه منه الوصف الأكمل؛ وهو أنه يغضب لما يقتضي الغضب، ومن ذلك: قتل المؤمن.

قوله: (﴿وَلَعَنَهُۥ﴾): اللعن هو: الطرد، والإبعاد عن رحمة الله تعالى.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾: وحسبك بما عظمه العظيم! فلهذا كانت صيانة الدماء من أعظم مقاصد الشريعة، وإحدى الضرورات الخمس حفظ النفس، وهذا يُوجب للمؤمن الحذر من التساهل في الدماء، واستباحتها تحت مُسوغات موهومة، يزينها الشيطان؛ كحال بعض التكفيريين، والغُلاة، الذين لا يُبالون بدماء المسلمين، كأنما يقتل أحدهم حمامة، أو عُصفورًا، أو ذُبابة، أو يهدر دماء المعصومين من غير المسلمين؛ كالمعاهدين، والمُستأمنين، والذميين؛ قال ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[(١)]؛ لأنه قد دخل في عهد أهل الإسلام، فكان احترامه من احترام الدين والملة؛ فالتهاون في أمر الدماء من تعريض النفس لأعظم الورطات والعُقوبات في الدنيا والآخرة؛ فعلى المؤمن أن يُعظم في قلبه حُرمات المُسلمين، وحقوق الآدميين، فلا يجتاحها بغير حق؛ قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣١٦٦).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٨٧٨)، ومسلم: رقم (١٦٧٦).

وعلى طالب العلم أن يُبين لمن حوله هذا الأمر، فإنه لم يزل يجري في أمة محمد ﷺ، على مر القرون من يستسهل أمر الدماء، فتظهر الخوارج، جيلًا إثر جيل؛ كلما فني منهم قرن طلع قرن آخر، وإن كان ظاهرهم الصلاح، فقد قال النبي ﷺ، واصفًا إياهم: «**يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**»[(١)]، ورغب في قتالهم، فقال: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ**»[(٢)]؛ فالحذر الحذر من هذا المُنزلق الخطير.

وقد شَرِق أهل البدع بإثبات صفة الغضب، وأَوَّلوا معنى الغضب إلى الانتقام، أو إرادة الانتقام؛ قال الشيخ مرعي الكرمي في حكاية تأويلهم: (والغضب هيجان النفس لإرادة الانتقام، أو غليان دم القلب. وعند إسناده إليه تعالى يراد به غايته؛ فإن كان إرادة الانتقام من العاصي فإنه من صفات الذات، وإن كان إحلال العقوبة كان من صفات الفعل)[(٣)].

والواقع أنهم حرفوا صفة الغضب إلى صفة أخرى يُثبتونها وهي الإرادة؛ فنقلوها من مُراد الله تعالى إلى مُراد ادعوه من أنفسهم؛ بلا دليل، ولا أثارة من علم؛ ولا ريب أن هذا من الضلال البيّن، والله تعالى أعلم بما قال، وهو أعلم بنفسه، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، وهذا من أعظم التجني والعُدوان على النصوص، والجُرأة والقول على الله بغير علم.

وقد ألجم شيخ الإسلام المتكلمين بالحجة والبرهان، في «الرسالة

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٩٣٣).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٣٥١)، ومسلم: رقم (١٠٦٤).
(٣) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (٧١).

التدمرية»، فقال: (يقال: القول في بعض الصفات كالقول في بعض. فإن كان المخاطب ممن يقرّ بأن الله حي بحياة، عليم بعلم، قدير بقدرة، سميع بسمع، بصير ببصر، متكلم بكلام، مريد بإرادة. ويجعل ذلك كله حقيقة، وينازع في محبته ورضاه وغضبه وكراهيته، فيجعل ذلك مجازًا، ويفسره إما بالإرادة، وإما ببعض المخلوقات من النعم والعقوبات.

قيل له: لا فرق بين ما نفيتَه وبين ما أثبتَّه؛ بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قلت: إن إرادته مثل إرادة المخلوقين، فكذلك محبته ورضاه وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإن قلت: له إرادة تليق به، كما أن للمخلوق إرادة تليق به. قيل لك: وكذلك له محبة تليق به، وللمخلوق محبة تليق به، وله رضا وغضب يليق به، وللمخلوق رضا وغضب يليق به.

وإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام. قيل له: والإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، فإن قلت: هذه إرادة المخلوق. قيل لك: وهذا غضب المخلوق. وكذلك يُلْزَم بالقول في كلامه وسمعه وبصره وعلمه وقدرته، إن نفى عن الغضب والمحبة والرضا ونحو ذلك ما هو من خصائص المخلوقين، فهذا منتف عن السمع والبصر والكلام وجميع الصفات. وإن قال: إنه لا حقيقة لهذا إلا ما يختص بالمخلوقين فيجب نفيه عنه. قيل له: وهكذا السمع والبصر والكلام والعلم والقدرة)[(١)].

وحقيقة حال القوم أنهم شبهوا أولًا، وعطلوا ثانيًا! فقد فهموا من

(١) التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع: (٣١ ـ ٣٢).

النصوص خلاف مُراد الله، وظنوا أنها تفيد التشبيه، ففروا من التشبيه إلى التعطيل، كمن فرَّ من حفرة فوقع في أُخرى، ولو أعطوا النصوص حقها، لعلموا أن الغضب، الذي أثبته الله لنفسه، غضب يليق به، يدل على كمال صفاته وعظيم ذاته، وليس ما تبادر إلى أذهانهم من المعاني البشرية.

والغضب صفة فعلية؛ فالله يغضب لوجود مُقتضى الغضب، ففي حديث الشفاعة الطويل: «**إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ**»[1]، وهذا صريح في الدلالة.

قوله: (﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ [محمد: ٢٨]): هم المُنافقون، الذين في قلوبهم مرض، وقد دلت هذه الآية على إثبات صفة السخط لله ﷻ؛ فللَّه تعالى سخط يليق به، وللمخلوق سخط يليق به، وإذا كان سخط المخلوق يصاحبه كلمات عصبية، وتصرفات غير متزنة، فسخط الخالق مُنزه عن هذه اللوازم؛ فالله تعالى قد أضاف السخط إلى نفسه؛ فلا وجه لنفي ما أثبت لنفسه.

قوله: (﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾): دلَّت على إثبات صفة الرضا، وقد تقدم الكلام عنها.

قوله: (﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]): أي: أغضبونا، والمُراد بهم: آل فرعون؛ أي: فلما وقع منهم التكذيب غضب الله تعالى عليهم فأحل بهم المَثُلات وأغرقهم؛ فدلت على إثبات صفة الغضب؛ إذ الأسف بمعنى الغضب، ودل أيضًا على إثبات الانتقام لله ﷻ.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧١٢)، ومسلم: رقم (١٩٤).

قوله: (﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ﴾ [التوبة: ٤٦]): هم المنافقون، في غزوة تبوك، الذين كانوا يُرجفون في المدينة، ويقولون: ﴿لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ﴾ [التوبة: ٨١]، ويُشيعون المقولات التي يوهنون بها همة المسلمين عن الغزو، وإنما ﴿بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ [التوبة: ٤٢]، فخذلهم الله تعالى وأقعدهم جزاءً وفاقًا، وهذا دليل على أنه سبحانه يُضل من يشاء، ويهدي من يشاء، وأنه يُعين من أحب، ويخذل من أبغض.

وقد دلَّت الآية على إثبات صفة الكُره لله سبحانه، فللَّه تعالى كُره يليق به؛ لا يُشبه كُره المخلوق، لا يلزم عليه شيء من اللوازم البشرية؛ فنُثبت لله ما أثبت لنفسه، ونُعطي النصوص حقها، ولا نتعرض لها بأي لون من ألوان التحريف، أو التعطيل.

قوله: (﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف: ٣]): المقت: أشد البُغض، وهذه الآية جاءت بعد قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢﴾ [الصف:٢]، كان بعض المؤمنين يتمنون أن يُفرض عليهم الجهاد، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمۡ كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَخۡشَوۡنَ ٱلنَّاسَ كَخَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧]، فلما فرض حصل عندهم كُره وتضايق من هذا الأمر، فعتب الله عليهم.

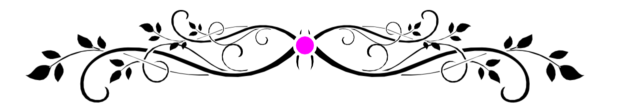
ولو أنهم لم يقولوا شيئًا لكان أعذر لهم، وقد قيل: إن البلاء مُوكل بالمنطق؛ فلهذا ينبغي للإنسان أن يقتصد، فلا يقول قولًا يندم عليه في المستقبل، ويعجز عن الوفاء به، ولطالما قال الإنسان قولًا، في حال نشاط وإقبال، ثم يُبتلى ويعجز، فكن مُتحفظًا يا عبد الله، إذا هممت بقول فأمسك، واعقد في قلبك النية الصالحة، واسعَ في حصوله.

أما الأثر المسلكي لعلم الإنسان أن الله تعالى يغضب، ويسخط،

ويكره، فهو ألا يتعرض لمساخط الله، وغضبه، وكرهه؛ بل يتجنب ذلك ويفر منه؛ فإذا علم أن أمرًا يجلب غضب الله، وسخطه، ومقته، حمله ذلك على الفرار منه، وعدم التعرض له، وإذا كُنا في حياتنا الدُّنيا مع والدينا ورؤسائنا، ومن له ولاية علينا، نتحاشى ما يُثير غضبهم، وهم خلق مثلنا، فكيف الأمر مع الله عَزَّ وَجَلَّ!

وهذا الأثر المسلكي يقابل الأثر المسلكي لإيمان المؤمن بإثبات صفة الرضا لله، هذا يحمله على التعرض لمراضي الله، وهذا يحمله على تحاشي مساخط الله؛ فما أعظم ثمرات الإيمان بأسماء الله وصفاته، وتحقيق معانيها على القلب والجوارح!





إثبات المجيء والإتيان لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢١، ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]).

الشَّرح

هذه الطائفة من الآيات دلَّت على إثبات صفتي الإتيان والمجيء لله تعالى على ما يليق بجلاله، ومعناهما مُتقارب، وهما من الصفات الفعلية المتعلقة بمشيئته وحكمته؛ فالواجب إثباتهما لله تعالى كما أثبتهما لنفسه، دون تعطيل، ولا تحريف، ولا تكييف، ولا تمثيل.

قوله: (﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ﴾): أي: هل ينتظرون ويرتقبون، والاستفهام هنا للتعجيب، والإنكار على المشركين؛ يعني: هل ينتظرون ليؤمنوا إلا أن يروا إتيان الله للقضاء بين عباده، عيانًا بأبصارهم، وحينذاك يندمون، ولات ساعة مندم.

قوله: (﴿أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾): أضاف الله تعالى الإتيان إلى نفسه، فالله تعالى يأتي إتيانًا حقيقيًّا، يليق بجلاله وعظمته، على كيفية لا نعلمها؛

لا تُدركها عُقولنا، ولا تبلغها أوهامنا، ثم عطف على ذلك إتيان ملائكته، وهذا يقطع الطريق على من أوّل إتيان الله بإتيان ملائكته؛ فقد جمع الله تعالى بين إتيانه، وإتيان ملائكته في سياق واحد.

قوله: (﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾): الظُلل: جمع ظُلَّة، وهي ما أظلك؛ أي: علاك، والغمام: السحاب الأبيض الرقيق؛ فيُنشئ الله تعالى بين يدي إتيانه هذا الغمام الأبيض الرقيق؛ كمقدمة لإتيانه لفصل القضاء بين عباده.

قوله: (﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾): أي: حصل الفصل بين العباد، فرأى كلٌّ سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار.

قوله: (﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]): هذه الآية، كسابقتها، تضمنت إثبات إتيان الله تعالى، وعطفه على إتيان الملائكة، والعطف يقتضي المغايرة؛ فلا سبيل لأهل التحريف لحمل إتيانه على إتيان ملائكته، وفيه إشارة إلى شرط كبير من أشراط الساعة، وقد فسَّرها النبي ﷺ، بطلوع الشمس من مغربها، تفسيرًا لا يحوج لتفسير سواه؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ حِينَ غَرَبَتِ الشَّمْسُ: («**أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟**»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلَا يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلَا يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا، ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى:** ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨﴾ [يس: ٣٨]»)[١].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣١٩٩)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٥٩).

فبينما الناس ينتظرون شروقها من جهة المشرق، إذا بها تخرج من وراء ظهورهم جهة المغرب! أي: فزع يلحق الناس؟ الشمس التي مذ خلق الله السماوات والأرض وهي تدور في فلكها بانتظام، لا تحيد عنه قيد أنملة، يقع لها هذا التحول الهائل! فحينذاك يُغلق باب التوبة؛ فلا ينفع إيمان حادث، وتخرج الدابة على إثرها ـ والله أعلم ـ، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: حَفِظْتُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَدِيثًا لَمْ أَنْسَهُ بَعْدُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا، طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وَخُرُوجُ الدَّابَّةِ عَلَى النَّاسِ ضُحًى، وَأَيُّهُمَا مَا كَانَتْ قَبْلَ صَاحِبَتِهَا، فَالْأُخْرَى عَلَى إِثْرِهَا قَرِيبًا**»[(١)].

قوله: (﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾﴾ [الفجر: ٢١]): الدك: هو الحطم والتدمير، والدق والتفتيت، وذلك أن الأرض يوم القيامة تتعرض لأحداث جسام؛ فالجبال الشامخات تمر مر السحاب، وتزول عن قواعدها، وتُبس بسًّا، ويؤول حالها إلى أن تُفت وتُصبح قاعًا صفصفًا، كما قال الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧]؛ ففي يوم القيامة تُدك الأرض دكًّا دكًّا، وتُصبح كالقرصة، أو كالخبزة؛ صعيدًا واحدًا، ليس فيه معلمٌ لأحدٍ؛ أرضًا مُستويةً لم يُسفك عليها دمٌ؛ لا جبل يُرتقى، ولا واد يُهبط إليه، ولا مغارة تُكِنّ، والناس ضاحون لربهم. تلك هي الأرض المُبدلة، التي قال الله عنها: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾﴾ [إبراهيم: ٤٨]، وفي ذلك الموقف الرهيب ينزل الرب، ويجيء للفصل بين عباده.

قوله: (﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾﴾ [الفجر: ٢٢]): والتقدير:

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٤١).

وجاء ربك، وجاء الملك صفًّا صفًّا؛ وذلك أن من شأن ملائكة الرحمٰن النظام والاصطفاف، كما قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الصافات: ١٦٥]، فهم مُنظمون في جميع أُمورهم، مُنضبطون، يأتون صفوفًا، ويقومون صفوفًا، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾﴾ [النبأ: ٣٨]؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «**أَلَا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**» فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ تَصُفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: «**يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ**»[1]؛ فدلت الآية على إثبات المجيء لله تعالى مجيئًا حقيقيًّا يليق بجلاله وعظمته.

قوله: (﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥]): يذكر الله تعالى من أحوال يوم القيامة، أن السماء تشقق بالغمام، يعني: تتشقق ويُصاحب تشققها هذا ظهور الغمام الأبيض الرقيق.

قوله: (﴿وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾): أي: أن الملائكة تنزل تباعًا، وذلك إرهاصٌ، ومُقدمةٌ لنزول الرب، سبحانه وبحمده، وإتيانه لفصل القضاء بين عباده، كما تقدم.

وهذا حق اليقين، لكن ما أعظم غفلتنا! لو قيل لأحدنا: إن لديك غدًا مُقابلة شخصية مع مسؤول، أو اختبار؛ لربما صار عنده نوع من التوتر، والتحسب، والترقب، وهو أمر دُنيوي زائل، ونحن نُوعد بهذه المواعيد العظام، وأحدنا ينام ملء عينيه، ويضحك ملء شدقيه، وكأن الأمر مُجرد أخبار! فنسأل الله أن يعظنا موعظة حسنة، وأن يوقظنا من سنة الغفلة، وأن يجعلنا ذلك اليوم من السعداء الآمنين.

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٤٣٠).

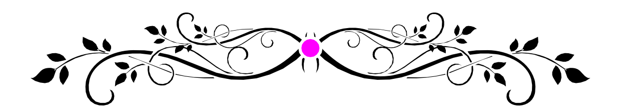
فدلت هذه الآيات على إثبات صفتي الإتيان والمجيء لله تعالى، إتيانًا ومجيئًا، يليق بجلاله وعظمته؛ لا يشبه إتيان المخلوقين، ومجيئهم؛ فالواجب أن نُثبت ما أثبت الرب لنفسه؛ بلا تعطيل ولا تحريف، وبلا تمثيل ولا تكييف.

وأما أهل البدع، فعلى جري عادتهم؛ أنكروا هذا، وقالوا: يلزم منه النُّقلة والحركة، والمقصود بمجيئه: مجيء أمره، كما قال: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، أو مجيء ملائكته، كما قال: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ أَمۡرُ رَبِّكَۚ﴾ [النحل: ٣٣]، والواقع أن ذلك دليل عليهم لا لهم، فإنه لما أراد إتيان الأمر، أو الملائكة، أسند ذلك إليهم، فكذلك لما أراد إتيانه بذاته أسند ذلك إلى نفسه، وكل عربي قُح يفهم من هذه الآيات أن الرب يجيء، وأن الله يأتي؛ لا يفهم سوى ذلك، وصنيع هؤلاء المتأولين المحرفين يقتضي إثبات محذوف، والأصل عدم الحذف، لكن القوم، لما استصحبوا المقدمات الباطلة، وأعملوا المنطق الفاسد، واعتقدوا ثم استدلوا، أنتج لهم ذلك الانحراف والضلال، فحرفوا الكلِّم عن مواضعه.

والإتيان أو المجيء المذكور في النصوص إما:

- **أن يأتي مقيدًا:** فيتقيد بما قيد به، ولا يكون صفة؛ مثال المجيء المقيد: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٍ﴾ [الأعراف: ٥١]؛ فالآية لا تدل على إثبات صفة المجيء لله، والمعنى: أنزلنا إليهم كتابًا؛ لأنها قد قُيدت بكتاب، ومثال الإتيان المقيد: قوله تعالى: ﴿فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٍ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢]؛ فهذا النص لا يدل على إثبات صفة الإتيان؛ لأنه قيده بالفتح والأمر.

- **أن يأتي مطلقًا:** فيدل على الصفة؛ كآيات الباب.



إثبات الوجه لله سبحانه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٧]، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]).

الشَّرح

هذا شروع من المؤلف في إثبات الصفات الخبرية لله تعالى، ومنها: الوجه، واليدان والعينان، والصفات الخبرية: هي التي لا سبيل إلى إثباتها إلا الخبر الصحيح، وليس للعقل مدخلٌ في إثباتها، ولكنه لا يحيلها؛ فلو لم يأت نص على إثباتها، وبقيت الدهر كله تفكر بعقلك: هل لله تعالى وجه، ويدان، وعينان؟ ما أمكنك أن تصل إلى جواب، حتى أتى بذلك النص الصحيح الصريح.

ولكن هذا التعريف ينطبق على بعض الصفات الفعلية؛ كالنزول، والاستواء، والمجيء؛ ولهذا عرَّف بعض العلماء الصفات الخبرية بأنها: ما يقابلها لدى المخلوقين أبعاض وأجزاء، مع تنزيه الله عن الأبعاض والأجزاء، بالمعنى البشري الدال على افتقار بعضها لبعض.

وطريقة أهل السُّنَّة والجماعة أنهم يسوقون الكلام، في باب الصفات، سوقًا واحدًا؛ لا يفرقون بين الصفات الذاتية، والفعلية، والخبرية، بينما اضطربَ ميزان أهلُ البدع؛ فصاروا يقولون في موضع ما يخالفونه في موضع، ويفرقون بين المتماثلات، مع أنها من بابة واحدة.

فيعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن لربنا، سبحانه وبحمده، وجهًا كريمًا، لائقًا بجلاله وجماله وكماله؛ لا يشبه وجوه المخلوقين، حجابه النور، كما قال ﷺ: «**حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(١).

أما أهل البدع فقد ضاق عطنهم عن إثبات صفة الوجه، ورأوا أن ذلك يقتضي تمثيله بالمخلوقين؛ فقد تبادر إلى أذهانهم أن الوجه هو الوجه المعهود في الأذهان، الذي يرونه في الموجودات؛ من الإنسان، والحيوان، وغير ذلك؛ فالواقع أنهم شبهوا أولًا، وعطلوا ثانيًا؛ هذه محنة المُعطلة، يتبادر إلى أذهانهم من النصوص التشبيه أو التمثيل، فيفرون منه إلى التعطيل والتحريف، فيجمعون بين السيئتين، ولو أنهم أعطوا النصوص حقها، لوسعهم أن يُثبتوا لله ما أثبت لنفسه إثباتًا حقيقيًّا، دون أن تلحقهم شانئة التمثيل.

وزعم أهل الكلام أن المراد بالوجه: الثواب، أو الذات؛ قال الشيخ مرعي الكرمي: (وتأويله عند أهل التأويل: أن المراد بالوجه الذات المقدسة، فأما صفة زائدة على الذات فلا. وهو قول المعتزلة وجمهور المتكلمين)(٢)، وهذا تحريف يُوقعهم في لوازم، لا يستطيعون الفكاك منها؛ فكيف يضاف الشيء إلى نفسه في قوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ [الرحمٰن: ٢٧]؛ بزعمهم أن الوجه هو الذات؟! وكان يُغني عنه أن يقول: ويبقى ربك، وإنما قال الله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ لمعنى مراد، وهو أن له وجهًا حقيقيًّا، سبحانه وبحمده، ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ٢٧﴾؛ فـ ﴿ذُو﴾ من الأسماء الخمسة، وقد جاءت مرفوعة، فهي

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٧٩).
(٢) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (١٤١).

صفة لمرفوع، ولو كان الوجه هو الذات، لقال: ويبقى وجه ربك ذي الجلال والإكرام؛ كما قال في آخر السورة: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾ [الرحمٰن: ٧٨]؛ مما يدل على أن الله أراد إثبات وصف حقيقي، قائم بالذات، وهو الوجه.

ومن زعم أن المُراد: الثواب، لزمه أن لا يبقى إلا ثواب ربك، فقط، بعد هلاك جميع الأشياء! وهذا غير مراد قطعًا؛ لأن الآية قبلها: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾، وتفسير هذه الآية قوله في الآية الأخرى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ فقد استثنى الله من شاء، أما عامة الخلائق والكائنات فإنها تهلك، ويبقى الرب ﷻ؛ ولهذا كان من أسمائه الحسنى: «الآخر»، فكان النبي ﷺ، إذا ناجى ربه يقول: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ**»(١)، وفي الصحيحين من حديث أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمٰوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**»(٢).

وإنما عبر بالوجه عن الذات؛ لأن الوجه في لُغة العرب أشرف ما يكون من الإنسان؛ فتقول لصاحبك: ما فعلت هذا إلا إكرامًا لوجهك! فأشرف ما في الكينونة في لُغة العرب هو الوجه؛ لأنه المقصود بالمواجهة والمقابلة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، وقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠].

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٨١٢)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٧٨٧).

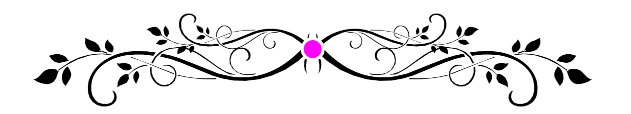
فالواجب إثبات ما أثبت الرب لنفسه، وألا نتلجلج في ذلك، ولا نستشنع شيئًا منها، فإنه سبحانه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قِيلًا، وأحسن حديثًا من خلقه، وليس لأحد أن يستدرك على الله ما قال، وليس بأغير على الله من رسول الله ﷺ. والصحابة الكرام ﷺ ذوو القريحة النقية، والسليقة العربية، لم يفهموا من إثبات الوجه ما فهمه المُتأخرون من التمثيل بالمخلوقين؛ بل اعتقدوا أن لله تعالى وجهًا كريمًا يليق بجلاله وعظمته؛ لا يُماثل وُجوه المخلوقين؛ فالواجب إثبات هذه الصفة الخبرية، والحذر من الوُقوع في التحريف والتعطيل، أو التمثيل والتكييف.

أما الأثر المسلكي للإيمان بصفة الوجه لله تعالى فهو التعلق به سبحانه، ورجاء رؤية وجهه الكريم؛ فأعظم لذة يُمكن أن ينالها مؤمن أن يرى وجه الله، ألم تروا أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه، تاقت نفسه إلى رؤيته، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣]. وقد كان نبيُّنا ﷺ يقول في مُناجاته لربه: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**»[(١)].

وهكذا كل مؤمن يشتاق أن يرى ربه وإلٰهه ومحبوبه؛ لأن معنى التأله: الانجذاب؛ فهذا يجعل الإنسان في شوق دائم، وتَوَق، وتطلع لبلوغ هذه النعمة العظيمة، كما أن ذلك يُنشئ الإخلاص والتوحيد؛ فكلما هممت بعمل استحضرت ابتغاء وجه ربك الأعلى، كما وصف الله الأتقى من عباده بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠﴾ [الليل: ١٩، ٢٠]، فيحمله ذلك على فعل الخيرات، وبذل النفقات، والصبر على الكربات، ابتغاء وجه الله، كما تقدم في الآيات.

---

(١) أخرجه النسائي: رقم (١٣٠٥)، وأحمد: رقم (١٨٣٢٥)، وابن حبان في صحيحه: رقم (١٩٧١).



إثبات اليدين لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]).

الشَّرح

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن لله سبحانه وتعالى يدين حقيقيتين، مبسوطتين بالعطاء والنعم، لا تُماثلان أيدي المخلوقين، وقولهم: (حقيقيتين) لا يقتضي أن تكون كأيدي المخلوقين، لكنهما يدان حقيقة؛ لا مجازًا، موصوفتان بالبسط، والقبض، والطي، والكف، واليمين، والأصابع، وغير ذلك من الصفات، التي تُضاف إلى الأيدي الحقيقية؛ لكن على ما يليق به سبحانه وتعالى.

قوله: (﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]): الخطاب لإبليس، حين أبى واستكبر عن السجود لآدم، وقد عبَّر عنهما بصيغة التثنية، مما يقطع بإرادة الحقيقة.

قوله: (﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤]): تلك إحدى سوءات يهود، عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة؛ أرادوا وصفه، سبحانه، بالبخل والإمساك، كما يقبض البخيل يده عن العطاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩].

قـولـه: (﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤]): هذا دعاء عليهم، وردٌّ لفريتهم، فلا تجد يهوديًّا إلا بخيلًا! بل تجد في جميع الثقافات، والروايات، والأدبيات العالمية، وصف اليهودي بالبخل، والإمساك، والربا والابتزاز، والجشع[(١)]؛ فحقق الله عليهم هذه السُّبَّة أبد الدهر، كما ضرب عليهم الذلة والمسكنة.

ولذلك لما سيطر اليهود على الاقتصاد العالمي أسسوا النظام الربوي، الذي يقوم على ابتزاز الآخرين واستلاب حُقوقهم، وعدم الإحسان والفضل والبذل؛ لأن هذه أخلاق يهود، قاتلهم الله.

والله تعالى لم يُنكر على اليهود إثبات اليد، كما ادعى بعض المغالطين، وإنما أنكر عليهم وصفها بأنها مغلولة، ولهذا قال بعدها: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾، فأثبتهما اثنتين كريمتين، مبسوطتين بالنفقة.

وقد أبى أهل البدع إثبات اليدين لله تعالى؛ لشُبهتهم المتهالكة، وهي أن إثبات ذلك يقتضي التمثيل! وزعموا أن المُراد باليد، النعمة أو القُدرة؛ قال الشيخ مرعي الكرمي: (وذهبت المعتزلة، وطائفة من الأشعرية، إلى أن المراد باليدين في قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ معنى النعمتين، وطائفة من الأشعرية أن المراد باليدين هنا: القدرة)[(٢)].

والجواب عنهم من وجوه:

أولًا: صنيعكم هذا صرف للفظ عن ظاهره إلى خلاف ظاهره بلا دليل، والأصل في الكلام أنه على حقيقته؛ فمن ادعى خلاف الحقيقة فعليه الدليل المُوجب لنقل الكلام من ظاهره إلى مجازه؛ ولا دليل

---

(١) ومن أشهرها رواية «تاجر البندقية» للروائي الإنجليزي «وليم شكسبير».

(٢) أقاويل الثقات في تأويل آيات الصفات: (١٤٩).

عندكم، ودعوى الوُقوع في التمثيل دعوى كاذبة؛ لا يلزم منها ما توهمتم، وسبق إلى أذهانكم.

ثانيًا: أن اليد وردت في الكتاب والسُّنَّة بصيغة التثنية، فيلزمكم، على قولكم بأن اليد بمعنى النعمة، لوازم فاسدة؛ منها: حصر نعم الله بنعمتين! ونعم الله كثيرة؛ كما قال: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾ [لقمان: ٢٠]، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم.

ويلزمكم على تفسير اليد بالقدرة، إثبات قُدرتين! والله تعالى له قدرة واحدة يقدر بها على جميع الأشياء، بإجماع أهل السُّنَّة، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم، وقد اضطرهم ذلك إلى مزيد من التأويل المتكلف؛ فقالوا: (المراد بالتثنية باعتبار نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، أو باعتبار قوة الثواب، وقوة العقاب)[1]!

ثالثًا: مقتضى قولكم: عدم الفرق بين آدم وغيره من المخلوقات! والله تعالى كرم آدم عليه السلام بأن خلقه بيديه، فلو كان معنى: اليد: القدرة لم يكن هناك فرق بين آدم عليه السلام وغيره من المخلوقات، ولاحتج إبليس على ربه حينما قال له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾، وقال: وأنا يا رب خلقتني بيديك؛ على اعتبار أن اليد هي القدرة، لكن إبليس أفقه من هؤلاء المحرفين؛ يعلم أن لله سبحانه وتعالى يدين حقيقيتين خلق بهما آدم عليه السلام ولهذا حسده، وأبى واستكبر أن يسجد له، وهؤلاء القوم لم يُدركوا ما أدرك إبليس؛ فأي جهل أن يكون إبليس أعلم بالله منهم!

وكل قول باطل يلزم عليه من اللوازم الفاسدة ما لا يستطيع المُبطل

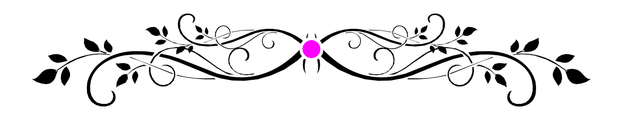
---

(١) انظر: أقاويل الثقات في تأويل آيات الصفات: (١٥٠).

أن ينفك منه؛ فيقع بين خيارين، لا ثالث لهما: إما أن يلتزم بلازمه؛ فيكفر، أو يرده ويبرأ منه؛ فيلزمه الرجوع عن مقالته.

والأثر المسلكي للإيمان بصفة اليدين أن يعلم المؤمن أن ربه فعّال؛ يأخذ ويقبض، ويبسط، ويعطي، ويفعل ما يشاء؛ فيكون إيمانه بإثبات اليدين لله تعالى يتراوح بين الخوف من بطشه، والرجاء لثوابه.





إثبات العينين لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٣، ١٤]، ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]).

الشَّرْح

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن لله سبحانه وتعالى عينين اثنتين، يُبصر بهما حقيقة؛ لا تُماثلان أعين المخلوقين؛ فما أُضيف إلى الله يختص به، وما أضيف إلى المخلوق يختص به؛ بل إن هذا الاختصاص حاصل في جميع الموجودات؛ فيقال مثلًا: عين الإنسان، وعين الصقر، وعين الكاميرا، وهكذا، ولا يلزم من اتفاق الأسماء اتفاق الحقائق، والمسميات.

قوله: (﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]): الصبر في اللغة: الحبس والمنع، والخطاب لنبيِّه ﷺ، خطاب للأمة بعده.

وحكم الله نوعان: حُكم كوني قدري، وحُكم ديني شرعي، والصبر واجب فيهما؛ فالحكم الكوني القدري هو ما يُقدره الله تعالى من المصائب والبلاء؛ فيجب على الإنسان، الصبر عليه، بحبس النفس عن الجزع، واللسان عن التشكي والسخط، والجوارح عن شق الجيوب ولطم الخدود، والدعاء بدعوى الجاهلية.

أما الصبر على حُكم الله الشرعي الديني فيكون بامتثال الأوامر، واجتناب المناهي، وعدم الاعتراض على حكمه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

قوله: (﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾): أي: بمرأى منا، نراك بأعيننا؛ فدلت على إثبات العينين لله، وهاهنا شُبهة يثيرها بعض المخالفين؛ يقولون: أنتم يا أهل السُّنَّة مُضطرون للتأويل مثلنا! لأنه لا يُمكن أن تكون عين الرب ظرفًا مكانيًّا للنبي ﷺ! والحقيقة أنهم أُتوا بسبب عُجمتهم، وعدم ذائقتهم العربية؛ فإن معنى قول الله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ لا يقتضي من حيث الوضع العربي أن تكونا ظرفًا لذات المرئي؛ كما يقول الأب المؤدب لابنه: أنت بعيني؛ لا يقصد أنه بين أهدابه، وأشفار عينيه؛ يريد أراك بعيني، وكما يقول الشرطي للجاني أو المتهم: اذهب وأنت في عيني؛ مُراده تحت نظري، أُبصرك وأُتابعك، وهذا استعمال حقيقي؛ لا تجوُّز فيه البتة، وأهل السُّنَّة أعرف الناس بلغة العرب، وخطابه لعباده.

قوله: (﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: ١٣]): ﴿وَحَمَلْنَاهُ﴾: المحمول: هو نوح عليه السلام ومن معه من المؤمنين، وأزواج المخلوقات. قال تعالى: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود: ٤٠].

(﴿عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾) اللوح: هو الخشبة العريضة، والدُّسر: المسامير، والمراد الفلك الذي صنعه نوح عليه السلام بتعليم الله إياه.

قوله: (﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر: ١٤]): ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: أي: بمرأى منا، نراها بأعيننا، وتحت كلاءتنا ورعايتنا؛ فدلت

على إثبات العينين لله تعالى، وأنه يُبصر بهما حقيقة، وليس فيه تأويل، ولا تحريف.

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾: يعني: انتصارًا لنوح عليه السلام الذي كفر به قومه.

قوله: (﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩]): ﴿وَلِتُصْنَعَ﴾: أي: لتنشأ وتترعرع.

﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾: أي: بمرأى مني، أراك بعيني؛ فدلت على إثبات صفة العين.

إشكال وجوابه:

وهاهنا إشكال متبادر للذهن، وهو أن النصوص، في إثبات صفة اليدين والعينين، وردت تارة بالإفراد، وتارة بالتثنية، وتارة بالجمع:

- فاليد بصيغة الإفراد؛ كما في قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

وبصيغة التثنية؛ كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وبصيغة الجمع؛ كما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ [يس: ٧١]

- والعين بصيغة الإفراد؛ كما في قوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه: ٣٩].

ولا نجد في القرآن آية فيها ذكر العينين بصيغة التثنية، وإنما ورد في السُّنَّة حديث فيه مقال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ بَيْنَ**

عَيْنَي الرَّحْمٰنِ»[(١)]، ويُمكن أن نستغني عنه بدليل صحيح، وإن لم يكن صريحًا في لفظه، لكنه صريح في معناه، وهو أن النبي ﷺ، لما ذكر الدجال، قال: «**أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»[(٢)]؛ فدل على أن الربّ ﷻ له عينان اثنتان؛ لأنه ضد العور.

والعين بصيغة الجمع؛ كما في قوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤].

فلِمَ جرى اعتبار التثنية دون الإفراد والجمع؟ **فالجواب أن يقال:**

أولًا: المفرد المضاف لا يُنافي التثنية ولا الجمع؛ **ففي اللغة:** المفرد المضاف يعم؛ فلو قال قائل: رأيت الحادث بعيني، لم يفهم أنه أعور، ولو قال: مشيت إلى المسجد برجلي؛ لم يفهم أنه مبتور إحدى الرجلين؛ لأن المفرد إذا أضيف تناول التثنية والجمع.

ثانيًا: أما التوفيق بين التثنية والجمع فيُقال: إن الجمع الوارد في قوله: ﴿بِأَيْدِينَآ﴾، ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، لا يُقصد به التكثير، وإنما يُقصد به التعظيم؛ فإن الرجل المعظم، من بني آدم، إذا أراد أن يعبر عن نفسه، قال: نحن فلان بن فلان، أمرنا بما هو آت، وهو شخص واحد، ولما كانت (نا)، في أصل الوضع، تدل على الفاعلين، وقصد بها هنا التعظيم، لا التكثير، ناسب أن يكون المضاف على شاكلة المضاف إليه بصيغة الجمع؛ (أيدي)، (أعين)؛ ليكون تعظيمًا مُضاعفًا.

فتبين بهذا أن الجمع في قوله: ﴿أَيْدِينَا﴾ و(أَعْيُنِنَا) لا يُراد به حقيقة الجمع، الذي بمعنى التكثير، وإنما يُراد به التعظيم والمُشاكلة بين المُضاف والمُضاف إليه، وقد نطقت بذلك الآيات، وجاء ذلك صريحًا

---

(١) أخرجه محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة: رقم (١٢٨)، وذكره العقيلي في الضعفاء: (١/ ٢٥٩)، عند ترجمة إبراهيم بن يزيد الخوزي.

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٧١٣١)، ومسلم: رقم (٢٩٣٣).

في السُّنَّة: «**يَطْوِي اللهُ ﷻ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ**»(١)، وكذلك في صفة العينين، قال: «**وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ**»(٢)؛ فدل ذلك على أن المقصود التثنية، لا الإفراد، ولا الجمع؛ فبذلك يزول الإشكال بين هذه الصيغ المُختلفة، وأن القول بالتثنية ليس تحكمًا، وإنما هو الموافق المطابق للنصوص، وللغة العرب.

وقد أنكر أهل البدع ما أثبت الرب لنفسه، وأولوا صفة العينين إلى العلم، وهُم مُقرون سلفًا بأنه لا دليل من الأثر على تأويلاتهم، وأنهم اقترحوها من باب الاجتهاد في حمل كلام الله على معان لائقة، حتى لا يعتقد العامة، بزعمهم، اعتقاد التمثيل! ولو سلم العامة منهم لكان خيرًا لهم، فإن العامة باقون على الفطرة الأصلية في تنزيه الله عن النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين؛ لكن المتكلمين أفسدوا عقائد العامة، ونقلوهم من الفهم الفطري العفوي الصحيح، إلى هذه اللوثات الباطلة، فأوقروا في قُلوب العامة أن هذه الآيات تدل على التمثيل، وأن الواجب صرفها عن ظاهرها، واستبدالها بمعان أُخرى، ولو بلا دليل! فأي مُجازفة ارتكبوها، وأي تضليل فعلوه في أعظم، وأخطر أبواب الدين، وهو باب العلم بالله تعالى؟!

والواجب أن نعتصم بالكتاب والسُّنَّة، ونُثبت ما أثبت الرب لنفسه؛ فالأدلة متوافرة على إثبات الصفات الخبرية لله، كما الصفات المعنوية والفعلية؛ فعلينا أن نتقبلها قبولًا حسنًا، وألا نضيق بها ذرعًا، وألا نستشنع شيئًا منها، وأن نعتقد فيها المثل الأعلى الذي أثبته الله ﷻ لنفسه

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٨١٢)، ومسلم: رقم (٢٧٨٨)، واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٧١٣١)، ومسلم: رقم (٢٩٣٣).

بقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠]، وقوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، وأن نُنزه الله تعالى عن كل نقص وعيب، ومُماثلة المخلوقين؛ فنُثبت لله إثباتًا بلا تمثيل، ونُنزه الله تعالى تنزيهًا بلا تعطيل.

هذه هي الطريق السوية، التي تُثمر العلم، والحكمة، والسلامة، وما سواها فسُبل ضلالة؛ تهوى بصاحبها في الدركات. ما حُجة هذا المُحرِّف، يوم القيامة، إذا قال له ربه: من أين لك أن اليد بمعنى النعمة؟ من أين لك أن اليد بمعنى القدرة؟ من أين لك أن الوجه بمعنى الثواب؟ من أين لك بأن العين بمعنى العلم؟ لا دليل له، ولا أثارة من علم، وإنما هي بنات أفكار، وظنون لا تغني من الحق شيئًا؛ ولذلك تختلف تأويلاتهم فيها، حتى ألف بعضهم (أقاويل الثقات في تأويل الصفات)، يذكر فيه للصفة الواحدة عدة تأويلات! ولا يُمكن أن يكون هذا العلم العظيم الشريف في مهب الريح؛ نهبًا لكل مقترح، وبابًا لكل طارق.

والأثر المسلكي للإيمان بصفة العينين لله تعالى أنه يحمل المؤمن على توقي أن يراه الله تعالى بعينيه على حال يسخطها، كما يحمله على أن يتعرض لربه أن يراه بعينيه على حال يرضاها؛ من قيام، أو صيام، أو صدقة، أو غير ذلك.

۞ ۞ ۞

إثبات السمع والبصر لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١]، وَقَوْلُهُ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُۘ﴾ [آل عمران: ١٨١]، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ٨٠﴾ [الزخرف: ٨٠]، ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ٤٦﴾ [طه: ٤٦]، وَقَوْلُهُ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤﴾ [العلق: ١٤]، ﴿ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ٢٢٠﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢٢٠]، ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَۖ﴾ [التوبة: ١٠٥]).

الشَّرح

قوله: (﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]): دلت هذه الآية على إثبات السمع لله تعالى بعدة صيغ: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ و﴿ٱللَّهُ يَسْمَعُ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾، والسمع هو إدراك الأصوات؛ فللَّه تعالى سمع حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وسبب نزول هذه الآية، التي هي مُستهل سورة المُجادلة، ما جاء عَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ قَالَتْ: (فِيَّ وَاللهِ وَفِي أَوْسِ بْنِ صَامِتٍ أَنْزَلَ اللهُ ﷻ صَدْرَ سُورَةِ الْمُجَادَلَةِ؛ قَالَتْ: كُنْتُ عِنْدَهُ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ سَاءَ خُلُقُهُ وَضَجِرَ، قَالَتْ: فَدَخَلَ عَلَيَّ يَوْمًا فَرَاجَعْتُهُ بِشَيْءٍ فَغَضِبَ، فَقَالَ: أَنْتِ عَلَيَّ كَظَهْرِ أُمِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ فَجَلَسَ فِي

نَادِي قَوْمِهِ سَاعَةً، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ، فَإِذَا هُوَ يُرِيدُنِي عَلَى نَفْسِي، قَالَتْ: فَقُلْتُ: كَلَّا وَالَّذِي نَفْسُ خُوَيْلَةَ بِيَدِهِ، لَا تَخْلُصُ إِلَيَّ وَقَدْ قُلْتَ مَا قُلْتَ حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِينَا بِحُكْمِهِ، قَالَتْ: فَوَاثَبَنِي وَامْتَنَعْتُ مِنْهُ، فَغَلَبْتُهُ بِمَا تَغْلِبُ بِهِ الْمَرْأَةُ الشَّيْخَ الضَّعِيفَ، فَأَلْقَيْتُهُ عَنِّي، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجْتُ إِلَى بَعْضِ جَارَاتِي فَاسْتَعَرْتُ مِنْهَا ثِيَابَهَا، ثُمَّ خَرَجْتُ حَتَّى جِئْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَجَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَذَكَرْتُ لَهُ مَا لَقِيتُ مِنْهُ، فَجَعَلْتُ أَشْكُو إِلَيْهِ ﷺ مَا أَلْقَى مِنْ سُوءِ خُلُقِهِ، قَالَتْ: فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَا خُوَيْلَةُ، ابْنُ عَمِّكِ شَيْخٌ كَبِيرٌ فَاتَّقِي اللهَ فِيهِ**»، قَالَتْ: فَوَ اللهِ مَا بَرِحْتُ حَتَّى نَزَلَ فِيَّ الْقُرْآنُ، فَتَغَشَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، مَا كَانَ يَتَغَشَّاهُ، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ فَقَالَ لِي: «**يَا خُوَيْلَةُ، قَدْ أَنْزَلَ اللهُ فِيكِ وَفِي صَاحِبِكِ**»، ثُمَّ قَرَأَ عَلَيَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾ [المجادلة: ١] إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾)[١]. وعَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الْأَصْوَاتَ، لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ تَشْكُو زَوْجَهَا، فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾ [المجادلة: ١] الْآيَةَ)[٢]، والمجادلة: هي الخصومة في الكلام؛ مأخوذة من (الجدل)، وهو الفتل، لشدته.

قوله: (﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾): تقول ما ورد في بعض الروايات: (يا رسول الله إنَّ لي مِنْهُ صِبْيَةً صِغَارًا، إنْ ضَمَمْتُهُمْ إِلَيْهِ ضَاعُوا، وَإِنْ

(١) أخرجه أحمد: رقم (٢٧٣١٩)، وابن حبان: رقم (٤٢٧٩)، وصححه ابن حبان، والألباني.

(٢) أخرجه ابن ماجه: رقم (١٨٨)، والنسائي: رقم (٣٤٦٠)، وأحمد: رقم (٢٤١٩٥)؛ وأورده البخاري: تعليقًا ـ باب قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ١٣٤﴾ [النساء: ١٣٤] (٩/ ١١٧)، وصححه الألباني.

ضَمَمْتُهُمْ إلَيَّ جَاءُوا)[١].

قوله: (﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ﴾): المُحاورة: المُراجعة في الكلام.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ١﴾): فدل ذلك على إثبات اسمين من أسماء الله الحسنى، هما: السميع، والبصير، ودل على إثبات وصفين، وهما: السمع، والبصر، وأتيا على صيغة (فعيل) للمبالغة؛ لأن الله تعالى له منهما المثل الأعلى، كسائر الصفات؛ فحقيقة السمع: إدراك الأصوات، وحقيقة البصر: إدراك المرئيات، وهذا معنًى مشترك في الأذهان، ويزول الاشتراك في الخارج عند إضافته إلى الأعيان؛ فيختص بمن أضيف إليه؛ فالله تعالى له منه المثل الأعلى، وللمخلوق المثل الأدنى.

قوله: (﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ [آل عمران: ١٨١]): القائلون هم اليهود؛ لأن النبي ﷺ، كان يتلو: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، فكانوا يتندرون، ويستهزئون، ويقولون: الله يسألنا القرض، الله فقير ونحن أغنياء؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (قَالَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه لِفِنْحَاصَ، وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَأَحْبَارِهِمْ: اتَّقِ اللهَ وَأَسْلِمْ، فَوَ اللهِ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مِنْ عِنْدِ اللهِ، جَاءَكُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِهِ، تَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عَنْدَكُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ، فَقَالَ فِنْحَاصُ: يَا أَبَا بَكْرٍ، وَاللهِ مَا بِنَا إِلَى اللهِ عز وجل مِنْ فَقْرٍ، وَإِنَّهُ إِلَيْنَا لَيَفْتَقِرُ، وَمَا نَتَضَرَّعُ إِلَيْهِ كَمَا يَتَضَرَّعُ إِلَيْنَا، وَإِنَّا عَنْهُ لَأَغْنِيَاءُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا لَمَا اسْتَقْرَضَنَا أَمْوَالَنَا كَمَا يَزْعُمُ صَاحِبُكُمْ، يَنْهَاكُمْ عَنِ الرِّبَا وَيُعْطِينَاهُ، وَلَوْ كَانَ عَنَّا غَنِيًّا مَا أَعْطَانَا الرِّبَا.

---

(١) المحرر الوجيز لابن عطية: (٦/ ٣١٥)، وتفسير الثعالبي: (٢٦/ ١٢٢)، وتفسير البغوي: (٨/ ٤٧).

فَغَضِبَ أَبُو بَكْرٍ فَضَرَبَ وَجْهَ فِنْحَاصَ. فَأَخْبَرَ فِنْحَاصُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ: «**مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟**» فَأَخْبَرَهُ، فَجَحَدَ ذَلِكَ فِنْحَاصُ وَقَالَ: مَا قُلْتُ ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ الْآيَةَ [آل عمران: ١٨١]، إِلَى قَوْلِهِ ﷻ: ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾ [آل عمران: ١٨١])[١].

الشاهد منه هو قوله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ﴾؛ فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى، ودل على أنه ﷻ يسمع الأشياء في أحيانها وأوقاتها؛ لأنه عبر بصيغة الماضي، وعبر بصيغة المضارع، فالله تعالى يسمع الشيء وقت حصوله، وصدوره من قائله؛ مهما دق ومهما خفي؛ يرى ويسمع دبيب النملة السوداء، على الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، سبحانه وبحمده.

وفي الآية دليل على خُبث اليهود، ولؤم طباعهم، وما زالوا.

قوله: (﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ﴾ [الزخرف: ٨٠]): هؤلاء هم المُنافقون، الذين كانوا إذا خلا بعضهم ببعض أخذوا يقعون في النبي ﷺ، والمؤمنين، ويحيكون المؤامرات؛ فعجَّب الله من حالهم، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾: أي: هل يظنون؟! فالاستفهام للتعجب، والإنكار.

والسر: ما يكون من حديث النفس، والنجوى: حديث المتناجيين ويكون همسًا؛ فالله تعالى يسمع هذا وهذا؛ فما كان أعلى منه فمن باب أولى.

قوله: (﴿بَلَىٰ﴾): يعني: بلى نسمع، خلافًا لما توهموا؛ فدل ذلك على إثبات السمع لله تعالى سمعًا حقيقيًّا يليق بجلاله.

(١) تفسير الطبري: (٧/ ٤٤١).

قوله: (﴿وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾): الرُّسل هنا: الملائكة الكرام، قال تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق: ١٨]، فتعددت طرق الإدانة والإثبات.

قوله: (﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]): المخاطبان: موسى وهارون عليهما السلام لما قالا لربهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [طه: ٤٥]، يعني: أن فرعون قد يرتكب حماقة، فيُهلكنا، فطمأنهما ربُّهما بقوله: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾، وهذه معيّة خاصة، يأتي بيانها في موضعها.

قوله: (﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾): دلَّت على إثبات السمع والبصر لله تعالى كما يليق بجلاله.

قوله: (﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [العلق: ١٤]): نزلت هذه الآية في الرد على أبي جهل؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قَالَ: فَقِيلَ: نَعَمْ، فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ. قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي، زَعَمَ لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجِئَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ، وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»)[1]. وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَرَّ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ للنبي ﷺ: (أَلَمْ أَنْهَكَ، فَانْتَهَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَقَالَ لَهُ أَبُو جَهْلٍ: لِمَ تَنْتَهِرُنِي يَا مُحَمَّدُ؟ فَوَ اللهِ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي، قَالَ: فَقَالَ جِبْرِيلُ عليه السلام: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٧]، قَالَ:

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٧٩٧).

فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «وَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ، لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ الْعَذَابِ»[(١)]؛ ففي الآية إثبات الرؤية لله، وهي البصر.

قوله: (﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٨ ـ ٢٢٠]): ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ﴾: الخطاب للنبي ﷺ.

﴿حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾﴾: أي: في صلاتك، أو يراد بها مطلق القيام.

﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾: إما أن يراد بالساجدين المصلين، لكون السجود أشرف أركان الصلاة، فهو يراه ﷻ أثناء صلاته بالمسلمين، أو أن المراد بالساجدين، عامة المسلمين؛ لأنهم أهل السجود لله تعالى، وربما أيدهُ قوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ﴾؛ فهو يتقلب بين ظهرانيهم.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾: جمع الله ﷻ بين هذين الاسمين الحسنين معرَّفين في خمسة عشر موضعًا في القرآن، وبصيغة (سميع عليم) في ستة عشر موضعًا، واقترانهما يدل على حسن مضاعف؛ فإن سمعه مقرون بعلم، كما أن علمه مؤيد بسمع.

قوله: (﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]): المخاطبون بهذا: المُنافقون، وقد كانوا يحيكون المؤامرات والدسائس، ويعملون أعمالًا في الخفاء؛ فتهددهم الله، وتوعدهم على لسان نبيّه ﷺ، بأنه سيرى عملهم، وسيُريه نبيّه والمؤمنين، ويفضحهم؛ فأثبت الله لنفسه رؤية، وأثبت لرسوله ﷺ رؤية، وأثبت للمؤمنين رؤية، وليست رؤية كرؤية؛ فالرؤية المُضافة إلى الله تليق به، والرؤية المُضافة إلى النبي والمؤمنين تليق بهم.

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (٢٣٢٠)، واللفظ له، والترمذي: رقم (٣٣٤٩).

تنبيه: يخطئ بعض الناس فيستدلون بهذه الآية عند القيام ببعض المشاريع والأعمال الخيرية؛ يظنون أنها مُناسبة للمقام، وأنها دعوة إلى العمل الصالح، لكن هذه الآية جاءت في سياق ذم المنافقين وتهديدهم؛ فلا يحسن الاستشهاد بها في مثل هذه المناسبات.

والأثر المسلكي لإيمان المؤمن بأن الله يسمع كلامه، ويرى مكانه، يسكب في قلبه الطُمأنينة؛ لأنه يشعره بمعيته سبحانه، وأنه ليس بمضيعة.

ومن آثارها المسلكية: أن إيمانه بسمع الله يحمله على أن يعقل لسانه عما يسخطه؛ فلا يتكلم بغيبة، ولا نميمة، ولا شتيمة، فإذا همّ بكلمة ذكر أن الله يسمع كلامه؛ فلا يخرج منه ما يسخطه، وبالمقابل، فإن إيمانه بسمع الله تعالى يحمله على أن يتملق ربه وإلٰهه بالكلم الطيب؛ فيلهج بالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر؛ كما في حديث بلال بن الحارث المُزني، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهِ ﷻ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ ﷻ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهِ ﷻ، مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ، يَكْتُبُ اللهُ ﷻ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**. قَالَ: فَكَانَ عَلْقَمَةُ يَقُولُ: كَمْ مِنْ كَلَامٍ قَدْ مَنَعَنِيهِ حَدِيثُ بِلَالِ بْنِ الْحَارِثِ)[(١)].

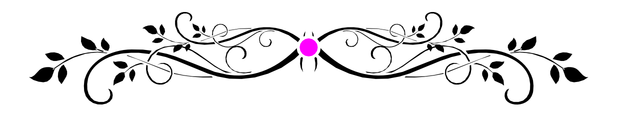
وإيمانه برؤية الله ﷻ وبصره يحمله على أن يستحي من الله أن يراه على ما يسخطه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: **«أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحِيَ مِنَ اللهِ ﷻ،**

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٥٨٥٢)، والترمذي: رقم (٢٣١٩)، وابن ماجه: رقم (٣٩٦٩)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٢٨٠)، والحديث أصله في صحيح البخاري.

كَمَا تَسْتَحِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ»[(١)]، ويحفزه على أن يري الله من نفسه خيرًا.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه أحمد في الزهد: رقم (٢٤٨)، والطبراني في الكبير: رقم (٥٥٣٩)، واللفظ له، وقال الهيثمي، (في مجمع الزوائد): رجاله وثقوا على ضعف في بعضهم، (١٠ ـ ٢٨٤)، وصححه الألباني، في صحيح الجامع: رقم (٤٣٠٦).



إثبات المكر والكيد لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾ [الرعد: ١٣]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران: ٥٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل: ٥٠]، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: ١٥، ١٦]).

الشَّرح

كل ما وصف الله به نفسه، أو وصفه به نبيّه ﷺ، فهو حق على حقيقته؛ يجب إجراؤه على ظاهره، ولا يُتعرض له بأي لون من ألوان التحريف، أو التعطيل، أو التكييف، أو التمثيل، سواءٌ في ذلك الصفات الذاتية المعنوية، أو الصفات الخبرية، أو الصفات الفعلية؛ فالقول فيها واحد لا تفاوت فيه.

وهذه طائفة من الصفات التي تُضاف إلى الله تعالى، كما أضافها لنفسه، لكنها تُضاف إليه مُقيدة، لا مُطلقة؛ وذلك لأن مدلولاتها تنقسم إلى محمود ومذموم، فلما كان الوهم قد يتطرق إلى العُقول باحتمال المعنى المذموم؛ وجب أن تُضاف إلى الله تعالى مُقيدة.

قال ابن فارس في ذكر أحد معاني المحل: (مَحَلَ بِهِ، إِذَا سَعَى بِهِ)[1]،

---

(١) معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٣٠٢).

وقال في تعريف المكر: (الِاحْتِيَالُ وَالْخِدَاعُ)[١]، وقال في تعريف الكيد: (الْمُعَالَجَةُ. قَالُوا: وَكُلُّ شَيْءٍ تُعَالِجُهُ فَأَنْتَ تَكِيدُهُ. هَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْبَابِ، ثُمَّ يُسَمُّونَ الْمَكْرَ كَيْدًا)[٢].

فهذه معاني هذه المفردات من حيث الوضع اللغوي؛ تدل على سعي وحيلة، ومخادعة ومعالجة، لإيصال الضرر بأحد، بطريق خفي.

ومن هنا كان مدلولها ينقسم إلى قسمين:

- محمود: وهو إيصاله إلى مستحقه.
- مذموم: وهو إيصاله إلى غير مستحقه.

مثال ذلك: لو قُدر أن مُحتالًا يأخذ أموال الناس بالباطل؛ يُوهمهم أنه يُريد أن يتجر بها، وأنه يُريد الإحسان؛ فيمنحه الناس ثقتهم، ويُعطونه أموالهم، ثم يذهب بها! فهذا مكر مذموم، وكيد مذموم؛ لأنه أوصل الأذى إلى بريء بطريقة خفية، فلو قدر أن أحدًا من الشرطة الجنائية أعد له كمينًا؛ واتصل به، وأطمعه في نفسه، واستدرجه بالحيلة والخداع، حتى تمكن منه وقبض عليه، ففِعل هذا الشُّرطي يُعد مكرًا محمودًا، وكيدًا محمودًا؛ لأنه أوصل الأذى إلى مُستحقه.

فللَّه تعالى المثل الأعلى؛ مكر الله، وكيد الله، كله محمود؛ لأنه منزه عن الظلم والحيف، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٤٦﴾ [فصلت: ٤٦]، وقل مثل ذلك في الخداع، والاستهزاء، والسخرية، ونحوها.

ولما كانت مدلولاتها محتملة للمعنيين؛ في أصل الوضع؛ لم يجز أن يُشتق من هذه الأوصاف أسماء لله تعالى، فلا يجوز أن يُقال: من

(١) معجم مقاييس اللغة: (٥/ ٣٤٥).
(٢) معجم مقاييس اللغة: (٥/ ١٤٩).

أسماء الله: الماكر، والكائد، والمخادع، والمستهزئ، والساخر؛ لأن الدِّلالة المباشرة لهذه الألفاظ قد تُوهم المعنى المذموم.

كما أنه لا يُخبر بها عن الله على سبيل الإطلاق، وإنما على سبيل المقابلة والتقييد، بخلاف غيرها من الصفات؛ فتستطيع أن تُخبر بها عن الله، فتقول: المُريد، والشائي؛ والجائي؛ لأنه يريد، ويشاء، ويجيء؛ فهو خبر لا يتضمن ذلك نقصًا، ولا يوهم نقصًا، وإن لم تكن من الأسماء الحُسنى، وقد قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**»(١)، وليس من أسمائه، المنزِل، والمجري، والهازم.

وباب الأخبار أوسع من باب الأسماء، والسبب أنك تُخبر عن الله تعالى بصفاته وبأفعاله، فكل اسم من أسماء الله يُمكن أن تشتق منه صفة، ولا عكس؛ لا يلزم من إثبات الصفة إثبات الاسم؛ فالله تعالى قد قال عن نفسه: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢]، وليس من أسماءه الجائي، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ﴾ [النحل: ٤٠]، وليس من أسمائه المُريد، وهكذا. لكن لا بد أن يكون الخبر المخبر به عن الله ﷻ لا يتضمن نقصًا؛ فيسوغ أن نُجاري المتكلمين، ونقول عن الله تعالى: إنه «واجب الوُجود»؛ لأنه لا يتضمن نقصًا، وإن كان (الواجب)، ليس من أسماء الله الحُسنى، فلا يُعبَّد به؛ فيُقال: عبد الواجب؛ فأمثال هذه الألفاظ، التي لا تتضمن نقصًا، ولا توهم نقصًا، يجوز أن يُخبر بها عن الله.

أما هذا النوع فإنه لا يُخبر به عن الله إلا مُقيدًا، فيُقال مثلًا:

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٩٦٥)، ومسلم: رقم (١٧٤٢).

الماكر بالماكرين، الكائد للكائدين، وهكذا؛ فحينئذٍ يسوغ الإخبار بها؛ قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤، ١٥]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩]، فسيقت على سبيل المقابلة؛ لانقسام مدلولاتها إلى محمود ومذموم.

قوله: (﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ ١٣﴾): المحل: شدة الكيد؛ فقد وصف الله نفسه بالكيد؛ بل بشدة الكيد، لكنه كيد بمن يستحق أن يُكاد به.

قوله: (﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾): يعني بذلك: يهود، فإن بعض يهود وشى بعيسى ابن مريم عليه السلام لدى «بيلاطس»، الحاكم الروماني لبيت المقدس زمن المسيح عليه السلام؛ ليقبض عليه ويقتله بدعوى أنه يُريد أن يُقيم ملكًا لبني إسرائيل، وأخبروا عن موضعه، ولكن الله سبحانه وتعالى استنقذه من بين أيديهم، ورفعه إليه، وألقى شبهه على الواشي؛ فبطل مكرهم، وانقلب الأمر عليهم، ونفذ مكر الله فيهم؛ لكونهم أهلًا أن يمكر بهم.

قوله: (﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠﴾): أولئك الرهط من قوم صالح عليه السلام الذين ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨ قَالُواْ تَقَاسَمُواْ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدۡنَا مَهۡلِكَ أَهۡلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ٤٩﴾ [النمل: ٤٨، ٤٩]، هذا مكرهم! أما مكر الله، الذي لا طاقة لهم به، فقد بيّنه بقوله: ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١ فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ

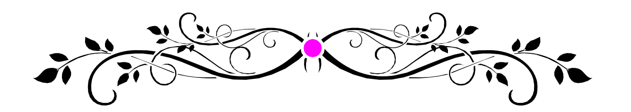
﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥١ ـ ٥٣].

قوله: (﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾): كيد مقابل كيد؛ وقد كان المشركون يسعون بما أوتوا من قوة لإطفاء نور الله، ويفتلون في الذروة والغارب للصد عن سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنفال: ٣٦]، وقال: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [التوبة: ٩٨]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ [سبأ: ٣٣]؛ لكن هذا المكر الكبَّار، والكيد المحال، يتلاشى ويضمحل أمام مكر الله وكيده، الذي بيده مقاليد السماوات والأرض.

والمكر، والكيد، والمحل صفات فعلية؛ لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته؛ فالله ﷻ يتصف بها إذا وجد سببها ومقتضاها.

أما أهل البدع فقد أولوا ما هو أوضح منها وأبين، فكيف بهذه، التي يُمكن أن تحتمل معنى غير مُراد! فإنهم يُسارعون في صرفها عن ظواهرها، وعدم إثباتها لله، ويحملونها على الانتقام، أو إرادة الانتقام.

والأثر مسلكي للإيمان بها: ألا يأمن المؤمن مكر الله؛ قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]، كما يوجب له الحذر والخشية من اجتراح فعل على سبيل المكر، فيُوقعه الله تعالى بمغبته، كما أنه أيضًا يُنزل على نفسه الطُّمأنينة، أنه مهما كاد الكائدون، ومكر الماكرون، فالله لهم بالمرصاد؛ فهو أسرع مكرًا، كما قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ﴾ [يونس: ٢١].



إثبات صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، ﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾ [المنافقون: ٨]، وَقَوْلُهُ عَنْ إِبْلِيسَ: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]).

الشَّرح

هذه الطائفة من الآيات تضمنت إثبات أربعة أسماء من أسماء الله الحسنى، وهي: العفو، والقدير، والغفور، والرحيم، وما تضمّنته من صفات العفو، والقدرة، والمغفرة، والرحمة، كما تضمنت إثبات صفة العزة لله ﷿ وكل ذلك نُثبته لربنا كما أثبته لنفسه؛ فنحن نُثبت لله الصفات، كما نُثبت له الأسماء.

قوله: (﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا﴾): ابداؤه: إظهاره، و(خيرًا) نكرة في سياق الشرط فدلت على العموم؛ يعني: كل خير.

قوله: (﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾): أي: تُسروه.

قوله: (﴿أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ﴾): أي: تصفحوا عن مسيء؛ مأخوذ من قولهم: عفا الأثر: إذا زال وامَّحى، وهذا ليس فعلًا وُجوديًّا؛ بل هو إحسان تركي.

قوله: (﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾): العفو: هو الصفح والتجاوز، والقدرة هي: التمكن من الفعل من غير عجز، والفرق بين القوة والقدرة: أن القوة هي التمكن من الفعل من غير ضعف، وأما القدرة فهي التمكن من الفعل من غير عجز.

وإبداء الخير: كمن يتصدق علانية، قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١]، فلا حرج أن يُبدي الإنسان صدقته أحيانًا، لكن الإسرار أفضل؛ لأنه أقرب إلى الإخلاص، وأبعد عن الرياء، إلا إنْ اقترن بالإبداء مصلحة؛ كالاقتداء والتحفيز، فالإبداء أفضل.

عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: (كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي صَدْرِ النَّهَارِ، قَالَ: فَجَاءَهُ قَوْمٌ حُفَاةٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَارِ أَوِ الْعَبَاءِ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ ﷺ لِمَا رَأَى بِهِمْ مِنَ الْفَاقَةِ، فَدَخَلَ ثُمَّ خَرَجَ، فَأَمَرَ بِلَالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النساء: ١] إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١] وَالْآيَةَ الَّتِي فِي الْحَشْرِ: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ﴾ [الحشر: ١٨] «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ** ـ حَتَّى قَالَ ـ **وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ**» قَالَ: فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِصُرَّةٍ كَادَتْ كَفُّهُ تَعْجِزُ عَنْهَا؛ بَلْ قَدْ عَجَزَتْ، قَالَ: ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ، حَتَّى رَأَيْتُ كَوْمَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَابٍ، حَتَّى رَأَيْتُ وَجْهَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَتَهَلَّلُ، كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ)(١).

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٠١٧).

فدل الحديث على أنه لا بأس بإبداء الصدقات، وأن إبداءها أحيانًا أفضل من إخفائها إذا حصل بذلك اقتداء، شريطة الإخلاص لله ﷻ والأمن من أن يتسلل إلى النفس شيء من الرياء؛ أما عند التساوي فالإخفاء أفضل؛ لقول النبي ﷺ، في ذكر السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: «**وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ**»(١).

قوله: (﴿أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ﴾): العفو عن السوء إحسان؛ لأن الإنسان إذا أسقط حقه فقد أحسن إلى من أساء إليه، كأنما تبرع له، وقلده مِنّة عدم المطالبة في الدُّنيا والآخرة، وهذا يدل على أن العفو صفة حميدة ينبغي أن يُربي الإنسان نفسه عليها، فإن من أقبح الصفات العتب، والحقد، واختزان الضغينة، ويُقال: إن أحكم بيت قالته العرب:

إذا كُنت في كل الأمور مُعاتبًا ... صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه

فعش واحدًا أو صل أخاك فإنه ... مقارف ذنبٍ مرة ومجانبه

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها ... كفى المرء نبلًا أن تُعد معايبه(٢)

وإذا كان الإنسان كلما وقع له حدث نكت في قلبه نكتة، فإن هذا التراكم يؤذيه؛ لأن كل غِلٍّ في القلب فهو كاسمه: غِلٌ؛ قيدٌ وَضعته في قلبك، فحاول أن تتخفف من هذه الأغلال بالعفو.

وقد أغرى الله المؤمنين، وهيجهم على العفو، فقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء: ١٤٩]، والجزاء من جنس العمل.

وهذا مثال آخر على أن اقتران أسماء الله الحُسنى بعضها ببعض يُعطيها حُسنًا مُضاعفًا، وإلا فكل اسم من الأسماء الحُسنى قد بلغ في

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٤٢٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٠٣١).

(٢) قاله بشار بن برد في قصيدته التي مطلعها: (جفا ودهُ فازور أو مل صاحبهُ).

الحُسن غايته في بابه؛ لكن يظهر حسن جديد بالاقتران؛ فأكمل ما يكون العفو مع المقدرة، كما أن قدرة لا يُصاحبها عفو تستحيل بطشًا، فلو أن سُلطانًا من السلاطين تمكن من خصم له، ووقع في قبضته، فعفا عنه وأطلق سراحه، فإنها تُعد محمدة له ومنقبة، كما صنع النبي ﷺ، بقريش حينما قال: «**مَا تَرَوْنَ أَنِّي صَانِعٌ بِكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرًا، أَخٌ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخٍ كَرِيمٍ، قَالَ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[1]؛ فالعفو مع المقدرة من شِيم الكرام، وربما العفو مع غير مقدرة، فلا شك أنه محمود، لكن ليس بدرجة الأول. فلو أن رجلًا من العامة ظلمه سُلطان من السلاطين، فضرب ظهره، وأخذ ماله، فقال: قد عفوت عنك! فهو عفو، لكن لقائلٍ أنْ يقول: لا سبيل أن يقتص منه، بسبب عجزه، فلا محمدة فيه، إلا أن يريد عفو الآخرة.

فربنا، سبحانه وبحمده، عفو قدير، لو شاء سبحانه لأهلك الناس في طرفة عين؛ انظروا إلى حلمه سبحانه! يُعبد غيره، ويُخالف أمره، ومع ذلك يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، مع قدرته على العقوبة؛ قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ﴾ [الكهف: ٥٨]، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]

قوله: (﴿وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾): نزلت هذه الآية في حادث الإفك المذكور في سورة النور، وكان مِن ضمن مَن وقع في حديث الإفك مسطح بن أُثاثة، وهو من فقراء المُهاجرين، فقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه، وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: (وَاللهِ لَا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ،

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى: رقم (١٨٢٧٦).

فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [النور: ٢٢] قَالَ أَبُو بَكْرٍ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي)[(١)]، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ. ومعنى ﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾: من الأَلِيَّة، وهي اليمين؛ فنهى الله تعالى أن يحلف الإنسان على مثل هذا.

قوله: (﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ﴾): قدم الجار والمجرور ليدل على الاختصاص، والعزة: تعني: القوة والصلابة، تقول العرب: أرض عزاز، يعني: أنها صلبة ليست رُخوة، وهي أنواع: عزة امتناع، وعزة غلبة، وعزة قُدرة.

فللَّه تعالى المثل الأعلى من العزة، وللنبي ﷺ، عزة تليق به، وللمؤمنين عزة تليق بهم؛ فكون الوصف يُضاف إلى الله، وإلى رسوله، وإلى المؤمنين، لا يستلزم التماثل؛ فإن الاشتراك إنما هو في أصل المعنى، وأما في الحقيقة والكيفية فيزول الاشتراك في الأذهان بالإضافة إلى الأعيان.

وقد جاءت هذه الجملة في سياق الرد على المُنافقين حين قالوا: ﴿لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [المنافقون: ٨]؛ فعن جَابِرٍ رضي الله عنه قال: (كُنَّا فِي غَزَاةٍ ـ قَالَ سُفْيَانُ مَرَّةً فِي جَيْشٍ ـ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ، رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ الأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ المُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**مَا بَالُ دَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ رَجُلًا

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٥٠)، ومسلم: رقم (٢٧٧٠).

مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَالَ: «**دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ**» فَسَمِعَ بِذَلِكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ، فَقَالَ: فَعَلُوهَا، أَمَا وَاللهِ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى المَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَامَ عُمَرُ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا المُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ**»[(١)]؛ فأذله الله أيما إذلال؛ فقد قيّض الله ابنه عبد الله، وهو من خيار المؤمنين، فوقف على باب المدينة، وقال: والله لا يجُوزها إلا بإذن رسول الله ﷺ! حتى أرسل إليه النبي ﷺ: «**أن خل بينه وبين الدخول**»؛ فثبتت العزة لله، ولرسوله.

وقد دلَّت الآية على إثبات صفة العزة لله، وفيها ردٌّ بليغ على المعتزلة، الذين يُثبتون الأسماء مفرغة من الصفات، ونظيرها قول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ [فاطر: ١٠].

قوله: (﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾): إبليس يحلف بعزة الله! مما يدل على أن إبليس عارف بصفات الله تعالى، معظم لها، حتى إنه يقسم بعزة الرب سبحانه؛ فشيء يعرفه إبليس ويُثبته، عجبٌ أن يُنكره نُفاة الصفات!

وفي الآية دليل على جواز الحلف بالصفة؛ فيجوز الحلف باسم من أسماء الله تعالى، أو بصفة من صفاته، وكما تجوز الاستعاذة بأسماء الله، تجوز الاستعاذة بصفاته؛ كما قال النبي ﷺ: «**أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ**»[(٢)]، وفي رواية «**أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ**»[(٣)]، وقال: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ،**

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٩٠٥)، ومسلم: رقم (٢٥٨٤).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٠٢).

(٣) أخرجه أبو داود: رقم (٣٨٩١)، وابن ماجه: رقم (٣٥٢٢)، والترمذي: رقم (٢٠٨٠)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ»[(١)].

أما الدعاء فلا يكون إلا بأسماء الله؛ كما قال سبحانه: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ولا يجوز دعاء الصفة؛ بأن يقول: يا عزة الله! يا رحمة الله! لما في ذلك من إيهام انفصال الصفة عن الموصوف، وأنها غيره؛ كما تدعي المعتزلة، وإنما الصفة للموصوف؛ لا هي هو، ولا هي غيره.

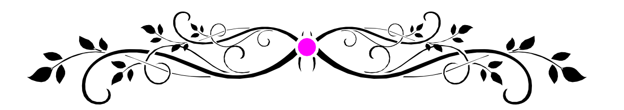
وهذه الصفات الكريمة لها أثر مسلكي على نفس المؤمن:

- فإيمانه بعفو الله ورحمته ومغفرته ينسم على قلبه نسائم الرجاء، ويحمله على أن يغفر لمن أساء إليه، ويعفو عمن ظلمه، ويرحم سائر الناس.

- وإيمانه بعزة الله يمنحه القوةً والطمأنينة، وأنه يأوي إلى رُكن شديد، لا يضام. وهكذا كل اسم لله تعالى يُفيض على النفس المؤمنة فيضًا إيمانيًّا نافعًا، يحملها على المكرمات، ويحجزها عن ضدها.



(١) أخرجه مسلم: رقم (٤٨٦).



إثبات الاسم لله تعالى ونفي السميِّ والكفؤ والنِّد عنه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٧٨﴾ [الرحمٰن: ٧٨]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ۝٦٥﴾ [مريم: ٦٥]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]).

الشَّرْح

قوله: (﴿تَبَارَكَ﴾): مأخوذ من مادة بَرَكَ، **والبَرَكة لها معنيان:**

المعنى الأول: اللزوم والثبوت، ومنه «البِركة» للماء المستقر في موضع واحد.

المعنى الثاني: النماء، والزيادة، وكثرة الخير.

ولفظ «تبارك» لا يجوز استعماله إلا في حقٍّ لله؛ لأنه يختص به تعالى، وقد ورد في القرآن العظيم في تسع آيات: أولها في الأعراف، وآخرها في سورة الملك، وهو يدل على التمجيد والتعظيم، والتطهير والتقديس، وهو وصفٌ ذاتي لله تعالى؛ فالله وحده الذي يتعالى ويعظم،

ويكثر خيره وفضله ومَنُّه؛ فلهذا لا يعبر به في حق غير الله. لكن يقال في حق غير الله: «مُبَارَك»، كما قال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]، وقد أطال ابن القيم رحمه الله الكلام على هذا اللفظ في كتابه (الفوائد)، وكتابه (جلاء الأفهام).

وقد توصف بعض الأماكن بالبركة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: ٩٦]، فهو مبارك لما يقع فيه من العبادات وذكر الله تعالى، وتوصف بعض الأزمنة بالبركة؛ فشهر رمضان شهر مبارك؛ بما جعل الله فيه من الخير، وتوصف بعض الأطعمة بالبركة؛ كالعسل؛ فإن فيه شفاء للناس، والزيتون، والحبة السوداء، وماء زمزم؛ لما يحصل بها من الخير والشفاء؛ كما جاء في الحديث: «**مَاءُ زَمْزَمَ لِمَا شُرِبَ لَهُ**»(١).

ولا يجوز إثبات بركة في شيءٍ من الأشياء إلا بدليل، وكل ما أثبت الله تعالى فيه بركة ومنفعة فإنَّا نثبته؛ سواءٌ كان في الأشخاص، أو الأمكنة، أو الأزمنة، أو الأطعمة، أو الأشربة.

قال ابن القيم رحمه الله: (وأما البركة فكذلك نوعان أيضًا:

إحداهما: بركة هي فعله تبارك وتعالى، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة. والمفعول منها: مبارك. وهو ما جعل كذلك فكان مباركًا بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك؛ ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عز وجل؛ فهو سبحانه

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٤٨٤٩)، وحسنه ابن القيم في زاد المعاد: (٤/ ٣٩٣)، والحديث مختلف فيه بين الرفع والوقف، ولمزيد اطلاع انظر: تلخيص الحبير، للحافظ ابن حجر: (٢/ ٢٦٨).

المبارِك، وعبده ورسوله المبارَك، كما المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١]؛ فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به تعالى، كما أطلقها على نفسه بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾ [المؤمنون: ١٤]، ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ [الزخرف: ٨٥]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١]. أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة؛ كتعالى وتعاظم ونحوهما. فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك تبارك دال على كمال بركته وعظمها وسعتها)[1].

قوله: (﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾): دل ذلك على إثبات الأسماء لله تعالى، وفي هذا رد على الجهمية، الذين يقولون: ليس له اسم، وإنما اصطنع الناس له أسماء وأطلقوها عليه! ولا ريب أن هذا من أبطل الباطل، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٠]، وقال: ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وقال: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨، الحشر: ٢٤].

وقد استهل الإمام عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله كتابه الجليل، في الرد على بشر المريسي، بعقد: (باب الإيمان بأسماء الله تعالى وأنها غير مخلوقة)، قال فيه: (ثُمَّ اعْتَرَضَ الْمُعَارِضُ أَسْمَاءَ اللهِ الْمُقَدَّسَةَ فَذَهَبَ فِي

---

(١) بدائع الفوائد: (٢/ ١٨٥).

تَأْوِيلِهَا مَذْهَبَ إِمَامِهِ الْمَرِيسِيِّ. فَادَّعَى أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ غَيْرَ اللهِ، وَأَنَّهَا مستعارة مخلوقة، كَمَا أَن قَدْ يَكُونُ شَخْصٌ بِلَا اسْمٍ. فَتَسْمِيَتُهُ لَا تَزِيدُ فِي الشَّخْصِ، وَلَا تَنْقُصُ، يَعْنِي: أَنَّ اللهَ كَانَ مَجْهُولًا كَشَخْصٍ مَجْهُولٍ. لَا يَهْتَدِي لِاسْمِهِ. وَلَا يُدْرَى مَا هُوَ، حَتَّى خَلَقَ الْخَلْقَ فَابْتَدَعُوا لَهُ أَسْمَاءً مِنْ مَخْلُوقِ كَلَامِهِمْ. فَأَعَارُوهَا إِيَّاهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُعْرَفَ لَهُ اسْمٌ قَبْلَ الْخَلْقِ.

وَمَنِ ادَّعَى هَذَا التَّأْوِيلَ فَقَدْ نَسَبَ اللهَ تَعَالَى إِلَى الْعَجْزِ وَالْوَهَنِ وَالضَّرُورَةِ، وَالْحَاجَةِ إِلَى الْخَلْقِ؛ لِأَنَّ الْمُسْتَعِيرَ مُحْتَاجٌ مُضْطَرٌّ، وَالْمُعِيرُ أَبَدًا أَعْلَى مِنْهُ وَأَغْنَى. فَفِي هَذِهِ الدَّعْوَى اسْتِجْهَالُ الْخَالِقِ. إِذْ كَانَ بِزَعْمِهِ هَمْلًا لَا يُدْرَى مَا اسْمُهُ وَمَا هُوَ وَمَا صِفَتُهُ وَاللهُ الْمُتَعَالِي عَنْ هَذَا الْوَصْف الْمُنَزَّهُ عَنْهُ؛ لِأَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ هِيَ تَحْقِيقُ صِفَاتِهِ. سَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبَدْتُ اللهَ أَوْ عَبَدْتُ الرَّحْمٰنَ، أَوِ الرَّحِيمَ، أَوِ الْمَلِكَ الْعَزِيزَ الْحَكِيمَ، وَسَوَاءٌ عَلَى الرَّجُلِ قَالَ: كَفَرْتُ بِاللهِ، أَوْ قَالَ: كفرت بالرحمٰن الرَّحِيم، أَو بالخالق الْعَزِيزِ الْحَكِيم. وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: عَبْدُ اللهِ، أَوْ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ، أَوْ عَبْدُ الْعَزِيزِ، أَوْ عَبْدُ الْمَجِيدِ، وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: يَا الله يا رحمٰن، أَو يا رحيم، أَو يا مَلِكُ يَا عَزِيزُ يَا جَبَّارُ بِأَيِّ اسْمٍ دَعَوْتَهُ مِنْ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ، أَوْ أَضَفْتَهُ إِلَيْهِ، فَإِنَّمَا تَدْعُو اللهَ نَفْسَهُ، مَنْ شَكَّ فِيهِ فَقَدْ كَفَرَ. وَسَوَاءٌ عَلَيْكَ قُلْتَ: رَبِّيَ اللهُ أَوْ رَبِّيَ الرَّحْمٰنُ كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١١٢﴾ [الأنبياء: ١١٥]، وَقَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الحشر: ١]، وَقَالَ: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٤٢﴾ [الأحزاب: ٤٢]، كَذَلِكَ قَالَ فِي الِاسْم: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ [الأعلى: ١] كَمَا يُسَبِّحُ اللهَ، وَلَوْ كَانَ مَخْلُوقًا مُسْتَعَارًا غَيْرَ اللهِ لَمْ يَأْمُرِ اللهُ أَنْ يُسَبِّحَ مَخْلُوقٌ غَيْرَهُ. وَقَالَ: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [الحشر: ٢٤]، ثُمَّ ذَكَرَ الْآلِهَةَ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ بِأَسْمَائِهَا الْمُسْتَعَارَةِ الْمَخْلُوقَةِ، فَقَالَ: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّآ أَسۡمَآءٞ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [النجم: ٢٣]، وَكَذَلِكَ قَالَ هُودٌ لِقَوْمِهِ حِينَ قَالُوا: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ﴾ [الأحزاب: ٧٠]، فَقَالَ لَهُمْ يَنْهَاهُمْ: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسۡمَآءٖ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم﴾ [الأعراف: ٧١]، يَعْنِي: أَنَّ أَسْمَاءَ اللهِ تَعَالَى لَمْ تَزَلْ، كَمَا لَمْ يَزَلِ اللهُ، وَأَنَّهَا بِخِلَافِ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الْمَخْلُوقَةِ الَّتِي أَعَارُوهَا لِلْأَصْنَامِ وَالْآلِهَةِ الَّتِي عَبَدُوهَا مِنْ دُونِهِ)[1].

قوله: (﴿ذِي ٱلۡجَلَٰلِ﴾): وصفٌ للاسم المجرور «ربِّ»؛ لأن صفة المجرور مجرور، و«ذو»: بمعنى: صاحب، والجلال: العظمة والفخامة؛ فهو سبحانه ذو الجلال؛ أي: أنه سبحانه مُتصف بصفات الجلال، كما أن أولياءه يُجلونه، وهم المؤمنون.

قوله: (﴿وَٱلۡإِكۡرَامِ ٧٨﴾): صاحب الإكرام؛ لأنه سبحانه متصف بالصفات الكريمة، كما أنه سبحانه يُكرم أولياءه ويكرمونه.

قوله: (﴿فَٱعۡبُدۡهُ﴾): أمر للنبي ﷺ، وأمته من بعده، بالعبادة، والعبادة لها **تعريفان:**

- **تعريف باعتبار حقيقتها:** كمال المحبة مع كمال الخُضوع، وهذا تعريف باعتبار المُتعبَد له، مأخوذة لغة من قولهم: بعير مُعبد؛ أي: مذلل للركوب عليه، وطريق مُعبد، يعني: مُوطأ مُسهل للمشي.

- **وتعريف باعتبار آحادها وأفرادها:** وقد عرَّفها شيخ الإسلام

(١) نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد: (١/ ١٥٨ ـ ١٦٠).

ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ بقوله: (هِيَ اسْمٌ جَامِعٌ لِكُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ. فَالصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْحَجُّ وَصِدْقُ الْحَدِيثِ وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ؛ وَبِرُّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةُ الْأَرْحَام وَالْوَفَاءُ بِالْعُهُودِ وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ وَالْجِهَادُ لِلْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْإِحْسَانُ إلَى الْجَارِ وَالْيَتِيمِ وَالْمِسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَالْمَمْلُوكِ مِنْ الْآدَمِيِّينَ وَالْبَهَائِمِ وَالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ وَالْقِرَاءَةِ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنْ الْعِبَادَةِ. وَكَذَلِكَ حُبُّ اللهِ وَرَسُولِهِ وَخَشْيَةُ اللهِ وَالْإِنَابَةُ إلَيْهِ. وَإِخْلَاصُ الدِّينِ لَهُ وَالصَّبْرُ لِحُكْمِهِ وَالشُّكْرُ لِنِعَمِهِ وَالرِّضَا بِقَضَائِهِ؛ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ؛ وَالرَّجَاءُ لِرَحْمَتِهِ وَالْخَوْفُ لِعَذَابِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ)[1]؛ وهذا تعريف باعتبار المتعبَد به.

قوله: (﴿وَٱصۡطَبِرۡ﴾): أصلها: واصبر، فزيدت فيها التاء فصارت: واصتبر، ثم قُلبت التاء طاء، والزيادة في المبني زيادة في المعنى بمعنى: اصبر صبرًا كثيرًا، وقد تقدم الكلام عن معنى الصبر وأنواعه، والعبادة تفتقر إلى صبر، وتحتاج إلى مصابرة؛ حتى يثبت الإنسان عليها، والمؤمن إذا وطن نفسه على العبادة، وعودها عليها، اعتادت وانقادت، ولم يجد كُلفة ومشقة؛ بل تُصبح مُحبة للعبادة، حتى إنها إذا فقدتها شقيت واستوحشت؛ فينبغي للمؤمن أن يُوطن نفسه منذ الصغر على عبادة الله؛ من الفرائض والنوافل، لكي يألفها ويأنس بها؛ فإن الخير عادة.

وقد استدرك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ على من سمى الأوامر الشرعية التكاليف، وقرر أصلًا عظيمًا، فقال: (أَنَّ نَفْسَ الْإِيمَانِ بِاَللهِ وَعِبَادَتَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَإِجْلَالَهُ هُوَ غِذَاءُ الْإِنْسَانِ، وَقُوتُهُ، وَصَلَاحُهُ، وَقِوَامُهُ، كَمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ، وَكَمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ؛ لَا كَمَا يَقُولُ مَنْ يَعْتَقِدُ مِنْ

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩ ـ ١٥٠).

أَهْلِ الْكَلَامِ وَنَحْوِهِمْ: أَنَّ عِبَادَتَهُ تَكْلِيفٌ وَمَشَقَّةٌ. وَخِلَافُ مَقْصُودِ الْقَلْبِ لِمُجَرَّدِ الِامْتِحَانِ وَالِاخْتِبَارِ؛ أَوْ لِأَجْلِ التَّعْوِيضِ بِالْأُجْرَةِ كَمَا يَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ وَغَيْرُهُمْ؛ فَإِنَّهُ وَإِنْ كَانَ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا هُوَ عَلَى خِلَافِ هَوَى النَّفْسِ ـ وَاللهُ سُبْحَانَهُ يَأْجُرُ الْعَبْدَ عَلَى الْأَعْمَالِ الْمَأْمُورِ بِهَا مَعَ الْمَشَقَّةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ﴾ الْآيَةَ [التوبة: ١٢٠]، وَقَالَ ﷺ لِعَائِشَةَ: «**أجرك على قدر نصبك**». فَلَيْسَ ذَلِكَ هُوَ الْمَقْصُودَ الْأَوَّلَ بِالْأَمْرِ الشَّرْعِيِّ، وَإِنَّمَا وَقَعَ ضِمْنًا وَتَبَعًا...، وَلِهَذَا لَمْ يَجِئْ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ السَّلَفِ إِطْلَاقُ الْقَوْلِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ أَنَّهُ تَكْلِيفٌ كَمَا يُطْلِقُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَفَقِّهَةِ؛ وَإِنَّمَا جَاءَ ذِكْرُ التَّكْلِيفِ فِي مَوْضِعِ النَّفْيِ؛ كَقَوْلِهِ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧]؛ أَيْ: وَإِنْ وَقَعَ فِي الْأَمْرِ تَكْلِيفٌ؛ فَلَا يُكَلَّفُ إِلَّا قَدْرَ الْوُسْعِ، لَا أَنَّهُ يُسَمِّي جَمِيعَ الشَّرِيعَةِ تَكْلِيفًا، مَعَ أَنَّ غَالِبَهَا قُرَّةُ الْعُيُونِ وَسُرُورُ الْقُلُوبِ؛ وَلَذَّاتُ الْأَرْوَاحِ وَكَمَالُ النَّعِيمِ، وَذَلِكَ لِإِرَادَةِ وَجْهِ اللهِ وَالْإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَذِكْرِهِ وَتَوَجُّهِ الْوَجْهِ إِلَيْهِ، فَهُوَ الْإِلَٰهُ الْحَقُّ الَّذِي تَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ الْقُلُوبُ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُهُ مَقَامَهُ فِي ذَلِكَ أَبَدًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾ [مريم: ٦٥])[1].

قوله: (﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾): استفهام يُراد به النفي؛ لأن جوابه: لا أعلم له سميًّا، والسميُّ هو المسامي، أي: مُماثلًا له في

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٥ ـ ٢٦).

الاسم، فلا سمي له سبحانه، وقد دلت الآية على إثبات الاسم لله تعالى.

قوله: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ۝٤﴾): أي لا مُكافئ له سُبحانه، و«أَحَدٌ» نكرة في سياق النهي فدلت على العموم.

قوله: (﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا﴾): جمع ند، والند: هو المثيل والنظير؛ نهى الله أن يجعلوا له أندادًا؛ لأنه لا يُمكن أن يكون له ند يُماثله ويُناظره، تعالى الله عن ذلك.

قوله: (﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾): يعني: وأنتم تعلمون أنه خلقكم والذين من قبلكم، وجعل الأرض فراشًا، والسماء بنًاء، وأنزل من السماء ماءً، كما في الآيتين قبلها؛ فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد العبادة.

قوله: (﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾): نعى الله تعالى على طائفة من المُشركين اتخاذهم الأنداد من دون الله؛ يبذلون لها من العبوديات ما لا يجوز صرفه لغير الله تعالى؛ ومن ذلك المحبة، فإن المحبة من أعظم مقامات العبادة؛ بل إنها أُم العبادات القلبية، فإن المحرِّك والباعث للإنسان لعبادة الله انجذابه إليه وتألهه له، والتأله: مأخوذ من الوله، وهو المحبة والشوق والانجذاب إلى المعبود؛ فمن صرف محبة السر لغير الله، فقد وقع في الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله.

وللمُفسرين في هذه الآية قولان:

القول الأول: أن المشركين يُحبون أندادهم المحبة التي لا تنبغي إلا لله.

القول الثاني: أنهم يُحبون أندادهم كما يُحبون الله، بمعنى: أنهم يُشركون في المحبة.

وهذا الثاني هو الراجح، وهو الذي نصره شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم ـ رحمهما الله ـ، بمعنى: أن المشركين ليسوا خليين من محبة الله؛ بل يُحبون الله! لكنهم يُفسدون هذه المحبة بإشراك غير الله بها؛ فلم يُوحدوا الله بالمحبة.

قوله: (﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾): المؤمنون يوحدون الله في المحبة؛ فلهذا عبر بصيغة أفعل التفضيل، ﴿أَشَدُّ﴾، فلا يُشركون مع الله غيره في محبة السر، التي هي محبة العبادة، وإن كان يُحبون محبوبات أُخرى من المحاب الطبيعية البشرية الغريزية؛ كمحبة الطعام والشراب، والزوج، والولد، والوالد، وغير ذلك، لكن هذه لا تُسمى محبة عبادة.

قال ابن الجوزي: (وفي قوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ **قولان**: **أحدهما**: أن معناه: يحبونهم كحب الذين آمنوا لله، هذا قول ابن عباس، وعكرمة، وأبي العالية، وابن زيد، ومقاتل، والفراء. **والثاني**: يحبونهم كمحبتهم لله؛ أي: يسوون بين الأوثان وبين الله تعالى في المحبة. هذا اختيار الزجاج، قال: والقول الأول ليس بشيء، والدليل على نقضه قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، قال المفسرون: أشد حبًّا لله من أهل الأوثان لأوثانهم)(١).

والأثر المسلكي لإثبات الاسم لله، ونفي السمي، والكفؤ، والند عنه، تحقيق التوحيد في عبادة الله، وجمعية القلب عليه، ودعاؤه بما سمى به نفسه من الأسماء الحسنى التي تفرد بها، والتعبد بمعانيها في القلب والسلوك.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ١٣٠).

نفي الولد والشريك عن الله تعالى وتحريم القول عليه بغير علم

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء: ١١١]، ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [التغابن: ١]. ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان: ١، ٢]، ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: ٩١، ٩٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]).

الشَّرح

قوله: (﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾): **الحمد لغةً**: وصف الله بصفات الكمال، ونُعوت الجلال، فإذا تكرر الحمد صار ثناءً، واصطلاحًا: فعل

ينبئ عن تعظيم المنعم بوصفه منعمًا على الحامد، والألف واللام فيه للاستغراق؛ فجميع المحامد مستحقة لله.

قوله: (﴿ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾): ردٌّ على من ادعى الولد لله، **وهم طوائف**:

- اليهود حين قالت: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

- النصارى حين قالت: ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

- مشركو العرب حين قالوا: ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الصافات: ١٥٢ ـ ١٥٨]، وقال: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الإسراء: ٤٠]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ﴾ [الزخرف: ١٩]؛ زعموا أن الله اتخذ صاحبةً من الجن فولدت له الملائكة! تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

وسبب تنزه الرب عن الولد يرجع إلى أمرين:

- **أحدهما**: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده، وهذا يُنافي وحدانية الله تعالى.

- **الثاني**: أن الولد إنما يُتخذ للإعانة والمساعدة، والله غني عن ذلك.

فلئِن كان الولد في حق المخلوقين كمالًا فهو في حق الخالق نقص؛ لكمال وحدانيته.

قوله: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾): لا استقلالًا، ولا مُشاركة، ولا معاونةً؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا

يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

قوله: (﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِيٌّ﴾): الولي من الوَلْي، وهو: الدنو والقُرب، والمقصود: المعاون والنصير.

قوله: (﴿مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾): يعني: بسبب الذُّل، فالله ﷻ لا يستكثر بعباده من قلة، ولا يستعز بهم من ذلة.

قوله: (﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴿١١١﴾﴾): أي: قل: الله أكبر؛ بلسانك، وعظمه بقلبك وفعالك. فالله تعالى أكبر من كل شيء، سبحانه وبحمده؛ فدلت الآية على وحدانية الله ﷻ، وكمال تفرده في ذاته، وملكه، وأفعاله.

قوله: (﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾): التسبيح: التنزيه، فمعنى سبحان الله: أي تنزيهًا لله، والله تعالى يُنزه عن ثلاثة أُمور: النقص، والعيب، ومماثلة المخلوقين؛ فكل ما في السماوات، وكل ما في الأرض يُسبح بحمده، كما قال: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

قوله: (﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾): يعني له الملك كله، وله الحمد كله، وقدرته شاملة لكل شيء.

قوله: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾: تقدم معنى «تبارك»، والفرقان): اسم من أسماء القرآن؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكُفار.

قوله: (﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾): محمد ﷺ، وهذا يدل على أن مقام العُبودية شريف، فإن الله وصف نبيه ﷺبالعبودية، في أشرف المقامات؛ فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ

عَبۡدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وهكذا؛ فمن ادعى سقوط العبودية عنه لبلوغه «اليقين» فهو كافر زنديق.

قوله: (﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ١﴾): قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: («لِيَكُونَ» **فيه قولان:**

أحدهما: أنه كناية عن عبده، قاله الجمهور. **والثاني**: عن القرآن، حكاه الماوردي)[1]، والراجح أن ذلك مجموع الأمرين، كما جمع بينهما في قوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ١ رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ٢ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ ٣﴾ [البينة: ١ ـ ٣].

ودعوة النبي ﷺ، للناس جميعًا؛ إنسهم وجنهم، برهم وفاجرهم، كتابيهم ووثنيهم؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والنذارة: الإعلام بالأمر المخوف، والمراد بها هنا: المعاد.

قوله: (﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ﴾): تقدم بيانها، وقد كان من صنوف المشركين في الربوبية:

- الثنوية من المجوس، الذين يزعمون أن للكون خالقين: إلـٰه النور (يَزدان)، يخلق الخير، وإلـٰه الظُلمة (أَهرَمَن)، يخلق الشر.

- القائلون بتعدد الآلهة، وهم الرومان؛ فيجعلون لكل مِرفق من مرافق الحياة إلـٰهًا؛ إلـٰه الحرب، وإلـٰه الحصاد، وإلـٰه الحب، الخ.

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٣١١).

قوله: (﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾): «كل» من ألفاظ العموم، وفي هذا رد على القدرية والمعتزلة، الذين يزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه، وقد قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ۝٩٦﴾ [الصافات: ٩٦]؛ فهو خالقهم وخالق أفعالهم، وإن كانت أفعالهم كسبًا لهم.

قوله: (﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾): منذ الأزل، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعًا: «**كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**»[(١)].

قوله: (﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾): «ما» نافية، و«مِن» تدل على الاستغراق والاستقصاء؛ فيتناول النفي أي صورة من صور الاستيلاد.

قوله: (﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ﴾): حاشا وكلا أن يكون مع الله إلـٰه (ما)، و(من)، كسابقتيهما؛ قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

قوله: (﴿إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾: يعني: لو قُدر، وحاشا وكلا أن يكون؛ وفي هذا دليل عقلي على امتناع الشريك مع الله؛ فلو كان معه إلـٰه، جدلًا، لاستقل كل إلـٰه بمُلكه، ولنشأ بينهما ما ينشأ بين الملوك من المغالبة، والذي نجده أن الكون مُتسق، مُنتظم؛ ليس فيه ممالك متنافرة ولا اضطراب، مما يدل على عدم وجود مُنازعة ومُغالبة؛ فهذا دليل على وحدانية الله في ربوبيته.

والمتكلمون يُثبتون هذه القضية بما يُسمونه (دليل التمانع)، وهو دليل عقلي، لا بأس به، ويقررونه على النحو التالي: لو قُدر أن للكون

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٥٣).

خالقين فأراد أحدهما أن يُحرك شيئًا، وأراد الآخر أن يُسكنه، **فثمَّ ثلاثة احتمالات**:

الأول: أن يقع مُراد كل منهما.

الثاني: ألا يقع مُراد أي منهما.

الثالث: أن يقع مُراد أحدهما، ولا يقع مراد الآخر.

فأما الاحتمال الأول فهو مُمتنع، مُستحيل ببداهة العقول؛ لأنه جمع بين النقيضين، والثاني ممتنع مستحيل أيضًا؛ لأنه رفع للنقيضين، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان، كما يدل على عجز كل منهما بعدم وقوع مُراده، وذلك لا ينبغي لإلٰه! فما بقي إلا الاحتمال الأخير: وهو أن يقع مُراد أحدهما، ولا يقع مُراد الآخر؛ فيكون من وقع مُراده هو المُستحق للعبادة دون الآخر.

قوله: (﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾): تنزيهًا له عن دعوى الشرك.

قوله: (﴿عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٩٢﴾) والغيب: ما غاب عن أعين الناس، والشهادة: ما شاهدوه؛ فعلمه شامل لكل شيء.

قوله: (﴿فَلَا تَضۡرِبُواْ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡثَالَۚ﴾): أي: لا يُمثل الله بخلقه، ولا يُقاس بهم، والأقيسة ثلاثة: قياس التمثيل، وقياس الشمول، وقياس الأَوْلَى. وقد تقدم بيانها عند قول المصنف في أول الكتاب: (ولا يقاس بخلقه).

قوله: (﴿قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ﴾): «إنما» أداة حصر، **والتحريم لغةً**: المنع، **واصطلاحًا**: ما نهى عنه الشارع على وجه الإلزام بالترك.

قوله: (﴿ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ﴾): الفواحش جمع فاحشة، وهي ما عظُم خُبثه واستقباحه.

قوله: (﴿وَٱلْإِثْمَ﴾): الإثم هنا: هو ما يجترحه الإنسان بذاته، غير مُتعد لغيره.

قوله: (﴿وَٱلْبَغْىَ﴾): هو ما حصل به تجن وعدوان على غيره، وهذا معناهما عند الاقتران، وأما عند الافتراق فيشمل أحدهما الآخر.

قوله: (﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾): وصف طردي؛ فإن كل بَغي فهو بغير حق.

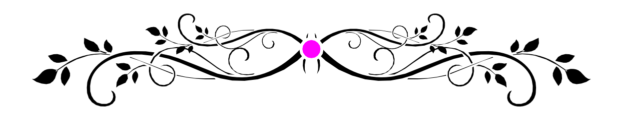
قوله: (﴿وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ﴾): هذا موضع الشاهد، وهو النهي عن الشرك، وتسوية غير الله تعالى به سُبحانه.

قوله: (﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾): وصفٌ طردي، فإن أشرك مع الله تعالى فلا سُلطان له به، ولا دليل عليه، ولا بُرهان له.

قوله: (﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾): القول على الله ﷻ بغير علم من أعظم المحرمات؛ بل إنه ختم المحرمات به لأنه أعظمها؛ لأنه يشمل ما سواه، فكان من باب الترقي في التحريم، ومن قال على الله ﷻ في أسمائه وصفاته نفيًا وإثباتًا، بغير دليل، فهو داخل في هذه الآية؛ كمن نفى الأسماء والصفات، أو أثبت الأسماء ونفى الصفات، أو أوَّل الصفات على معنى لا دليل عليه؛ فقل كما قال الله تعالى، ورسوله، ولا تتجاوز القرآن والحديث؛ تسلم وتغنم.

والأثر المسلكي للعلم بانتفاء الشريك عن الله في الملك، ونفي الولد عنه، توحيده سبحانه بالربوبية والألوهية، وعدم التفات القلب إلى سواه، والتوقي من القول عليه بغير علم.

❁ ❁ ❁



إثبات استواء الله على عرشه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥] في سبعة مواضع: في سورة الأعراف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال في سورة يونس عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ [يونس: ٣]، وقال في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [الرعد: ٢]، وقال في سورة طه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، وقال في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال في سورة ألم السجدة: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ [السجدة: ٤]، وفي سورة الحديد: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ﴾ [الحديد: ٤]).

الشَّرح

هذه الطائفة من الآيات الكريمات التي ساقها المؤلف رحمه الله يجمعها موضوع واحد، وهو إثبات استواء الله عز وجل على عرشه المجيد، بعد خلق السماوات والأرض، استواءً يليق بجلاله وعظمته.

والاستواء لغة: العلو والاستقرار؛ كما قال الله ﷻ في سورة الزُّخرف، لما ذكر الفلك والأنعام: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]؛ أي: لتعلوا وتستقروا على ظهور الفلك والأنعام، ثم تذكروا نعمة ربكم إذا علوتم واستقررتم عليها؛ هذا هو أصل معنى الاستواء في لغة العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مُبين؛ فالذي قال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ١٣]، هو الذي قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]. فمعنى الاستواء في الموضعين واحد، من حيث الوضع اللغوي؛ لكنه إذا أُضيف إلى المخلوق صار استواءً يليق به، وإذا أُضيف إلى الخالق صار استواءً يليق به؛ كما في سائر الصفات، وقد أثبت الله تعالى هذا الاستواء في سبعة مواضع من القرآن.

وقد ورد لفظ «استوى» في القرآن على **ثلاثة أنحاء**:

الأول: مُطلقًا؛ غير مُقيد بحرف؛ كقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ [القصص: ١٤]، فتدل على الانتهاء والكمال، كقولنا: استوى الزرع، يعني: بلغ غايته في الصلاح، استوى الطعام؛ أي: بلغ غايته في النُضج.

الثاني: مُتعدية بـ(إلى)؛ كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت: ١١]، فمعناها حينئذٍ: قصد بإرادة تامة؛ فهي تدل على معنى القصد والتوجه للشيء.

الثالث: متعدية بـ(على)، وهذا محل الشاهد، كما في هذه المواضع السبعة، ستة منها على نسق: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وفي موضع واحد بلفظ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾؛ فيكون معناها حينئذٍ: علا واستقر علوًّا واستقرارًا يليق بجلاله وعظمته.

هذا الذي تعرفه العرب من لُغتها، لا تعرف سواه.

قـــولـــه: (﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾): هذه الأيام ليست كأيامنا؛ بل كما قال الله ﷻ: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحج: ٤٧]، وهو خلق عظيم، كما قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [غافر: ٥٧]، وقد فصَّله بقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

قوله: (﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾): (ثُمَّ): حرف عطف يدل على الترتيب والتراخي، فيستفاد منه أنه، سبحانه وبحمده، حين خلق السماوات والأرض لم يكن مُستويًا على العرش، فلما فرغ من خلقهما استوى على العرش؛ هذا ما تدل عليه لُغة العرب، ويفهمه كُل عربي قُح.

و(**العرش**) **لغةً**: سرير الملك؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣].

واصطلاحًا: هو أعظم المخلوقات، وأعلاها، وأجلُّها، وأكبرها، وهو سقف العالم؛ فالكون كُله تحته، وما فوقه إلا الرحمٰن، سبحانه وبحمده، وله قوائم؛ كما نطقت بذلك النصوص؛ فقد قال النبي ﷺ: «**لَا تُخَيِّرُوا بَيْنَ الأَنْبِيَاءِ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى آخِذٌ بِقَائِمَةٍ مِنْ قَوَائِمِ العَرْشِ، فَلَا أَدْرِي**

أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، أَمْ حُوسِبَ بِصَعْقَةِ الأُولَى»[(١)]، وله حَمَلَة، قال الله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحاقة: ١٧].

فيجب الإيمان بأن لله تعالى عرشًا عظيمًا، كبيرًا، عليًّا، استوى عليه، سبحانه وبحمده، استواءً يليق به سبحانه؛ ليس كاستواء المخلوقين، ولا نُدرك كيفيته، واستواؤه عليه ليس عن حاجة؛ فإنّ كل شيء مُحتاج إلى الله، والله غني عما سواه؛ بل العرش، وما دونه، لا قيام له إلا بالله سبحانه وبحمده؛ كما قال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾ [فاطر: ٤١].

قوله: (﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ﴾): قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (في قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا ۖ﴾ **قولان**:

ـ **أحدهما**: أن هاء الكناية ترجع إلى السّماوات؛ فالمعنى: ترونها بغير عَمَد، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وقتادة، والجمهور. وقال ابن الأنباري: ﴿تَرَوْنَهَا ۖ﴾ خبر مستأنف، والمعنى: رفع السّماوات بلا دعامة تمسكها، ثم قال: ﴿تَرَوْنَهَا ۖ﴾ أي: ما تشاهدون من هذا الأمر العظيم، يغنيكم عن إقامة الدلائل عليه.

ـ **والثاني**: أنها ترجع إلى العَمَد؛ فالمعنى: إنها بعمد لا ترونها، رواه عطاء والضحاك عن ابن عباس، وقال: لها عَمَد على قاف، ولكنكم لا ترون العَمَد، وإلى هذا القول ذهب مجاهد، وعكرمة، والأول أصح)[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٤١٢).

(٢) زاد المسير في علم التفسير: (٢/ ٤٨٠).

والأقرب، والله أعلم، أن ثمَّ عمدٌ، لكنها غير مرئية؛ لأنه لو أراد نفي العمد مُطلقًا لاكتفى بالقول: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾، دون التقييد بـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾، فثمَّ عمد ـ والله أعلم ـ لكنها ليست من جنس العمد التي نعهدها.

قوله: (﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾): قدَّم ذكر اسمه الشريف، سبحانه، على ذكر الاستواء؛ مراعاة للفواصل.

وبقية الشواهد الستة بلفظ مطرد: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾، وهذا الاطراد يدل على أنه أراد حقًّا وصدقًا إثبات هذه الصفة الفعلية.

ولكن الزائغين، المتبعين للمتشابه، زعموا أن المراد باستوائه على العرش استيلاؤه عليه! وليس استواءً حقيقيًّا؛ فإذا قِيل لهم: ما الصارف لذلك عن ظاهره؟ قالوا: لأن الاستواء من أفعال المخلوقين؛ والله مُنزه عن مُشابهة المخلوقين.

والرد عليهم من وجوه:

الوجه الأول: إن الله أضاف الاستواء إلى نفسه فاختص به؛ وإنما وقع الاشتراك في اللفظ، وفي أصل المعنى، في الأذهان، أما حقيقته وكيفيته في الأعيان فلا اشتراك فيه؛ كما قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما دخل عليه داخل، وقال: (يا أبا عبد الله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ كيف استوى؟ فقال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وفي لفظ: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أُراك إلا صاحب بدعة؛ ثم أمر به فأُخرج من المسجد)[(١)].

(١) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة: (٣/ ٤٤١)، والبيهقي =

فأثبت الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ معنى الاستواء، وأنه معروف في لغة العرب، لا يخفى على عربي، وأما الكيف؛ وهو ما يختص به سبحانه، وينفرد به عن سائر استواءات المخلوقين، فمجهول، أو غير معقول؛ أي: لا تتمكن عُقولنا من دَرَكِه. والإيمان بالاستواء واجب؛ لأن الله أخبر به، ورسوله ﷺ. والسؤال عن كيفيته بدعة؛ لأن الصحابة الكرام، رضوان الله عليهم، ما كانوا يسألون النبي ﷺ عن كيفيات ما أخبر به عن ربه؛ بل يؤمنون بها، مدركين لمعناها مفوضين لكيفياتها؛ فهذا جواب سديد، من إمامٍ رشيد، يُجاب به كل من سأل عن كيفيات الصفات.

الوجه الثاني: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء مخالف للغة العرب؛ فقد سئل ابن الأعرابي، والخليل بن أحمد، وغيرهما من أئمة اللغة: هل يأتي الاستواء بمعنى الاستيلاء؟ فأبوا، وقالوا: هذا شيء لا تعرفه العرب، وحسبك بهم؛ فإنهم أئمة اللغة وأهل اللسان؛ والقرآن نزل بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ[(١)].

الوجه الثالث: أن هذه الدعوى مُخالفة لما تواتر في كتاب الله، في سبعة مواضع تُعبر بلفظ الاستواء؛ فلو كان مُراد الله تعالى من الاستواء الاستيلاء، لقال، ولو في موضع واحد: استولى، ولكن هذا اللفظ اطرد في جميع المواضع السبعة.

= في الأسماء والصفات: (٢/ ٣٠٥)، وصححه الذهبي، وشيخ الإسلام، والحافظ ابن حجر؛ انظر: مختصر العلو (ص١٤١)، مجموع الفتاوى: (٥/ ٣٦٥)، فتح الباري: (١٣/ ٥٠١)، بألفاظ متقاربة، ومعنى متحد.

(١) راجع: (العلو) للذهبي: (ص١١٨، ١٣٣)، و(مختصره) للألباني: (ص١٧١، ١٩٤ ـ ١٩٥)، و(اجتماع الجيوش الإسلامية) (ص٢٦٤ ـ ٢٦٧)، وراجع: (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة) للالكائي (٣/ ٣٩٧، ٤٠٠)، وانظر أيضًا: (كتاب العين) للخليل بن أحمد الفراهيدي (٧/ ٣٢٦)، و(معاني القرآن) للفراء (١/ ٢٥).

الوجه الرابع: أن تفسير الاستواء بالاستيلاء يلزم منه لوازم فاسدة، منها:

- ألا يكون الله تعالى مُستوليًا على عرشه حين خلق السماوات والأرض!

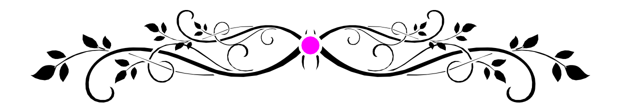
- ألا يكون بين العرش والأرض السفلى فرق؛ لأن الله تعالى مستولٍ على الجميع.

- أن يقول قائل: استوى على البيوت، واستوى على الشجر، واستوى على الحجر، وأشياء لا يقوى الإنسان على ذكرها.

فهذا لازم قولهم، وفساد اللازم يدل على فساد الملزوم؛ فتفسير الاستواء بالاستيلاء تفسير باطل، وقولٌ على الله بغير علم، ولا مُلجئ إليه؛ فإنه لا يجوز صرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره إلا بوجود دليل يُوجب نقل المعنى من حقيقته إلى مجازه، على فرض القول بالمجاز؛ ولا دليل.

والمتكلمون يزعمون أن الدليل الموجب لصرف الكلام عن ظاهره إلى خلاف ظاهره أنه يستلزم التشبيه؛ فنقول: هذا ليس بلازم؛ فللَّه تعالى استواء يليق به، وللمخلوق استواء يليق به، كما أن له حياةً، وسمعًا، وبصرًا، وعلمًا، وإرادةً، وقدرةً، وكلامًا يليق به، وللمخلوق منها ما يليق به؛ فلا فرق بين ما أثبتم، وما نفيتم.

۞ ۞ ۞



إثبات علو الله على مخلوقاته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: ١٠]، وقوله تعالى: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾ [الملك: ١٦، ١٧]).

الشَّرح

عُلو الله تعالى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: علو قدر: هو عُلو الصفات؛ لأن الله له المثل الأعلى، وهذا أمر يُجمع عليه أهل القبلة، وإن اختلفوا في التفاصيل؛ فما يوجد أحد يدعي الإسلام إلا ويعتقد لله الكمال المُطلق، وأسعد الناس بهذا هم أهل السُّنَّة، الذين أثبتوا ما أثبت لنفسه من صفات الكمال، ونزهوه عن صفات النقصان.

النوع الثاني: عُلو قهر: فلا يُنازع فيه أحد من أهل القبلة، ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٨، ٦١]؛ فلا يُمكن لأحد يَدّعي الإسلام أن يُثبت لله مُغالبًا خارجًا عن قُدرته، وقهره، وسُلطانه؛ قال تعالى عن

الملائكة العِظام: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝﴾ [النحل: ٥٠].

النوع الثالث: عُلو الذات: فأهل السُّنَّة والجماعة قاطبةً مُجمعون على أن الله تعالى بذاته مستوٍ على عرشه، بائن من خلقه، ليس فيه شيء من خلقه، ولا في خلقه شيء منه، وعرشه سقف المخلوقات؛ فكل الكون تحت العرش، والله فوق العرش.

والفرق بين الاستواء والعلو من جهتين:

الفرق الأول: أن الاستواء صفة فعلية، والعلو صفة ذاتية؛ بمعنى: أن الله تعالى موصوف بالعلو دومًا، وحاشاه أن يوصف بضده، ولا يُمكن أن يزول عنه وصف العلو؛ كما قال النبي ﷺ، في تفسيره للأسماء الأربعة، قال: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»[1]، حتى في نزوله ﷻ إلى سماء الدنيا، في الثُّلث الأخير من الليل، لا يُمكن أن يكون فوقه شيء من مخلوقاته، والله على كل شيء قدير، ولا يُقاس بخلقه، ولا تُضرب له الأمثال. أما الاستواء فتابعٌ لمشيئته؛ يفعله متى يشاء.

الفرق الثاني: أن العلو يدل عليه العقل والنقل، أما الاستواء فإنه لا يدل عليه إلا النقل؛ فلو أدمن الإنسان التفكير، وأجهد ذهنه ليُثبت الاستواء، لم يتمكن بمُجرد العقل، بخلاف العُلو؛ فإن العقل يقطع بأن العلو كمال، والسُّفل نقص، وكل كمال ثابت للمخلوق فالله أولى به، وكل نقص يُنزه عنه المخلوق فالله أولى أن يُنزه عنه، لكن العقل لا يدل استقلالًا على إثبات الاستواء، وإن كان لا يمنعه.

وقد تضافرت الأدلة على إثبات عُلو الرب سبحانه؛ فقد دل عليه

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

الكتاب والسُّنَّة والإجماع، والعقل، والفطرة؛ فمن الكتاب ما ساقه المصنف:

قوله: (﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾): ليس المراد بالوفاة هنا الموت؛ فإن عيسى عليه السلام لم يمت، بدليل أنه ينزل في آخر الزمان، كما قال ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**»[(١)]، ثم يموت الموتة الطبيعية بعد ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

فمعنى (مُتوفيك): إما مُستوفيك، أو الوفاة التي بمعنى النوم؛ أي: أن الله سبحانه وتعالى ألقى عليه النوم ورفعه؛ فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ﴾ [الزمر: ٤٢] فالنوم نوع وفاة، وفيه نوع استيفاء، لكن تبقى للروح علاقة بالبدن.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (وفي هذا التوفي **قولان**: **أحدهما**: أنه الرفع إلى السماء. **والثاني**: أنه الموت.

فعلى القول الأول يكون نظم الكلام مستقيمًا من غير تقديم ولا تأخير، ويكون معنى «متوفيك»: قابضك من الأرض وافيًا تامًّا من غير أن ينال منك اليهود شيئًا؛ هذا قول الحسن، وابن جريج، وابن قتيبة، واختاره الفراء، ومما يشهد لهذا الوجه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧]؛ أي: رفعتني إلى السماء من غير موت؛ لأنهم إنما بدلوا بعد رفعه، لا بعد موته.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٢٢٢)، ومسلم: رقم (١٥٥).

وعلى القول الثاني، يكون في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: إني رافعك إليَّ ومطهِّرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد ذلك، هذا قول الفراء، والزجاج في آخرين. فتكون الفائدة في إعلامه بالتوفي تعريفه أن رفعَه إلى السماء لا يمنع من موته)(١).

قوله: (﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾): الرفع لا يكون إلا إلى أعلى، ومثله قوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ﴾ [النساء: ١٥٨]، وفي هذا ردٌّ على اليهود والنصارى الذي يزعمون أن عيسى عليه السلام قد صُلب، حاشا وكلَّا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ﴾ [النساء: ١٥٧]؛ فقد وشت اليهود بعيسى عليه السلام إلى الرُّومان ليقتلوه، فألقى الله شبهه على الخائن الذي وشى به، فأخذوه، وجرجروه، ووضعوه على خشبة الصلب، وأما عيسى عليه السلام فقد رفعته الملائكة إلى السماوات العُلى، حتى صار في السماء الرابعة، وهذا مذكور بنصه في «إنجيل برنابا»، غير أن النصارى لا يعترفون به، ويعدونه «منحولًا».

قوله: (﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾): مرجع الضمير إلى الله عز وجل والصعود لا يكون إلا إلى أعلى، والكلم الطيب: كُل لفظ حسن مشروع؛ كالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، والحوقلة، والاسترجاع، والأمر بالمعروف، والنهي عن المُنكر، وتعليم الناس.

قوله: (﴿وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾): الرفع لا يكون إلا لأعلى؛ قال ابن الجوزي رحمه الله: (وفي هاء الكناية في قوله تعالى: ﴿يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ **ثلاثة أقوال**:

أحدها: أنها ترجع إلى الكَلِم الطَّيِّب فالمعنى: والعمل الصالح

(١) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٢٨٧).

يرفع الكَلِم الطَّيِّب، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. وكان الحسن يقول: يُعْرَض القولُ على الفعل، فإن وافق القولَ الفعلُ قُبِل، وإن خالف رُدَّ.

والثاني: أنها ترجع إلى العمل الصالح، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعُه الكَلِم الطَّيِّب، فهو عكس القول الأول، وبه قال أبو صالح، وشهر بن حوشب. فإذا قلنا: إن الكَلِم الطَّيِّب هو التوحيد، كانت فائدة هذا القول إنه لا يُقْبَلُ عملٌ صالح إلّا من موحّد.

والثالث: أنها ترجع إلى الله ﷻ، فالمعنى: والعمل الصالح يرفعُه اللهُ إليه؛ أي: يَقْبَلُه. قاله قتادة)[1].

قوله: (﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾): القائل فرعون مُخاطبًا وزيره هامان، والصرح: هو البناء الرفيع الشامخ، والأسباب جمع سبب، وهو الطريق، ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، يعني: طرائق السماوات.

قوله: (﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾): يعني: فأن أطلع إلى إلٰه موسى؛ الفعل منصوب بأن مضمرة.

ووجه الدلالة من هاتين الآيتين على إثبات العلو قوله: ﴿ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾، والصرح يدل على العلو والارتفاع؛ طلب إلٰه موسى في جهة العلو، ولم يقل: احفر لي حفرة، أو خندقًا، أو نفقًا، وأيضًا قوله: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يدل على أن موسى ﷺ أخبره أن إلٰهه في السماء.

وهذا من تحايل فرعون ومراوغته، وتظاهره بالموضوعية أمام

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٣/ ٥٠٧ ـ ٥٠٨).

العامة، بأنه يبحث عن الحق، ويتحرى الصواب! كقوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]! يوحي أنه قتل الموضوع بحثًا، واجتهد وتجرد، ثم خلص إلى هذه النتيجة الفاجرة. فالسُّذج يستخفهم مثل هذا الكلام، لما يرجونه من نوال، كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

قوله: (﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾): أي: تضطرب وتتزلزل.

قوله: (﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾): الحاصب: الريح، التي تحمل الحصباء فتحصبهم، ووجه الدلالة من هذه الآية على إثبات عُلو الله قوله: ﴿مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾؛ فالذي في السماء هو الله ﷻ.

والسماء لها معنيان:

الأول: السماء المبنية؛ السبع الشداد.

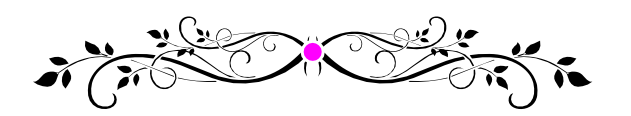
الثاني: العُلو.

فعلى الأول يكون المعنى: أأمنتم من على السماء؛ و(في)، تأتي بمعنى (على) في لُغة العرب، ومن شواهد ذلك من كتاب الله، قول الله تعالى: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢]، يعني: على الأرض، لا في جوفها وغورها، وقوله تعالى: ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]: يعني: على مناكبها، وقوله تعالى في قصة فرعون مع السحرة: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]؛ أي: يربطهم على جذوعها؛ ليس مُراده أن يُدخلهم في أجوافها.

وعلى الثاني تكون (في) بمعنى الظرفية والجهة، يعني: أأمنتم من في العلو؛ لأن العرب تُسمي كل ما علا: سماء؛ فسماء المسجد:

سقفه؛ وبهذا يزول الإشكال، فليس المقصود، حاشا وكلا، أن تكون السماوات تحوي الرب؛ تُظله أو تُقله، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا؛ فالله أكبر وأعظم وأجل من ذلك.





أدلة العلو

أولًا: دلالة الكتاب:

فقد تنوعت أساليب القرآن في الدلالة على علو الله تنوعًا واسعًا:

- فتارة تكون باللفظ الصريح؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، وقوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ [الرعد: ٩].
- وتارة بذكر صعود الأشياء إليه؛ كقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].
- وتارة بذكر رفعها إليه؛ كقوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].
- وتارة بذكر عُروج الأشياء إليه؛ كقوله: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤].
- وتارة بذكر نزولها منه؛ كقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢]
- وتارة بذكر الفوقية؛ كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].
- وتارة بذكر الاستواء؛ كقوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].
- وتارة بذكر أنه في السماء؛ كقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (قَالَ بَعْضُ أَكَابِرِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ: فِي الْقُرْآنِ «أَلْفُ دَلِيلٍ» أَوْ أَزْيَدُ: تَدُلُّ عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى عَالٍ عَلَى الْخَلْقِ وَأَنَّهُ فَوْقَ عِبَادِهِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: فِيهِ ثَلَاثُمِائَةِ دَلِيلٍ تَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ)[١]؛ يعني: أن بعضها دِلالته مُباشرة، وبعضها مُستنبط؛ فهذه دِلالة القُرآن.

ثانيًا: دلالة السُّنَّة:

وهي كثيرة جدًّا في الأحاديث؛ كقول النبي ﷺ: «**وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ**»[٢]، وقوله للجارية: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»[٣]، ورفعه طرفه إلى السماء ينتظر الوحي من الله عَزَّ وَجَلَّ، كما وصف تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، إلى غير ذلك من الأدلة.

ثالثًا: دلالة الإجماع:

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (رَوَى أَبُو بَكْرٍ البيهقي فِي «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنِ الأوزاعي قَالَ: كُنَّا - وَالتَّابِعُونَ مُتَوَافِرُونَ - نَقُولُ: إنَّ اللهَ - تَعَالَى ذِكْرُهُ - فَوْقَ عَرْشِهِ وَنُؤْمِنُ بِمَا وَرَدَتْ فِيهِ السُّنَّةُ مِنْ صِفَاتِهِ. وَقَدْ حَكَى الأوزاعي - وَهُوَ أَحَدُ «الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ» فِي عَصْرِ تَابِعِ التَّابِعِينَ: الَّذِينَ هُمْ «مَالِكٌ» إمَامُ أَهْلِ الْحِجَازِ وَ«الأوزاعي» إمَامُ أَهْلِ الشَّامِ وَ«اللَّيْثُ» إمَامُ أَهْلِ مِصْرَ وَ«الثَّوْرِيُّ» إمَامُ أَهْلِ الْعِرَاقِ - حَكَى شُهْرَةَ

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ١٢١).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

(٣) أخرجه مسلم: رقم (٥٣٧).

الْقَوْلِ فِي زَمَنِ التَّابِعِينَ بِالْإِيمَانِ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ وَبِصِفَاتِهِ السَّمْعِيَّةِ. وَإِنَّمَا قَالَ الأوزاعي هَذَا بَعْدَ ظُهُورِ مَذْهَبِ جَهْمٍ الْمُنْكِرِ لِكَوْنِ اللهِ فَوْقَ عَرْشِهِ وَالنَّافِي لِصِفَاتِهِ؛ لِيَعْرِفَ النَّاسُ أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ خِلَافُ ذَلِكَ)[(١)].

رابعًا: دلالة العقل:

وذلك أن العُلو لدى جميع العُقلاء صفة كمال، والسُّفل صفة نقص، والأصل أن ما ثبت للمخلوق من كمال فالله أولى به، كما أن ما تنزه عنه المخلوق من نقص فالله أحق بالتنزيه منه. وفي تقرير هذا رسالة مبسوطة لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ اسمها: (الرسالة الأكملية).

خامسًا: دلالة الفطرة:

غرس الله تعالى في فطر الخلائق اعتقاد عُلوه، حتى إن اليهود والنصارى يُقرون بأن الله تعالى في العُلو، ويُشيرون إلى السماء، ناهيك عن أهل الإسلام؛ فإنهم أكثر الناس تحقيقًا لعُلوه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ فما من إنسان لم تتلوث فطرته بالمباحث الكلامية، والمنطقية، والفلسفية، إلا ويجد في قلبه نُزوعًا إلى السماء حين مُناجاة الله تعالى.

قال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ أَبُو مَنْصُور بن الْوَلِيد الْحَافِظ فِي رِسَالَة لَهُ إِلَى الزنجاني أنبأنا عبد الْقَادِر الْحَافِظ بحران أنبأنَا الْحَافِظ أَبُو الْعَلَاء أنبأنَا أَبُو جَعْفَر بن أبي عَليّ الْحَافِظ قَالَ: سَمِعت أَبَا الْمَعَالِي الْجُوَيْنِيّ وَقد سُئِلَ عَن قَوْله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾؟ فَقَالَ: كَانَ الله وَلَا عرش وَجعل يتخبط فِي الْكَلَام، فَقلت: قد علمنَا مَا أَشرت إِلَيْهِ فَهَل

(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ٣٩).

عنْدك للضرورات من حِيلَة؟ فَقَالَ: مَا تُرِيدُ بِهَذَا القَوْل وَمَا تَعْنِي بِهَذِهِ الْإِشَارَة؟ فَقلت: مَا قَالَ عَارِف قطّ يَا رباه إِلَّا قبل أَن يَتَحَرَّك لِسَانه قَامَ من بَاطِنه قصد لَا يلْتَفت يمنة وَلَا يسرة يقْصد الفوق فَهَل لهَذَا الْقَصْد الضَّرُورِيّ عنْدك من حِيلَة فنبئنا نتخلص من الفوق والتحت، وبكيت وَبكى الْخلق، فَضرب الْأُسْتَاذ بكمه على السرير وَصَاح: ياللحيرة، وخرق مَا كَانَ عَلَيْهِ وانخلع وَصَارَت قِيَامَة فِي الْمَسْجِد وَنزل وَلم يجبني إِلَّا يَا حَبِيبِي الْحيرَة الْحيرَة والدهشة الدهشة، فَسمِعت بعد ذَلِك أَصْحَابه يَقُولُونَ: سمعناه يَقُول: حيرني الْهَمدَانِي. توفّي إِمَام الْحَرَمَيْنِ فِي سنة ثَمَان وَسبعين وَأَرْبَعمِائَة وَله سِتُّونَ سنة، وَكَانَ من بحور الْعلم فِي الْأُصُول وَالْفُرُوع يتوقد ذكاء)[1].

والمرء يجد هذا في قلبه؛ فما من أحد يُناجي ربه قائلًا: يا رب! إلا اتجه قلبه نحو العلو، حتى أن الأطفال الصغار إذا استعدى بعضهم على بعض خوفه بالله الذي في السماء، ناهيك عن الشيوخ والعجائز. بل يُقال: إن البهائم العجماوات إذا وقع عليها ضرب مبرح رفعت طرفها إلى السماء.

وأما أهل البدع فقد قالوا مقالات بائرة:

- **فمنهم من قال**: إن الله حالّ في كل مكان، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وهذه مقالةُ حُلولية الجهمية. وقد تَسمعُ من بعض الناس من يقول: ربنا في كل مكان! هذا قول باطل؛ بل علمه في كل مكان، أما هو بذاته سبحانه ففوق سماواته؛ لا يكون في المساجد، والبيوت، والأسواق؛ هذا لا يقول به من يقدر الله حق قدره.

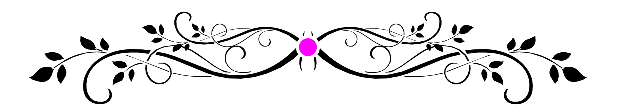
---

(١) العلو للعلي الغفار: (ص٢٥٩)

- **ومنهم من قال**: لا يُوصف بأي جهة، فلا يُقال: فوق، ولا تحت، ولا يمين، ولا شمال، ولا أمام، ولا خلف! يعني: ينفون عن الله الجهات الست، ولا مُحايث، ولا مُجانب، ولا مُحاذي، ولا تجوز الإشارة الحسية إليه! سبحان الله! لو أُريد أن يُعرف العدم بشيء ما وُجد أحسن من هذا التعريف! سلسلة متتابعة من النفي، تفضي إلى القول بالعدم. ولهذا تفطن أهل السُّنَّة فقالوا: إنما يُحاولون أن ليس فوق السماء إلٰه. وهي مقالة تأباها العقول الصريحة، وتردها النصوص الصحيحة.

والأثر المسلكي لإيمان العبد بعلو الله واستوائه على عرشه عظيم! فإنه يورث في القلب إجلال الله وتعظيمه ومخافته وامتثال أمره، كما قال عن ملائكته: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾ [النحل: ٥٠]. وهذا لا يتصور في حق نفاة العلو الذين ينفون عنه الجهات الست، أو يعتقدون أنه في كل مكان.





إثبات معية الله العامة لخلقه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [المجادلة: ٧]).

الشَّرح

ساق المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ هاتين الآيتين، بعد ذكر آيات الاستواء والعُلو، ليُبين أن عُلو الله تعالى واستواءه على عرشه لا ينافي معيته لخلقه؛ فإنه سبحانه قريب في عُلوه، عليّ في دُنوه؛ فلا تعارض بين كونه سبحانه فوق السماوات العُلى مستويًا على العرش، وبين كونه مع خلقه، إذ أن هذه المعيَّة معيَّة علم، معيّة بصفات الربُوبية؛ بسمعه، وبصره، وقدرته، واطلاعه، فلا تنافي بين الأمرين. ولئن كان الأمران يتنافيان في حق المخلوق فإنهما لا يتنافيان في حق الخالق؛ فقد يتوهم مُتوهم أن كون الله تعالى فوق سماواته مستوٍ على عرشه، يقتضي عدم عِلمه بخلقه.

قوله: (﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ﴾): هذا دليل العُلو والاستواء.

قوله: (﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾): سبق تفسير هذه الجُمل ضمن آيات إثبات علمه سبحانه.

قوله: (﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾): هذا دليل المعية؛ فقد جمع الله في آية واحده بين المعية والعلو؛ فلا يُمكن أن يكون بينهما تعارض؛ فإن الدليلين القطعيين لا يمكن أن يتعارضا.

قوله: (﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ﴾): النجوى: حديث السر.

قوله: (﴿ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾): أي: جاعلهم أربعة.

قوله: (﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾): أي: جاعلهم ستة.

قوله: (﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾): يعني: أدنى من الثلاثة.

قوله: (﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾): أكثر من الخمسة.

قوله: (﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾): قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: (حَكَى غَيْرُ وَاحِدٍ الْإِجْمَاعَ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِهَذِهِ الآيَةِ مَعِيَّةُ عِلْمِ اللهِ تَعَالَى. وَلَا شَكَّ فِي إِرَادَةِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ سَمْعَهُ، أَيْضًا، مَعَ عِلْمِهِ مُحِيطٌ بِهِمْ، وَبَصَرَهُ نَافِذٌ فِيهِمْ، فَهُوَ، سُبْحَانَهُ، مُطَّلِعٌ عَلَى خَلْقِهِ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. ثُمَّ قَالَ: ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: افْتَتَحَ الْآيَةَ بِالْعِلْمِ، وَاخْتَتَمَهَا بِالْعِلْمِ)[1].

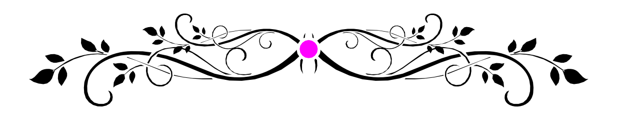
أراد السلف، رحمهم الله، بتفسيرهم المعية بمعية العلم، الرد على حُلولية الجهمية، الذين يزعمون أن الله موجود في جميع الأمكنة، وأنه مُنبث في الكون كانبثاث الهواء والضياء ـ تعالى الله عما يقولون ـ وليس

(١) تفسير ابن كثير: (٨/ ٤٢).

مرادهم أن العلم هو المعيّة؛ بل ذلك من تفسير الشيء بلازمه، يعني: أنه من لازم معيته سبحانه العلم بأحوالهم، كما أنه معهم بسائر صفات ربوبيته؛ من سمعه وبصره وإحاطته ورقابته، ولهذا استدل الإمام أحمد بالقرائن؛ فقال: افتتح الآية بالعلم، وذلك قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المجادلة: ٧]، واختتمها بالعلم، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [المجادلة: ٧]. والقرآن يفسر بعضه بعضًا، فقد قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾ [التوبة: ٧٨]، وقال: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الزخرف: ٨٠].

والآيات السابقة دلت على إثبات أحد نوعي المعية، وهي المعية العامة التي يشترك فيها جميع المخلوقات.

۞ ۞ ۞



إثبات معيّة الله الخاصة لأوليائه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [طه: ٤٦]، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقوله: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]).

الشَّرْح

قوله: (﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾): جاء ذلك في خبر الهجرة، وذلك أن نبيّنا ﷺ، حين أوى إلى غار ثور مع صاحبه أبي بكر، وأرسلت قُريش الطلب إثرهما، فبلغوا موضع الغار، قَالَ أبو بكر: (كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الغَارِ فَرَأَيْتُ آثَارَ الْمُشْرِكِينَ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ رَفَعَ قَدَمَهُ رَآنَا، قَالَ: «**مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[(١)]، فقال له النبي ﷺ: «﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]»[(٢)].

فهذه المعيّة معيّةٌ خاصة، أما المعيّة العامة فإنها تشمل من في

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٦٦٣)، ومسلم: رقم (٢٣٨١).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦١٥)، ومسلم: رقم (٣٠١٤).

الغار، ومن خارج الغار؛ فإن الله معهم جميعًا بسمعه، وبصره، وعلمه، وزاد من في الغار على من خارج الغار أنه معهم بنصره، وتأييده، وحفظه؛ فهذا هو الفرق بين المعيّتين.

قوله: (﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾): هذا جواب من الله تعالى، وطمأنة لموسى وهارون عليهما السلام؛ فإنه لما ندبهما إلى لقاء فرعون ودعوته، قالا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفۡرُطَ عَلَيۡنَآ أَوۡ أَن يَطۡغَىٰ ۝٤٥﴾ [طه: ٤٥]، وهو مظنة ذلك، إذ كان طاغيًا، جبارًا، غشومًا، ظلومًا؛ لا سيما أنه قد سبق لموسى عليه السلام قتل أحد نفوسهم خطئًا؛ فقال الله تعالى مُطمئنًا لهما: ﴿لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: ٤٦].

فهذه المعيّة معيّةٌ خاصة؛ تقتضي أن الله تعالى يكلؤهما بعنايته، ويدفع عنهما، وإلا فإن الله مع فرعون ومَلَئه، كما أنه مع موسى وهارون معيّةٌ عامة؛ معيّة الرُبوبية المُقتضية للعلم بالسمع، والبصر، والقدرة، والإحاطة، وسائر صفات الرُّبوبية.

قوله: (﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ۝١٢٨﴾): هذه معيّة خاصة بالمُتصفين بوصفين كريمين؛ التقوى والإحسان، وهذا يدل على أن المعيّة الخاصة لا تقتصر على الأنبياء والرسل، وإن كان لهؤلاء المصطفين الأخيار القِدح المعلَّى منها.

والمتقون: هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وِقاية؛ بامتثال أوامره واجتناب مناهيه، وليس شيء آخر من نسب أو حسب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحُجرات: ١٣]، وقال: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]؛ فمن اتقى الله وقاه.

والمحسنون: هم المتصفون بالإحسان، الذي هو أعلى

مراتب الدين، وقد عرَّفه النبي ﷺ، بقوله: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»(١)، وهاتان أيضًا **درجتان**:

الأولى: درجة الطلب: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ**»، يعني تعبده مُشتاقًا إليه، راغبًا فيه، مُنجذبًا إليه، مُتألهًا له، تعبده بمحبة ووله.

الثانية: درجة الهرب: «**فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»؛ أي: إن لم تبلغ هذا المبلغ فاعبده بخشية وخوف وإجلال، فلا يبدر منك ما يُسخطه عليك.

قوله: (﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾): هذه معيّة خاصة أيضًا لمن اتصفوا بهذه الصفة الحميدة؛ وهي الصبر، والصبر في الدين بمنزلة الرأس من الجسد، وهو ثلاثة أنواع: صبر على طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصبر لغةً: الحبس والمنع.

واصطلاحًا: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التسخط، والجوارح عن شق الجيوب وضرب الخُدود، وفعل أفعال الجاهلية.

قوله: (﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٢٤٩﴾): «كم» هنا هي التكثيرية، والقائلون: هم الذين يظنون أنهم ملاقو الله، لما برزوا لجالوت وجنوده، للقائلين: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلۡيَوۡمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، فكانت النتيجة: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١]؛ فمن تولى الله واعتصم به، فإن الله تعالى معه، ومن كان الله معه، فليَبشِر.

هؤلاء هم أهل معيّة الله الخاصة؛ فالمتقون، والمحسنون،

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٧٧)، ومسلم: رقم (٩).

والصابرون، والمؤمنون يكون الله معهم في السراء والضراء؛ يُسددهم، ويثبتهم، ويُصلح أحوالهم، كما قال الله تعالى في الحديث القُدسي: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»(١). هذه هي الولاية الحقيقة، فمن كان لله تقيًّا، كان لله وليًّا. وإذا أردت أن تعرف قدرك عند الله، فانظر قدر الله عندك؛ انظر ما يقوم في قلبك من تعظيم الرب، تبارك وتعالى، وإجلاله ومحبته، فإن وجدت خيرًا فاحمد الله، واعلم أن لك عند الله منزلة، وإن كان غير ذلك، فتعاهد قلبك وأصلحه.

وخُلاصة هاتين الطائفتين من الآيات: أن معيّة الله تعالى نوعان: عامة وخاصة، وبينهما فروق:

أولًا: المعيّة العامة تقتضي العلم والإحاطة بجميع صفات الرُّبوبية؛ من السمع، والبصر والقُدرة، ونحوها، والمعية الخاصة تقتضي النصر، والتأييد.

ثانيًا: المعيّة العامة تكون لجميع الخلق؛ مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم؛ فلا يخرج عنها أحد. لكن ليس معنى ذلك أن جميع الخلق يستشعرون معية الله العامة؛ لا يستشعر معية الله العامة إلا المؤمنون المتقون، أما الكُفار والفُساق فلا يستشعرونها، وإن كانت حاصلة؛

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٠٢).

شاؤوا أم أبوا. أما معية الله الخاصة فتختص بالمؤمنين؛ المتقين المحسنين، الصابرين، الموصوفين بالصفات التي علق الله عليها المدح.

ثالثًا: معيّة الله العامة تثمر في نفس المؤمن كمال مُراقبة الله تعالى، وخشيته، هذا أثرها المسلكي. قال أبو العتاهية:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبن اللّه يغفل ساعة ولا أَنَّ ما تُخْفِي عليه يغيب

أما معيّة الله الخاصة فإنها تُثمر في نفس المؤمن القوة والثبات؛ لأن من علم أن الله معه لم يُبال بكائن من كان؛ لأنه يعلم أن الله معه فيُقويه؛ ولهذا فتح المسلمون الأمصار وهم فئة قليلة، خاضوا معارك مع الفُرس ومع الروم، ليس فيها تناسب في العدد والعتاد، ومع ذلك غلبوهم بإذن الله، لما في قُلوبهم من القوة والثبات، وهذا أمر يجده المؤمن الصادق، إذا قام لله ﷻ.

تأمل حال الفتية أصحاب الكهف، كما أخبر الله عنهم: ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ١٤]. قد يتهيب الإنسان أن يخوض في أمر من الأُمور من خشية الناس، لكنه إذا طَرح ذلك كُله، وترك المخاوف وقام لله، وجد الأثر والثمرة مباشرة؛ لأن الله يربط على قلبه.

وتأمل في حال مؤمن القرية، حينما نادى قومه، ودعاهم إلى الإسلام بلسان مُبين كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾ [يس: ٢٠ ـ ٢٥].

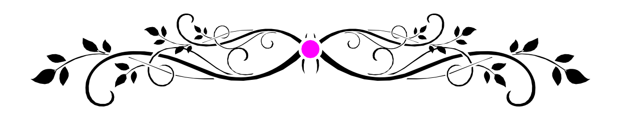
وتأمل في حال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُحرر هذه الأسطر، حين ذهب لمُلاقاة قازان، وكان من مُلوك التتار، وكان يهم أن يستبيح دمشق، (فخرج إليه ومعه وفد من أهل دمشق؛ من شيوخها ووجهائها، فقام يُكلمه بلسان قوي، ليس فيه تملق ولا مُحاباة، ويشنؤه ويعيبه ويُقارنه بأسلافه؛ هولاكو وجنكيز خان، وكانا مشركين، قال: وأنت تدعي الإسلام، وتفعل كذا وكذا! وأخذ يُكلمه بثبات، ورباطة جأش، والناس مبهورين من شجاعته، وجرأته، حتى إن بعض من كان معه قال: كُنا نبتعد عنه خشية أن يُصيبنا رشاش دمه؛ ظنوا أنه سيُقتل في مجلسه؛ فعظمه قازان أيما تعظيم، وقربه وأدناه، ولما انصرف من مجلسه، سار في ركابه أمراء العساكر من التتار يُشيعونه، ومن طريف ما جرى أن بعض من كان معه فارقوه، قالوا: والله لا نرجع معك، لو رجعنا معك لا نأمن أن يُرسل السلطان في أثرك من يقتلك؛ فساروا في طريق آخر، ولم يزل شيخ الإسلام يسير مُعززًا مُكرمًا، يُحيط به رؤساء العساكر من التتار، حتى أوصلوه إلى دمشق، وأما من فارقه فعرض لهم قطاع طريق فسلبوهم)[(١)].

رابعًا: المعيّة العامة من الصفات الذاتية؛ لأن مُقتضياتها لا تنفك عن الله، وهي الإحاطة، والعلم، والسمع، والبصر. وأما المعية الخاصة فهي من الصفات الفعلية؛ لأنها مُتعلقة بمشيئته وحكمته، بمعنى: أنه إذا وُجد سببها وُجدت، وإذا ارتفع سببها ارتفعت. فحيثما وُجد الصبر والتقوى والإحسان وجدت المعية الخاصة، وإذا فقدت ارتفعت.

وأما تقسيم المعية الخاصة إلى معية الخاصة، ومعية خاصة الخاصة، فذلك من باب التفاوت بحسب درجة الولاية لله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) انظر: البداية والنهاية: (١٤/ ٨٩).



إثبات الكلام لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الشعراء: ١٠]. ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [القصص: ٦٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]).

الشَّرْح

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة أن الله ﷻ يتكلم بكلام حقيقي؛ بحرف وصوت، لا يشبه كلام المخلوقين، وأن كلامه صفة ذاتية فعلية؛ ذاتية، باعتبار أصل الصفة، وفعلية، باعتبار آحادها وأفرادها؛ فهو سبحانه يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، بكلام حقيقي يسمعه من شاء من خلقه، وأن كلامه ﷻ حُروف ومعان؛ لا الحُروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحُروف.

وقد دلَّل المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على ذلك، بأدلة متنوعة:

قوله: (﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾): هذا استفهام يُراد به النفي؛ أي: لا أحد أصدق من الله قِيلًا؛ والصدق: مُطابقة الخبر للواقع، والشاهد من الآية: ﴿قِيلًا﴾، إذ القول هو الكلام باتفاق، فمن أثبت القول لله، تبارك وتعالى، فقد أثبت له الكلام.

قوله: (﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ٨٧﴾): استفهام يُراد به النفي؛ أي: لا أحد أصدق من الله حديثًا، والحديث هو الكلام؛ فمن أثبت له الحديث، فقد أثبت له الكلام.

قوله: (﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾): جُملة مقول القول مكونة من حُروف وأصوات، فهي تدل على أن كلام الله حرف وصوت، بنص القرآن، كما تدل على أن كلامه مُتعلق بمشيئته، فإن ذلك يكون يوم القيامة؛ فالله يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء.

قوله: (﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾): أضاف الكلام إلى نفسه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مما يدل على أنه صفته، وذلك أن المُضاف إلى الله تعالى له حالان:

- فإن كان عينًا قائمًا بنفسه، فهو من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣]، وقوله: ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وقولنا: بيت الله، وكعبة الله، وليس صفة، وإضافته إلى الله تبارك وتعالى إضافة تشريف، أو إضافة خلق.

- أما إن كان المضاف إلى الله لا يقوم بنفسه؛ كالكلام، والسمع، والبصر، فهو من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ كقوله تعالى في حديث الشفاعة: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأُخْرِجَنَّ مِنْهَا**

مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»(١)

قوله: (﴿صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾): صدقًا في أخبارها، وعدلًا في أحكامها.

والكلام نوعان:

- **خبر**: ما يمكن أن يوصف بالصدق أو الكذب لذاته، لا باعتبار المخبِر به؛ كقول القائل: جاء زيد.

- **إنشاء**: ما لا يمكن أن يوصف بالصدق أو الكذب، مثل: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ٤٣﴾ [البقرة: ٤٣].

قوله: (﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾): هذه الآية من أوضح الأدلة على إثبات صفة الكلام لله ﷻ، إذ أن الله تعالى أسند الكلام إلى نفسه، وأكده بالمفعول المطلق.

فـ﴿ٱللَّهُ﴾، سبحانه، هو المتكلِّم، و﴿مُوسَىٰ﴾ عليه السلام هو المكلَّم، و﴿تَكۡلِيمٗا ١٦٤﴾ مفعول مُطلق مؤكد لعامله.

وقد شرق بها منكرو الصفات، وحاولوا تحريفها عن ظاهرها تحريفًا لفظيًّا بتغير الشكل، كما تقدم، وحاولوا أن يستنطقوا أبا عمرو بن العلاء، أحد القراء السبعة، أن يقرأ لهم لفظ الجلالة منصوبًا، ليجعلوا الله مكلَّمًا، لا مُتكلِّمًا، فأبى، وقال للمبتدع: فما تصنع، يا ابن اللخناء، في قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]؟

قوله: (﴿مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾): من الرُّسل، ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، مثل موسى بن عمران، ولهذا يُقال: موسى الكليم، كلَّمه الله كفاحًا في الطور، ولفظ الجلالة: فاعل مرفوع؛ فهو المكلِّم سبحانه.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٥١٠)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٩٣).

قوله: (﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾): ميقاته هو الموعد المذكور في قـولـه: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢].

قوله: (﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾): هذا دليل صريح على إثبات كلام الله ﷻ، ودليل أيضًا على أن كلامه مُتعلق بمشيئته؛ لأن ثمَّ حدثان: المجيء، والتكليم. فكل عربي يُدرك أن المجيء وقع أولًا، ثم تلاه الكلام. فالكلام حدث بعد المجيء. وأهل البدع يزعمون أن هذا الحدوث نقص في حق الباري، ويقولون: حصل له وصف بعد أن لم يكن! وغفلوا عن أمر مهم، وهو أن الكلام قديم النوع حادث الآحاد، فأصل الصفة قديم، وآحادها وأفرادها متجددة، ولا يُقال: حدثت بعد أن لم تكن. كيف وقد قال سبحانه بنفسه: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الأنبياء: ٢]، وقال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾ [الشعراء: ٥].

ومقتضى الكمال أن يتكلم متى شاء، كيف شاء، بما شاء، ونفي ذلك منافٍ للكمال؛ فإنه يستلزم وصفه بالخرس، تعالى عن ذلك، ولهذا دلّل الله على بطلان عبادة العجل بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ﴾ [الأعراف: ١٤٨]. والذي يتكلم إذا اقتضى المقام الكلام أكمل من الأخرس الذي لا يتكلم، وكما أنه سبحانه: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧]، [البروج: ١٦]، وفعله بقوله، كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]؛ فذلك يقتضي أنه يتكلم متى أراد.

قوله: (﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾﴾): دلَّت هذه الآية على أن كلام الله له تصرفات؛ فتارة يكون نداءً، وتارة يكون مُناجاة؛ والمناداة: الصوت لمن بعُد، والمناجاة: الصوت لمن قرُب؛

فحين كان موسى عليه السلام بعيدًا نُودي، فلما قرُب نُوجي، والطور: جبل معروف في جنوب سيناء، وقيل غير ذلك.

وصفه بالأيمن هنا بالنسبة لموسى حين أقبل عليه، فإن كل شيء يُمكن أن يكون له يمين ويسار باعتبار الجهة التي يُرصد منها؛ فأنت إذا أقبلت على شيء من جهة صار جانبه الأيمن ما يلي يمينك، وإذا جئت من الجهة المقابلة صار العكس؛ فالمقصود الأيمن بالنسبة لموسى عليه السلام.

قوله: (﴿وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ۝٥٢﴾): دلَّت على فضل موسى عليه السلام واختصاصه بكلام الرب مُناداة ومُناجاة، ودلت على تصرف كلام الرب، وأنه كلام حقيقي مسموع.

قوله: (﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾): ﴿إِذْ﴾: تدل على الظرفية، مما يدل على أنها مُتعلقة بمشيئته. والمنادي هو الله، والمنادى موسى عليه السلام، و﴿ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾: وهم قوم فرعون، ﴿أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾؛ أي: لعلهم يتقون.

قوله: (﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾): المناديان: هما الأبوان عليهما السلام، آدم وحواء، بعد أن أكلا من الشجرة المحرم قربانها؛ فسمع الأبوان بأُذنيهما كلام الباري، سبحانه، وعتابه.

هذا ما يفهمه كل قارئ للقرآن باقٍ على فطرته السوية، وسليقته العربية، أما من احتوشته البدع، وضللته الأهواء، فقد أغرب في المقالات والتأويلات، وزعم أن الله تعالى لم يتكلم بكلام حقيقي صادر منه، وإنما خلق حُروفًا وأصواتًا في جو الجنة، سمعها الأبوان، لتعبر عن المعنى القديم القائم بنفسه!، وخلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة، سمعها موسى عليه السلام، لتُعبر عن المعنى القديم القائم في نفسه!

فالحقيقة أنهم لم يثبتوا كلام الله؛ فإن كلام الله عندهم هو المعنى

القديم القائم في نفسه، وأما الصوت المسموع فمخلوق؛ فجعلوا الكلام المعاني دون الحروف والأصوات؛ كأنه بمعنى العلم فقط.

والعرب لا تُسمي كلامًا إلا المعنى المعبرُ عنه بحروفٍ وصوت؛ فلا يُقال: تكلم فلان، إلا إذا نطق؛ ولهذا لا يُعد الطلاق طلاقًا، ولا العِتاق عتاقًا، ولا الوقف وقفًا، بمجرد حديث النفس حتى يلفظ به؛ فلو أن إنسانًا خطر في باله أنه طلق زوجته؛ لم تطلق حتى يقول: أنتِ طالق، ولو أن إنسانًا فكر أن يُعتق عبده، وجال في خاطره: عبدي عتيق لوجه الله؛ لم يُعتق حتى يقول: أنت حر لوجه الله، ولو أراد أن يُوقف بيته أو بُستانه، لم يثبت وقفًا بحديث النفس حتى ينطق بذلك؛ فالكلام مجموع الأمرين: المعنى واللفظ. ولو أطلق على حديث النفس قولًا فإنه لا بد أن يقيد بذلك، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

فهل يظن ظان أن أحدًا من الصحابة الكرام، أو التابعين لهم بإحسان، فهم من مناداة الله تعالى للأبوين: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] أن هذا المسموع حُروف وأصوات خلقها الله في جو الجنة لتُعبر عن كلام الله؟! أو فهم من قول الله ﷻ لموسى عليه السلام، عند الشجرة: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]، أن الله خلق حُروفًا وأصواتًا في الشجرة لتُعبر عن كلامه؟!

والله لو حلف حالف بين الرُّكن والمقام أن هذا لم يخطر لهم ببال، ولا دار لهم بخيال، ما حنث؛ هذا تكلف مذموم، ما حملهم عليه إلا المقدمات الفاسدة.

قوله: (﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾): دلَّت الآية على إثبات الكلام لله؛ لأن النداء نوع من أنواع الكلام. ودلت أيضًا

على إثبات أن كلامه مُتعلق بمشيئته لقوله: ﴿وَيَوْمَ﴾، فإنه كلام سيقوله الرب يوم القيامة لهؤلاء المشركين.

فتبيَّن من هذه الآيات المحكمات، والدلائل البينات، أن مُعتقد أهل السُّنَّة والجماعة في كلام الرب ﷻ مبناه على ناطق الكتاب. وستأتي أدلة من السُّنَّة.

أما الضالون في هذا الباب فهم كُثر؛ منهم من هم من أهل القبلة، ومنهم من ليسوا من أهل القبلة؛ بل من الملاحدة، وسنذكر مقالاتهم الباطلة على سبيل الإجمال، لكي نعرف نعمة الله علينا بالاعتصام بنُصوص الكتاب والسُّنَّة:

مقالة الفلاسفة: والمقصود هنا: الفلاسفة الذين تظاهروا بالإسلام، ورُبما يُطلق عليهم «فلاسفة الإسلام»! وليس في الإسلام فلسفة، لكنهم أرادوا أن يكسوا فلسفتهم اليونانية بلبوس الإسلام، وعبارات الدين؛ كابن سينا، والفارابي.

قالوا: إن كلام الله فيض من العقل الفعال على بعض النُّفوس الزاكية، يُوجب لها تهيؤات وتصوُرات تقوى وتشتد حتى تُصبح كلامًا تسمعه الآذان.

ولعلهم يجعلون «العقل الفعال»: ما يقابل الرب والإلٰه عند أهل الأديان، و«النفوس الزاكية»؛ أي: نفوس الأنبياء والمُرسلين والأولياء والصالحين.

و«الفيض»: ما يقابل الوحي!

ولا حاجة للتعقيب على مقالتهم؛ فهو كُفر صُراح، لا يخفى على مؤمن.

مقالة الاتحادية: وهم أصحاب وحدة الوُجود من الصوفية؛ كابن عربي، وابن الفارض وابن سبعين، والقونوي، ومن كان على طريقتهم.

قالوا: كل كلام في الوُجود كلام الله! وهو فرع عن عقيدتهم الكُفرية الخبيثة: (أن وجود الكائنات هو عين وجود الله تعالى، ليس وجودها غيره، ولا شيء سواه البتة)[(١)]. هذه عقيدة أصحاب وحدة الوُجود. حتى قال ابن عربي:

ألا كل قول في الوجود كلامه   سواءً علينا نثره ونظامه[(٢)]

فأي صوت يسمعونه يعتبرونه كلام الله؛ كأصوات الطيور والحيوانات والآلات، وأزيز الطائرات، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا. ويُذكر أن أحدهم كان على المنبر فنعق غُراب على جدار المسجد، فخر مغشيًّا قائلًا: لبيك لبيك! هكذا تتلاعب بهم الشياطين.

مقالة الجهمية والمعتزلة: الجهمية لا يُثبتون لله أسماء ولا صفات، فلا يُثبتون صفة الكلام لله ﷻ، ويقولون: إن الكلام الذي أضافه الله إلى نفسه من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، لا من باب إضافة الصفة إلى الموصوف؛ لأنهم يُنكرون أن يقوم به ﷻ صفة ثُبوتية. والمعتزلة مثلهم.

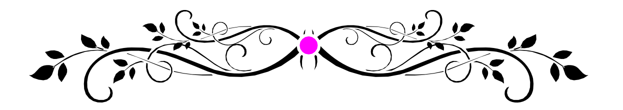
مقالة الصفاتية: من الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ومن قاربهم. قالوا: كلام الله هو المعنى القديم القائم في ذاته. وأما الحُروف والأصوات فهي مخلوقة، ليست صفة. قالت الكُلابية: هي حكاية عن كلام الله. وقالت الأشاعرة: هي عبارة عن كلام الله. فهم مُتفقون على أن الحُروف والأصوات المسموعة ليست كلام الله وإن تفاوتت عباراتهم. ولهذا قال بعض مُحققي الأشاعرة: إنه عند التأمل والتحقيق لا فرق بين مقالتنا ومقالة المُعتزلة. فالقوم، وإن تظاهروا بأنهم يُثبتون الكلام ضمن

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: (٢/ ١٤٠).
(٢) الفتوحات المكية: (٤/ ١٤١).

الصفات السبع، فإنهم في الواقع ما أثبتوها كما أثبتها أهل السُّنَّة والجماعة.

فهذا مُجمل أقوال الناس في مسألة كلام الله ﷻ والواجب إثبات كلام الله تعالى إثباتًا كما دل عليه ناطق الكتاب وصحيح السُّنَّة. وسيأتي لهذا مزيد بسط في كلام الشيخ لاحقًا.





إثبات أن القرآن كلام الله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ [الفتح: ١٥]، وقوله: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ [الكهف: ٢٧]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]).

الشَّرح

هذه الطائفة من الآيات تتعلق بأمر أخص من الطائفة السابقة؛ فإنها تتعلق بالقرآن، والقرآن نوع من كلام الله؛ فالله تعالى تكلَّم فيما مضى وفيما لم يزل؛ فقد تكلم بالتوراة، ثم تكلم بالزبور، ثم تكلم بالإنجيل، ثم تكلم بالقرآن؛ فهذا مبحث شريف في بيان عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في القرآن.

يعتقد أهل السُّنَّة والجماعة: أن القرآن كلام الله، مُنزل غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، تكلم الله به حقيقة، فأوحاه إلى جبريل، فنزل به على قلب محمد ﷺ، وهو كلامُ الله حُروفه ومعانيه؛ لا المعاني دون الحُروف، ولا الحُروف دون المعاني.

قوله: (﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ﴾): أي: طلب جوارك، وهو المستأمن؛ فغير المُسلمين، **أربعة أصناف:**

الأول: **الذميون**: وهم المقيمون في دار الإسلام، لهم ذمة المسلمين، ويعطون الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

الثاني: **المعاهدون**: الذين عقدوا مع أهل الإسلام عقدًا مطلقًا أو مؤقتًا.

الثالث: **المستأمنون**: الذين يطلبون الأمان من أهل الإسلام.

الرابع: **الحَربيون**: المحادُّون لله ورسوله، المقاتلون لأهل الإسلام.

و﴿أَحَدًا﴾: نكرة في سياق الشرط، فتدل على العُموم.

فإذ استجار بنا مُشرك، فالواجب علينا أن نُجيره ونحميه؛ فلا يتعرض لقتلٍ، ولا أذى؛ بل نُقيم عليه الحُجة الرسالية، فنطلب قارئًا يقرأ عليه القرآن؛ فنكون بذلك قد امتثلنا أمر الله تعالى بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ فهذا المسموع الذي قرع سمعه هو كلام الله، بنص كتابه، وهو لا يُمكن أن يسمع كلام الله من الله مُباشرة، لا سبيل أن يسمع كلام الله إلا من قارئ يقرؤه عليه؛ فصدق حقًّا أن هذا المسموع هو كلام الله؛ فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام البارئ؛ لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مُبتدئًا، لا إلى من قاله مُبلغًا ومؤديًا.

قوله: (﴿وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ﴾): يعني: من يهود.

قوله: (﴿يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾): قد كانوا يسمعون ما أنزل الله تعالى فيما مضى، وسمعوا من نبيِّنا ﷺ بعض ما أُنزل إليه.

قوله: (﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾): قال ابن الجوزي رحمه الله: (وفي سماعهم لكلام الله قولان: أحدهما: أنهم قرؤوا التوراة فحرّفوها، هذا قول مجاهد والسدي في آخرين، فيكون سماعهم لكلام الله بتبليغ نبيّهم، وتحريفهم: تغيير ما فيها. والثاني: أنهم التّسعون رجلًا الذين اختارهم

موسى[١]، فسمعوا كلام الله كفاحًا عند الجبل، . . . هذا قول مقاتل، والأول أصح)[٢]، وكذا رجح ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ فقد ساق رواية ابن إسحاق عن ابن عباس أنهم الذين اختارهم موسى، ثم قال: (وَقَالَ السُّدِّيُّ: ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ﴾ [البقرة: ٧٥] قَالَ: هِيَ التَّوْرَاةُ، حَرَّفُوهَا. وَهَذَا الذِي ذَكَرَهُ السُّدِّيُّ أَعَمُّ مِمَّا ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَابْنُ إِسْحَاقَ، وَإِنْ كَانَ قَدِ اخْتَارَهُ ابْنُ جَرِيرٍ لِظَاهِرِ السِّيَاقِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَلْزَمُ مِنْ سَمَاعِ كَلَامِ اللهِ أَنْ يَكُونَ مِنْهُ كَمَا سمعه الكليم موسى بن عِمْرَانَ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التَّوْبَة: ٦]؛ أَيْ: مبلَّغًا إِلَيْهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾ قَالَ: هُمُ الْيَهُودُ كَانُوا يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَوَعَوْهُ)[٣]؛ أي: يُحرفونه تحريفًا لفظيًّا، وهو قليل، أو معنويًّا وهو الأكثر. وهذه إحدى سوءات يهود.

فهذا المسموع هو كلام الله حقًّا وصدقًا، دون تأويل أو تكلف معان مجازية؛ فالله تعالى أعلم بما قال، وأصدق قيلًا، وأحسن حديثًا. وقد بيَّن ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ أن وصفه بكلام الله لا يستلزم سماعه منه مباشرة، كسماع موسى. فصوت القارئ، وأداؤه البشري الخارج من الشفتين واللسان والحُنجرة مخلوق، والكلام كلام الباريء ليس بمخلوق.

قوله: (﴿مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾): وهذا يدل على

---

(١) الذي في كتاب الله أنهم سبعون لا تسعون!: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥].

(٢) زاد المسير في علم التفسير: (١/ ٨٠).

(٣) تفسير ابن كثير: (١/ ٣٠٧ ـ ٣٠٨).

أن كلام الله يُتعقل، وليس فيه مجهولات وألفاظ جوفاء كما يدعي المُفوضة؛ بل هو محل للتعقل والفهم والتدبر، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [يوسف: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: ٣]. فعُروبة القرآن سبب في تعقله وإدراك معانيه.

قوله: (﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ﴾): هؤلاء المُنافقون الذين خذلوا المؤمنين عام الحُديبية، وأرادوا أن يفتوا في أعضادهم، فلما جاءت غزوة خيبر أرادوا الخروج لأنه يُوافق هوى في نُفوسهم لمغانم يُريدون أن يأخذوها. لكن الله تعالى قد حكم فيما مضى بحرمانهم ومنعهم من الخروج، كما في قوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ﴾ [الفتح: ١٥]. فسمى الله القرآن المنزل على نبيِّه ﷺ «كلام الله».

قوله: (﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾): ﴿كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾؛ أي: مكتوبه، وهو كلماته؛ لقوله إثرها: ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، فقد تكفل الله بحفظه، وهو القرآن. والآية ظاهرة جلية في إفادة هذا المعنى.

قوله: (﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾): ولولا أنه كلام الله لما كان هذا القرآن فاصلًا في الاختلافات السابقة. فإن بني إسرائيل، وهم اليهود والنصارى، قد وقع بينهم في دينهم خلاف عظيم. فكل ملة تشظت وتفرقت فرقًا كثيرة؛ كما قال نبيّنا ﷺ: «**افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً**»[1]، فأُهريقت بسببه الدماء، وتبادلوا

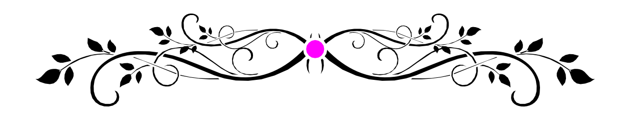
(١) حديث الافتراق رواه بألفاظ مختلفة أحمد: رقم (١٢٤٧٩)، والترمذي: =

بينهم أحكام التكفير والحِرمان والحجب، وغيرها من الاصطلاحات التي يتنابزون بها.

ومن ذلك: خِلافهم في «الكلمة»، ففي مستهل إنجيل يوحنا: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله) (يو ١:١)؛ يزعمون أن عيسى عليه السلام هو الكلمة، وهو الله! ويجهدون أنفسهم في تقرير هذا المفهوم الغامض، ولا يخرجون بطائل! ثم يلجؤون إلى القول بأن ذلك من الأسرار الكهنوتية.

فجاء القرآن العظيم ليرفع هذا الالتباس الذي وقعوا فيه، ويبين معنى كون عيسى عليه السلام كلمته؛ أي: أنه مخلوق بكلمته (كن)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩] فهو مخلوق كآدم عليهما السلام بالكلمة، لا كما يزعم النصارى أنه هو نفسه كلمة الله، وأنه جُزء من الله تجسد في يسوع. فقص هذا القرآن ما هم فيه مختلفون، كما أخبر تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾﴾ [البينة: ١]. فالبينة: القرآن العظيم يبينه خاتم المرسلين. فما كان لليهود، وما كان للنصارى أن يخرجوا من هذا المأزق الذي علقوا فيه من الخلافات العريضة، إلا بوحي من الله يكون مُقنعًا وحاسمًا وفاصلًا للنزاع، فكان هذا القرآن: ﴿يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾﴾. فهذا وجه استشهاد المصنف بهذه الآية في هذا السياق، والله أعلم.

= رقم (٢٦٤٠) وحسنه، وأبو داود، رقم (٤٥٩٧)، وابن ماجه: رقم (٣٩٩٢)، والمروزي في السُّنَّة: رقم (٥٩)، والحاكم: رقم (١٠، ٤٤٣)، وقال: هذه أسانيد تقام بها الحجة في تصحيح الحديث، وصححه الألباني في صحيح الجامع: رقم (٢٠٤٢).



إثبات أن القرآن مُنَزَّل من الله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الحشر: ٢١]، ﴿وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠١ ـ ١٠٣]).

الشَّرح

هذه الطائفة من الآيات متممة لما سبقها من الاستدلال على عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في القرآن:

قوله: (﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ﴾): المشار إليه هو القرآن، وهو معطوف على قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ [الأنعام: ٩١].

وكون القرآن موصوفٌ بالتنزيل يدل، من جهة، على صدوره من الله؛ فهو كلامه، ومن جهة أخرى يدل على علوه سبحانه في ذاته، كما له العُلو المُطلق في أسمائه وصفاته وقهره؛ فلما كان سبحانه وبحمده له عُلو الذات، كما تقدم تقريره، صار الصادر منه سبحانه من كلام ينزل

نُزولًا من أعلى إلى أسفل؛ فالله تعالى له العُلو، والآدميين، بالنسبة إليه، في السُّفل.

قوله: (﴿مُبَارَكٌ﴾): أي: كثير البركة، وبركة القرآن إن تُعد لا تُحصى، مُبارك في تلاوته، وفي حِفظه، وفي تدبره، وفي العمل والحُكم به، وفي الاستشفاء به، وفي كل شأنه؛ فالقرآن العظيم مُبارك لا حصر لبركاته، فالبركة مُحتفة به حتى في تنزيله.

قوله: (﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾): لو أن الله تعالى أنزل كلامه على جبل من الجبال الصلدة الصلبة لرأيت ذلك الجبل يتهدهد ويُصبح دكًّا، لكن الله تعالى أنزله على قلب محمد ﷺ، وأعطاه القدرة على تحمله.

عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رضي الله عنها، أَنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَام رضي الله عنه سَأَلَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**». قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الوَحْيُ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[1]. وعَنْها رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَتْ: (إِنْ كَانَ لَيُوحَى إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَتَضْرِبُ بِجِرَانِهَا) زاد الحاكم: وتلت قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥])[2].

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢)، ومسلم: رقم (٢٣٣٣).

(٢) أخرجه أحمد: رقم (٢٤٨٦٨)، وقال الأرنؤوط: حديث صحيح. والحاكم: رقم (٣٨٦٥)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

فهذا الأثر الحسي المشاهد يدل على ثقل القرآن حال تنزله، ولولا إعانة الله وتقويته لنبيِّه ﷺ، ما استطاع تحمل نزوله؛ كما أن الجبل الأصم الأشم يخشع ويتصدع لو أنزل عليه، ثم يُسرى عنه ﷺ، فيقرأ ما أُوحي إليه، (فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ [القيامة: ١٦] قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ ـ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا، وَقَالَ سَعِيدٌ: أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا، فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ ـ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [القيامة: ١٦، ١٧]. قَالَ: جَمْعُهُ لَكَ فِي صَدْرِكَ وَتَقْرَأَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ [القيامة: ١٨] قَالَ: فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٩] ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ. فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ)[١].

قوله: (﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ﴾): يُسمى هذا التبديل نسخًا، إذ النسخ معناه في **اللغة**: الإزالة، كما تقول العرب: نسخته الريح؛ يعني: مسحته وعفَّت على آثاره. أما في **الاصطلاح**، عند الأُصوليين، فهو: رفع حُكم نص مُتقدم بحُكم نص مُتأخر؛ فالنسخ يتعلق بالأحكام، ولا يُمكن أن يقع في الأخبار؛ لأن ذلك يقتضي تكذيب الخبر الأول. وحاشا أن يتطرق الكذب إلى كلام الله تعالى. وأما الأحكام، فما كان واجبًا يُمكن أن يكون مُستحبًّا، وما كان مُحرمًا يُمكن أن يكون مُباحًا. وأمثلة هذا كثيرة جدًّا في كتاب الله. وقد يُنسخ القرآن

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦)، ومسلم: رقم (٤٤٨).

بالقرآن، وقد تُنسخ السُّنَّة بالسُّنَّة، وقد يُنسخ القرآن بالسُّنَّة والعكس، تفاصيله في كُتب الأُصوليين.

وقد شوش النسخ على المشركين في مكة، كما شوش على أهل الكتاب في المدينة، فاتخذوا منه ذريعة للطعن بالقرآن والنبي! فقال تعالى في سياق آيات تحويل القبلة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

قوله: (﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ﴾): من الفرية، والفرية: أشد الكذب والبُهتان.

قوله: (﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾): دل على أنه يُمكن أن يقع النسخ وأن الله تعالى ينسخ لعلم ولحكمة. فمن أنكر النسخ فقد أكذب الله تعالى، وأكذب نبيّه ﷺ، وأكذب القرآن.

قوله: (﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ﴾): وهو جبريل عليه السلام.

قوله: (﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾): «من» للابتداء، و«الباء» للتلبس، يعني: مُتلبسًا بالحق، مصحوبًا بالحق، فلا يتطرق إليه الباطل، كما قال في الآية الأُخرى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]: بمعنى: أنه لا يُمكن أن يلتبس أو يُختلط بباطل.

قوله: (﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾): هذه من بركات القرآن، فإنه يُورث الثبات في القلب. تجد الإنسان مُرتبكًا خائفًا قلقًا، فما هو إلا أن يسمع آية أو بعض آية، فكأنما هي أوتاد تُدق في قلبه فيستقر! ثم فوق ذلك يحصل به: ﴿هُدًى﴾: والهدى قسيم الضلالة، فيُجلي الله تعالى الحق بهذا القرآن. ثم فوق ذلك:

﴿وَبُشْرَىٰ﴾: فينسم على القلب البشارة والأخبار السارة التي يتنعم بها واجدها.

قوله: (﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾): «قد» هنا للتحقيق، وليست للتقليل، بدليل اقترانها باللام. ولا شك أن الله يعلم. والقائلون هم المشركون، فقد زعموا أن النبي ﷺ يتلقى هذه العلوم والأخبار المُتعلقة بالأنبياء السابقين وأُممهم من نصراني في مكة، يُصغي إليه، فأبطل الله هذه الفرية ودحضها.

قوله: (﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾): فأنَّى لذلك الأعجمي أن يأتي بهذا الكلام العربي المُبين، الفصيح الحكيم، الذي تخضع له الرِّقاب، ويذعن له فُصحاء العرب وعُقلاؤهم! فهذا أبعد ما يكون.

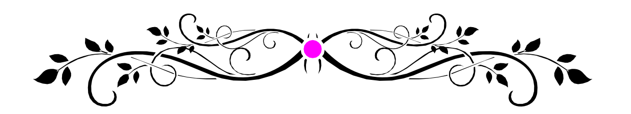
والشاهد أن الله ﷻ في هذه الآيات المتتابعات في سورة النحل بيّن حقيقة القرآن ومصدره، وأنه مُنزل من عنده، وأبطل الدعاوى التي تزعم بشريته. وهذه الدعوى لم يزل الزنادقة من الملاحدة والمستشرقين في الأزمنة الأخيرة يجترُّونها، ويزعمون أن محمدًا ﷺ لفَّق القرآن من مصادر يهودية ونصرانية، كما يقول ذلك «جبِ»، و«مرجليوث»، «وجولدزيهر» وغيرهم من المُستشرقين الحاقدين الحاسدين، منذ نحو مائة سنة، ويشيعون شبهاتهم بين المسلمين. ومهما حاولوا فإنهم لا يستطيعون، فالقرآن يعلو ولا يُعلى عليه، القرآن عزيز بذاته، مؤثر بذاته. ولهذا ينبغي على طالب العلم أن يُعول عليه في دعوته وخطابه وبيانه، فيستعمل الجُملة القُرآنية، ويعتمد أُسلوب ومنهج القرآن في الموعظة. فالقرآن مكنز للمعاني والمواعظ. وقصص الذين اهتدوا واعتنقوا الإسلام لمجرد سماعهم القرآن أكثر من أن تُحصر.

فدلَّت هذه الآيات بمجموعها على ما سبق أن قررناه من أن القرآن كلام الله، وأنه مُنزل غير مخلوق. وهذه الجُملة هي الجُملة التي جابه بها أهل السُّنَّة المعتزلةَ حين زعموا أن القرآن مخلوق، لاعتقادهم بنفي الصفات، وأن الله لا تقوم به صفة ثُبوتية. فمن فروع هذا المعتقد الباطل: نفي الكلام، والقرآن من كلام الله، فتكون النتيجة: أن إضافته إلى الله من باب إضافة المخلوق إلى خالقه؛ كبيت الله، وناقة الله، وعبد الله وما أشبه، فزعموا أن القرآن مخلوق.

ولكن السلف عندهم من العلم والحِذق والفطنة ما يكشفون به هذه الشبهات البدعية، فقاموا في وجوههم، وردوا عليهم، وزيَّفوا أقوالهم. ومن أعظم من قام في هذا لله قومة صادقة إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ في فترة عصيبة حرجة ألمت بالأُمة، حيث ساند المعتزلة في دعواهم ثلاثة من خلفاء بني العباس؛ المأمون والمُعتصم والواثق، وامتحنوا الفقهاء والمحدثين، وحملوهم على مقالة المعتزلة. فأبى إمام أهل السُّنَّة أن يوافقهم، وناظرهم وأفحمهم، وقال: يا أمير المؤمنين! إيتوني بشيء من كتاب الله أو سُنَّة رسول الله! فينقطعون بين يديه، وهو يصب عليهم الأدلة صبًّا من الكتاب والسُّنَّة على وصف القرآن بأنه كلام الله وأنه مُنزل، وهم لا يأتون إلا بمُجرد الشُّبهات الكلامية. حتى ثبت الله تعالى به الأمة. قال الإمام علي بن المديني رَحِمَهُ اللهُ: (أيّد الله هذا الدين برجلين، لا ثالث لهما: أبو بكر الصديق يوم الردة، وأحمد بن حنبل في يوم المحنة)[1]؛ فكان هذا الإمام عصمة للأُمة منعها من الانحراف، حتى فاء الناس إليه.

❁ ❁ ❁

(١) طبقات الحنابلة: (١/ ١٣).



إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣]، ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٤]، وقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]).

الشَّرح

هذا مبحث شريف، حبيب إلى النُّفوس، لذيذ على القلوب، وهو مبحث الرؤية؛ فمُعتقد أهل السُّنَّة والجماعة: أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة عيانًا بأبصارهم، في موضعين: في عرصات القيامة؛ أيْ: مواقف الحساب، وفي الجنة.

وقد دلَّ على ذلك الكتاب والسُّنَّة والإجماع: فأما الكتاب فمنها آيات الباب، وأما السُّنَّة فستأتي أدلتها، كما انعقد إجماع أهل السُّنَّة والجماعة على إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، ولم يُنازع في ذلك إلا المعتزلة، ومن وافقهم؛ من الإباضية، والزيدية، والرافضة؛ فقد أنكروا الرؤية، وغلت الصوفية؛ فزعموا أنهم يرون الله تعالى في الدنيا! فهذا غُلو في الإثبات يُقابل ذاك الغُلو في النفي، وهدى الله أهل السُّنَّة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فاعتصموا بما دلت عليه النصوص، فكانوا وسطًا بين طرفين وعدلًا بين عِوجين.

قوله: (﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾): من النضرة، وهي البهاء والرونق والجمال.

(﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾): من النظر وهو المُعاينة بالأبصار. فأكسبها النظر إلى وجه الله الكريم هذه النضرة. ولهذا قال ابن القيم في ميميته:

فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة ... أمن بعدها يسلو المُحب المُتيمُ
ولكننا سبي العدو فهل تُرى ... نُرد إلى أوطاننا ونُسلم
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى ... وشطت به أوطانه فهو مُغرم
وأي اغتراب فوق غُربتنا التي ... لها أضحت الأعداء فينا تحكم
فحي على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيها المُخيم

وكلمة «نظر» لها استعمالات ثلاث في لغة العرب:

الأول: مُطلقة: فإنها تدل على التربص والانتظار؛ كقولك: انتظرت صاحبي.

الثاني: مُعداة بـ(في): فإنها تدل على التدبر والاعتبار؛ كقولك: نظرت في الأمر.

الثالث: مُعداة بـ(إلى): فإنها تدل على المعاينة بالأبصار؛ كقولك: نظرت إلى القمر.

فقوله تعالى: (﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾) من الثالث، فدل على إثبات رؤية حقيقة لله ﷻ.

قوله: (﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾): وهم الأبرار، وقد استنبط الإمام الشافعي، وغيره من أئمة السُّنَّة، هذا من سياق الآيات؛ قالوا: لمَّا حُجب أُولئك في السخط، نظر هؤلاء في الرضا؛ ذلك أن الله تعالى قد قال عن الفجار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: ١٥]،

فلما ذكر الأبرار قال: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣]؛ فدلت على إثبات نظر المؤمنين إلى وجه الله الكريم.

قوله: (﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾): الحُسنى هي الجنة، على وزن «فُعلى»؛ لأنها قد بلغت في الحُسن غايته.

قوله: (﴿وَزِيَادَةٌ﴾): فسَّر النبي ﷺ، الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[1].

قوله: (﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾): ورد في الآثار تفسير المزيد بأنه النظر إلى وجه الله الكريم[2]، وسيأتي لذلك مزيد بيان في أدلة السُّنَّة.



(١) أخرجه مسلم: رقم (١٨١).
(٢) تفسير الطبري: (٢٢/٣٦٧).

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرٌ، وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ).

الشَّرح

قوله: (وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرٌ): المشار إليه هو ما تقدم من إثبات الصفات الربانية من الآيات القُرآنية، وصدق رَحِمَهُ اللهُ؛ فإن من قرأ القرآن وجد أنه لا يكاد تمر آية إلا وقد تضمنت اسمًا أو صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ وكأن المصنف أشار إلى أنه لم يُرد الحصر والاستيعاب، وإنما أراد التدليل على إثبات بعض الأسماء، وأنواع الصفات من معنوية وفعلية وخبرية.

قوله: (وَمَنْ تَدَبَّرَ الْقُرْآنَ طَالِبًا لِلْهُدَى مِنْهُ؛ تَبَيَّنَ لَهُ طَرِيقُ الْحَقِّ): لا بد للوصول إلى الحق من توفر **شرطين**:

الشرط الأول: التدبر، وبذل الجهد؛ أما الذي يمر مرُورًا سريعًا، أو يجري على طريقة من سبقه من المتكلمين، ولا يُكلف نفسه عناء التدبر، فقد لا يُوفق لإصابة الحق.

الشرط الثاني: الاستهداء بالله؛ لقوله: طالبًا للهُدى؛ فإذا أقبل الإنسان مُستهديًا بالله، مُسترشدًا بالنصوص، فلا بد بتوفيق الله أن يُهدى إلى الحق. أما الذي يتلقى القرآن ليبحث عما يُعجبه، ويوافق هواه، ويؤيد قوله، ويتبع المتشابه، ويُعرض عن المحكم فلن يهتدي للحق.

فعن أَبي سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَٰنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: (سَأَلْتُ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، بِأَيِّ شَيْءٍ كَانَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ يَفْتَتِحُ صَلَاتَهُ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ؟

قَالَتْ: كَانَ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ افْتَتَحَ صَلَاتَهُ: «**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم**»[(١)]، وفي الحديث القدسي المشهور: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[(٢)].

إذا أردت أن تنتفع بالقرآن العظيم فتكيف تكيفًا إيمانيًّا بين يدي القرآن؛ بأن تشعر أن هذا كلام رب العالمين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن الحق مكنوز فيه، وأنه فيه الهُدى لمن طلبه. فإذا أقبلت بهذه الرُّوح فإنك تُهدى بإذن الله. وربما وقع للإنسان شيء من الخطأ والوهم، فعليه الرد إلى الله ورسوله في فهم ما أشكل عليه، والرجوع إلى فهم السلف الصالح. وغالب القُرآن بحمد الله واضح الدلالة، كما قال ربنا ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ أي: أكثره وعامته واضح الدلالة، يُدرك معناه بمُجرد سماعه. ولهذا خاطب النبي ﷺ به عامة العرب، فأدركوا مقاصده. فهو ليس مُغلقًا ولا غامضًا، كما في الكُتب الفلسفية، والعقائد الكلامية. وقد وصف الله كتابه بأنه مبين، في ثلاثة مواضع بلفظ واحد، قال تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١﴾ [يوسف: ١] [الشعراء: ٢] [القصص: ٢]. كما أن الله تعالى يسَّره للذكر، فكرر في سورة القمر قوله: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ۝١٧﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠].

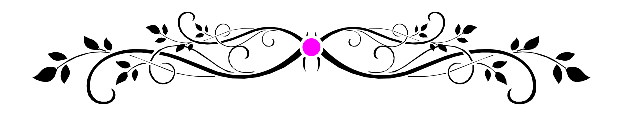
فيجب أن يكون المعوّل على القرآن العظيم؛ فليس تحصيل العلم

(١) أخرجه مسلم: رقم (٧٧٠).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٥٧٧).

عن كثرة اقتناء الكُتب، ومعرفة أقوال الرجال، وإن كان هذا يقع تبعًا، لكن العلم يُطلب من منبعه؛ لا تأخذ من السواقي! خذ من المنبع الصافي الذي لا تُكدره الدلاء؛ خذ كما أخذ السلف من معين الكتاب والسُّنَّة؛ أقبل على القرآن بُكليتك، واعتن بفهم كلام الله، ومعرفة مُراده، وتدبره؛ هذا طريق الراسخين في العلم، وبعض طلبة العلم يُخيل إليه أن العلم معرفة الخلاف! كلا؛ هذه مرحلة لاحقة تكون عند الحاجة إليها؛ فلسنا مُتعبدين باستعراض أقوال الرجال واختلافاتهم، نحن مُتعبدون بفهم كلام الله ﷻ وبيان نبيّه ﷺ، وفهم أصحابه؛ ألم تروا أن أصحاب رسول الله ﷺ، الذين هُم أعمق الناس علمًا، وأقلهم تكلفًا، وأبرهم قلوبًا، وأصدقهم لهجة، لم يكن بين أيديهم سوى القرآن العظيم، وهدي سيد المُرسلين؟ هل تعلمون أحدًا من الصحابة عنده مكتبة ملأى بالمجلدات؟! ما عندهم إلا هذا العلم العميق الراسخ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩].





الاستدلال على إثبات أسماء الله وصفاته من السُّنَّة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ: تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ، وَتُبَيِّنُهُ، وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ. وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ).

الشَّرْح

قوله: (ثُمَّ سُنَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ): هذا العطف على جُملة سابقة، وإن كان بينهما أمدًا بعيدًا، وهي **قوله:** (وقد دخل في هذه الجملة ما وصف به نفسه في سورة الإخلاص)، ثم أتبعها بعدة نصوص قُرآنية. والتقدير: وقد دخل في هذه الجُملة من إثبات الصفات الربانية ما في سُنَّة رسول الله ﷺ.

«**السُّنَّة**»: **لغة**: الطريقة والسيرة. قال خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجزعن من سيرة أنت سرتها فأول راضٍ سنة من يسيرها

واصطلاحًا: ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خِلقية أو خُلقية. وهذا تعريف السُّنَّة عند المحدثين. وتعريفها عند الأُصوليين: ما أضيف إليه ﷺ؛ من قول، أو فعل، أو تقرير فقط، وتعريفها عند الفقهاء: ما يُثاب فاعله، ولا يُعاقب تاركه.

قوله: (تُفَسِّرُ الْقُرْآنَ وَتُبَيِّنُهُ): تُفَسِّر؛ أيْ: تُوضح وتُظهِر، تقول:

فسرت عن ساعدي، يعني: كشفته، وأظهرته؛ لقول الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ [النحل: ٤٤]؛ فمهمة نبيّنا ﷺ، البيان.

قوله: (وَتَدُلُّ عَلَيْهِ، وَتُعَبِّرُ عَنْهُ): أي: أن السُّنَّة تأتي بما أتى به القرآن، وتوافقه. فلا يُمكن الاستغناء عن السُّنَّة؛ بل السُّنَّة مصدر أصيل كما القرآن، قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم:٣، ٤]، فهي أحد الوحيين، وحينما توصف بالمصدر الثاني، فليس المقصود أنها في الدرجة الثانية في الدلالة أو الأهمية، وإنما من جهة العد فقط؛ فكلٌّ من عند الله، فلا يخرج من بين فكي النبي ﷺ، إلا حق؛ لأن الله عصمه في التبليغ، ولو قُدر أنه أخطأ، أو سها بحُكم بشريته، فإن الله تعالى لا يُقره على ذلك؛ بل يستدركه عليه.

فعن شبيب بن أبي فضالة، قال: (لَمَّا بُنِي هَذا المَسْجِدُ، مَسْجِدُ الجَامِع؛ إذا عِمْرَانُ بنُ حُصَين جَالِسٌ، فَذَكَرُوا عِندَ عِمْرَانَ الشَّفَاعَةَ، فقال رَجُلٌ مِن القَوم: يا أبا نُجَيْد، إِنَّكُم لَتُحدِّثُونَنَا بأحاديثَ لَم نَجد لَها أَصلًا في القرآن، قال: فَغَضِبَ عِمرانُ وقال للرجل: قَرأتَ القرآنَ؟ قال: نعم، قال: فهل وجَدتَ صلاةَ العِشَاء أَربعًا، ووجدتَ صَلاة المَغرب ثلاثًا، والغَدَاةَ ركعتين، والظُّهر أربعًا، والعَصْر أَربعًا؟ قال: لا، قال: فعن مَن أَخَذتُم هذا الشَّأن؟ أَلَستُم عَنَّا أخذتُمُوه؟ وأخذنا عَن نَبيِّ الله ﷺ؟ ووجَدتُّم في كُلِّ أربعين درهمًا دِرهَمٌ، وفي كل كذا شَاة، وفي كُلِّ بَعيرٍ كَذا؟ أَوَ وَجَدتُّم في القرآن هكذا؟ قال: لا، قال: فعن منْ أخذتم هذا؟! أخذناه عن النبي ﷺ، وأخذتموه عَنَّا، وقال: وجدتم في القرآن: ﴿وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج]، أوجدتم فَطُوفوا سَبعًا، واركعوا ركعتين خلف المَقَام، أوجدتم هذا في القرآن؟! عن منْ أخذتموه؟ ألستم

أخذتموه عَنَّا، وأخذناه عن رسول الله ﷺ، وأخذتموه عنا؟ قالوا: بلى، قال: أوجدتم في القرآن: لا جَلَب ولا جَنَب ولا شِغَار في الإسلام؟ أوجدتم هذا في القرآن؟! قالوا: لا، قال عِمران: فَإِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا جَلَبَ ولاجَنَبَ ولا شِغَارَ في الإسلام**». قال: سمعتم الله قال في كتابه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧] قال عمران: قد أخذنا عن نَبِيِّ الله ﷺ أَشْيَاء ليس لكم بها علم)(١).

فيا لها من مناظرة كاشفة للشبهة، مفحمة للمخالف، قاطعة للنزاع! فمُقتضى الإيمان بالقرآن الإيمان بالسُّنَّة، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١].

فإذا رأيت الإنسان يُشكك في السُّنَّة، بدعوى أن فيها أحاديث ضعيفة وموضوعة، فاعلم أن هذه زندقة. وقد وُجد طائفة من الزنادقة يُسمون أنفسهم: (القُرآنيون) ظهروا في بلاد الهند وامتدوا إلى بلاد أُخرى، يزعمون أنهم يعتمدون على القرآن ولا يلتفتون للسُّنَّة! ولا ريب أن الاحتجاج بالسُّنَّة ثابت بالأدلة الصريحة القطعية، حتى ألف السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابًا سماه: [مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة]؛ فمن أنكر السُّنَّة فقد كفر قطعًا؛ لأنه أنكر الشق الثاني من الشهادة، فمعنى شهادة أن محمدًا رسول الله: تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبد الله إلا بما شرع، وجاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ،**

(١) أخرجه البيهقي في البعث والنشور: (ص٣٤٢)، وأورده السيوطي في مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة: (ص١٠).

أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ يَنْثَنِي شَبْعَانًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ»[(١)]؛ فسُنَّة نبيّنا ﷺ، أصل أصيل.

قوله: (وَمَا وَصَفَ الرَّسُولُ بِهِ رَبَّهُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الصِّحَاحِ الَّتِي تَلَقَّاهَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالْقَبُولِ؛ وَجَبَ الْإِيمَانُ بِهَا كَذَلِكَ): ما ثبت من الأحاديث في الصفات وغيرها وجب القول به وقبوله، ولا يجوز رده بحال. فمن ردَّه فقد ضل ضلالًا مُبينًا. قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصارم المسلول»: (قال الإمام أحمد في رواية الفضل بن زياد: «نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلوا: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية [النور: ٦٣] وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلوا هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]»)[(٢)].

لكنه اشترط رَحِمَهُ اللَّهُ أن يكون من الأحاديث الصحاح، والحديث الصحيح عند أهل المُصطلح: ما رواه عدل تام الضبط، بسند مُتصل، وسلم من الشُّذوذ والعِلة القادحة. **وبيان ذلك**:

- **العدالة**: استقامة الدين والمروءة، فلا يثلم دينه بفسق، ولا مروءته بخارم.

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٧١٧٤)، واللفظ له، وأبو داود: رقم (٤٦٠٤)، والترمذي: رقم (٢٦٦٤)، وقال: حديث حسن غريب من هذا الوجه، وابن ماجه: رقم (١٢)، وابن حبان في صحيحه: رقم (١٢)، والحاكم في المستدرك: رقم (٣٧١)، وقال: وجدنا للحديث شاهدين بإسنادين صحيحين.

(٢) الصارم المسلول على شاتم الرسول: (ص٥٦).

- **تمام الضبط**: الإتقان عند التحمل والأداء.

- **اتصال السند**: ما ليس فيه انقطاع؛ من إرسال أو تعليق أو إعضال.

- **السلامة من الشذوذ**: عدم مخالفة الثقة لبقية الثقات، أما مخالفة الضعيف للثقات فيسمى عند أهل الحديث: مُنكر.

- **العلة القادحة**: عيب خفي لا يطلع عليه إلا جهابذة الحديث، لعلمهم بالاتصال، والانقطاع، والأوهام، ومقارنة الروايات.

فإذا انطبق هذا المِعيار على المأثور فإننا نُصدقه إن كان خبرًا، ونمتثله إن كان أمرًا، ونجتنبه إن كان نهيًا. سواءً كان في صفات الله تبارك وتعالى، أو في غير ذلك.

❁ ❁ ❁

إثبات نزول الله إلى السماء الدنيا

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(مِثْلُ قَوْلِهِ ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ[١]).

الشَّرْح

هذه شروع من المؤلف في ذكر النصوص الحديثية الدالة على إثبات الصفات الربانية. فمنها هذا الحديث الذي بلغ مبلغ التواتر، وهو حديث النزول، فقد رواه عن النبي ﷺ نحو ثمان وعشرين صحابيًّا. وقد اعتنى أبو عثمان الصابوني رحمه الله بجمع طرقه في كتابه الكبير «الانتصار»، ولخصها في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث»[٢].

قوله: (يَنْزِلُ رَبُّنَا): أسند النزول إلى ربه، لم يُسنده إلى غيره، فهو فعله وصفته.

قوله: (السَمَاءِ الدُّنْيَا): سُميت بهذا الاسم لأنها أدنى السماوات إلى الأرض. والسماوات سبع طباق، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًاۖ﴾ [الملك: ٣].

(١) أخرجه البخاري: رقم (١١٤٥)، ومسلم: رقم (٧٥٨).
(٢) انظر: عقيدة السلف وأصحاب الحديث: (١٩٨ ـ ٢٣٦)، وقد رواه بسنده عن أبي هريرة من سبع طرق، وعن نحو عشرة من الصحابة سواه.

قوله: (كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ): دل ذلك على التكرار، والتوقيت. ويعرف ثلث الليل الآخر بأن يقسم الإنسان ما بين مغيب الشمس إلى طُلوع الفجر أثلاثًا، فالقسم الأخير منه هو ثُلث الليل الآخر. وهو وقت السحر.

قوله: (فَيَقُولُ): معطوف على «**ينزل**»، فالقائل هو الله ﷻ، بعد نزوله.

قوله: (مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ): جواب الشرط في المواضع الثلاثة منصوب بـ «أن» مضمرة. والدعاء أعم من السؤال؛ فإنه يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة. فيكون قوله: من يسألني، من يستغفرني، من باب عطف الخاص على العام.

فدل هذا الحديث على إثبات النزول الرباني إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثُلث الليل الآخر؛ فكان لزامًا على كل من بلغه الحديث أن يُثبت لله ما أثبته النبي ﷺ، لربه ﷻ، من النزول الحقيقي اللائق بجلاله وعظمته، الذي لا يُماثل نُزول المخلوقين، ولا يجوز أن يُتعرض لهذا النزول بأي لون من ألوان التمثيل والتكييف، ولا بأي لون من ألوان التحريف والتعطيل؛ كما هي قاعدة أهل السُّنَّة والجماعة في جميع أسماء الله وصفاته.

غير أن أهل البدع شرقوا بهذا الحديث وأمثاله من أحاديث الصفات، وزعموا أن إثباته يُوجب الوقوع في التمثيل والتكييف! وما هم بأعلم من الله بالله، ولا أعلم بالله من رسول الله ﷺ، ولا أحسن منهما قِيلًا، ولا أصدق منهما حديثًا، ولا هم أغير من رسول الله ﷺ على ربه ﷻ، ولا هم أنصح منهم للأمة منه. ثم حملهم ما استظهروه من اعتقاد التمثيل على الفرار إلى التعطيل، أو ما يسمونه «التأويل»، وإنما

هو تحريف، فزعموا أن الذي ينزل: أمره، أو رحمته، أو ملك من ملائكته! **والرد عليهم من وجوه:**

الأول: أن النبي ﷺ، أسند النزول إلى ربه، ولم يسنده إلى أمره أو رحمته أو ملك من ملائكته. ولو شاء النبي ﷺ أن يقوله لقاله، لكنه أضاف النزول إلى الله سبحانه.

الثاني: أن طريقتهم تقتضي أن في الكلام حذفًا، الأصل في الكلام عدم الحذف، ومن ادعى الحذف فعليه الدليل. فقوله: ينزل ربنا؛ كقوله: يغفر ربنا، يرحم ربنا.

الثالث: أن هذا الذي ينزل يقول: (**مَنْ يَدْعُونِي؟ فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي؟ فَأَغْفِرَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي؟ فَأُعْطِيَهُ**)، ولا يُمكن أن يصدر هذا إلا من الله ﷻ، ولا يُمكن أن يصدر من ملك، ولا من رحمة، ولا من أمر، هذا وعد لا يصدر إلا ممن يملكه، فهو الذي يستجيب الدعاء، وهو الذي يُعطي السائلين، وهو الذي يغفر الخطايا، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢]، وقال نبيُّه ﷺ: «**فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»[(١)].

الرابع: أن نزول أمره لا يختص بثُلث الليل الآخر؛ بل ينزل في كل حين، قال تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

الخامس: أي فائدة للعباد أن يكون مُنتهى نزول رحمته إلى السماء الدنيا؟

وبه يتبين أن كل من حمل كلام الله وكلام رسوله ﷺ على غير

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٣٠٦).

مراد الله ورسوله، فإن النص يعود حُجة عليه لا له! وهذا مما أودعه الله تعالى من العصمة في كلامه وكلام نبيه ﷺ.

ولا يجوز أن يُقيد هذا النزول بالقُيود التي أحدثها المبتدعة. قال الحافظ عبد الغني المقدسي رَحِمَهُ اللَّهُ: (روينا عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: كنت أنا وأبي عابرَين في المسجد، فسمع قاصًّا يقص في حديث النزول، فقال: إذا كان ليلة النصف من شعبان ينزل الله عَزَّ وَجَلَّ إلى السماء الدنيا؛ بلا زوال ولا انتقال ولا تغير حال، فارتعد أبي رَحِمَهُ اللَّهُ واصفر لونه، ولزم يدي فأمسكته حتى سكن، ثم قال: قف بنا على هذا المتخرص، فلما حاذاه قال: يا هذا! رسول الله ﷺ أغير على ربه منك، قل كما قال رسول الله ﷺ. وانصرف)[(١)]. ومقالة هؤلاء تفضي إلى «التفويض»، الذي يحيل الصفة إلى ألفاظ ليس تحتها معنى.

مسألة: يُورد بعض الناس شبهًة ويقول: إن ثُلث الليل يختلف من موضع إلى موضع، ويتناوب على الكرة الأرضية كتناوب الليل والنهار، فيلزم من ذلك أن يكون الله نازلًا طُوال الوقت!

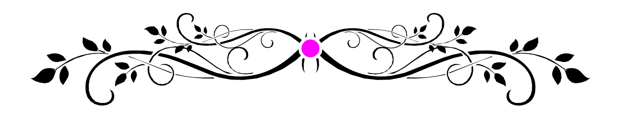
والجواب: أن نقول: الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]؛ فلا يُقاس بخلقه وإذا قال النبي ﷺ، كلامًا وثبت ثبوتًا قطعيًّا فلا يُمكن أن يُعارض أو يُقابل بالأُمور التي يعهدها الناس من مُدركاتهم، فالذي نطق بهذا لا ينطق عن الهوى، فيجب على كل مؤمن أن يعتقد بنزول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في الثُلث الأخير.

والأثر المسلكي لإيمان المؤمن بنزول الرب، جلَّ وعلا، ما يحصل له من الشعور بقرب الرب العظيم، والتعرض لنفحات الله الكريم!

(١) عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي: (ص٣٥ ـ ٣٧).

ولو قيل للناس: إن السلطان سيمنح أعطيات وهبات لمن يقف عند بابه آخر الليل، لتقاطر الناس زرافات ووحدانًا، وتزاحموا لنيل لعاعة من الدنيا! فكيف بالمالك الواجد الماجد الذي لا تفنى خزائنه، ولا يخلف الميعاد؟! ورغم ذلك تجد أكثر الناس وقت التنزل الإلـٰهي يغط في نوم عميق، سوى نفر قليل اصطفاهم واجتباهم، وبعثهم لمناجاته، كما وصفهم بقوله: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وقوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: ٩].

❁ ❁ ❁



إثبات الفرح لله ﷻ

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ بِرَاحِلَتِهِ**» الْحَدِيثَ، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرْح

الحديث بتمامه: «**لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا، قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ**»(١).

هذه صورة تُمثل غاية الفرح لإنسان أشرف على الهلكة، ويأس من النجاة، في صحراء دويّة، ذهب طعامه وشرابه مع راحلته، فساقها الله، تبارك وتعالى، إليه حتى علق خطامها بالشجرة التي نام تحتها، فقبض عليه وقال: «**اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك**». وإنما أراد أن يقول: اللَّهُمَّ أنت ربي وأنا عبدك. فأخطأ من شدة الفرح. فالله أشد فرحًا بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته.

والحديث دليل على إثبات صفة الفرح لله ﷻ، وليس كفرح

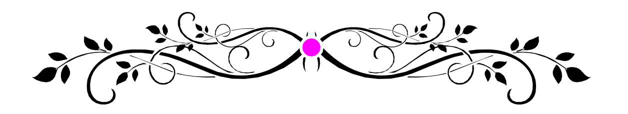
---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٣٠٩)، ومسلم: رقم (٢٧٤٧)، واللفظ له.

المخلوقين، فللّه فرحٌ يليق به، وللمخلوق فرح يليق به، ففرح المخلوق تعتريه خفة وطيش وذهول، والله منزه عن ذلك. فهناك قدر مُشترك في الأذهان حول معنى الفرح، أما اللوازم التي تصاحبه فتختلف بحسب من أضيف إليه؛ بل إن هذا الاختلاف يقع بين المخلوقين أنفسهم؛ فمن الناس من يفرح بقلبه ولا تظهر عليه آثاره، ومن الناس من يستخفه الفرح ويفقد صوابه. فلا يلزم من الاتفاق في الاسم الاتفاق في الكنه والكيفية.

وإذا كان نبيُّنا ﷺ، أثبت لربه هذا الوصف؛ فالواجب علينا أن نُثبت ما أثبت النبي ﷺ، لربه، ولا نستنكر ذلك، ولا نستشنعه؛ فإنه ﷺ، أكثر الناس تعظيمًا لجناب الله، وأغيرهم على ربه، تبارك وتعالى؛ فلا يتظاهرنّ أحدٌ بأنه أغير على الله من رسول الله ﷺ؛ فيقول: المراد بفرح الله كذا؛ بلا بينة، ولا أثارة من علم!

❁ ❁ ❁



إثبات الضحك لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ؛ يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ؛ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ»[(١)]، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرْح

سأل الصحابةُ النبي ﷺ عن ذلك، فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ ﷻ فَيُسْتَشْهَدُ**»[(٢)].

دلَّ هذا الحديث على إثبات صفة الضحك لله تعالى كما يليق به، لا يشبه ضحك المخلوقين، ولا تلزمه لوازمه البشرية. وهذا الضحك ناشئ عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة؛ قاتل ومقتول وكلاهما في الجنة! فله سبب متعقَّل.

وقد أنكر المتكلمون صفة الضحك، وحملوها محامل متعسفة بدعوى أن الضحك يصاحبه خِفة وطيش وقهقهة، ويستلزم وجود لسان وأسنان وشفتين! وتلك حجة داحضة، فإن الضحك الذي وصفوه ضحك المخلوق، والله تعالى ليس كمثله شيء، فله ضحك يليق به. ولولا أن نبيَّنا ﷺ أخبرنا بأن الله يضحك ما قلنا به. لكن القوم شبهوا أولًا،

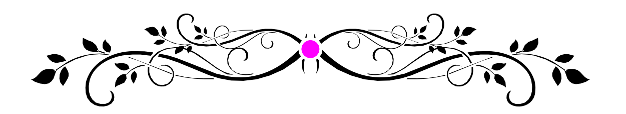
---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٢٦)، ومسلم: رقم (١٨٩٠).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٨٢٦)، ومسلم: رقم (١٨٩٠)، واللفظ له.

وحرفوا ثانيًا. أما من قدر الله حق قدره فلم يخطر بباله، ولم يدر بخياله شيءٌ من هذه اللوازم. ولهذا لم تنبُ هذه الكلمة على أسماع الصحابة الكرام، ولم يستنكروها، مع أنهم أعظم توقيرًا وتعظيمًا لله ﷻ.





إثبات العجب والضحك لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ وَقُرْبِ غِيَرِهِ؛ يَنْظُرُ إِلَيْكُمْ أَزِلِينَ قَنِطِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ»(١)، حَدِيثٌ حَسَنٌ).

الشَّرْح

قوله: (عَجِبَ رَبُّنَا): العجب ينشأ أيضًا من اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة. فقد دلَّ الحديث على إثبات صفة العجب لله تعالى، وهو مما يُثبته أهل السُّنَّة والجماعة ويأباه أهل البدع؛ قالوا: لأن العجب لا يكون إلا عن جهل، وعند التأمل يجد الإنسان أن العجب يمكن أن يقع عن جهل، ويُمكن أن يقع عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة. مثال ذلك: لو أن معلِّمًا يعلم من أحد الطُّلاب الإهمال، وعدم الاجتهاد، ثم بعد إجراء الامتحان وجد أنه أحسن الجواب، وحصل على درجة

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٦٢٠٦) بلفظ مطول وفيه: «(وَعَلِمَ يَوْمَ الْغَيْثَ، يُشْرِفُ عَلَيْكُمْ آزِلِينَ آزِلِينَ مُشْفِقِينَ، فَيَظَلُّ يَضْحَكُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ غَيْرَكُمْ إِلَى قُرْبٍ». وجوَّد ابن القيم إسناده. زاد الميعاد: (٣/ ٥٩١).
وفي لفظ آخر: «ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَيَضْحَكُ الرَّبُّ ﷻ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا). كما عند أحمد وغيره، وسوف يخرج لاحقًا.

النجاح، فإن هذا يُوجب له عجبًا، فحصل عجبٌ مع العلم؛ فلا يلزم أن يكون العجب ناشئًا عن الجهل؛ بل قد يكون ناشئًا عن اجتماع أمرين لا يجتمعان عادة، كما في هذا الحديث.

قوله: (قنوط عباده): القنوط: أشد اليأس؛ وحصل لهم ذلك جراء تأخر نزول المطر.

قوله: (وَقُرْبِ غِيَرِهِ): قُرب تغييره الحال من قحط إلى خصب.

قوله: (أَزِلِينَ): مُمحلين؛ قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: (الأزل: الشدة والضيق، وقد أزل الرجل يأزل أزْلًا؛ أي: صار في ضيق وجدب)(١).

قوله: (فَيَظَلُّ يَضْحَكُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ فَرَجَكُمْ قَرِيبٌ): سبب عجبه وضحكه سبحانه: نظره إليهم على هذه الحال من الكآبة والسآمة واليأس البالغ حد القُنوط، مع علمه بقرب ما يتمنون من نزول المطر. فاجتماع هذين الأمرين من دواعي العجب والضحك. ومما يُقرب لك ذلك: أن ترى طالبًا قلقًا على نتيجته، لا يعلم هل اجتاز أم لم يجتز؟ وهو يضرب أخماسًا بأسداس، ويُقبل ويُدبر، وأنت تعلم أنه قد نجح، فأنت تضحك لاجتماع الأمرين؛ قلقه، وحُصول مُراده، فيكون هذا مما يبعث على الضحك. والله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]. والاشتراك يقع في أصل المعنى لا في لوازمه الناتجة عن الإضافة.

وهذا ما فهمه الصحابة، ولهذا قَالَ أَبُو رَزِينٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» قَالَ: لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ

(١) النهاية في غريب الحديث: (١/٤٦).

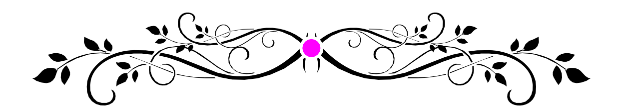
خَيْرًا)[١]، فلم يقل: الضحك يلزم منه شفتان ولسان ولهوات وأسنان، وينشأ عنه خفة! مما يدعيه المتكلمون الذين حرفوا الكلم عن مواضعه، والنصوص عن ظواهرها؛ بل قبل الخبر قبولًا حسنًا، ولم ير أن ذلك مُوجبًا لتشبيه الله بخلقه؛ بل تفاءل به، ورجا خيره. وهذا من معقولات بني آدم، فلو كان لك طلب لدى مُدير دائرة من الدوائر، فأقبلت عليه، فوجدته مُستبشرًا متهللًا يضحك، فإنك تتفاءل بحصول مرادك. ولو أقبلت عليه ورأيته مُقطبًا عابسًا لوقع في نفسك أن أمرك لا يتم.

فدلَّ هذا على أن لربنا ﷻ عجب يليق به، وضحك يليق به، لا يجوز لأحد أن ينكرهما أو يستشنعهما. وإنما يقع ذلك لمن سبقت لوثة التمثيل إلى قلبه، ففر منه إلى التعطيل أو التحريف، أما من ظن بالله الظن الحسن، وتقبل الخبر قبولًا حسنًا، واعتقد لله ما يليق بجلاله، وأثبت إثباتًا بلا تمثيل، ونزه الله تنزيهًا بلا تعطيل فقد أنجح وأفلح.



---

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٦٢٠١)، وابن ماجه: رقم (١٨١)، وأبو داود الطيالسي: رقم (١١٨٨).
قال السندي في حاشيته على سنن ابن ماجه: حديث حسن: (١/ ٧٨)، وقال البوصيري: هذا إسناد فيه مقال وكيع ذكره ابن حبان في الثقات وذكره الذهبي في الميزان وباقي رجال الإسناد احتج بهم مسلم. مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه (١/ ٢٦).



إثبات القدم لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ يُلْقَى فِيهَا، وَتَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ؛ حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا ـ وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا ـ[1] قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ وَتَقُولُ: قَط قَط»[2]، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرح

قوله: (**وَقَوْلُهُ ﷺ: لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ**): جهنم اسم من أسماء النار، قِيل: سُميت بذلك لجُهومتها وظُلمتها. قال ابن الأثير: (وسميت بها لبعد قعرها)[3]

قوله: (**يُلْقَى فِيهَا**): يعني: يُلقى فيها أهلها، فإنهم يُلقون فيها دفعات، قال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨﴾ [الملك: ٨]، وهي تطلب المزيد، كما قال ربنا: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [ق: ٣٠]، وقد جاء في الحديث: «**اخْتَصَمَتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ إِلَى رَبِّهِمَا، فَقَالَتِ الجَنَّةُ: يَا رَبِّ، مَا لَهَا لَا يَدْخُلُهَا إِلَّا ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَسَقَطُهُمْ، وَقَالَتِ النَّارُ: ـ يَعْنِي ـ أُوثِرْتُ بِالْمُتَكَبِّرِينَ،**

(١) رواية (عليها) أخرجها عبد الله بن أحمد في الزوائد على المسند: رقم (١٣٩٦٨).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٦٦١)، ومسلم: رقم (٢٨٤٨).

(٣) النهاية في غريب الحديث: (١/ ٣٢٣).

فَقَالَ اللهُ تَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: أَنْتِ عَذَابِي، أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا»[(١)].

قوله: (حَتَّى يَضَعَ رَبُّ الْعِزَّةِ فِيهَا ـ وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا ـ قَدَمَهُ): وقوله: (رب العزة) من إضافة الموصوف إلى الصفة.

قوله: (فِيهَا ـ وَفِي رِوَايَةٍ: عَلَيْهَا ـ قَدَمَهُ): وفي رواية عند مسلم: «**حَتَّى يَضَعَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، رِجْلَهُ**»[(٢)] هذا موضع الشاهد، إذ فيها إثبات صفة القدم أو صفة الرجل له تعالى.

قوله: (فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ): أي ينضم ويجمع بعضها إلى بعض وتنقبض، فتصطك على أهلها.

قوله: (قطْ قطْ): قال ابن الأثير: (بمعنى: حسب. وتكرارها للتأكيد. وهي ساكنة الطاء مخففة. ورواه بعضهم: «**فتقول: قطني قطني**»؛ أي: حسبي)[(٣)]، وبذلك يتحقق ما وعدها الله تعالى به من ملئها.

فدلَّ الحديث على إثبات القدم أو الرجل لله ﷻ على الوجه اللائق به، فلا يجوز لكائن من كان سَمِعَ هذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما، الدال على إثبات هذا الوصف الذاتي الخبري لله تعالى، أن يتعرض له بشيء من التمثيل، أو التكييف، ولا أن ينزع إلى شيء من التعطيل والتحريف؛ كما زعم أهل الكلام، الذين تكلفوا مقالات مُغربة تنبو على السمع، ويأباها العقل؛ فرارًا من إثبات الصفة.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٤٩)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٨٤٦).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٨٤٦).
(٣) النهاية في غريب الحديث: (٤/٧٨ ـ ٧٩).

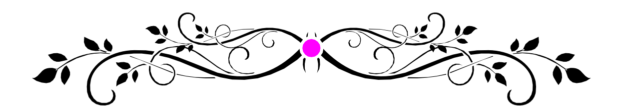
نقل الشيخ مرعي بن يوسف الكرمي: (وقال أهل التأويل: القدم هنا يحتمل أن يكون المراد به: من قدَّمهم الله للنار من أهلها. وكل شيء قدَّمته فهو قَدَم. والعرب تطلق القدم على السابقة في الأمر.

وقال النضر بن شميل في معنى قوله: «**حتى يضع الجبار فيها قدمه**»؛ أي: من سبق في علمه أنه من أهل النار.... وقال بعضهم: القدم خلق من خلق الله تعالى، يخلقه يوم القيامة، فيسميه: قدمًا، ويضعه في النار فتمتلئ منه.... وأما الرِّجل: فالعرب تسمي جماعة الجراد رِجْلًا.... وأما الجبار هنا: فقال بعضهم: يحتمل أن يكون أريد به الموصوف بالتجبر من الخلق)[١].

ولا يخفى ما في هذا الكلام من الإغراب والتعسف، وليِّ أعناق النصوص. وما كانوا بحاجة إلى ذلك، ولا اضطروا إليه، لولا المقدمات الفاسدة التي ارتهنوا لها، فشقُّوا بالقرآن والسُّنَّة، ولم يرفعوا بهما رأسًا. وكان يسعهم ما وسع السابقين الأولين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان من الإثبات والإقرار والإمرار، مع اعتقاد تنزيه الرب عن النقائص، والعُيوب، ومُماثلة المخلوقين. فإن المخبر بذلك ليس فُلان أو علان؛ بل رسول الله ﷺ، الذي وصفه ربه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. وهو أعلم الناس بربِّه، وأصدقهم قِيلًا، وأحسن حديثًا، وأفصحهم لسانًا، وأبينهم بيانًا. فكيف يجرؤ أحد أن يستدرك عليه، أو يتعقبه! ما هذه بغيرة إيمانية، ولكنه ضلال مبين، وهوى متبع.

۞ ۞ ۞

(١) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات: (١٧٨ ـ ١٨٠).



إثبات الكلام والصوت لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمَ! فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ. فَيُنَادِي بِصَوْتٍ: إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ»[1]. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَقَوْلُهُ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ»[2]).

الشَّرْح

قوله: (وَقَوْلُهُ ﷺ: يقول الله تعالى): هذا حديث قُدسي، فأيما حديث نبوي صُدِّر بقال الله، أو يقول الله، فإنه: حديث قدسي، والفرق بين الحديث القدسي والنبوي: أن الحديث النبوي لفظه ومعناه من النبي ﷺ، أما الحديث القدسي فلفظه من النبي ﷺ، ومعناه من الله عز وجل، وأما القرآن فلفظه ومعناه من الله تعالى.

قوله: (يا آدم): الياء: ياء النداء، والمنادي هو الله تعالى، والمنادى آدم أبو البشر.

قوله: (لبيك وسعديك): لبيك؛ أي: إجابة لك بعد إجابة،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٨٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٤٣)، ومسلم: رقم (١٠١٦)، والبيهقي في الكبرى: رقم (٧٨٣٨)، واللفظ له.

وسعديك؛ أي: إسعادًا بعد إسعاد. وهي من عبارات الإجلال وحُسن الأدب في مُخاطبة الأعلى.

قوله: (فيُنادي): المنادي هو الله ﷻ، كما قال في القرآن: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [مريم: ٥٢]، ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾ [القصص: ٦٥]. والنداء والمناداة: الصوت لمن بعد.

قوله: (بصوت): الصوت هو المسموع بالآذان، وليس كما ادعى محرفو الكلم عن مواضعه أنه المعنى النفسي القائم في ذاته. وقد تقدم الرد عليهم.

قوله: (إن الله يأمرك أن تُخرج من ذُريتك بعثًا إلى النار): قال ابن الأثير: (أي المبعوث إليها من أهلها. وهو من باب تسمية المفعول بالمصدر)[1]. تتمة الحديث: «**قَالَ يا رب: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ، قَالَ: فَذَاكَ حِينَ يَشِيبُ الصَّغِيرُ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ**» قَالَ: فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّنَا ذَلِكَ الرَّجُلُ؟ فَقَالَ: «**أَبْشِرُوا فَإِنَّ مِنْ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ أَلْفًا، وَمِنْكُمْ رَجُلٌ**» قَالَ: ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فَحَمِدْنَا اللهَ وَكَبَّرْنَا. ثُمَّ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنِّي لَأَطْمَعُ أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، إِنَّ مَثَلَكُمْ فِي الْأُمَمِ كَمَثَلِ الشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ، أَوْ كَالرَّقْمَةِ فِي ذِرَاعِ الْحِمَارِ**»[2].

---

(١) النهاية في غريب الحديث: (١/١٣٨).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٣٤٨)، ومسلم: رقم (٢٢٢)، واللفظ له.

وهذا دليل على أن يأجوج ومأجوج من بني آدم، وأنهم يعيشون على وجه الأرض، وأن أعدادهم هائلة، حتى إنهم أكثر أهل النار، لا كما يتوهمه بعض الناس أن يأجوج ومأجوج أُمة غيبية؛ لا سبيل إلى الوصول إليها، ولا يُعلم مكانها! أو ما يتوهمه بعض الناس من أن أشكالهم وهيئاتهم غريبة الشكل، كل هذا من الخُرافات التي لا تقوم على مُستند صحيح[١].

والمقصود هنا: إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأنه كلام حقيقي بحرف وصوت، فأما الصوت فلفظه: «**فَيُنَادِي بِصَوْتٍ**»، وأما أنه بحرف فذلك لأن جُملة مقول القول عبارة عن حُروف: «**إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تُخْرِجَ مِنْ ذُرِّيَّتِكَ بَعْثًا إِلَى النَّارِ**»، وأن كلامه ﷻ مُتعلق بمشيئته، فهو قديم النوع حادث الآحاد، حيث أخبر ﷻ أنه يقول ذلك يوم القيامة لآدم. وقد تقدم تقريره.

قوله: (**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ**): الخطاب للمؤمنين. أما الكافرين فقد قال عنهم: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٧٤].

قوله: (**إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ**): بكلام حقيقي يليق بعظمته.

قوله: (**لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ حَاجِبٌ وَلَا تُرْجُمَانٌ**): الحاجب: هو الحائل بين الشيئين. وعند الملوك: من يحول بين الناس والدخول على الملك إلا بإذنه. والترجمان: قال ابن الأثير: (بالضم والفتح: هو الذي يترجم الكلام؛ أي: ينقله من لغة إلى لغة أخرى. والجمع: التَّراجم)[٢]؛ فالله تعالى ليس بحاجة إلى حاجب يستعين به، ولا إلى تَرجمان ليُبلغ عبده ما

---

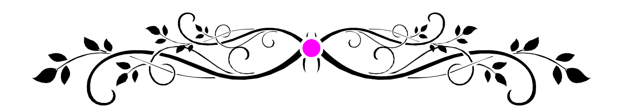
(١) انظر: رسالة في يأجوج ومأجوج، للشيخ عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي رحمه الله. بتحقيقي. ط: دار ابن الجوزي.

(٢) النهاية في غريب الحديث: (١/ ١٨٦).

يُريد، فإنه يُكلمه بما يعقل عنه. فهذا يقع لجميع المؤمنين، على اختلاف لغاتهم. وقد جاء في حديث عبد الله بن عُمر رضي الله عنهما: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»(١).



(١) اخرجه البخاري: رقم (٢٤٤١)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٧٦٨).



إثبات علو الله على خلقه واستوائه على عرشه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

❁ (وَقَوْلُهُ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْمَرِيضِ: «رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ! تَقَدَّسَ اسْمُكَ، أَمْرُكَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ، اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وَخَطَايَانَا، أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ، أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ عَلَى هَذَا الْوَجَعِ»، رَوَاهُ «أَبُو دَاوُد»[(١)]. وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ»، رَوَاهُ «الْبُخَارِيُّ» وَغَيْرُهُ[(٢)]. وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ»[(٣)]، رَوَاهُ «أَبُو دَاوُد» «وَالتِّرْمِذِيُّ» وَغَيْرُهُمَا. وَقَوْلُهُ ﷺ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»، رَوَاهُ «مُسْلِمٌ»)[(٤)].

---

(١) أخرجه أبوداود: رقم (٣٨٩٢)، والحاكم: (١٢٧٢)، والطبراني في الأوسط: رقم (٨٦٣٦)، وفي سنده: زيادة بن محمد الأنصاري، قال عنه أبو حاتم والبخاري والنسائي: (منكر الحديث). قال الذهبي: (وقد انفرد بحديث الرقية).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٣٥١)، ومسلم: رقم (١٠٦٤).

(٣) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية: رقم (٨١)، والطبراني في الكبرى: رقم (٨٩٨٧)، من قول ابن مسعود رضي الله عنه بلفظ: «**وَالْعَرْشُ عَلَى الْمَاءِ، وَاللهُ تَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ**». إسناده حسن.

(٤) أخرجه مسلم: رقم (٥٣٧).

الشَّرح

قوله: (رُقية المريض): قال ابن الأثير: (الرُّقية: العوذة التي يرقى بها صاحب الآفة، كالحمى والصرع وغير ذلك من الآفات)(١). والرُّقية المشروعة تكون من كتاب الله، ومن سُنَّة رسول الله ﷺ، وتكون من الأدعية الصحيحة المأثورة، وتجوز بالأدعية المُباحة. قال ﷺ: «**لَا بَأْسَ بِالرُّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ**»(٢). والرقية الممنوعة: ما تضمنت كلامًا غير مفهوم، أو طلاسم، أو دعاء غير الله، فإنها باطلة.

وحديث الباب وإن حسّنه شيخ الإسلام رحمه الله فقد ضعفه آخرون.

قوله: (رَبُّنَا اللهُ الَّذِي فِي السَّمَاءِ): هذا موضع الشاهد، وهو أن الله سبحانه وتعالى في السماء، كما مر في الآيات: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]. وضبطت (ربُّنا) بالرفع باعتبار أنها جملة تامة، وضبطت (ربَّنا) بالنصب بتقدير النداء: يا ربَّنا.

وحرف: «في» في لغة العرب يأتي بمعنى على؛ كقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١]، يعني: عليها، ﴿فَٱمْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، يعني: على مناكبها، ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٣٧، النحل: ٣٦]، أي: على الأرض. فيكون المعنى: أأمنتم من على السماء. أو نقول: إن «السماء» يُراد بها العُلو، وليس السماء المبنية. وحينئذٍ تكون «في» على أصل وضعها للظرفية، ويكون المعنى: أأمنتم من في العلو.

قوله: (تَقَدَّسَ اسْمُكَ): أي: تنزه عن النقائص والعُيوب ومُماثلة المخلوقين، ولا شك أن لله اسم، قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾

(١) النهاية في غريب الحديث: (٢/ ٢٥٤).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٠٠).

[الأعلى: ١]، وله أسماء، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وقد أنكرت الجهمية ذلك، وزعمت أن أسماءه من وضع الناس، وتقدم بيانه.

قوله: (أَمْرُك فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ كَمَا رَحْمَتُكَ فِي السَّمَاءِ؛ اجْعَلْ رَحْمَتَكَ فِي الْأَرْضِ): هذا نوع من التوسل والتملق لله تعالى بما يليق به سبحانه من صفاته وأفعاله. والمعنى: كما أمرك ماضٍ في السماء والأرض، وكما رحمتك في السماء، فاجعل رحمتك في الأرض.

قوله: (اغْفِرْ لَنَا حُوْبَنَا وَخَطَايَانَا): الحوب: هو الإثم الكبير، والخطايا دون ذلك. وذلك أن الداعي ينبغي له بين يدي دُعائه أن يطلب المغفرة، فقد قِيل: التخلية قبل التحلية. فيسأل الله تعالى أن يغفر له ليكون مدخلًا لطلبه. وهذا أمر معقول في النظر؛ فلو قُدر أنك تُريد أن تطلب طلبًا من شخص وقع منك تُجاهه ما يعتب به عليك، فإنك قبل أن تطلب الطلب تُقدم العُذر والأسف عما بدر منك. ولا يليق أن تتقدم بالطلب وبينك وبينه ما يُوجب العتب، فيرد طلبك. فمن آداب الدعاء، أن يستغفر العبد ربه بين يدي دعائه ويسأله الصفح، ثم يتقدم بطلبته.

قوله: (أَنْتَ رَبُّ الطَّيِّبِينَ): وكل مؤمن فهو طيب، قال تعالى: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٦]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]. وهذا نوع آخر من التوسل بربوبيته الخاصة.

قوله: (أَنْزِلْ رَحْمَةً مِنْ رَحْمَتِكَ): هذه الرحمة التي طلب إنزالها ليست الصفة، ولكنها رحمة مخلوقة؛ لأن الرحمة تارة يُراد بها الصفة، وتارة يُراد بها أمرًا مخلوقًا، فقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] يدل على الصفة القائمة به سبحانه، وقول النبي ﷺ: «**جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ وَأَنْزَلَ فِي**

الْأَرْضِ جُزْءًا وَاحِدًا، فَمِنْ ذَلِكَ الْجُزْءِ تَتَرَاحَمُ الْخَلَائِقُ، حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ»(١)، يدل على رحمة مخلوقة. ولا شك أن الرحمة المخلوقة من أثر الرحمة التي هي صفته، قال تعالى: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحۡمَتِ ٱللَّهِ كَيۡفَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ﴾ [الروم: ٥٠].

قوله: (**وَشِفَاءً مِنْ شِفَائِكَ**): الشفاء من الله، كما قال خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء: ٨٠]، وفي المتفق عليه: «**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»(٢).

قوله: (**عَلَى هَذَا الْوَجِعِ فيبرأ**): وضبطت بكسر الجيم، صفة للمريض. والحديث وإن كان ضعيفًا، إلا إنها رُقية صالحة، لا بأس أن يستعملها الإنسان. فإنه دعاء صالح، وله أثر نافع على المريض، فيحصل به البُرء بإذن الله تعالى.

قوله: (**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ**): أصل هذا الحديث ما رواه أبو سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، قَالَ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ، لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ. قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: «**أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً**»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٠٠٠)، ومسلم: رقم (٢٧٥٢).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٥٧٥٠)، ومسلم: رقم (٢١٩١).
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٤٣٥١)، ومسلم: رقم (١٠٦٤).

والاستفهام للإنكار، يعني: أن الله تعالى يأمنني على وحيه، وأنتم لا تأمنوني على متاع زائل؟! والشاهد منه قوله: «**مَنْ فِي السَّمَاءِ**».

قوله: (وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ): وقد أورد شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)] هذه القطعة على أنها من حديث الأوعال[(٢)] المشهور؛ وقد اختلف في تصحيحه، وفي رفعه ووقفه، وقد صحح إسناده ابن القيم، والذهبي[(٣)]، وصححه بعضهم موقوفًا، وله حكم الرفع، وهو يدل على عُلو الله بذاته، لقوله: «وَاللهُ فَوْقَ الْعَرْشِ»: فالله تعالى له الفوقية المطلقة لأن العرش أعلى المخلوقات والله تعالى مستوٍ فوقه، وقد تقدم الكلام على مسألة العلو وأنواعه.

قوله: (وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ): أي: أن عُلوه فوق عرشه ليس مانعًا من علمه بأحوالكم مع البُعد السحيق بين عُلوه سبحانه وسُفول خلقه، فهو ﷻ عليّ في دُنوه، قريب في عُلوه. والحديث يدل أيضًا على إثبات المعية العامة بعلمه.

قوله: (وَقَوْلُهُ لِلْجَارِيَةِ: «أَيْنَ اللهُ؟»، قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «مَنْ أَنَا؟»، قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَال: «أَعْتِقْهَا؛ فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ»): هذه جارية

---

(١) كما في الحموية الكبرى: (١/ ٢٠٧، ٥٢٠).
ولعل مما يؤيد ذلك أنه قد ورد عند ابن منده في التوحيد: رقم (١٩)؛ لفظ: «**وَالْعَرْشُ فَوْقَ ذَلِكَ، وَاللهُ ﷻ فَوْقَ الْعَرْشِ**». ضمن حديث الأوعال.

(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٢٣)، والترمذي: رقم (٣٣٢٠)، وابن ماجه: رقم (١٩٣)، وأحمد: رقم (١٧٧٠)، وابن خزيمة في التوحيد: (١/ ٢٤٣)، والدارمي في الرد على الجهمية: رقم (٧٢).

(٣) انظر: مختصر الصواعق المرسلة: (٤٣٥) لابن الموصلي، والعرش: (١٠٥)، والعلو: (٧٩) للذهبي.

معاوية بن الحكم رضي الله عنه قَالَ: (كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ تَرْعَى غَنَمًا لِي قِبَلَ أُحُدٍ وَالْجَوَّانِيَّةِ، فَاطَّلَعْتُ ذَاتَ يَوْمٍ فَإِذَا الذِّيبُ قَدْ ذَهَبَ بِشَاةٍ مِنْ غَنَمِهَا، وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي آدَمَ، آسَفُ كَمَا يَأْسَفُونَ، لَكِنِّي صَكَكْتُهَا صَكَّةً، فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَعَظَّمَ ذَلِكَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَفَلَا أُعْتِقُهَا؟ قَالَ: «**ائْتِنِي بِهَا**» فَأَتَيْتُهُ بِهَا، فَقَالَ لَهَا: «**أَيْنَ اللهُ؟**» قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، قَالَ: «**مَنْ أَنَا؟**» قَالَتْ: أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: «**أَعْتِقْهَا، فَإِنَّهَا مُؤْمِنَةٌ**»)(١)؛ فأثبت النبي ﷺ، للجارية وصف الإيمان لاعتقادها أن الله تعالى له صفة العُلو، وأنه فوق سماواته، واعتقادها بنبوته ﷺ.

ولا ينقضي العجب من بعض المأولين الذين يزعمون أن النبي ﷺ، قبل قول هذه الجارية لأنها أعجمية ساذجة! سبحان الله!! هل يُمكن أن يمرر رسول الله جوابًا باطلًا، خاطئًا يتعلق بصفة من صفات الله بدعوى مزعومة، موهومة؟! هذا في الواقع طعن في رسول الله ﷺ، واتهام له بالتلبيس عليها، وعلى سيدها، الذي سمع هذا الكلام ورواه، وتناقلته الرواة من بعده؛ هذا لا يكون، ثم أين تذهبون، وجوابها مُطابق للقرآن: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]؟ فأي أمر أتت به الجارية زيادة على ما أتى في القُرآن؟ لقد قالت بما قال به القُرآن؛ هذه المسالك الضيقة الحرجة التي سلكها المُتكلمون حملتهم على ركوب الصعب والذلول في سبيل تسليك مقالاتهم الباطلة؛ فإلى الله المُشتكي.

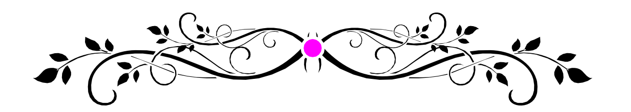
ومن الشبهات الكلامية التي يستدل بها نفاة العلو قولهم: إن ذلك يستلزم إثبات «الجهة»؛ فنقول: نعم، الله تعالى في جهة العُلو، ولفظ: «الجهة» من الألفاظ المجملة التي لم ترِد بنفي، ولا إثبات؛ فلا يجوز أن

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٥٣٧).

تُنفى بإطلاق، ولا أن تُثبت بإطلاق؛ وإنما يُتوقف في لفظها، ويُستفصل عن معناها؛ فإن قال: إن مُراده بالجهة جهة سُفل، أو جهة علو، على وجه يحيط به شيء من مخلوقاته، قلنا: هذان معنيان باطلان، مردودان، وإن قال: إن مراده جهة العلو؛ فهذا معنى حق مقبول.





إثبات معيّة الله تعالى العامة والخاصة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «أَفْضَلُ الْإِيمَانِ: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ»[(١)] . حَدِيثٌ حَسَنٌ).

الشَّرْح

هذا حديث ضعَّفه بعض أهل العلم، ويستشهد به شيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع عدة من كُتبه.

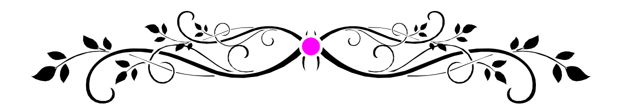
قوله: (أَفْضَلُ الْإِيمَانِ): دليل على أن الإيمان يتفاضل، وأنه درجات. وسيأتي.

قوله: (أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ): المؤمن يجتمع في حقه إثبات المعيتين؛ العامة، والخاصة، أما الكافر فإنه لا يستشعر المعية العامة، ولا يستحق المعية الخاصة. وربما يُنكر أو يجهل المعية العامة. أما المؤمن فإنه يعلم أن الله يرى مكانه، ويسمع كلامه، ويعلم بحاله، لاعتقاده إثبات السمع والبصر والعلم وسائر صفات الرُّبوبية، فيُورث هذا في قلبه كمال مُراقبة الله. وإذا استصحب المؤمن أن الله معه يُؤيده،

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط: رقم (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في الحلية: (٦/ ١٢٤)، وفي سنده: عثمان بن كثير، ونعيم بن حماد. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع رقم (١٠٠٢).

وينصره، ويُثبته فإن هذه معية خاصة تُثمر له ثبات القلب، وربابطة الجأش؛ فهذا أفضل الإيمان، وهو استشعار معية الله في جميع تقلباته وأحواله؛ فالحديث وإن لم يصح سندًا، فمعناه صحيح.



إثبات كون الله قِبل وجه المصلي

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ: «إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ؛ فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ؛ فَلَا يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ»[1]، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرْح

أدَّب النبي ﷺ أُمته حال صلاتهم، ونهاهم عن البصاق تلقاء وجوههم، وعلَّل ذلك بقوله: (فَإِنَّ اللهَ قِبَلَ وَجْهِهِ)، فلا يليق أن يصدر ذلك من مؤمن. فإن قيل: كيف نجمع بين العُلو والمقابلة؟ **فالجواب**: أنه لا تعارض بينهما؛ فأنت ترى الشمس عند شروقها، أو عند غُروبها، قِبل وجهك، وهي في السماء. فاجتمع عُلوٌّ ومُقابلة. فإذا كان هذا يجتمع في المخلوق فكيف بالخالق الذي ليس كمثله شيء، وقد نطق النص الصحيح الصريح بذلك.

قوله: (وَلَا عَنْ يَمِينِهِ): تكرمةً لليمين. قال النووي رحمه الله: (وَإِنَّمَا نَهَى عَنِ الْبُصَاقِ عَنِ الْيَمِينِ تَشْرِيفًا لَهَا. وَفِي رِوَايَةِ الْبُخَارِيِّ: «**فَلَا يَبْصُقْ أَمَامَهُ وَلَا عَنْ يَمِينِهِ فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا**»[2]. يشير إلى حديث أبي هُرَيْرَةَ،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٥٣،٤١٠)، ومسلم: رقم (٥٤٧، ٥٤٨).
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٥/ ٣٩).

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ إِلَى الصَّلَاةِ، فَلَا يَبْصُقْ أَمَامَهُ، فَإِنَّمَا يُنَاجِي اللهَ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، فَإِنَّ عَنْ يَمِينِهِ مَلَكًا، وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ، فَيَدْفِنُهَا**»[(١)].

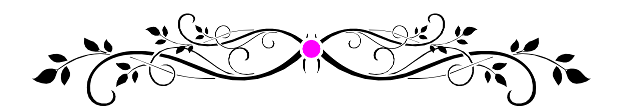
قوله: (وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ، أَوْ تَحْتَ قَدَمِهِ): أي: إذا احتاج إلى البُصاق، فإما أن يبصق عن يساره، أو تحت قدمه. قال النووي: (هَذَا فِي غَيْرِ الْمَسْجِدِ. أَمَّا الْمُصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَلَا يَبْزُقْ إِلَّا فِي ثَوْبِهِ لِقَوْلِهِ ﷺ: «**الْبُزَاقُ فِي الْمَسْجِدِ خَطِيئَةٌ**» فَكَيْفَ يَأْذَنُ فِيهِ ﷺ)[(٢)]، لا سيما في المساجد الحالية التي اتُّخذت فيها الفرش، فإن هذا مما يأنف منه الناس ويستهجنونه. وقد أعاضنا الله عن هذا بالمناديل التي يحملها الإنسان معه بل قد وصف النبي ﷺ طريقة أُخرى وهي: أن يأخذ الإنسان بطرف ردائه فيرد بعضه على بعض فيضع فيه بُصاقه دون أن يبدر منه ما لا يليق في حق الله أو في حق ملائكته أو في حق إخوانه المؤمنين؛ فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: («**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلَاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ، فَلَا يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ**» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «**أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا**»)[(٣)].



(١) أخرجه البخاري: رقم (٤١٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: (٥/ ٣٩).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٤٠٥)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٥٥٠).



إثبات العلو لله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وربَّ الأرضِ، وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرقانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا، أَنْتَ الْأَوَّلُ؛ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ؛ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ؛ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ؛ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنَ الْفَقْرِ»(١)، رَوَاهُ «مُسْلِمٌ»).

الشَّرْح

قوله: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، وربَّ الأرضِ): الرب: هو الخالق المالك المدبر. والسماوات: هنَّ السبع الطباق المبنية. والأرض: هي التي خلقنا منها، واستعمرنا فيها، وفيها يعيدنا، ومنها يخرجنا تارةً أخرى. قيل: إنها سبع كذلك، واستدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، وليس في رواية مسلم ذكر السبع.

قوله: (وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ): سبق تعريف العرش. وقد وردت هذه الإضافة العظيمة مقرونة بالتوحيد في موضعين من القرآن: ﴿لَآ إِلَٰهَ

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٧١٣).

إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٩]، ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٦]، ونحوها قوله: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: ١١٦].

قوله: (رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ): هذه الربوبية العامة.

قوله: (فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى): كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]. قال ابن الجوزي: (في معنى الفلق **قولان**: **أحدهما**: أنه بمعنى: الخلق، فالمعنى: خالق الحب والنوى، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال الضحاك، ومقاتل. **والثاني**: أن الفلق بمعنى: الشق)[1].

قوله: (مُنَزِّلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرقانِ): هذه أعظم كتب الله، وأعظمها القرآن. وقد ذكرها الله مقترنة في موضعين من كتابه: ﴿وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]، ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ [التوبة: ١١١].

فهذه ست جمل من الثناء الحسن توسل بها بين يدي الاستعاذة، لما فيها من معاني الربوبية المناسبة لطلب العوذ من الشرور، كما في المعوذتين.

قوله: (أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ دَابَّةٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا): هذا يتناول الاستعاذة من سائر الشرور، إذ كل شيء ناصيته بيد الله.

قوله: (أَنْتَ الْأَوَّلُ... إلخ): تقدم بيان هذه الأسماء الحسنى الأربعة، وإحاطتها الزمانية والمكانية أول الشرح. وهذا من التوسل بدعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى، وذلك من آداب الدعاء، وأسباب الإجابة.

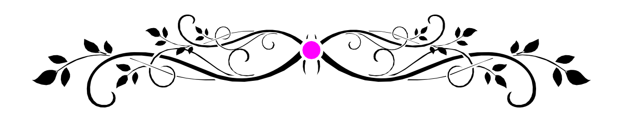
---

(١) زاد المسير في علم التفسير: (٢/٥٧).

قوله: (اقْضِ عَنِّي الدَّيْنَ، وَأَغْنِنِي مِنْ الْفَقْرِ): استوعب الخير كله؛ بالتخلص من الحقوق المتعلقة بالذمة، وحصول الغنى.

والشاهد من الحديث ذكر اسم الله «الظاهر» وتفسير النبي ﷺ له بالعلو والفوقية الحقيقية، فليس فوقه شيء.





إثبات قرب الله تعالى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ لَمَّا رَفَعَ أَصْحَابُهُ أَصْوَاتَهُمْ بِالذِّكْرِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ! ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ؛ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا؛ إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا**[١]؛ **إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**[٢]»، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرْح

قوله: (ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ): أي: ترفقوا بأنفسكم؛ قال النووي رحمه الله: (مَعْنَاهُ: ارْفُقُوا بِأَنْفُسِكُمْ، وَاخْفِضُوا أَصْوَاتَكُمْ، فَإِنَّ رَفْعَ الصَّوْتِ إِنَّمَا يَفْعَلُهُ الْإِنْسَانُ لِبُعْدِ مَنْ يُخَاطِبُهُ لِيُسْمِعَهُ، وَأَنْتُمْ تدعون الله تعالى، وليس هو بأصم ولا غائب؛ بَلْ هُوَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، وَهُوَ مَعَكُمْ بِالْعِلْمِ وَالْإِحَاطَةِ. فَفِيهِ النَّدْبُ إِلَى خَفْضِ الصَّوْتِ بِالذِّكْرِ إِذَا لَمْ تَدْعُ حَاجَةٌ إِلَى رَفْعِهِ. فَإِنَّهُ إِذَا خَفَضَهُ كَانَ أَبْلَغَ فِي تَوْقِيرِهِ وَتَعْظِيمِهِ. فان دعت حاجة الى الرَّفْعِ رَفَعَ، كَمَا جَاءَتْ بِهِ أَحَادِيثُ)[٣].

فتضمن ذلك إثبات صفة القُرب لله تعالى؛ قال شيخ الإسلام رحمه الله:

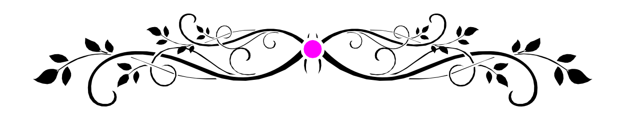
(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٢٠٥)، ومسلم: رقم (٢٧٠٤).
(٢) أخرجها مسلم: رقم (٢٧٠٤)؛ بلفظ: «**وَالَّذِي تَدْعُونَهُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَةِ أَحَدِكُمْ**».
(٣) شرح النووي على مسلم: (٢٦/١٧).

(وَأَمَّا دُنُوُّهُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّبُهُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ؛ فَهَذَا يُثْبِتُهُ مَنْ يُثْبِتُ قِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِنَفْسِهِ وَمَجِيئِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَنُزُولِهِ وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ. وَهَذَا مَذْهَبُ أَئِمَّةِ السَّلَفِ وَأَئِمَّةِ الْإِسْلَامِ الْمَشْهُورِينَ وَأَهْلِ الْحَدِيثِ وَالنَّقْلُ عَنْهُمْ بِذَلِكَ مُتَوَاتِرٌ. وَأَوَّلُ مَنْ أَنْكَرَ هَذَا فِي الْإِسْلَامِ «الْجَهْمِيَّة» وَمَنْ وَافَقَهُمْ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ)(١).

وليس معنى ذلك أن الله تعالى بين الراكب وبين عُنق راحلته حاشاه! كما سيأتي بيانه قريبًا.



(١) مجموع الفتاوى: (٥/ ٤٦٦).



إثبات رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَوْلُهُ ﷺ: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ؛ كَمَا تَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَتِهِ؛ فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لَا تُغْلَبُوا عَلَى صَلَاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ، وَصَلَاةٍ قَبْلَ غُرُوبِهَا؛ فَافْعَلُوا»[(١)]، مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ).

الشَّرْح

هذا الحديث دل على إثبات الرؤية، وأن المؤمنين يرون ربهم عيانًا بأبصارهم كما تقدم في الآيات القُرآنية. وقد بلغ مبلغ التواتر، حتى مُثِّل به في قول الناظم:

مما تواتر حديث «من كذب» و«من بنى للّه بيتًا واقترب»
و«رؤية» «شفاعة» و«الحوض» و«مسح خفين» وهذي بعض

قوله: (لَا تُضَامُّونَ): وفي رواية: (هل تضارون). وقد استوعب النووي رحمه الله ألفاظها وضبطها وتوجيهها، فقال: (وفي الرواية الْأُخْرَى: «هَلْ تُضَامُونَ» وَرَوَى «تُضَارُّونَ» بِتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَبِتَخْفِيفِهَا، وَالتَّاءُ مَضْمُومَةٌ فِيهِمَا. وَمَعْنَى الْمُشَدَّدِ: هَلْ تُضَارُّونَ غَيْرَكُمْ فِي حَالَةِ الرُّؤْيَةِ بِزَحْمَةٍ أَوْ مُخَالَفَةٍ فِي الرُّؤْيَةِ أَوْ غَيْرِهَا لِخَفَائِهِ، كَمَا تَفْعَلُونَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنَ الشَّهْرِ. وَمَعْنَى الْمُخَفَّفِ: هَلْ يَلْحَقُكُمْ فِي رُؤْيَتِهِ ضَيْرٌ. وَهُوَ الضَّرَرُ وَرُوِيَ أَيْضًا:

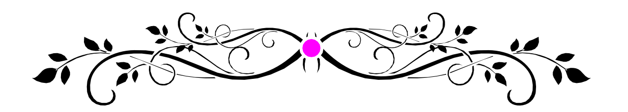
---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٥٤)، ومسلم: رقم (٦٣٣).

تُضَامُونَ بِتَشْدِيدِ الْمِيمِ وَتَخْفِيفِهَا؛ فَمَنْ شَدَّدَهَا فَتَحَ التَّاءَ، وَمَنْ خَفَّفَهَا ضَمَّ التَّاءَ. وَمَعْنَى الْمُشَدَّدِ: هَلْ تَتَضَامُّونَ وَتَتَلَطَّفُونَ فِي التَّوَصُّلِ إِلَى رُؤْيَتِهِ. وَمَعْنَى الْمُخَفَّفِ: هَلْ يَلْحَقُكُمْ ضَيْمٌ، وَهُوَ الْمَشَقَّةُ وَالتَّعَبُ. قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَالَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ اللُّغَةِ: تُضَارُّونَ أَوْ تَضَامُّونَ بِفَتْحِ التَّاءِ وَتَشْدِيدِ الرَّاءِ وَالْمِيمِ. وَأَشَارَ الْقَاضِي بِهَذَا إِلَى أَنَّ غَيْرَ هَذَا الْقَائِلِ يَقُولُهُمَا بِضَمِّ التَّاءِ، سَوَاءٌ شَدَّدَ أَوْ خَفَّفَ. وَكُلُّ هَذَا صَحِيحٌ ظَاهِرُ الْمَعْنَى. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «**لَا تَضَامُّونَ**» أَوْ «**لَا تُضَارُّونَ**» عَلَى الشَّكِّ. وَمَعْنَاهُ: لَا يَشْتَبِهُ عَلَيْكُمْ وَتَرْتَابُونَ فِيهِ، فَيُعَارِضُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي رُؤْيَتِهِ)[(١)].

۞ ۞ ۞

(١) شرح النووي على مسلم: (٣/ ١٨).



موقف أهل السُّنَّة
من أحاديث إثبات الصفات الربانية

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُخْبِرُ فِيهَا رَسُولُ اللهِ عَنْ رَبِّهِ؛ بِمَا يُخْبِرُ بِهِ. فَإِنَّ الْفِرْقَةَ النَّاجِيَةَ أَهْلَ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ يُؤْمِنُونَ بِذَلِكَ، كَمَا يُؤْمِنُونَ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، مِنْ غَيْرِ: تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ: تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ).

الشَّرْح

نبَّه المصنف رَحِمَهُ اللهُ إلى أنه أراد التمثيل، وليس الاستقصاء والاستيعاب، في سياق أحاديث الصفات، كما نبَّه على ذلك إثر سياقه للآيات، بقوله: (وَهَذَا الْبَابُ فِي كِتَابِ اللهِ تَعَالَى كَثِيرٌ)؛ فالواجب: أن نسير، في هذه الآيات والأحاديث، على هذا النسق من الإثبات، والإقرار، والإمرار، وعدم التعرض لها بشيء من التمثيل والتكييف؛ في جانب الإثبات، أو من التحريف والتعطيل؛ في جانب التنزيه.



منزلة أهل السُّنَّة والجماعة بين فرق الأمة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ. فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ. وَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ. وَفِي: بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ. وَفِي: بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ. وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ).

الشَّرْح

هذه القطعة من العقيدة الواسطية تكشف عن سعة اطلاع شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ومعرفته بمقالات الناس، وإدراكه للفَرق بين الفِرق المتطرفة؛ وقد نبَّه على خصيصة بارزة من خصائص أهل السُّنَّة والجماعة وسِمة من سماتهم، وهي «الوسطية».

قوله: (بَلْ هُمُ الْوَسَطُ فِي فِرَقِ الْأُمَّةِ؛ كَمَا أَنَّ الْأُمَّةَ هِيَ الْوَسَطُ فِي الْأُمَمِ): قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، فأهل الإسلام وسط بين اليهود والنصارى؛ فاليهود ينزعون إلى التشديد والإفراط، والنصارى ينزعون إلى التساهل والتفريط في العقائد،

والعبادات، والأخلاق[(١)].

قال ابن كثير في تفسيره: (وَالْوَسَطُ هَاهُنَا: الْخِيَارُ وَالْأَجْوَدُ، كَمَا يُقَالُ: قُرَيْشٌ أوسطُ الْعَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا؛ أَيْ: خَيْرُهَا. وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَطًا فِي قَوْمِهِ؛ أَيْ: أَشْرَفُهُمْ نَسَبًا، وَمِنْهُ الصَّلَاةُ الْوُسْطَى، الَتِي هِيَ أَفْضَلُ الصَّلَوَاتِ، وَهِيَ الْعَصْرُ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصِّحَاحِ وَغَيْرِهَا، وَلَمَّا جَعَلَ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ وَسَطًا خَصَّها بِأَكْمَلِ الشَّرَائِعِ وَأَقْوَمِ الْمَنَاهِجِ وَأَوْضَحِ الْمَذَاهِبِ)[(٢)].

والعدل والخيرية إنما تُنال بلزوم الصراط المستقيم، **وقد أوضح المؤلف رَحِمَهُ اللهُ هذه الوسطية من خلال خمسة أبواب:**

الأول: قوله: (فَهُمْ وَسَطٌ فِي: بَابِ صِفَاتِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، بَيْنَ أَهْلِ التَّعْطِيلِ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيْنَ أَهْلِ التَّمْثِيلِ الْمُشَبِّهَةِ): انقسم الناس فيه إلى طرفين ووسط:

الطرف الأول: قوم غلوا في الإثبات حتى صاروا إلى التمثيل، وهم أهل التمثيل «المشبهة»؛ يعتقدون أن صفات الله كصفات المخلوقين، وقد تقدم الرد عليهم.

وأول القائلين بالتمثيل في هذه الأُمة هم الرافضة؛ هشام بن الحكم الرافضي[(٣)]،

---

(١) انظر في بيان ذلك: «الوصية الكبرى» لشيخ الإسلام ابن تيمية.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير: (١/ ٤٥٤).

(٣) هشام بن الحكم الكوفي الرافضي، المشبه، له نظر، وجدل، وتواليف كثيرة، قال في مختلف الحديث: كان من الغلاة، ويقول بالجبر الشديد. وذكر عنه ابن حزم: أنه يزعم أن ربه طوله سبعة أشبار، بشبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث. مات بعد نكبة البرامكة بمديدة متسترًا، وقيل: عاش إلى خلافة المأمون. انظر: لسان الميزان (٦/ ١٩٤).

وهشام بن سالم الجواليقي[١]، وداود الجواربي[٢]، وثلاثتهم من الروافض، كما حكي مقالاتهم أبو الحسن الأشعري في «مقالات الإسلاميين»، ولعل مذهب التمثيل انقرض، أو كاد؛ لشناعته.

الطرف الثاني: قوم غلوا في التنزيه حتى وقعوا في التعطيل؛ فنفوا عن الله تعالى ما أثبته لنفسه، وقد تفاوتوا في درجة التعطيل على مراتب، كما تقدم بيانه أول الكتاب.

الوسط: وهم أهل السُّنَّة والجماعة؛ فقد أثبتوا إثباتًا بلا تمثيل، ونزهوا الله تنزيهًا بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: ١١].

الثاني: **قوله**: (**فِي: بَابِ أَفْعَالِ اللهِ تَعَالَى بَيْنَ الْقَدَرِيَّةِ، وَالْجَبْرِيَّةِ**)، أي: مفعولاته من أفعال العباد؛ فقد **انقسم الناس في هذا الباب إلى طرفين ووسط**:

الطرف الأول: قومٌ غلوا في إثبات أفعال الله؛ حتى سلبوا العبد فعله ومشيئته وقدرته، وهؤلاء هم الجبرية.

الطرف الثاني: قومٌ غلوا في إثبات أفعال العباد؛ حتى أنكروا القدر السابق، وهم القدرية.

---

(١) هشام بن سالم الجواليقي: نسج على منوال هشام بن الحكم في التشبيه، وزعم أن الله نور ساطع يتلألأ، وله خمس حواس.... إلخ من تخريفاته، وضلالاته. انظر: الملل والنحل (١/ ١٨٤)، مقالات الإسلاميين (٢٠٩).

(٢) داود الجواربي: مشبه، أخذ مقالاته عن هشام بن سالم الجواليقي، وزعم أن الله جسم، وجثة على صورة الإنسان؛ لحم ودم وشعر وعظم... إلخ. قال ابن حجر: رأس في الرافضة والتجسيم، من مرامي جهنم، وقال يزيد بن هارون: الجواربي، والمريسي كافران.

الوسط: وهم أهل السُّنَّة والجماعة؛ فأثبتوا للعبد مشيئة وفعلًا واختيارًا، لكنه داخل تحت مشيئة الله وفعله وقدره، فقالوا كما قال ربهم: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. وسيأتي لذلك مزيد تفصيل إن شاء الله.

الثالث: **قوله**: (فِي: بَابِ وَعِيدِ اللهِ بَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَبَيْنَ الْوَعِيدِيَّةِ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ)، **انقسم الناس حِيال نصوص وعيد الله تعالى إلى طرفين ووسط**:

الطرف الأول: قوم مالوا إلى أهل التساهل والتفريط، وعطلوا نصوص الوعيد. وهؤلاء هم المرجئة.

الطرف الثاني: قوم مالوا إلى التشديد والإفراط، وقالوا بإنفاذ الوعيد، وإنكار الشفاعة. وهؤلاء هم الوعيدية، وهم صنفان: الخوارج والمعتزلة.

الوسط: وهم أهل السُّنَّة والجماعة، قالوا: إن من توعده الله تعالى من عُصاة الموحدين فهو يوم القيامة تحت المشيئة والإرادة، إن شاء الله تعالى عفا عنه، وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بقدر ذنبه، ومآله إلى الجنة. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، وأثبتوا أحاديث الشفاعة. وسيأتي لذلك مزيد بيان.

الرابع: **قوله**: (وَفِي: بَابِ الْإِيمَانِ وَالدِّينِ بَيْنَ الْحَرُورِيَّةِ، وَالْمُعْتَزِلَةِ، وَبَيْنَ الْمُرْجِئَةِ، وَالْجَهْمِيَّةِ)، المراد بذلك: الأسماء والأحكام، فإن الله تعالى قد قسم الخليقة إلى قسمين: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]، **فانقسم الناس في حكم الفاسق الملِّي، مرتكب الكبيرة، إلى طرفين ووسط**:

الطرف الأول: قوم شددوا، وسلبوا الفاسق الملِّي اسم الإيمان، **وهم صنفان**:

أحدهما: الحرورية «الخوارج»: قالوا: يسمى كافرًا.

الثاني: المعتزلة: قالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر! صار في منزلة بين منزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر! وأتوا بقول لم يُسبقوا إليه.

الطرف الثاني: قوم تساهلوا في اسم الدين والإيمان، وحكم مرتكب الكبيرة في الآخرة، فقالوا: من عرف أو أقرَّ بقلبه فهو مؤمن كامل الإيمان؛ إيمانه كإيمان جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، وكإيمان أبي بكر وعمر! وهو من أهل الجنة. وهؤلاء هم المرجئة والجهمية.

الوسط: أهل السُّنَّة والجماعة: قالوا: مُرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان؛ مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. والمؤمنون أطباق كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر: ٣٢]. وكل هؤلاء الثلاثة مُصطَفون، مستحقون لوصف الإيمان، لكن منهم صاحب الإيمان الكامل، ومنهم صاحب الإيمان الواجب، ومنهم ناقص الإيمان؛ فالصنفان الأولان يدخلان الجنة برحمة الله، والصنف الثالث تحت المشيئة والإرادة؛ كما تقدم، وسيأتي لذلك مزيد بيان.

الخامس: **قوله**: (وَفِي: أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الرَّوَافِضِ، وَبَيْنَ الْخَوَارِجِ)؛ **انقسم الناس في باب الصحابة إلى طرفين ووسط**:

الطرف الأول: قوم غلوا في عليٍّ رضي الله عنه وآل بيته، ورفعوهم فوق منزلتهم. وهم الرافضة، وهذا هو الاسم الذي كان السلف رضي الله عنهم يُطلقونه ضلَّال المتشيعة؛ وذلك أن التشيع مرَّ بمراحل مُتعددة؛ فكان في مبدأ

أمره تشيعًا سياسيًّا؛ بمعنى المناصرة؛ يُقال: شيعة علي، وشيعة معاوية، وشيعة عُثمان، بمعنى: حزبه، وأنصاره، ومؤيديه، ثم تحول إلى تشيع بدعي؛ ادعى أصحابه أن الإمامة في عليٍّ، وذريته، وقضوا ببطلان خلافة من سواهم، ثم إن التشيع انحط إلى دركات شركية من الغلو في الأئمة، وضلالات كفرية؛ من الزندقة، والباطنية؛ كالدروز، وإخوان الصفا، وخلان الوفا، والقرامطة، وفاهوا بمقالات شنيعة، حتى إنه قد وُجد في زمن عليٍّ رضي الله عنه من زعم أن عليًّا هو الله؛ وهم السبأيّة، فخدَّ لهم الأخاديد، وحرقهم بالنار، وقال:

لما رأيت الأمر أمرًا مُنكرًا أجججت ناري ودعوت قُنبرًا[1]

الطرف الثاني: قوم جفوا عليًّا، وآل البيت، وأصحاب الجمل، وصفين؛ وهم الخوارج؛ فإن الخوارج أبغضوا عليًّا، وكفروه، وهؤلاء هم الـمُحكِّمة الأولى الذين انشقوا عن جيش علي، بعد صفين، وقضية التحكيم، وقالوا: قد كفرت! حكَّمت الرجال في كتاب الله، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [المائدة: ٤٤]، وصاروا يصرخون بذلك في مسجد الكوفة، حتى قال عليٌّ رضي الله عنه: كلمة حق أُريد بها باطل، ولم يزل شرهم يستشري حتى جرد لهم رضي الله عنه جيشًا من الصحابة؛ من المهاجرين والأنصار، فقاتلوهم، وقتلوهم في معركة النهروان المشهورة.

الوسط: وهم أهل السُّنَّة والجماعة، فقد عرفوا لأصحاب رسول الله ﷺ، فضلهم، وأنزلوهم منازلهم، وترضوا عنهم، وأحبوهم في ذات الله، وعرفوا لهم سابقتهم، وذبوا عن أعراضهم، والتمسوا لهم المعاذير، فيما قد يكونوا أخطئوا فيه.

---

(١) أخرجه الآجري في كتاب الشريعة: (٥/ ٢٥٢٠)، وابن الأعرابي في معجمه: رقم (٦٧).

فتبيَّن أن أهل السُّنَّة، بحمد الله، وسط بين طرفين، وعدلٌ بين عِوجين، في جميع أبواب الاعتقاد؛ بل إن هذه الوسطية سارية في جميع أبواب الدين؛ في الاعتقاد، والعبادة، والأخلاق، والسلوك، فهي سِمة، ومِزاج، وتكيُّف؛ ينبغي لطالب العلم أن يكتسبها، وأن تمتلئ نفسه غِبطة بها، فإنه كما قيل:

ولا تغلُ في شيء من الأمر واقتصد كلا طرفي قصد الأُمور ذميم(١)

فعود نفسك يا طالب العلم أن تكون مُطمئنًا، وادعًا، ساكنًا؛ لا يحملك نزق، وغضب، وحمية، وطفرة، أن تشتط يمينًا، وشمالًا؛ اعلم أن الحق، دائمًا، معه سكينة، وبهجة، وطُمأنينة؛ فإن آنست في نفسك، أو في غيرك شيئًا من هذه النزعات، فتوجس ريبة، واحذر أن تنقل خُطاك قبل أن تتوثق من موضعها، واعتصم بالكتاب والسُّنَّة؛ فإن النفس لها آفات، وقد يُخيل للإنسان في وقت من الأوقات أنه إنما غضب لله، وأنه انتصر لدين الله، وقد لا يكون على نور من الله! فسل الله دومًا أن يمن الله عليك بالسكينة، والاعتدال، والاستقامة، والتوسط.

وتأمل حال أولئك النفر الذين أتوا النبي ﷺ، كما في حديث أَنَس بْن مَالِكٍ رضي الله عنه، (قال: جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ،**

(١) قاله أبو سليمان الخطابي.

لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

فدين الإسلام دين وسطي؛ يُلبي حاجات الروح وحاجات البدن، وسائر الحقوق، «**إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ**»[(٢)]، فعليك يا طالب العلم أن تتشرب وتصطبغ بهذه الصبغة الوسطية، ولا تنجرف يمنة ولا يسرة.

واعلم أن معيار الوسطية هو النص والدليل، فإن من الناس من يرى نفسه في موقع الوسط، ويرى الآخرين في الأطراف يمنة ويسرة، وهذا ليس صوابًا! يجب أن تُحدد نُقطة الوسط بما دل عليه الكتاب والسُّنَّة، لا بالأهواء والأمزجة والآراء.

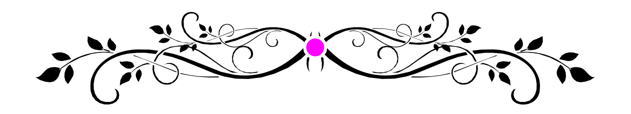
من الناس من يُقارف معصية، ويقول: أنا أحسن ممن يفعل كذا وكذا، أنا لست مثل من يفعل كذا وكذا! ويظن أنه بذلك قد توسط، وقد يكون أقرب إلى الوسط ممن عابهم، لكن لا يعني أنه في الوسط؛ إن الذي يُحدد الوسطية هو الشرع، وما كان عليه النبي ﷺ؛ فإن الله وصفه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]، ومن الناس من إذا احتججت عليه بسُنَّة رسول الله ﷺ في أمر من الأُمور قال: هذا رسول الله! أين نحن منه؟ فأين هو من قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]. فعليك أن تنتبه لهذا المنزلق، وألا تُجر لنوع من خِدع النفوس وحِيلها وآفاتها؛ فتقع في شيء من الشطط بدعوى الوسطية.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٠٦٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٤٠١).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٩٦٨).

ومبحث الوسطية مبحث مُهم، ينبغي لطالب العلم أن يعتني به، ومن تأمل شرع الله ﷻ وجده عين الحكمة، وعين المصلحة، لكل زمان ومكان، ولكل جيل وقبيل؛ يُدرك ذلك الراسخون في العلم.





الجمع بين العلو والمعية وأنه لا تنافي بينهما

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ: الْإِيمَانُ بِمَا أَخْبَرَ اللهُ بِهِ فِي كِتَابِهِ، وَتَوَاتَرَ عَنْ رَسُولِهِ ﷺ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ: مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ فَوْقَ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ، عَلِيٌّ عَلَى خَلْقِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا؛ يَعْلَمُ مَا هُمْ عَامِلُونَ. كَمَا جَمَعَ بَيْنَ ذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]).

الشَّرح

أراد المصنف رَحِمَهُ اللهُ بهذه القطعة، كشف شبهة، ورفع توهم يقع لبعض الناس، والتوفيق بين النصوص الدالة على علو الذات، والنصوص الدالة على المعية، وقد سبقت الإشارة لذلك، وهاهنا مزيد بيان، **وقد دلَّل على ذلك بأنواع الأدلة:**

أولًا: **ناطق الكتاب**: فقد جمع الله تعالى بين العلو والمعية في آية واحدة، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]؛ فذكر الاستواء الدال على العلو، والمعية في سياق واحد.

ثانيًا: **السُّنَّة المتواترة**: فإن علو الله ومعيته قد تواترت بهما الأحاديث النبوية.

ثالثًا: **إجماع سلف الأمة**: وهو الإجماع المنضبط المعتبر؛ إذ بعده كثر الاختلاف، وانتشرت الأمة، كما سيبين آخر الكتاب. وقد حكى ذلك عنهم أبو عثمان الصابوني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «عقيدة السلف وأصحاب الحديث».



قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

﴿ (وَلَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِ: «**وَهُوَ مَعَكُمْ**» أَنَّهُ مُخْتَلِطٌ بِالْخَلْقِ؛ فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ، وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ، وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ؛ بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ، هُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ).

الشَّرْح

في هذه القطعة ردٌّ على من توهم أن المعية تقتضي الحُلول والاختلاط؛ **من وجوه**:

الوجه الأول: **قوله**: (فَإِنَّ هَذَا لَا تُوجِبُهُ اللُّغَةُ). ولم يقل: لا تدل عليه اللغة. وذلك أن إحدى دلالات المعية الحُلول والاختلاط، لكن اللغة لا تُعينه دون غيره وتنفي ما سواه؛ بل اللغة تفيد عدة معاني، يعين أحدها السياق.

فلفظ «المعية»، في أصل وضعه، لفظ يدل على مطلق المقارنة والمصاحبة، ويقيد هذا الإطلاق السياق والإضافات والقرائن:

ـ فتارة تكون دالّة على الحُلول والاختلاط؛ كقولك: جعلت الماء مع اللبن، وقولك: محمد مع أصحابه.

ـ وتارة تدل المعية على النصر والتأييد: كقول الرجل لأخيه: اذهب وأنا معك. أو قوله لمن رآه واقعًا في حُفرة: أنا معك. وإنما أراد: أُعينك وأنتشلك.

- وتارة تكون بمعنى التهديد والوعيد؛ كقول الشرطي للجاني: اذهب وأنا معك.

- وتارة تكون معية حُكمية؛ كقول الرجل: زوجتي معي، وهو في المشرق وهي في المغرب، يعني: في عصمتي.

فكونه سبحانه أثبت لنفسه المعية؛ لا يقتضي حملها على أحد هذه المعاني وهو الحُلول والاختلاط، وإنما يدل على معية العلم والإحاطة بسائر صفات الرُّبوبية؛ من السمع والبصر والقُدرة، إلى غير ذلك. وهذا لا ينافي علوه واستواءه.

الوجه الثاني: **قوله**: (وَهُوَ خِلَافُ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ سَلَفُ الْأُمَّةِ)، فسلف الأُمة مجمعون على إثبات العلو، ونفي الحُلول. حتى إنهم فسروا آية المجادلة بمعية العلم؛ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: ابتدأ الآية بالعلم وختمها بالعلم. كما تقدم. فقد انعقد إجماع السلف على نفي هذا الوهم.

الوجه الثالث: **قوله**: (وَخِلَافُ مَا فَطَرَ اللهُ عَلَيْهِ الْخَلْقَ)، فجميع الخلق مفطورون على اعتقاد عُلو الله، وتأبى فطرهم أن يكون حالًا بينهم. وإنما يقول هذه المقالات الشُّذاذ، أصحاب العقول الفاسدة، والنُّفوس المريضة؛ كأصحاب وحدة الوجود والاتحادية.

الوجه الرابع: الدليل الحسي، في **قوله**: (بَلْ الْقَمَرُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، مِنْ أَصْغَرِ مَخْلُوقَاتِهِ وهُوَ مَوْضُوعٌ فِي السَّمَاءِ وَهُوَ مَعَ الْمُسَافِرِ، وَغَيْرِ الْمُسَافِرِ أَيْنَمَا كَانَ)، يقول المسافر: ما زلت أسير والقمر معي. والقمر في السماء، والمسافر في الأرض. فاجتمع في القمر علو ومعية، وهو مخلوق صغير من مخلوقات الله! فهذا نوع معية؛ لأن المعية تدل على مُطلق المقارنة والمصاحبة.

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، رَقِيبٌ عَلَى خَلْقِهِ، مُهَيْمِنٌ عَلَيْهِمْ مُطَّلِعٌ إِلَيْهِمْ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ مَعَانِي رُبُوبِيَّتِهِ): الرقيب: الحفيظ الذي لا يعزب عن سمعه وبصره وعلمه شيء، ولا تخفى عليه خافية. قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝٥٢﴾ [الأحزاب: ٥٢]. والمهيمن: القائم على عباده بأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم، المحيط بهم. فلا تنافي بين عُلوه ومعيته، فهو قريب في عُلوه، عليٌّ في دنوه.



تنزيه الله تعالى عن الظنون الكاذبة
في باب العلو والمعية

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَكُلُّ هَذَا الْكَلَامِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ؛ مِنْ: أَنَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، وَأَنَّهُ مَعَنَا؛ حَقٌّ عَلَى حَقِيقَتِهِ، لَا يَحْتَاجُ إِلَى تَحْرِيفٍ، وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ؛ مِثْلِ أَنْ يُظَنَّ أَنَّ ظَاهِرَ قَوْلِهِ: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾. أَنَّ السَّمَاءَ تُظِلُّهُ أَوْ تُقِلُّهُ، وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ؛ فَإِنَّ اللهَ قَدْ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ، وَهُوَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولَا، وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ؛ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَمَنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ).

الشَّرْح

نبَّه المؤلف على أمر مهم، وهو: أن كل ما أخبر الله تعالى عنه في كتابه فهو حق على حقيقته، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]؛ أي: لا أحد. فليس لأحد كائنًا من كان أن يستدرك، أو يؤول كلام الله، ويصرفه عن حقيقته، فهو غني عن هذه التدخلات التي يُمارسها بعض المتكلمين، بقولهم: ليس مُراده كذا وإنما مُراده كذا وكذا!

قوله: (وَلَكِنْ يُصَانُ عَنِ الظُّنُونِ الْكَاذِبَةِ): فقد يخطر بالبال، أو يدور في الخيال وهم باطل، يظن صاحبه أنه مقتضى النصوص، والنص

بريء من وهمه، مثل أن يظن أن ظاهر قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يقتضي أن السماء تحويه؛ تُظله أو تُقله! **فبيّن بطلانه من وجهين:**

الوجه الأول: قوله: (وَهَذَا بَاطِلٌ بِإِجْمَاعِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالإِيمَانِ)؛ فلا يلتفت للظانين بالله ظن السوء، الحاملين كلامه على المحامل الباطلة.

الوجه الثاني: الأدلة الشرعية القطعية: كقوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۖ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، والكرسي موضع القدمين، كما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: ٤١]، وقوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓۗ﴾ [الحج: ٦٥]، فلا قيام للسماوات والأرضين إلا به، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ [الروم: ٢٥]. فهذه النصوص تدل دلالة قطعية على أن السماوات والأرض خلق من خلق الله، مفتقر إلى الله، لا قيام لهما إلا بالله، وأنهما ذرة ضئيلة في ملكوت الله، وأن السماوات لا يُمكن أن تحويه، أو تُقله، أو تُظله. فكيف يتوهم مُتوهم هذا المعنى الفاسد؟! وقد تقدم توجيه المُراد **بقوله**: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾.



إثبات قربه سبحانه من خلقه وأن ذلك لا ينافي علوه وفوقيّته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ: الْإِيمَانُ بِأَنَّهُ قَرِيبٌ مِنْ خَلْقِهِ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: ١٨٦]. وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ**». وَمَا ذُكِرَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مِنْ قُرْبِهِ وَمَعِيَّتِه، لَا يُنَافِي مَا نَذْكُرُ مِنْ عُلُوِّهِ وَفَوْقِيَّتِهِ؛ فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فِي جَمِيعِ نُعُوتِهِ، وَهُوَ عَلِيٌّ فِي دُنُوِّهِ، قَرِيبٌ فِي عُلُوِّهِ).

الشَّرْح

قوله: (وَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ): المشار إليه ما تقدم من **قوله**: (وَقَدْ دَخَلَ فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ)، وأراد بذلك إثبات صفة القُرب له ﷻ، كما دلَّ عليها قوله تعالى: (﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾)، وقول نبيّه ﷺ فيما رواه أبو مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﵁، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ، هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ! فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ**

سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ»[(١)]، وقد تقدم. وسألوه مرة فقالوا: يا رسول الله: (أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيهِ أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيهِ)[(٢)]؛ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: ١٨٦].

قال شيخ الإسلام: (ولا يقال في هذا: قريب بعلمه وقدرته؛ فإنه عالم بكل شيء، قادر على كل شيء، وهم لم يشكوا في ذلك، ولم يسألوا عنه، وإنما سألوا عن قربه إلى من يدعوه ويناجيه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ فأخبر أنه قريب مجيب.

وطائفة من أهل السُّنَّة تفسر القرب، في الآية والحديث، بالعلم؛ لكونه هو المقصود؛ فإنه إذا كان يعلم ويسمع دعاء الداعي حصل مقصوده، وهذا هو الذي اقتضى أن يقول من يقول: إنه قريب من كل شيء، بمعنى: العلم والقدرة؛ فإن هذا قد قاله بعض السلف، كما تقدم عن مقاتل بن حيان وكثير من الخلف، لكن لم يقل أحد منهم: إن نفس ذاته قريبة من كل شيء. وهذا المعنى يقر به جميع المسلمين؛ من يقول: إنه فوق العرش، ومن يقول: إنه ليس فوق العرش.

وقد ذكر ابن أبي حاتم، بإسناده، عن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشُون قال: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٥] يعلم

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٩٩٢)، ومسلم: رقم (٢٧٠٤).

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في تفسيره: (٣/ ٢٢٢)، وابن أبي حاتم: (١/ ٣١٤)، عند قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾.

وهو كذلك ما توسوس به أنفسنا منا، وهو بذلك أقرب إلينا من حبل الوريد، وكيف لا يكون كذلك وهو أعلم بما توسوس به أنفسنا منا، فكيف بحبل الوريد؟!

وكذلك قال أبو عمرو الطلمنكي، قال: ومن سأل عن قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾ [ق: ١٦] فاعلم أن ذلك كله على معنى العلم به والقدرة عليه. والدليل من ذلك صدر الآية، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾؛ لأن الله لما كان عالمًا بوسوسته، كان أقرب إليه من حبل الوريد. وحبل الوريد لا يعلم ما توسوس به النفس...

قال: وقد أجمع المسلمون من أهل السُّنَّة على أن الله على عرشه، بائن من جميع خلقه، وتعالى الله عن قول أهل الزيغ، وعما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

قال: وكذلك الجواب في قوله فيمن يحضره الموت: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥﴾ [الواقعة: ٨٥]؛ أي: بالعلم به والقدرة عليه، إذ لا يقدرون له على حيلة ولا يدفعون عنه الموت، وقد قال تعالى: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١﴾ [الأنعام: ٦١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١].

قلت: وهكذا ذكر غير واحد من المفسرين، مثل: الثعلبي وأبي الفرج ابن الجوزي وغيرهما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ۝١٦﴾، وأما في قوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ فذكر أبو الفرج القولين: أنهم الملائكة، وذكره عن أبي صالح عن ابن عباس، وأنه القرب بالعلم.

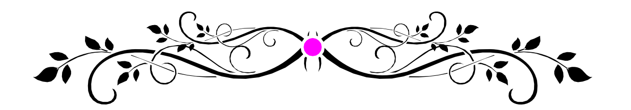
وهؤلاء كلهم مقصودهم: أنه ليس المراد أن ذات الباري، جلَّ

وعلا، قريبة من وريد العبد ومن الميت، ولما ظنوا أن المراد قربه وحده دون قرب الملائكة فسروا ذلك بالعلم والقدرة كما في لفظ المعية، ولا حاجة إلى هذا؛ فإن المراد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾؛ أي: بملائكتنا في الآيتين، وهذا بخلاف لفظ المعية، فإنه لم يقل: ونحن معه؛ بل جعل نفسه هو الذي مع العباد، وأخبر أنه ينبئهم يوم القيامة بما عملوا، وهو نفسه الذي خلق السمٰوات والأرض، وهو نفسه الذي استوى على العرش، فلا يجعل لفظ مثل لفظ، مع تفريق القرآن بينهما)[(١)].

فشيخ الإسلام لا يرى انقسام «القرب» إلى عام وخاص؛ كما «المعيّة»؛ بل القرب خاص بالمؤمنين، يقتضي الإجابة والإثابة، وهذا لا يتصور في حق الكافرين والفاجرين، وحمل ما ورد من النصوص العامة على قرب الملائكة. والله أعلم.



(١) شرح حديث النزول: (ص١٣٠ ـ ١٣١)، وانظر أيضًا: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية: (٦/ ٢٥ ـ ٤٠).



إثبات أن القرآن كلام الله حقيقة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ الإيمانُ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ، مُنَزَّلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً، وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلامَ غَيْرِهِ. وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ؛ بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا. وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ؛ لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ).

الشَّرح

هذه مسألةٌ كبيرة، شريفة، سبق تقريرها، عند الحديث عن الآيات المتعلقة بالصفات الربانية، ثم الأحاديث النبوية، وتبيَّن أن أهل السُّنَّة والجماعة يثبتون صفة الكلام لله ﷻ وأنه تعالى يتكلم بكلام حقيقي؛ بحرف وصوت، يُسمعه من يشاء من خلقه؛ كما أسمع الأبوين في الجنة، وكما سمعه موسى الكليم، وكما يسمعه جبريل، وكما يسمعه عيسى يوم القيامة، وأن كلامه لا يشبه كلام المخلوقين.

قوله: (وَمِنَ الإِيمَانِ باللهِ وَكُتُبِهِ): هذه الجملة معطوفة على ما جاء

في مستهل هذه الرسالة؛ (ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف وسمى به نفسه في كتابه)؛ فأما كونه من الإيمان بالله، فلأن كلامه صفته، وأما كونه من الإيمان بكتبه، فلأن القرآن أحد الكتب؛ بل هو أعظم كتبه، وأحدثها عهدًا به، كما قال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنبياء: ٢].

قوله: (بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلامُ اللهِ)، هذه جملة قرآنية نبوية محكمة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإذا سمع المستجير القرآن بصوت القارئ فقد سمع كلام الله بنص كتاب الله. ودليلها من السُّنَّة ما رواه جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ، فَقَالَ: «**أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**»(١)، وإنما كان يبلغهم القرآن، كما أمره ربه بقوله: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]. فالقرآن كلام الله، وإضافته إلى الله من باب إضافة الصفة إلى الموصوف.

قوله: (مُنَزَّلٌ): وصف الله تعالى كتابه بالتنزيل في غير ما موضع: قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١]، وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ [الحشر: ٢١].

قوله: (غَيْرُ مَخْلُوقٍ): لأنه لا يمكن أن يكون وصف من أوصاف الله تعالى مخلوقًا؛ وأرادوا بهذه الجملة الرد على المعتزلة،

---

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٣٤)، والترمذي: رقم (٢٩٢٥)، وابن ماجه: رقم (٢٠١).

الذين زعموا أن القرآن مخلوق. والمعتزلة يستطيلون بالشبهات العقلية، والمغالطات اللفظية، لا بالحجج الشرعية؛ فيقول قائلهم: الله خالق كل شيء، والقرآن شيء؛ فنتيجة المقدمتين: القرآن مخلوق!

والجواب عن شبهتهم أن الله خالق كل شيء من المخلوقات، ولفظ (شيء) يخبر به عن الله ـ سبحانه ـ قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، وهو الخالق، والصفات تابعة للذات، والمضاف إلى الله تعالى **نوعان**:

ـ إما أن تكون عينًا قائمة بنفسها: فهي مخلوقة؛ كقولنا: عبد الله، ناقة الله، بيت الله، وعيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فهذه أعيان يُتصور استقلالها بنفسها، فإضافتها إلى الله تعالى إضافة مخلوقٍ إلى خالقه، إما لإضافة خلق، أو لإضافة تشريف.

ـ وإما ألا يُتصور قيامها بنفسها؛ بل لا بد أن تقوم بغيرها؛ كقيام الأعراض بالأعيان، فحينئذٍ تكون صفة لله؛ كقولنا: علم الله، سمع الله، قدرة الله، كلام الله، فهي صفته. والقرآن كلام الله، فهو صفته، غير مخلوق.

وإنما احتاج السلف إلى هذه العبارة التوضيحية (غير مخلوق)، لما أحدثت المعتزلة بدعة القول بخلق القرآن، وقد كان يسع المرء أن يقول: القرآن كلام الله، ويسكت. كما سيأتي في كلام أحمد.

قوله: (**مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ**): هذه الجملة مما تواتر السلف ـ رحمهم الله ـ على إطلاقها. فإن قلنا: «منه بدا»، من البُدوّ، فمعناها: ظهر؛ بمعنى: أنه خرج من الله ﷻ وإن قلنا: (**منه بدأ**) فمعناها: أن الله تكلم به ابتداءً، والمؤدى واحد.

ومعنى قول السلف: «منه بدا» أي: ظهر؛ فالمتكلم به ابتداءً هو الله ﷻ.

قوله: (وَإِلَيْهِ يَعُودُ): تحتمل أحد معنيين، لا تعارض بينهما:

- إما أن يكون العود بمعنى النسبة؛ كقولك: هذا الكتاب يعود إلى فلان، بمعنى: ينسب إليه، ويُنمى إليه.

- وإما أن يكون المراد ما ورد في بعض الآثار من أن القرآن العظيم يُرفع في آخر الزمان من السطور ومن الصدور، وذلك ـ والله أعلم ـ حينما يهجر الناس العمل به، فيُسرى به في ليلة فلا يبقى في صدور الناس، ولا في مصاحفهم شيء من القرآن، تكرمة له.

قوله: (وَأَنَّ اللهَ تَكَلَّمَ بِهِ حَقِيقَةً): هذه الجملة ردٌّ على أهل التأويل الذين يزعمون بأن الله تكلم بالقرآن مجازًا لا حقيقته! والكلام عند العرب، وغير العرب، هو الحرف والصوت معًا، لا يسمى الشخص متكلمًا حتى يصدر منه صوت مسموع. فأراد المؤلف بهذا أن يرد على مزاعم المتكلمين الزاعمين أنهم يثبتون كلام الله، ثم يلتفون على ذلك بطريقةٍ أخرى؛ فيقصرون الكلام على المعنى دون الحرف والصوت. وهؤلاء هم الصفاتية من الأشاعرة، والكلابية، والماتريدية، والسالمية، القائلين: إن كلام الله هو المعنى القديم القائم في نفسه، وأما ما سمعه جبريل، وما سمعه الأبوان في الجنة، وما سمعه موسى عند الشجرة؛ فإنما هو عبارة أو حكاية عن كلام الله.

وقول المصنف: (حقيقة) لا يقتضي أنه ككلام المخلوقين. فكما نثبت لله ذاتًا لا تشبه الذوات نثبت له صفات لا تشبه الصفات سواءً بسواء. فالقول في الصفات كالقول في الذات.

قوله: (وَأَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ هُوَ كَلامُ اللهِ حَقِيقَةً، لَا كَلامَ غَيْرِهِ): هذه الإشارة للتحقيق؛ أي: القرآن المعهود، الذي نحفظه ونكتبه ونسمعه، كلام الله حقيقة لا كلام غيره، لا كما يدعي المعتزلة، ومن سار على طريقتهم أنه كلام جبريل، أو كلام محمد، ويستدلون بقول الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾﴾ [الحاقة: ٤٠] [التكوير: ١٩]، ويقولون: إن الله أضاف الكلام تارة إلى محمد، وتارة إلى جبريل. فنقول: إن هذا الدليل عليكم لا لكم! فلو كانت الإضافة إضافة كلام لم يصح أن يضاف إلى متكلِّمَين مختلفَين، وإنما هي إضافة تبليغ، ولهذا وصف كلًّا منهما بوصف الرسالة، لبيان أنه ناقل وحسب. ولا شك أن جبريل سمعه من ربِّ العالمين، وأن نبيَّنا ﷺ سمعه من جبريل عليه السلام، وأن الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ سمعوه من النبي ﷺ. قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٤].

قوله: (وَلا يَجُوزُ إِطْلاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّهُ حِكَايَةٌ عَنْ كَلَامِ اللهِ، أَوْ عِبَارَةٌ): **في هذا إشارة إلى مذهبين شهيرين**:

ـ **مذهب الكُلابية**: المنسوبين إلى عبد الله بن سعيد بن كلاب[1] رحمه الله وكان من المتكلمين القدامى الذين ينافحون عن السُّنَّة، ويجادلون المعتزلة، لكنه لم يتقن طريقة السلف تمامًا، مع تعظيمه للأئمة المتقدمين. خاض في علم الكلام على طريقة المتكلمين، فأصاب

(١) عبد الله بن سعيد بن كلاب: قال عنه الذهبي: (رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أبو محمد، عبد الله بن سعيد بن كلاب القطان البصري، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم. والرجل أقرب المتكلمين إلى السُّنَّة؛ بل هو في مناظريهم). سير أعلام النبلاء: (١١/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

وأخطأ؛ فجاء مذهبه هجينًا بين السُّنَّة المحضة، وبين مذهب المعتزلة. فمذهب الكُلابية أن كلام الله، ومنه القرآن: هو المعنى القديم القائم في نفسه، والحروف والأصوات مخلوقة، وهي حكاية عنه.

ـ **مذهب الأشاعرة**: المنسوبين إلى أبي الحسن الأشعري(١) رَحِمَهُ اللَّهُ وكان على مذهب المعتزلة أربعين سنة، ثم تحول عنهم إلى طريقة السلف، وانتمى إلى الإمام أحمد بن حنبل. غير أنه بقي عليه آثار كلامية، وشبهات اعتزالية. وكثيرًا ما يوافق الأشعري ابن كُلاب لكونه متكلمًا. ومذهب الأشاعرة أن كلام الله: هو المعنى القديم القائم في نفسه، والحروف والأصوات مخلوقة، وهي عبارة عنه.

والحقيقة أنه لا فرق بين المقالتين! فإن المؤدى واحد، والخلاف لفظي. فهم متفقون أن الحروف والأصوات المسموعة ليست كلام الله، وأن كلام الله هو المعنى النفسي القديم منذ الأزل. فإذا قيل لهم: ما الذي سمعه الأبوان في الجنة حين ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: ٢٢]، قالوا: هذه أصوات خلقها الله في جو الجنة لتعبر، أو لتحكي، الكلام القائم في

(١) أبو الحسن الأشعري: قال عنه الذهبي: (العلامة إمام المتكلمين، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى ابن أمير البصرة بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله ﷺ أبي موسى عبد الله بن قيس بن حضار الأشعري اليماني البصري. مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: بل ولد سنة سبعين. وأخذ عن: أبي خليفة الجمحي، وأبي على الجبائي، وزكريا الساجي، وسهل بن نوح وطبقتهم. وكان عجبًا في الذكاء، وقوة الفهم. ولما برع في معرفة الاعتزال كرهه وتبرأ منه وصعد للناس، فتاب إلى الله تعالى منه، ثم أخذ يرد على المعتزلة، ويهتك عوارهم... قلت: مات ببغداد سنة أربع وعشرين وثلاث مئة... ويقال: بقي إلى سنة ثلاثين وثلاث مئة)، سير أعلام النبلاء (١٥/ ٨٥).

نفسه، وليست كلام الله. ولو قيل لهم: ما الذي سمعه موسى عند الشجرة: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: ٣٠]؟ قالوا: هذه حروف وأصوات خلقها الله في الشجرة لتعبر، أو لتحكي، الكلام النفسي القائم فيه سبحانه!

ووالله لو حلف حالف بين الركن والمقام أن هذا ما دار في خَلَد أحدٍ من الصحابة ما حنث؛ فإن هذا تكلف وتعسف، اضطرهم إليه ما استصحبوه من المقدمات الفاسدة، وهو اعتقادهم بأن مقتضى نفي حلول الحوادث عن الله يقتضي إنكار الصفات الفعلية، والحقيقة أن ربنا سبحانه لم يزل فعّالًا، ولم يزل متكلمًا؛ فجنس الكلام، وجنس الفعل ذاتي، وآحاده وأفراده متجددة؛ فأهل السُّنَّة والجماعة يقولون: كلام الله قديم النوع حادث الآحاد، فلم يزل سبحانه وتعالى متكلمًا؛ لأنه لم يزل فعالًا، وفعله سبحانه يكون بأن يقول للشيء كن فيكون.

قوله: (**بَلْ إِذَا قَرَأَهُ النَّاسُ أَوْ كَتَبُوهُ فِي الْمَصَاحِفِ؛ لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللهِ تَعَالَى حَقِيقَةً**): رفع المصنف رحمه الله إشكالًا يطرأ على بعض الناس؛ فيتوهم أن كون أفعال العباد من قراءة، وكتابة، مخلوقة يقتضي أن يكون المقروء والمكتوب كذلك! فلا بد من التفريق بين القراءة والمقروء، والكتابة والمكتوب، والسماع والمسموع، والحفظ والمحفوظ. فالقراءة فعل العبد، والمقروء كلام الرب، والكتابة فعل العبد، والمكتوب كلام الرب، والسماع فعل العبد، والمسموع كلام الرب، والحفظ فعل العبد، والمحفوظ كلام الرب. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]؛ فالمسموع كلام الله، وتحريك العبد شفتيه ولسانه مخلوق. وقال: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]؛ فالمحفوظ في الصدور كلام الله.

كما أن الورق والجلد والحبر مخلوقات قطعًا، لكن المضمون والمحتوى كلام الله.

قوله: (**فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ حَقِيقَةً إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبْتَدِئًا، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغًا مُؤَدِّيًا**): مثال ذلك: لو قام أحد فأنشد:

يَا دَارَ عَبْلَةَ بِالْجِوَاءِ تَكَلَّمِي   وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَاسْلَمِي

فقيل: شعر من هذا؟ لقلنا: شعر عنترة، ولم ننسبه للمنشد؛ لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مبتدئًا لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

ولو اختطب أحدهم فقال: أيها الناس من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت. ليل داج، وسماء ذات أبراج. فقيل: خطبة من هذه؟ لقلنا: خطبة قس بن ساعدة الإيادي، ولم ننسبها إلى من ألقاها؛ لأن الكلام إنما يُضاف إلى من قاله مبتدئًا، لا إلى من قاله مبلغًا مؤديًا.

فإضافة القرآن حقيقة إلى من قاله مبتدئًا، وهو الله، لا إلى من قاله مبلغًا ومؤديًا؛ كجبريل ومحمد عليهما السلام.

قوله: (**وَهُوَ كَلامُ اللهِ؛ حُرُوفُهُ، ومَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلامُ اللهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِيَ دُونَ الْحُرُوفِ**): لأن الكلام مجموع الأمرين؛ اللفظ والمعنى، ولا يسمى ما يقوم في النفس كلامًا أو قولًا إلا مقيدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [المجادلة: ٨].

وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله على «الواقفة»، في هذه المسألة، القائلين: (لا نقول مخلوق، ولا غير مخلوق)! لأن هذه القضية من القطعيات التي لا يجوز التوقف فيها؛ بل يجب القطع فيها، كما لو توقف إنسان في مسألة وجود الملائكة! لم يسعه ذلك؛ بل يُقال هذا كفر. فكذلك هذه المسألة لا يجوز التوقف فيها، وليس من الورع في شيء. فلذلك ذم الواقفة.

كما أنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنكر على اللفظية الذين يقولون: (لفظي بالقرآن مخلوق). فقال كلمة مشهورة: «من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال لفظي بالقرآن غير مخلوق فهو مبتدع»؛ لأن كلمة (لفظ) موهمة، تحتمل أحد معنيين: الملفوظ: وهو كلام الرب، والتلفظ: وهو فعل العبد. فإذا قال لفظي بالقرآن مخلوق أوهم موافقة الجهمية في أن هذا الملفوظ مخلوق. وإذا قال: «لفظي بالقرآن غير مخلوق» فهو مبتدع؛ لأن هذا تعبير حادث موهم؛ فقد يتوهم متوهم أن حركة اللسان والشفتين، أو أن مادة المصحف من حبر وورق وجلد غير مخلوقة.

والخلاصة: أنه قد ضلَّ في باب القرآن طوائف من أهل القبلة:

- **الخَلقية**: وهم المعتزلة القائلون بخلق القرآن صراحة.

- **النفسية**: وهم الكلابية والأشاعرة والماتريدية، ومن وافقهم من الصفاتية، القائلون بأن الكلام نفساني، أو معنى قائم بالنفس، غير مخلوق، والحروف والأصوات مخلوقة.

وقد تقدم الرد على هاتين الطائفتين في باب إثبات الكلام لله تعالى.

- **اللفظية**: القائلون: (لفظي بالقرآن مخلوق).

- **الواقفة**: القائلون: (لا أقول مخلوق ولا غير مخلوق).

نصوص الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الرد على اللفظية والواقفة:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (وَمن قَالَ بِاللَّفْظِ وَغَيره، وَمن وقف فِيهِ فَقَالَ: لَا أَدْرِي مَخْلُوق أَو لَيْسَ بمخلوق، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَام الله، فَهَذَا صَاحب بِدعَة، مثل من قَالَ هُوَ مَخْلُوق. وَإِنَّمَا هُوَ كَلَام الله لَيْسَ بمخلوق)[1].

(١) أصول السُّنَّة لأحمد بن حنبل: (ص٢٢).

وقال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ اللَّهُ: (حَدَّثَنَا ابْنُ مَخْلَدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ يَسْأَلُ: هَلْ لَهُمْ رُخْصَةٌ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللهِ، ثُمَّ يَسْكُتُ؟ فَقَالَ: وَلَمْ يَسْكُتْ؟ لَوْلَا مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ كَانَ يَسَعُهُ السُّكُوتُ، وَلَكِنْ حَيْثُ تَكَلَّمُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا، لِأَيِّ شَيْءٍ لَا يَتَكَلَّمُونَ؟ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: مَعْنَى قَوْلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى يَقُولُ: لَمْ يَخْتَلِفْ أَهْلُ الْإِيمَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ تَعَالَى؟ فَلَمَّا جَاءَ جَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ فَأَحْدَثَ الْكُفْرَ بِقَوْلِهِ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ لَمْ يَسَعِ الْعُلَمَاءَ إِلَّا الرَّدُّ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللهِ غَيْرَ مَخْلُوقٍ بِلَا شَكٍّ، وَلَا تَوَقُّفٍ فِيهِ، فَمَنْ لَمْ يَقُلْ غَيْرَ مَخْلُوقٍ سُمِّيَ وَاقِفِيًّا، شَاكًّا فِي دِينِهِ)(١).

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: (سَمِعْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَسُئِلَ عَنِ الْوَاقِفَةِ؟ فَقَالَ أَبِي: مَنْ كَانَ يُخَاصِمُ وَيُعْرَفُ بِالْكَلَامِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ وَمَنْ لَمْ يُعْرَفْ بِالْكَلَامِ يُجَانَبْ حَتَّى يَرْجِعَ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ يَسْأَلْ)(٢).

وقال عبد الله ابن الإمام أحمد، رحمهما الله: (سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: مَنْ قَالَ لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ.

سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ وَسُئِلَ عَنِ اللَّفْظِيَّةِ؟ فَقَالَ: هُمْ جَهْمِيَّةٌ، وَهُوَ قَوْلُ جَهْمٍ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُجَالِسُوهُمْ.

سَمِعْتُ أَبِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: «كُلُّ مَنْ يَقْصِدُ إِلَى الْقُرْآنِ بِلَفْظٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ يُرِيدُ بِهِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ».

(١) الشريعة للآجري: (١/ ٥٢٧).
(٢) السُّنَّة لعبد الله بن أحمد: (١/ ١٧٩).

سُئِلَ أَبِي، وَأَنَا أَسْمَعُ، عَنِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالْوَاقِفَةِ، فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْهُمُ جَاهِلًا فَلْيَسْأَلْ وَلْيَتَعَلَّمْ».

سُئِلَ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَنَا أَسْمَعُ، عَنِ اللَّفْظِيَّةِ، وَالْوَاقِفَةِ، فَقَالَ: «مَنْ كَانَ مِنْهُمْ يُحْسِنُ الْكَلَامَ فَهُوَ جَهْمِيٌّ»، وَقَالَ مَرَّةً: هُمْ شَرٌّ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: هُمْ جَهْمِيَّةٌ)(١).

۞ ۞ ۞

(١) السُّنَّة لعبد الله بن أحمد: (١/ ١٦٥).

إثبات رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة ومواضع الرؤية

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ: الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ، وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ؛ كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى).

الشَّرح

قوله: (وَقَد دَّخَلَ أَيْضًا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ مِنَ الإِيمَانِ بِهِ وَبِكُتُبِهِ وَبِمَلَائِكَتِهِ وَبِرُسُلِهِ): **علَّق المصنف مسألة الرؤية بأربعة أصول من أصول الإيمان:**

- **الإيمان بالله**: من حيث تجليه للمؤمنين يوم القيامة، وإمكان رؤيته.
- **الإيمان بالكتب**: من حيث ورود الخبر بها في القرآن العظيم.
- **الإيمان بالملائكة**: من حيث أن جبريل نزل به على محمد عليه السلام.
- **الإيمان بالرسل**: من حيث إخبار النبي ﷺ بأحاديث الرؤية.

قوله: (الإِيمَانُ بِأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَيَانًا بِأَبْصَارِهِمْ): من المعاينة بالأبصار؛ أي: أنها رؤية حقيقية، لا تخيلية؛ وقد ورد هذا

اللفظ في الصحيح، من حديث جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا**»[(١)].

قوله: (**كَمَا يَرَوْنَ الشَّمْسَ صَحْوًا لَيْسَ بِهَا سَحَابٌ**): بهذا نطق من لا ينطق عن الهوى: «**فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ**»، قالوا: لا، قال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ**»[(٢)].

قوله: (**وَكَمَا يَرَوْنَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا يُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ**): كما تقدم في الأحاديث. وليلة البدر: ليلة أربعة عشر، أو خمسة عشر؛ إذا تمت استدارته، واكتمل نوره؛ فلا يقع في رؤيته ضيم؛ أي: مذلة، ولا تضام؛ أي: ازدحام؛ فهذه التأكيدات النبوية، مضمومة إلى الآيات القرآنية، لا تبقي أدنى شك لدى مؤمن بأن هذه الرؤية حق، بفضل الله ومنه، للمؤمنين.

قوله: (**يَرَوْنَهُ سُبْحَانَهُ وَهُمْ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ**): عرصات: جمع عرصة، وهي مواقف الحساب، وهي الأرض المبدلة التي يُبعث عليها الناس يوم القيامة؛ وقد جاء ذلك مفصلًا في حديث أبي هريرة ﷺ، (أَنَّ النَّاسَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ: «**هَلْ تُمَارُونَ فِي القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**فَهَلْ تُمَارُونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟**»، قَالُوا: لَا، قَالَ: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ كَذَلِكَ، يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: مَنْ كَانَ يَعْبُدُ شَيْئًا فَلْيَتَّبِعْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الشَّمْسَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ القَمَرَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَّبِعُ الطَّوَاغِيتَ، وَتَبْقَى هَذِهِ الأُمَّةُ فِيهَا مُنَافِقُوهَا، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ،**

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٣٥).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٨٠٦)، ومسلم: رقم (١٨٢).

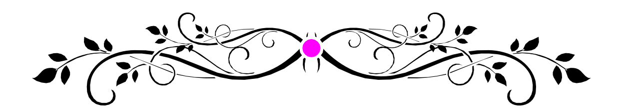
فَيَقُولُونَ: هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا، فَإِذَا جَاءَ رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ، فَيَأْتِيهِمُ اللهُ فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا»(١).

قوله: (ثُمَّ يَرَوْنَهُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ): كما قال تعالى: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين: ٢٣، ٣٥]، وهو أعظم نعيم يناله أهل الجنة.

قوله: (كَمَا يَشَاءُ اللهُ تَعَالَى): على كيفية يعلمها سبحانه، وقد تقدم أن أهل البدع؛ من الجهمية، والمعتزلة، ومن وافقهم؛ من الإمامية، والزيدية، والإباضية، أنكروا الرؤية، وتقدم ذكر شبهاتهم، والرد عليهم.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٨٠٦).



الإيمان باليوم الآخر
الإيمان بفتنة القبر ونعيمه وعذابه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ. فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلَامُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ. ثُمَّ بَعْدَ هّذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ).

الشَّرح

هذا شروعٌ من المؤلف في بيان ركنٍ عظيم من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالمعاد؛ فما من رسالةٍ، من الرسالات السماوية، إلا وتضمنت ثلاثة أمور: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، والدليل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]؛ فلا يمكن أن تخلو رسالةٌ من عند الله ﷻ من ذكر المعاد.

والإيمان باليوم الآخر من أعظم أصول الإيمان، وإنكاره كفر صراح؛ قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [التغابن: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]، وقد كان مشركو العرب يستبعدون ذلك، وينكرونه، ويقول قائلهم: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣﴾ [ق: ٣]، ويضربون لذلك الأمثال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨]، وينسبون الهلاك إلى الدهر، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: ٢٤]، ويقولون: أرحامٌ تدفع، وأرضٌ تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر.

والناس في مسألة «المبدأ والمعاد» على ثلاثة أقسام:

- **أهل الملل السماوية**: الذين ينتمون إلى شريعةٍ من عند الله، وينتسبون إلى نبي من الأنبياء، يثبتون المبدأ والمعاد؛ يقرون بأن الله خالقهم، ويقرون بأنه يبعثهم، ويجازيهم على أعمالهم؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

- **الفلاسفة الدهرية**: الذين يقولون بقدم العالم وخلوده، ينكرون المبدأ والمعاد.

- **مشركو العرب**: يثبتون المبدأ؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾ [الزخرف: ٨٧]، لكنهم ينكرون المعاد؛ كما قالَ الله عنهم، في ثلاثة مواضع: ﴿أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ۝١٦﴾ [المؤمنون: ٨٢]، [الصافات: ١٦]، [الواقعة: ٤٧]، وفي رابع: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ۝٥٣﴾ [الصافات: ٥٣].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قَالَ: (جَاءَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، بِعَظْمٍ حَائِلٍ فَفَتَّهُ فقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَيَبْعَثُ اللهُ هَذَا بَعْدَ مَا أَرَمَ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، يَبْعَثُ اللهُ هَذَا يُمِيتُكَ، ثُمَّ يُحْيِيكَ، ثُمَّ يُدْخِلُكَ نَارَ جَهَنَّمَ**» قَالَ: فَنَزَلَتِ الآيَاتُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧]، إِلَى آخِرِ السُّورَةِ)[(١)].

وقد قرن الله الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به، في أكثر من عشرين موضعًا في القرآن، ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١]؛ فالإيمان باليوم الآخر من أعظم أصول الإيمان؛ لا يتم الإيمان إلا به.

والإيمان باليوم الآخر يتضمن أربعة أمور:

أولها: الإيمان بما يكون في القبر.

الثاني: الإيمان بالبعث.

الثالث: الإيمان بالحساب.

الرابع: الإيمان بالجزاء.

قوله: (وَمِنَ الإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الآخِرِ): (من) هنا للتبعيض، ووصف بالآخر لتأخره عن الدنيا، وله أسماء عديدة؛ ذكر القرطبي أكثر من خمسين اسمًا، وعدَّ ابن كثير ثمانين اسمًا؛ فمن أسماء اليوم الآخر: يوم

---

(١) أخرجه الحاكم: رقم (٣٦٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

القيامة، ويوم التغابن، ويوم الدين، الصاخة، والواقعة، والقارعة، والآزفة، وهذه الأسماء أعلامٌ، وأوصاف؛ كما نقول في أسماء ربنا ﷻ وأسماء نبيّه ﷺ، وأسماء القرآن، أنها أعلام، وأوصاف؛ فهي أعلام على ذلك اليوم، وأوصاف له؛ فالصاخة: التي تصخ الآذان، والقارعة: التي تقرع القلوب، والآزفة: قريبة الوقوع. وهكذا؛ فأسماء اليوم الآخر دالة على معانٍ معينة؛ ولذلك كثرت أسماؤه جدًّا.

قوله: (**الإِيمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ**): هذا ضابط الإيمان باليوم الآخر؛ فابتداء أموره من حين مفارقة الروح للبدن، وذلك يتضمن ما يراه المحتضر من تنزل ملائكة الرحمة، أو ملائكة العذاب، حين قبض روحه؛ قال تعالى عن المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، وقال عن الكافرين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠].

قوله: (**فَيُؤْمِنُونَ بِفِتْنَةِ الْقَبْرِ، وَبِعَذَابِ الْقَبْرِ وَنَعِيمِهِ**): **يكون في القبر أمران:**

١ ـ **فتنة القبر**: والمراد **بالفتنة لغةً**: الاختبار؛ من قولهم: «فتن الصائغ الذهب»، إذا أدخل الذهب المشوب في أتُّون النار فتساقط ما شابهه من عوالق؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت: ٣]. **واصطلاحًا**: سؤال الملكين للميت عن ثلاث مسائل: عن ربه، ودينه، ونبيّه؛ فسُميت فتنة القبر؛ لأنها تختبر إيمان الميت، وتستخرج خبيئة قلبه؛ فيتبين أمؤمن هو، أم مرتاب وشاك؟ حتى قال النبي ﷺ: «**أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ مِثْلَ أَوْ قَرِيبًا**

مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّالِ»(١). وتأتي الفتنة بمعنى: العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات: ١٤]. وعن عائشة قالت: (دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدِي امْرَأَةٌ مِنَ الْيَهُودِ، وَهِيَ تَقُولُ: هَلْ شَعَرْتِ أَنَّكُمْ تُفْتَنُونَ فِي الْقُبُورِ؟ قَالَتْ: فَارْتَاعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَقَالَ: «**إِنَّمَا تُفْتَنُ يَهُودُ**»)(٢).

قوله: (**فَأَمَّا الْفِتْنَةُ؛ فَإِنَّ النَّاسَ يُمْتَحَنُونَ فِي قُبُورِهِمْ، فَيُقَالُ للرَّجُلِ: مَن رَّبُكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَن نَّبِيُّك؟ فيُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ، فَيَقُولُ الْمؤْمِنُ: رَبِّيَ اللهُ، وَالإِسْلاَمُ دِينِي، وَمُحَمَّدٌ ﷺ نَبِيِّي. وَأَمَّا الْمُرْتَابُ؛ فَيَقُولُ: هَاه هَاه؛ لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ، فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ**): هذه صفة الفتنة؛ قال شيخ الإسلام: (وَقَدْ تَوَاتَرَتْ الْأَحَادِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فِي هَذِهِ الْفِتْنَةِ؛ مِنْ حَدِيثِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، وَأَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ، وَغَيْرِهِمْ ﭫ وَهِيَ عَامَّةٌ لِلْمُكَلَّفِينَ؛ إِلَّا النَّبِيِّينَ؛ فَقَدْ اُخْتُلِفَ فِيهِمْ، وَكَذَلِكَ اُخْتُلِفَ فِي غَيْرِ الْمُكَلَّفِينَ؛ كَالصِّبْيَانِ، وَالْمَجَانِينِ؛ فَقِيلَ: لَا يُفْتَنُونَ؛ لِأَنَّ الْمِحْنَةَ إنَّمَا تَكُونُ لِلْمُكَلَّفِينَ؛ وَهَذَا قَوْلُ الْقَاضِي، وَابْنِ عَقِيلٍ؛ وَعَلَى هَذَا، فَلَا يُلَقَّنُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقِيلَ: يُلَقَّنُونَ؛ وَيُفْتَنُونَ، أَيْضًا، وَهَذَا قَوْلُ أَبِي حَكِيم، وَأَبِي الْحَسَنِ بْنِ عبدوس، وَنَقَلَهُ عَنْ أَصْحَابِهِ، وَهُوَ مُطَابِقٌ لِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ: إنَّهُمْ يُكَلَّفُونَ يَوْمَ الْقِيَامَة؛ كَمَا هُوَ قَوْلُ أَكْثَرِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَهْلِ السُّنَّةِ؛ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، وَالْكَلَامِ، وَهُوَ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٠٥٣)، ومسلم: رقم (٩٠٥).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٥٨٤).

الَّذِي ذَكَرَهُ أَبُو الْحَسَنِ الْأَشْعَرِيُّ ﷺ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَاخْتَارَهُ، وَهُوَ مُقْتَضَى نُصُوصِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ)[١].

٢ ـ **عذاب القبر أو نعيمه**: وقد جاء وصف ما يكون في القبر مفصلًا، مبسوطًا في حديث البراء بن عازب المشهور، وإسناده جيد، وهو من أتم الأحاديث سياقًا لما يكون في القبر.

فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُؤوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: («**اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا**»، ثُمَّ قَالَ: «**إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا، وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ، مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ، حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ**». قَالَ: «**فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا، فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ، وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ**» قَالَ: «**فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ، يَعْنِي: بِهَا، عَلَى مَلَإٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى**

(١) مجموع الفتاوى: (٤/ ٢٥٧).

السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَهُ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى». قَالَ: «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ». قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا، وَطِيبِهَا، وَيُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ». قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ، حَسَنُ الثِّيَابِ، طَيِّبُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي». قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ، نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سُودُ الْوُجُوهِ، مَعَهُمُ الْمُسُوحُ، فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ، حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ، اخْرُجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللهِ وَغَضَبٍ». قَالَ: «فَتُفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ، فَيَنْتَزِعُهَا كَمَا يُنْتَزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُولِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا، فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ

يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ، فَلَا يُفْتَحُ لَهُ»، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فَيَقُولُ اللهُ ﷻ: «اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سِجِّينٍ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى، فَتُطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١] «فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، قَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوؤُكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالشَّرِّ، فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تُقِمِ السَّاعَةَ»)(١).

وعَنْ أَنَسٍ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: («الْعَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتُوُلِّيَ وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (١٨٥٣٤)، وأخرجه بتمامه ومختصرًا: أبو داود: رقم (٤٧٥٣)، وابن أبي شيبة: رقم (١٢٠٣٢، ١٢٠٥٩)، وهناد في «الزهد»: رقم (٣٣٩)، والمروزي في زوائده على «الزهد» لابن المبارك: رقم (١٢١٩)، والدارمي في «الرد على الجهمية»: رقم (١١٠)، والطبري في «التفسير»: (٢٠٧٦٣)، وفي «تهذيب الآثار»: (٧٢٠)، وابن خزيمة في «التوحيد»: (ص١١٩). وإسناده صحيح.

عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الكَافِرُ ـ أَوِ المُنَافِقُ ـ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ»(١).

وفي رواية مسلم، قال قتادة بن دعامة: (وَذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا، وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا، إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)(٢).

وهذه أخبار صحيحة لأمور غيبية؛ لا يجوز أن تُعَارض بمحض العقول، والقياس على أحوال الدنيا؛ فلو قال قائل: كيف يقعد الميت، واللحد ضيق لا يتسع للقعود؟ قيل: أمور البرزخ لا تُقاس على أمور الدنيا؛ فإن الدور الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار الآخرة، ولكل دار أحكامها؛ فليس صوابًا أن يجري الإنسان أحكام دارٍ على دارٍ أخرى، والواجب على المؤمن إذا سمع شيئًا مما قاله الله ورسوله ﷺ، أن يتلقاه بالقبول، ولا يقابله بالاعتراض بالأمور المعهودة في الدنيا.

وهذه المسائل الثلاث: من ربك، وما دينك، ومن نبيّك، هي الأصول التي عليها مدار الإيمان، وإليها ترجع بقية أصول الإيمان، وعلى أساسها صنّف الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رسالته الشهيرة «الأصول الثلاثة»، أو «ثلاثة الأصول». وهي: التوحيد، والنبوة، والمعاد.

فأما المؤمن فيقول: ربي الله، والإسلام ديني، ونبيي محمد؛

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٣٣٨)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٨٧٠).

(٢) أخرجها مسلم: رقم (٢٨٧٠).

يجيب أجوبة مباشرة صائبة؛ لأنها يقينيات؛ اطمأن بها قلبه في الدنيا؛ فاعتقد أن الله ربه؛ خالقه ومالكه ومدبر أموره، وأنه سبحانه المستحق للعبادة دون ما سواه، وأنه متصفٌ بصفات الكمال، ونعوت الجلال، وأن دينه الإسلام؛ الذي هو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وأن نبيَّه محمد ﷺ، المبلغ عن ربه ـ سبحانه ـ، الواجب تصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وقد التزم بهذه الأصول، وسار عليها، ولزم الصراط المستقيم، فجرى بها لسانه في الامتحان؛ فما أسعده! وما أهنأه! بالبشارات التي يلقاها في قبره.

والثبات الذي كان عليه المؤمن في الدنيا أثمر له الثبات عند السؤال في البرزخ؛ فلما كانت قلوبهم مطمئنة بالإيمان في الدنيا، رافقهم ذلك في البرزخ، فثبت الله قلوبهم وسدد جوابهم، وقد استشهد النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأما المرتاب فيقول: (هاه هاه): وهي كلمة اندهاش ومفاجأة. (لَا أَدْرِي، سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ شَيْئًا فَقُلْتُهُ): وهذا يدل على أنه قد سمع جواب هذه المسائل في الدنيا، لكنها لم تسعفه وقت الحاجة؛ لأنها لم تتجاوز صماخي أذنيه، وإذا نطق بها لم تتجاوز تراقيَه، ولم تتجذَّر في قلبه، ولم تصبح يقينًا يجد بشاشته؛ بل كان مشغولًا بدنياه، لا يأبه بها، ولا يرفع رأسًا بعلمٍ نافع، ولا بعملٍ صالح، فلما سئل عنها لم يُحر جوابًا؛ كان إمَّعة، يردد ما يقول الناس دون وعي، كما قيل: «يا له من ببغاء عقله في أذنيه».

فما أشقاه بما يقع له في قبره من العقوبة التي تنذر بما هو أشد

منها، كما قال: (فَيُضْرَبُ بِمِرْزَبَةٍ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ إِلَّا الإِنْسَانَ وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ؛ لَصُعِقَ) والمرزبة: القطعة من الحديد، يتخذ لها مقبض تستعمل في الدق، والقرع، وما أشبه، والصعق: الغشية من أمر مهول.

ففتنة القبر تدل على ضرورة تحقيق الإيمان، وأن يكون الإنسان على بينة من دينه، فيعرف ماذا يعتقد، وماذا يقتضي علمه بالله، وبدينه، حتى لا يخونه ذلك في أحرج المواقف، وأضيق المضائق. فيجب الإيمان بما يكون في القبر، وقد اتفق المسلمون على إثبات سؤال الملكين، وإثبات عذاب القبر ونعيمه، ولم ينكر ذلك إلا الزائغون.

قوله: (ثُمَّ بَعْدَ هّذِهِ الْفِتْنَةِ إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابٌ): أفادنا رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه يعقب هذه المساءلة آثارها؛ وهو إما نعيم وإما عذاب، **والناس في هذا ثلاثة أصناف**:

- **الموحدون**: الذين سلموا من الكبائر، فلا يزالون في نعيم متصل إلى أن تقوم الساعة.

- **الكافرون**: فيكونون في عذابٍ متصل إلى أن تقوم الساعة.

- **عصاة الموحدين**: ممن استحق عقوبةً برزخية فهؤلاء يعذبون بعذابٍ مؤقت غير دائم، بسبب ما فرط منهم، ويكون ذلك مجزئًا عن عذاب النار. وقد عدَّ العلماء من المكفرات ما يقع لعصاة الموحدين في القبور. ودليل هذا النوع ما رواه البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ مر بقبرين فقال: «**إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، وَإِنَّهُ لَكَبِيرٌ**»، ما يعذبان في كبير؛ أي: في أمر يشق عليهما تركه، لكنه في حقيقته كبيرٌ عند الله، «**أَمَّا هَذَا: فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ، وَأَمَّا هَذَا: فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ**»، كان أحدهما لا يستبرئ من البول؛

كالبهيمة، إذا بال لوَّث فخذيه وثيابه؛ فهو لا يتنزه من البول، فاستحق هذه العقوبة البرزخية، وأما الآخر فكان يحب قالة السوء، والسعاية، وإثارة الضغينة؛ يأتي إلى فلان ويقول: فلان قال فيك كذا وكذا! ثم يذهب إلى الآخر فيقول: فلان قال فيك كذا وكذا! وتلك دناءة وانحطاط، وهي العضه التي ذكرها النبي ﷺ: «**أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ**»(١)، فاستحق هذه العقوبة البرزخية، ثم إن نبيَّنا ﷺ، أخذ جريدة رطبة خضراء فشقها نصفين، وغرز على كل قبر منهما شقًّا، وقال: «**لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا**»(٢).

ولا شك أن هذا من خصائصه ﷺ؛ فلا يُشرع لنا أن نغرز على قبور الناس جريدًا، ولا يُقال إن هذا من السنن التي تُتبع؛ لأنه لا سبيل لنا أن نعلم بحال المقبور، ورسولنا ﷺ، قد أعلمه ربه، وبناءً على علمه فعل ما فعل؛ بل إن فعل ذلك منّا ينطوي على تهمة للمقبور بارتكاب ما يوجب عذاب القبر، ثم إن شفاعته ﷺ، مقبولة عند الله، وليس ذلك لآحاد الناس؛ ولهذا لم يفعل هذا الفعل أحدٌ من الصحابة.

وبعض الجهلة يأتون إلى المقابر، ويضعون عليها الأوراق الخضراء والزهور وغير ذلك، والغالب أنهم يتشبهون بالنصارى، أو غيرهم من أمم الكفر؛ فهذا ليس من سنن أهل الإسلام.

والمقصود أن النبي ﷺ، أثبت في حديث عبد الله بن عمر عذابًا لبعض عصاة الموحدين، أما عذاب غيرهم من المشركين، فقد دل عليه الكتاب، والسُّنَّة؛ فمن ذلك:

- قول الله ﷻ عن آل فرعون: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٠٥٢، ٦٠٥٥)، ومسلم: رقم (٢٩٢).

وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٦]، دلت هذه الآية أن ثَمَّ عذابًا قبل دخول النار؛ وهو عذاب البرزخ. الغدو: أول النهار، والعشي: آخره؛ وهذا من أجلى وأقوى أدلة أهل السُّنَّة والجماعة على إثبات عذاب القبر.

- قول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠]؛ فدل ذلك على أن الكافرين عند قبض أرواحهم يتعرضون لضربٍ مبرح من الملائكة، وهذا مبتدأ عذاب البرزخ.

- قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٤]، قال أبو بكر الإسماعيلي رحمه الله: (بيَّن أن المعيشة الضنك قبل يوم القيامة، وفي معاينتنا اليهود والنصارى والمشركين في العيش الرغد، والرفاهية في المعيشة، ما يعلم به أنه لم يرد به ضيق الرزق في الحياة الدنيا، لوجود مشركين في سعة من أرزاقهم، وإنما أراد به بعد الموت، قبل الحشر)(١).

- قول الله ﷻ: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١]، قال ابن القيم رحمه الله: (وَقد احْتج بِهَذِهِ الْآيَة جمَاعَة مِنْهُم عبد الله بن عَبَّاس على عَذَاب الْقَبْر. وَفِي الِاحْتِجَاج بهَا شَيْء! لِأَن هَذَا عَذَاب فِي الدُّنْيَا يستدعى بِهِ رجوعهم عَن الْكفْر، وَلم يكن هَذَا مَا يخفي على حبر الْأمة وترجمان الْقُرْآن، لَكِن من فقهه فِي الْقُرْآن، ودقة فهمه فِيهِ، فهم مِنْهَا عَذَاب الْقَبْر؛ فانه سُبْحَانَهُ أخبر أَن لَهُ فيهم عذابين: أدنى وأكبر، فَأخْبر أَنه يذيقهم بعض الْأَدْنَى ليرجعوا، فَدلَّ على أَنه بقي لَهُم

(١) انظر: شرح كتاب اعتقاد أهل السُّنَّة، للمؤلف: (ص١٥٢).

من الْأَدْنَى بَقِيَّة يُعَذبُونَ بهَا بعد عَذَاب الدُّنْيَا. وَلِهَذَا قَالَ من الْعَذَاب الْأَدْنَى، وَلم يقل ولنذيقنهم الْعَذَاب الْأَدْنَى، فَتَأَمّله!)(١).

وأما من السُّنَّة فقد تضافرت أدلة كثر على إثبات ذلك، **ومنها:**

- تعليم النبي ﷺ، أمته في الصلاة الاستعاذة بالله من أربع: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ**»(٢).

- حديث عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ يَهُودِيَّةً كَانَتْ تَخْدُمُهَا، فَلَا تَصْنَعُ عَائِشَةُ إِلَيْهَا شَيْئًا مِنَ الْمَعْرُوفِ، إِلَّا قَالَتْ لَهَا الْيَهُودِيَّةُ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ، قَالَتْ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيَّ، فَقُلْتُ: (يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ لِلْقَبْرِ عَذَابٌ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «**لَا، وَعَمَّ ذَاكَ؟**» قَالَتْ: هَذِهِ الْيَهُودِيَّةُ لَا نَصْنَعُ إِلَيْهَا مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، إِلَّا قَالَتْ: وَقَاكِ اللهُ عَذَابَ الْقَبْرِ، قَالَ: «**كَذَبَتْ يَهُودُ، وَهُمْ عَلَى اللهِ** عز وجل **أَكْذَبُ، لَا عَذَابَ دُونَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»، قَالَتْ: ثُمَّ مَكَثَ بَعْدَ ذَاكَ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَمْكُثَ، فَخَرَجَ ذَاتَ يَوْمٍ نِصْفَ النَّهَارِ، مُشْتَمِلًا بِثَوْبِهِ، مُحْمَرَّةً عَيْنَاهُ، وَهُوَ يُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ: «**أَيُّهَا النَّاسُ، أَظَلَّتْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ بَكَيْتُمْ كَثِيرًا وَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا، أَيُّهَا النَّاسُ، اسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، فَإِنَّ عَذَابَ الْقَبْرِ حَقٌّ**»)(٣).

- حديث زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رضي الله عنه قَالَ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ، فِيهِ أَقْبُرٌ، وَهُوَ عَلَى بَغْلَتِهِ، فَحَادَتْ بِهِ، وَكَادَتْ أَنْ

---

(١) الروح: (ص٧٦).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٣٧٧)، ومسلم: رقم (٥٨٨).
(٣) أخرجه أحمد: رقم (٢٤٥٢٠)؛ وأصله في الصحيحين.

تُلْقِيَهُ، فَقَالَ: «**مَنْ يَعْرِفُ أَصْحَابَ هَذِهِ الْأَقْبُرِ؟**» فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَوْمٌ هَلَكُوا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَقَالَ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا، لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ عَذَابَ الْقَبْرِ**»(١)؛ أجارنا الله وإياكم! لو سمعنا أصوات المعذبين في قبورهم، لما دفن أحدٌ أحدًا من شدة الفزع! فإنها أصوات منكرة بشعة، لكن الله تعالى أسمعها نبيّه ﷺ، وسمعتها الدابة، حتى حادت به، وكادت أن تلقيه فزعًا، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، رحمهما الله، في مواضع متعددة من كتبهما، أن المسلمين في بلاد الشام إذا أصاب دوابهم وخيولهم، مرض يقال له: «المغل»، وهو انحباس ما في جوف الدابة، ساقوها إلى قبور اليهود والنصارى والنصيرية، فما هو إلا أن تسمع أصوات المعذبين، حتى تهر ما في بطونها من شدة الفزع.

فهذه أدلة صحيحة صريحة، من الكتاب، والسُّنَّة، والحسّ، على إثبات عذاب القبر، ونعيمه؛ فيجب اعتقادها.

فالقبر أول منازل الآخرة، وكان عثمان رضي الله عنه إذا قام على قبر علته صفرة ووجل، وقال: هذا مقام له ما بعده؛ وصدق رضي الله عنه؛ فإن كان قبر الإنسان روضة من رياض الجنة، فهو مقبل على روضات خير منها، وإن كان حفرة من حفر النار، فهو مسوق إلى حفر أفظع منها.

والعذاب المؤقت في القبر، الذي يكون لبعض عصاة الموحدين، قد يذهبه الله بدعوة صالحة، أو بنفقة أجراها الإنسان قبل مماته، أو برحمة أرحم الراحمين. ولهذا كان نبيُّنا ﷺ يدعو لأهل القبور، وربما خرج ليلًا فدعا لهم. عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ كُلَّمَا

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٨٦٧)، وأحمد: رقم (٢١٦٥٨)، واللفظ له.

كَانَ لَيْلَتُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ - يَخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إِلَى الْبَقِيعِ، فَيَقُولُ: **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَأَتَاكُمْ مَا تُوعَدُونَ غَدًا، مُؤَجَّلُونَ، وَإِنَّا، إِنْ شَاءَ اللهُ، بِكُمْ لَاحِقُونَ، اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِأَهْلِ بَقِيعِ الْغَرْقَدِ»**(١).

وينبغي للمؤمنين أن يتعاهدوا إخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان، فيزوروا قبورهم، ويدعوا لهم، وكثيرٌ من الناس قد يتبع الجنائز، ويدخل المقبرة، ويذهل عن الدعوة لأهل القبور؛ فيشرع للمسلم، إذا دخل المقبرة، الدعاء لإخوانه بما ورد؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى الْمَقْبُرَةَ، فَقَالَ: **«السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ»**(٢)، **«اللَّهُمَّ لَا تَحْرِمْنَا أَجْرَهُمْ، وَلَا تَفْتِنَّا بَعْدَهُمْ»**(٣).



---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٩٧٤).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٩).
(٣) أخرجه أحمد: رقم (٢٤٨٠١)، وابن ماجه: رقم (١٥٤٦).

البعث والقيامة الكبرى

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(إِلَى أَنْ تَقُومَ الْقِيَامَةُ الْكُبْرى، فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ، وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا).

الشَّرْح

قوله: (تَقُومَ الْقِيَامَةُ): سميت القيامة بهذا الاسم **لأسباب**:

ـ **قيل**: لقيام الناس من قبورهم، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: ٦].

ـ **وقيل**: لقيام العدل، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ـ **وقيل**: لقيام الأشهاد، ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ٥١﴾ [غافر: ٥١].

فهذه ثلاثة أسباب لتسمية القيامة بهذا الاسم، ولا مانع من اجتماعها لعدم التعارض.

قوله: (الْكُبْرى): والله إنها لكبرى! أمرٌ مهول! أمرٌ عظيم! حدثٌ جلل! سبحان الله! هذه الدنيا التي انقضت وطويت صفحاتها، ستعقبها دار أخرى؛ يفنى كل من عليها، كما قال ربنا ﷻ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦﴾

[الرحمن: ٢٦]، وقال نبيُّنا ﷺ: «**كَيْفَ أَنْعَمُ وَصَاحِبُ القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤْمَرُ بِالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ**»(١).

ثم يطوي الله السماوات بيمينه، ويقبض الأرضين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]، وفي المتفق عليه، من حديث أبي هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَقْبِضُ اللهُ الأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمٰوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ مُلُوكُ الأَرْضِ**»(٢)، وفي صحيح مسلم، عن عَبْدِ اللهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَطْوِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ. ثُمَّ يَطْوِي الْأَرَضِينَ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»(٣).

يجري الله تغييرات كونية؛ فلكية، وأرضية؛ فتُبدل الأرض غير الأرض والسماوات، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ ۖ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، فتمد هذه الأرض الكُريَّة مدَّ الأديم، فتصبح مبسوطة ممهدة مستوية، لم يُسفك عليها دم، ليس فيها معلم لأحد؛ لا

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢٤٣١)، واللفظ له، وأحمد: رقم (١١٠٣٩)، والحاكم في المستدرك: رقم (٨٦٧٨).

قال الترمذي: هذا حديث حسن روي من غير وجه. وقال الحاكم: ولولا أن أبا يحيى التيمي على الطريق لحكمت للحديث بالصحة، على شرط الشيخين رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٨١٢)، ومسلم: رقم (٢٧٨٧).

(٣) أخرجه مسلم: رقم (٢٧٨٨).

جبل يُرتقى، ولا وادٍ يُهبط، ولا كهف يُكِنُّ، قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾ [طه: ١٠٥ - ١٠٧].

هكذا تبدو الأرض، قبل أن ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، فإذا نُفخ في الصور حصلت القيامة الكبرى، وقام الناس من قبورهم لرب العالمين، في مشهد مهيب، وموكب عجيب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال: ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: ٦ - ٨]، يمشون، ويجرون، ويلهثون، أمامهم من يقودهم، وخلفهم من يسوقهم، موجهون إلى أرض المحشر، في مشهد كمشهد الجراد حين يغطي مساحات شاسعة من الأرض! هكذا الناس يوم القيامة يبعثون من قبورهم على اختلاف أحجامهم وأطوالهم وألوانهم؛ منهم من كأبينا آدم ستون ذراعًا في السماء، ومنهم من هم في طولنا؛ فمهما سرّحت الخيال فلن تبلغ تصور الحال، فالأمر جلل؛ لا يمكن إدراك تفاصيله، لكنه مروع مخيف. لكن الله يُنزل سكينته على المؤمنين ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠]، أما الكافرون، فقد وصف الله حالهم وحكى مقالهم: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥١، ٥٢]، والنسلان: هو الإسراع في المشي؛ فهم يتساءلون بدهشة حينما يفيقون ويقومون من قبورهم، فإما أن يجيبهم المؤمنون، أو تجيبهم الملائكة تبكيتًا لهم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٢، ٥٣].

هنا يبتدئ فصل جديد، وهو الإيمان بالقيامة، وهو الإيمان بما يكون بعد البعث من حوادث عظام؛ فلا يتم إيمان امرئ باليوم الآخر حتى يؤمن بالبعث، قال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي﴾ [التغابن: ٧]، وهذا أحد مواضع ثلاث يؤمر فيها النبي ﷺ، أن يقسم بربه بهذه الصيغة.

وأما التغييرات السماوية، فكثيرة متنوعة، كما وصف تعالى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ [التكوير: ١، ٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ﴿٢﴾﴾ [الانفطار: ١، ٢]، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ ﴿١﴾ وَأَذِنَتۡ لِرَبِّهَا وَحُقَّتۡ ﴿٢﴾﴾ [الانشقاق: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلۡغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفرقان: ٢٥].

وجاء في بعض الآثار أن كل سماء تنشق، فينزل ملائكتها فيحيطون بأهل الأرض إحاطة السوار بالمعصم، ثم ينزل ملائكة السماء التي تليها فيحيطون بمن قبلهم إحاطة السوار بالمعصم، وهكذا، كل ذلك إرهاص ومقدمة لنزول الرب ﷻ ومجيئه لفصل القضاء بين عباده، في عرصات القيامة، حيث يبلغهم الداعي، وينفذهم البصر، قال تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴿٣٣﴾﴾ [الرحمٰن: ٣٣]، وأنى لهم!

فيجب الإيمان بالبعث الجثماني؛ فمن تفرق لحمه في بطون السباع، أو في حواصل الطير، أو في أجواف الحيتان، والذي احترق وصار رمادًا، فإن الله يجمع أجزاءه، ويعيده خلقًا جديدًا، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﵁، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «**ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ، أَوْ قَبْلَكُمْ، آتَاهُ اللهُ مَالًا وَوَلَدًا** ـ يَعْنِي: أَعْطَاهُ ـ **قَالَ: فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللهِ خَيْرًا** ـ فَسَّرَهَا

قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ ـ وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللهِ يُعَذِّبْهُ، فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي ـ أَوْ قَالَ: فَاسْهَكُونِي ـ ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ ـ وَرَبِّي ـ فَفَعَلُوا، فَقَالَ اللهُ: كُنْ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيْ عَبْدِي مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ ـ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ ـ فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رحمه الله»[(١)].

وقد كان هذا الأمر مستبعدًا عند مشركي العرب، لكن الله لم يزل يقيم عليهم الحجج العقلية والحسية، على إثباته؛ كقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩ ـ ١١]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ﴾ [الروم: ٢٧]، فالقادر على الخلق قادر على إعادته؛ بل هو أهون عليه، ببداهة العقول؛ لأنه على مثالٍ سابق.

ولا يجوز معارضته بالدعاوى المجردة، كما يفعل منكرو البعث؛ من الملاحدة، من الفلاسفة الدهرية، أو ما يدعيه الكفرة؛ من الهنادكة، والبوذيين، القائلين بتناسخ الأرواح، المنكرين للبعث الجثماني.

قوله: (فَتُعَادُ الأَرْوَاحُ إِلَى الأَجْسَادِ): ينفخ إسرافيل في الصور، فتعود كل نَسمة إلى البدن الذي كانت تعمره في الدنيا، فتدب فيه الروح والحياة من جديد!

قوله: (وَتَقُومُ الْقِيَامَةُ الَّتِي أَخْبَرَ اللهُ بِهَا فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ، وَأَجْمَعَ عَلَيْهَا الْمُسْلِمُونَ): في هذا إشارة إلى دلائل إثبات البعث، وهي: الكتاب والسُّنَّة والإجماع؛ فأدلة الكتاب والسُّنَّة متواترة،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٤٨٠)، ومسلم: رقم (٢٧٥٦).

متكاثرة، وانعقد إجماع المسلمين على ذلك؛ فمن أنكره فقد أنكر أصلًا من أصول الإيمان، معلومًا من الدين بالضرورة.

أما الزنادقة فيدَّعون أن ما أخبر به الأنبياء ضرب من التخييل والتخويف لأجل ضبط الناس، وإلا ليس ثم شيء من ذلك في الحقيقة! وهم الذين يسميهم شيخ الإسلام «أهل التخييل»، وهم زنادقة، باطنية، ملاحدة؛ ينكرون المعاد، ويشبههم في هذا الزمان من يسمون «الملاحدة الجدد»، وهي حركة ناشئة، منذ بضعة عقود، تجتاح العالم، ينكرون الخالق، والمعاد، وحقائق الإيمان؛ فيجب على أهل الإسلام التصدي لهم، والتنبه لما يصل من شبهاتهم الكفرية، عبر وسائل الإعلام المختلفة.

قوله: (فَيَقُومُ النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا):
بيَّن النبي ﷺ، صفة حشرهم، في حديث عائشة رضي الله عنها فقال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا**»[(١)]، وفي رواية «**بُهمًا**»[(٢)]؛ حفاة: غير منتعلين، عراة: غير مكتسين، غرلًا: غير مختونين؛ قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ بُهمًا: أي: ليس معهم شيء؛ يحشرون كما ولدتهم أمهاتهم؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، حتى أن عائشة رضي الله عنها لما حدّث النبي ﷺ، بهذا الحديث قالت: يَا رَسُولَ اللهِ النِّسَاءُ وَالرِّجَالُ جَمِيعًا، يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، فقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ الْأَمْرُ أَشَدُّ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ**»[(٣)]. تأملوا

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: رقم (٢٨٥٩)، واللفظ له.
(٢) أخرجه أحمد رقم: (١٦٠٤٢).
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٢٧)، ومسلم: رقم (٢٨٥٩).

أول شيء تبادر إلى ذهنها ﵂؟ الحياء والستر والحشمة، قبل أن تفكر في هول الموقف! خلافًا لمن انتكست فطرتها فطفقت تكشف سوأتها أمام الرجال؛ فبيَّن لها ﷺ، أن الأمر أعظم من النظر؛ فلا يأبهون لهذا، ولا يفكرون فيه، أحدهم لا يدري أين ينتهي به الحال؛ إلى جنةٍ أو نار؛ فالأمر جد عظيم.

۞ ۞ ۞

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ، وَيُلْجِمُهُمُ الْعَرَقُ، فَتُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، فَتُوزَنُ بِهَا أَعْمَالُ الْعِبَادِ، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾. وَتُنْشَرُ الدَّوَاوِينُ، وَهِيَ صَحَائِفُ الأَعْمَالِ، فَآخِذٌ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ، وآخِذٌ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ أَوْ مِنْ وَّرَاءِ ظَهْرِهِ؛ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾).

الشَّرْح

يوم القيامة يومٌ طويل، تجري فيه أحداثٌ عظيمة متتابعة، لا يمكن حصرها، أشار المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى **أهمها**:

١ ـ **دنو الشمس من العباد، وإلجامهم العرق**: (عن الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ، يَقُولُ: «**تُدْنَى الشَّمْسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْخَلْقِ، حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كَمِقْدَارِ مِيلٍ**» ـ قَالَ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَوَاللهِ مَا أَدْرِي مَا يَعْنِي بِالْمِيلِ؟ أَمَسَافَةَ الْأَرْضِ، أَمِ الْمِيلَ الَّذِي تُكْتَحَلُ بِهِ الْعَيْنُ ـ قَالَ: «**فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ فِي الْعَرَقِ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلَى حَقْوَيْهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ الْعَرَقُ إِلْجَامًا**» قَالَ: وَأَشَارَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ إِلَى فِيهِ)[١].

وهذا من الأمور الغيبية التي يجب قبولها والتصديق بها، وعدم

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٨٦٤).

إخضاعها للمقاييس المادية؛ فلا يسوغُ أن يقول قائل: هذا لا يتفق مع الحقائق الفيزيائية؛ «نظرية الأواني المستطرقة»، التي تقضي بمنسوب واحد للماء على سطح واحد! كل هذه الاعتراضات يجب أن تُطَّرح، ولا تعارض بها النصوص القطعية الثابتة؛ فالله الذي ركب دار الدنيا على سنن معينة، يجري سننه في دار البرزخ كيف يشاء.

٢ ـ **نصبُ الموازين**: الموازين جمع ميزان، وهو ما تُوزنُ به الأعمال. قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، **واختلف في الموزون، فقيل:**

ـ **صحائف الأعمال**، ودليل ذلك: حديث البطاقة، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُءُوسِ الخَلَائِقِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلًّا كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الحَافِظُونَ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتَخْرُجُ بِطَاقَةٌ فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: احْضُرْ وَزْنَكَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَذِهِ البِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ، فَقَالَ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ**»، قَالَ: «**فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كَفَّةٍ وَالبِطَاقَةُ فِي كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلَّاتُ وَثَقُلَتِ البِطَاقَةُ، فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللهِ شَيْءٌ**»)[1]، وهذا الحديث، فوق ما يدل عليه من

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢٦٣٩)، واللفظ له، وابن ماجه: رقم (٤٣٠٠)، وأحمد: رقم (٦٩٩٤)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٢٢٥)، والحاكم في المستدرك (٩)، وقال عقبه: هذا حديث صحيح لم يُخَرَّجْ في الصحيحين، وهو صحيح على شرط مسلم.

فضل التوحيد، وتكفيره للذنوب، فإنه يدل على أن الذي يوزن صحائف الأعمال.

ـ **العامل نفسه**: لحديث ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَجْتَنِي سِوَاكًا مِنَ الْأَرَاكِ، وَكَانَ دَقِيقَ السَّاقَيْنِ، فَجَعَلَتِ الرِّيحُ تَكْفَؤُهُ، فَضَحِكَ الْقَوْمُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مِمَّ تَضْحَكُونَ؟**» قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ، مِنْ دِقَّةِ سَاقَيْهِ، فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[(١)].

ـ **الأعمال**؛ قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣]، وقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]؛ فهذه النصوص تدُل على أن الذي يُوزن هو العمل.

ولا تعارض! فكل هذه الثلاث تُوزن، لكن العبرة بوزن الأعمال.

وإنما يزِن الله العامل لإظهار فضله، أو لإظهار خزيه، فقد جاء في الحديث: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ**، وَقَالَ: **اقْرَءُوا**، ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٥]»[(٢)].

وهل الموازين متعددة أم هو ميزان واحد؟ يحتمل؛ فلفظ الجمع في قوله: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ﴾، الموازين يدل على التعدد، لكن ربما تعددت باعتبار الموزونات.

ومما يجب اعتقاده أن الميزان حقيقي؛ له لسان وكِفَّتان، لا كما

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (٣٩٩١)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٧٠٦٩).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٧٢٩)، ومسلم: رقم (٢٧٨٥).

تدعيه المعتزلة أن المقصود بالميزان: إقامة العدل. ونقول: بل المقصود بالميزان: إقامة العدل بواسطة الميزان الحقيقي الذي أخبر الله تعالى به وأخبر به النبي ﷺ.

٣ ـ **نشر الدواوين**: الدواوين جمع ديوان، وهي كلمةٌ فارسية، تعني: الجامع للشيء، كما يقال: ديوان الجند، ديوان الموظفين، ديوان المظالم؛ أي: الجامع للشيء المحيط به، والمراد بها: صحائف الأعمال، ودليل ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾﴾ [الكهف: ٤٩].

قوله: (﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ﴾)، طائره؛ أي: ما طار من عمله؛ لأن العمل الذي يصدرُ منك، والقول الذي يبدر منك؛ كالطائر الذي أفات منك، لا يمكنك رده، فلذلك سُمي طائرًا.

قوله: (﴿فِى عُنُقِهِۦ ۖ﴾): أوثق ما يكون مع الإنسان ما ربط بعنقه؛ لأنه لا يذهب إلا بذهاب عنقه، بخلاف ما لو ربطته بيدك، أو برجلك، أو غير ذلك من بدنك.

قوله: (﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا﴾): هذا الكتاب مستنسخ مما كان قد عمله في الدنيا. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: ٢٩].

قوله: (﴿يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾﴾): ملقًّى غير بعيد، مفتوحًا غير مغلق؛ فكل شيء موثق بالبينات والدلائل؛ ولهذا إذا اطَّلع على كتابه تصيبه صدمة، كما وصف تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ﴾ [الكهف: ٤٩]. حتى إن الأمر يبلغ بالكافر

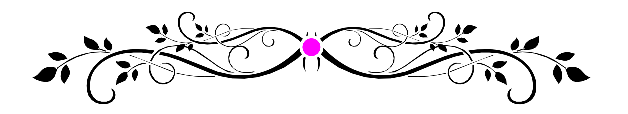
إلى اتهام، وتخوين الملائكة الكرام، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَضَحِكَ، فَقَالَ: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قَالَ: قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «**مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ، يَقُولُ: يَا رَبِّ أَلَمْ تُجِرْنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قَالَ: يَقُولُ: بَلَى، قَالَ: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لَا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قَالَ: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا، وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا، قَالَ: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لِأَرْكَانِهِ: انْطِقِي، قَالَ: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ، قَالَ: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلَامِ، قَالَ فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ**»[(١)]، والمقصود أن الله يقيم عليه الحجة.

قوله: (آخذٌ كتابهُ بيمينه، وآخذٌ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره):

هكذا نوّع المؤلف؛ بشماله أو من وراء ظهره، لورود ذلك في القرآن على صفتين، ففي سورة الحاقة: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾﴾ [الحاقة: ٢٥]، وفي سورة الانشقاق: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾﴾ [الانشقاق: ١٠]، وبعض العلماء سلك مسلك الجمع وقال: إنه يؤتى كتابه بشماله من وراء ظهره؛ بمعنى: أن تلوى شماله ويُعطى كتابه من وراء ظهره، وظاهر كلام الشيخ أنه تارةً يُعطاه بشماله، وتارةً من وراء ظهره، وكلا الصورتين تدل على التبكيت، والترذيل، والتحقير؛ لأن الأصل في التناول والإعطاء اليمين؛ فالذين يؤتون كُتبَهم بأيمانهم هم أصحاب اليمين، والذين يؤتون كُتبهم بشمائلهم هم أصحاب الشمال، كما سماهم الله في كتابه.



(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٦٩).



الحساب

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَيُحَاسِبُ اللهُ الخَلائِقَ، وَيَخْلُو بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبِهِ؛ كَمَا وُصِفَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَأَمَّا الْكُفَّارُ؛ فَلا يُحَاسَبُونَ مُحَاسَبَةَ مَنْ تُوزَنُ حَسَنَاتُهُ وَسَيِّئَاتُهُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَسَنَاتَ لَهُمْ، وَلَكِنْ تُعَدُّ أَعْمَالُهُمْ، فَتُحْصَى، فَيُوقَفُونَ عَلَيْهَا وَيُقَرَّرُونَ بِهَا).

الشَّرْح

هذا هو الأمر الثالث، الذي لا يتم الإيمان باليوم الآخر إلا به، وهو الإيمانُ بالحساب، **ومحاسبة الخلائق قسمان:**

١ ـ محاسبةُ المؤمنين: وهي نوعان:

العرضُ: وهو لمن سبقت له من الله الحسنى، وأراد الله نجاته من النار، كما قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢]، فإنه يحاسب محاسبة العرض التي دل عليها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ**»[(١)]، ـ نسأل الله من

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٤٤١)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٧٦٨).

فضله ـ ما أهنأه! ما أسعده! حين تقرع سمعه هذه البشارة الربانية، فقد حلَّت عليه السعادة ونجا، زُحزح عن النار وفاز.

ـ **المناقشة**: وهي لمن شاء الله أن يعذبه من عصاة الموحدين، ويدل عليها حديث عائشة ﵂ في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «**مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ**»، فَقُلْتُ: أَوَ لَيْسَ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ [الانشقاق: ٨] قَالَتْ: فَقَالَ: «**إِنَّمَا ذَلِكِ العَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ يَهْلِكْ**»[(١)]، وفي رواية: «**مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ عُذِّبَ**»[(٢)].

٢ ـ **محاسبة الكافرين**: وهي إشهار وتقرير لسيئاتهم؛ لأنه لا حسنات لهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾ [الفرقان: ٢٣]، وعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قالت: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ، وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ؟ قَالَ: «**لَا يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا: رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**»[(٣)].

فالكافر إذا عمل أعمالًا صالحة، محمودة، فإنها لا تنفعه في الآخرة، لكن تنفعه في الدنيا؛ وهذا من كمال عدل الله؛ فإن من الكفار من يعمل أعمالًا صالحة؛ من البر والإحسان والصدقة، ـ وهذا يقع من بعضهم بلا ريب ـ فإنه يعود عليهم أثره، ونفعه في الدنيا؛ سعةً في الأرزاق، وصحةً في الأبدان، وأمنًا في الأوطان، وهذا مشاهد؛ نجد بعض الأمم الكافرة يعيشون في رفاهية، ولا يعانون مما يعاني منه غيرهم، وتنشط عندهم الجمعيات الخيرية، وجمعيات النفع العام، أو الإغاثة؛ وليست كلها بغرض التنصير، أو لأغراض سياسية؛ بل

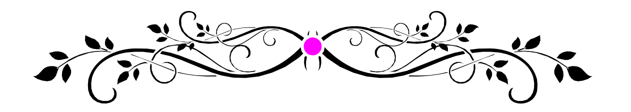
(١) أخرجه البخاري: رقم (١٠٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٨٧٦).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٣٦). (٣) أخرجه مسلم: رقم (٢١٤).

يفعلونها، أحيانًا، بدوافع أخلاقية، إنسانية محضة، كما قال تعالى عن النصارى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، فعندهم قدر من الصفات البشرية الإنسانية الحميدة؛ فإذا وقع منهم فعلٌ حميد، فإنهم يكافئون عليه في الدنيا، ولا ينفعهم في الآخرة. أما المؤمن فإن أعماله الصالحة تنفعه في الدنيا والآخرة، كما قال ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»(١).

والمقصود: أن محاسبة الكفار يوم القيامة: أن تُعد أعمالهم وتحصى، ويوقَفون عليها، ويقررون بها ويعترفون، إظهارًا لعدل الله، ثم يجزون عليها، ويكون ذلك على الملأ؛ نكايةً بهم، وخزيًا عليهم.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٩٨٦)، ومسلم: رقم: (٢٥٥٧).



حوض النبي ﷺ ومكانه وصفته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

❁ (وَفِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ الْحَوضُ الْمَوْرُودُ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ماؤُه أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُوم السَّمَاءِ، طُولُهُ شَهْرٌ، وَعَرْضُهُ شَهْرٌ، مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا).

الشَّرْح

مما يجبُ الإيمانُ به من أمور المعاد: حوض النبي ﷺ؛ وقد ثبت بالتواتر؛ رواه بضعٌ وثلاثون صحابيًّا. قال الناظم:

مما تواتر حديث من كذب ... ومن بنى للّه بيتًا واحتسب
ورؤية شفاعة والحوض ... ومسح خفين وهذي بعض

والحوض في اللغة: مجمع الماء، كما في الحديث: «**وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يَلِيطُ حَوْضَهُ**»[(١)]؛ أي: يصلحه لسقيا دوابه وبهائمه.

وفي الاصطلاح: حوضٌ عظيم يجعله الله تعالى لنبيِّه محمد ﷺ في عرصات القيامة، يصبُّ فيه ميزابان من نهر الكوثر؛ فعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا آنِيَةُ الْحَوْضِ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا، أَلَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ،**

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٠٦).

آنِيَةُ الْجَنَّةِ مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ آخِرَ مَا عَلَيْهِ، يَشْخَبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ»[(١)].

واستنبط شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ أن الحوض مستدير؛ لأنه إذا كان القطر واحدًا؛ في كل اتجاه مسيرة شهر، فينبغي أن يكون مستديرًا؛ لا مربعًا، ولا مستطيلًا، ولا بيضاويًّا.

قوله: (آنِيَتُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ): آنيتهُ: كيزانه أو كؤوسه، عدد نجوم السماء؛ يعني: أنه عدد هائل جدًّا.

قال ﷺ: **«أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ»**[(٢)]، وفرط القوم: الذي يتقدمهم إلى مورد الماء. وهذا يدل على كمال شفقته ﷺ بأمته حتى إنه يتقدمهم ليُهيئ لهم الشراب. فحينما يقوم الناس عطشى يلهثون وقد دنت منهم الشمس، يكونون أحوج ما يكونون إلى أن يبلوا حلوقهم بالماء، فيهوي النبي ﷺ وينزع ويناول.

قوله: (مَن يَّشْرَبُ مِنْهُ شَرْبَةً؛ لَا يَظْمَأُ بَعْدَهَا أَبَدًا): يعني: يروى ريًّا يكتسب به مناعة من العطش، دائمة طبيعية لا يلحقه ظمأ أبدًا.

قال النبي ﷺ: **«أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ! فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ سُحْقًا سُحْقًا»**[(٣)]. وهذا لا شك أنه من أشد أحاديث الوعيد في حق المبتدعة؛ فإن البدعة هي الإحداث في الدين؛ فمن كان من أمة محمد ﷺ وأحدث

---

(١) اخرجه مسلم: رقم (٢٣٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٧٥)، ومسلم: رقم (٢٢٩٧).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٢٣٦٧)، ومسلم: رقم (٢٤٩)، واللفظ له.

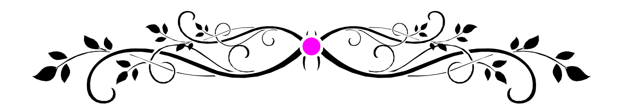
فيها، فإنه يُذاد عن حوضه، ثم إن كان إحداثه وتبديله مكفرًا فإن مآله إلى النار، وإن كان إحداثه، وتبديله دون ذلك، فإنه يحرم من الشرب من الحوض، وربما جوزي ببدعته، ومآله إلى الجنة؛ بسبب حسنة التوحيد.

والرافضة اللئام اتخذوا من هذه اللفظة مستندًا لتكفير الصحابة الكرام! فزعموا بأن الصحابة ارتدوا بعد النبي ﷺ، وأنهم نكصوا على أعقابهم لكونهم لم يُبايعوا عليًّا بالخلافة، وبايعوا أبا بكر، وعمر، وعثمان، قبله، واستدلوا بهذا الحديث، ولا شك أن هذه دعوى باطلة؛ فإن الذين ذكرهم النبي ﷺ إنما هم أفرادٌ قلائل ولهذا قال: «**أصيحابي**»، وهذا لفظٌ يدل على التقليل، فقد يكون هؤلاء من المنافقين، أو المرتدين، الذين كانوا يخالطون الصحابة، ويظن أنهم منهم، كما قالوا عن أنفسهم: «**ألم نكن معكم**»؛ قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لم يرتد من الصحابة أحد، وإنما ارتد قوم من جُفاة الأعراب، ممن لا نصرة له في الدين، وذلك لا يوجب قدحًا في الصحابة المشهورين)[1]، وحاشا الصحابة الكرام أن ينالهم هذا الوصف؛ فإنهم الذين مسَّكوا بالكتاب، وتمسكوا بالكتاب، وذبُّوا عن الدين، وقاتلوا المرتدين المبدلين؛ بل أولى الناس بهذا الوصف الروافض اللئام، الذين أحدثوا في الدين، وشقُّوا عصا الأمة.

وهل لبقية الأنبياء أحواض؟ قال بعض العلماء بذلك، وبعضهم جعله من الخصائص المحمدية، ولا يبعُد أن يكون لكل نبي حوضًا يختص به، لكن الحوض العظيم المورود، هو حوض نبيّنا ﷺ؛ ولهذا سأله أصحابه وقالوا: يا رسول الله، وتعرفُنا؟ قال: «**نَعَمْ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ لَيْسَتْ لِأَحَدٍ غَيْرِكُمْ**»[2]؛ كما تعرف الخيل بالبياض في أيديها، وأرجلها، ونواصيها، والغرة: ما يكون في الجبين، والتحجيل: ما يكون في القوائم؛ وهذه مواضع الوضوء.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١١/ ٤٦٨). (٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٨).



الصراط ومكانه وصِفَة مرور الناس عليه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَالصِّرَاطُ مَنْصُوبٌ عَلَى مَتْنِ جَهَنَّمَ، وَهُوَ الْجِسْرُ الَّذِي بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، يَمُرُّ النَّاسُ عَلَيْهِ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ، ومِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ، وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ، ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا، وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمَنْهُم مَن يُخْطَفُ وَيُلْقَى فِي جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم[1]، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ).

الشَّرح

جواز الصراط من أصعب مواقف القيامة، حتى إن دعاء الأنبياء يومئذ: اللَّهُمَّ سلِّم! سلِّم!

والصراط في اللغة: الطريق الواضح، المستقيم.

والصراط في الاصطلاح نوعان: حسي ومعنوي.

فالصراط المعنوي: هو الإسلام، أو الدين، أو الملة، وهو الذي نسأل الله في كل ركعة من ركعات الصلاة الهداية إليه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

(١) أخرجه البخاري: رقم (٨٠٦، ٧٤٣٩)، ومسلم: رقم (١٨٢، ١٨٣، ١٩٥).

والصراط الحسي: الجسر المنصوب على متن جهنم. وهو المراد هنا.

والدليل على عبوره: قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١، ٧٢]، فلا بد لكل موحدٍ أن يمر على الصراط. أما الكفار فلا يمرون عليه؛ فإنهم إذا قُرروا بكفرهم، واعترفوا بخطيئتهم، تُغل أيديهم إلى أرجلهم، إلى أعناقهم، ثم يُقذفون في النار؛ فلا يَرد الصراط إلا الموحدون، لكن عبورهم على الصراط الحسي في الآخرة، يكونُ بحسب عبورهم على الصراط المعنوي في الدنيا؛ فيتفاوتون في ذلك كتفاوتهم في الحياة الدنيا؛ فكما أن الناس يتفاوتون في طاعتهم لله، وامتثالهم لأوامره، واجتنابهم لمناهيه، ومبادرتهم إلى الخيرات، ومسارعتهم فيها، كذلك يقع على الصراط الحسي؛ فمن كان مستقيمًا سريعًا على الصراط المعنوي، صار مستقيمًا سريعًا على الصراط الحسي، والعكس بالعكس.

قوله: (فَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ): وهذا أعظم ما يُمثل به للسرعة. وهو ما يسمى في لغة الفيزياء «سرعة الضوء»؛ ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية! فحينما تضيء المصباح يمتلئ المكان بالنور فورًا؛ لأن سرعته هائلة. والشمس على شدة بُعدها عن الأرض يصل ضوؤها إلينا في ثمان دقائق. فأعظم سرعة يمكن أن يُضرب بها المثل في المحسوسات سرعة الضوء.

قوله: (وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْبَرْقِ): البرق إذا شعشع يأخذ ثانية أو جزءًا من الثانية. فهو دون الأول يلوح في الأفق برهة ثم يضمحل سريعًا.

قوله: (وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَالرِّيحِ): تصل سرعة الريح أحيانًا ثلاثمائة

كيلومتر في الساعة، وربما أزيد. وقد وصف النبي ﷺ سرعة الدجال في الأرض فقال: «**كَالْغَيْثِ اسْتَدْبَرَتْهُ الرِّيحُ**»(١)؛ يعني: أنه يمشي سريعًا.

قوله: (**وِمنْهُم مَن يَمُرُّ كَالْفَرَسِ الْجَوَادِ**): الفرس المضمر سريع الجري.

قوله: (**وَمِنْهُم مَن يَمُرُّ كَرِكَابِ الإِبِلِ**): الإبل المتخذة للركوب تكون سريعة، لكن دون سرعة الجواد.

قوله: (**ومِنْهُم مَن يَعْدُو عَدْوًا**): يعني: يركض على رجليه.

قوله: (**وَمِنْهُم مَن يَمْشِي مَشْيًا**): فتكون معاناته أشد من معاناة من قبله.

قوله: (**وَمِنْهُم مَن يَزْحَفُ زَحْفًا**): الزحف: هو المشي على المقعدة، وليس الحبو. وهذا أشق مما سبقه. فهذه مراتب بعضها أسرع من بعض.

قوله: (**فَإِنَّ الْجِسرَ عَلَيْهِ كَلَالِيبُ تَخْطِفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِم، فَمَنْ مَرَّ عَلَى الصِّرَاطِ؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ**): الكلاليب: جمع كلُّوب، وهو حديدة معقوفة الطرف، شبهها النبي ﷺ بشوك السعدان، يعرفه أهل الغنم، يلتصق بصوف الغنم؛ فتوجد على جنبتي الصراط كلاليب عظيمة تتهاوى يمنة ويسرة، تخطف الناس، وقال بعض أهل العلم: إن هذه الكلاليب متخصصة؛ منها ما يخطف الزناة، منها ما يخطف أكلة الربا، ومنها ما يخطف أهل النميمة وأهل الغيبة، إلى غير ذلك.

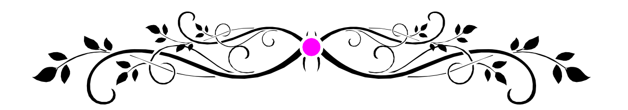
قال رسول الله ﷺ: «**فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ**»(٢)؛ يعني: منهم من يصيبه الكلوب فيخدشه لكنه يمضي، ومنهم من يجذبه

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٣٧).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٩٥).

الكلوب فيلقيه في النار؛ لأن الله تعالى شاء أن يعذبه في النار، فليس الأمر خبط عشواء؛ بل شيءٌ قد قدره الله وقضاه منذ الأزل.

ومهما أعملنا فكرنا وخيالنا لم نستطع أن نتصور هذه الأحوال على حقيقتها في الواقع، لكن النصوص معان متعقلة مفهومة وإن لم ندرك كيفياتها، فالواجب الإيمان بها، وعدم التعرض لها بشيء من التأويلات الفاسدة.





القنطرة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

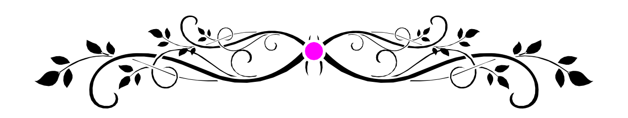
(فَإِذَا عَبَرُوا عَلَيْهِ؛ «وَقَفُوا عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقْتَصَّ لِبَعْضِهِم مِن بَعْضٍ، فَإِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا؛ أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ»)(١).

الشَّرْح

القنطرة: المكان المرتفع، وهي في طرف الصراط مما يلي الجنة، يجتمع فيها الناجون، فيُقتص لبعضهم من بعض؛ لما قد يكون جرى بينهم في هذه الحياة الدنيا من مظالم؛ إما بالأقوال، أو بالأفعال، أو غير ذلك. فلا يليق أن يدخلوا الجنة وفي صدورهم غل، وبينهم مظلمة، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحجر: ٤٧]، فيتعافون، ويتغافرون فيما بينهم، ويُنزع ذلك الغل، فإذا صفت قلوبهم، أذن لهم فدخلوا الجنة، على أكمل زينة ظاهرة وباطنة، فإنه لا يدخل الجنة إلا نفسٌ طيبة. وهؤلاء وفد الرحمٰن يساقون إلى الجنة، كما وصف الله ﷻ: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر: ٧٣، ٧٤].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٣٥).



أوّلية دخول الجنة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَأَوَّلُ مَن يَسْتَفْتِحُ بَابَ الْجَنَّةِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَأَوَّلُ مَن يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنَ الأُمَمِ أُمَّتُهُ).

الشَّرْح

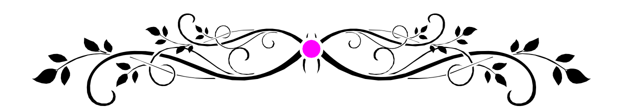
هذه إحدى خصائص نبيّنا محمد ﷺ، وخصائص أمته؛ لما ورد في الحديث: «**آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»(١).

وقال ﷺ: «**نَحْنُ الْآخِرُونَ، وَنَحْنُ السَّابِقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**»(٢)؛ فنحن الآخرون في ترتيب الأمم، لكننا الأولون في الحساب، وفي دخول الجنة.



---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٩٧).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٨٥٥).



الشفاعة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَلَه ﷺ فِي الْقِيَامَةِ ثَلاثُ شَفَاعَاتٍ: أَمَّا الشَّفَاعَةُ الأُوْلَى؛ فَيَشفَعُ فَي أَهْلِ الْمَوْقِفِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَهُمْ بَعْدَ أَنْ يَتَرَاجَعَ الأَنْبِيَاءُ؛ آدَمُ، وَنُوحٌ، وَإِبْرَاهِيمُ، وَمُوسَى، وَعِيسى ابْنُ مَرْيَمَ عَنِ الشَّفَاعَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ أَن يَدْخُلُوا الْجَنَّة. وَهَاتَانَ الشَّفَاعَتَانِ خَاصَّتَانِ لَهُ. وَأَمَّا الشَّفَاعَةُ الثَّالِثَةُ؛ فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا. وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ. وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْم الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ).



الشَّرْح

هذه مسألةً مهمة من مسائل الاعتقاد، وهي: مسألة الشفاعة، فإن

أهل السُّنَّة والجماعة يثبتونها كما وردت، وأحاديث الشفاعة بلغت مبلغ التواتر، كما تقدم.

والشفاعة لغةً: مأخوذة من الشفع، وهو ضد الوتر، والشفع الزوج، وإنما سُميت الشفاعة شفاعة؛ لأن الشافع كان وترًا، فلما انضم إلى المشفوع له صارا زوجًا، ومنها قول الفقهاء: باب الشفعة، وفلان له حق الشفعة؛ لأن له شريك فطالب بحقه، فيقال: شفع، لانضمامه إليه.

ومعناها في الاصطلاح: سؤال الخير للغير؛ ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ﴾ [النساء: ٨٥].

ولنبيِّنا ـ ﷺ، يوم القيامة ـ ثلاث شفاعات خاصة، ذكر الشيخ منهما اثنتين:

أولاهما: الشفاعة العظمى التي هي المقام المحمود: وهي شفاعته ﷺ للخلائق يوم القيامة أن يقضى بينهم؛ قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: (أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا بِلَحْمٍ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً فَقَالَ: «**أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ بِمَ ذَاكَ؟ يَجْمَعُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي، وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، وَتَدْنُو الشَّمْسُ فَيَبْلُغُ النَّاسَ مِنَ الْغَمِّ وَالْكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ، وَمَا لَا يَحْتَمِلُونَ، فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: أَلَا تَرَوْنَ مَا أَنْتُمْ فِيهِ؟ أَلَا تَرَوْنَ مَا قَدْ بَلَغَكُمْ؟ أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟ فَيَقُولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ: ائْتُوا آدَمَ، فَيَأْتُونَ آدَمَ، فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ، أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى**

مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ آدَمُ: إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ فَعَصَيْتُهُ نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ، فَيَأْتُونَ نُوحًا، فَيَقُولُونَ: يَا نُوحُ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى الْأَرْضِ، وَسَمَّاكَ اللهُ عَبْدًا شَكُورًا، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوْتُ بِهَا عَلَى قَوْمِي، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ نَبِيُّ اللهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى إِلَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ، فَيَقُولُونَ: يَا مُوسَى، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ فَضَّلَكَ اللهُ بِرِسَالَاتِهِ، وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ مُوسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ﷺ، فَيَأْتُونَ عِيسَى، فَيَقُولُونَ: يَا عِيسَى أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ، وَكَلِمَةٌ مِنْهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، فَاشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَيَقُولُ لَهُمْ عِيسَى ﷺ: إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ، وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ ذَنْبًا، نَفْسِي نَفْسِي، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ، فَيَأْتُونِّي فَيَقُولُونَ: يَا مُحَمَّدُ، أَنْتَ رَسُولُ اللهِ، وَخَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَفَرَ اللهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ، وَمَا تَأَخَّرَ،

اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ، أَلَا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ؟ أَلَا تَرَى مَا قَدْ بَلَغَنَا؟ فَأَنْطَلِقُ، فَآتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي، ثُمَّ يَفْتَحُ اللهُ عَلَيَّ وَيُلْهِمُنِي مِنْ مَحَامِدِهِ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ لِأَحَدٍ قَبْلِي، ثُمَّ يُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، سَلْ تُعْطَهْ، اشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ، أَدْخِلْ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْأَبْوَابِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنَّ مَا بَيْنَ الْمِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ لَكَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرٍ، أَوْ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى»[١].

الشفاعة الثانية: شفاعته لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة، وقد تقدم دليلها في الباب السابق: **«آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ»**[٢].

الشفاعة الثالثة: شفاعته لعمه أبي طالب أن يخفف عنه العذاب، وذلك أن المشركين لا تنفعهم شفاعة الشافعين، فقد سأل العباس عم رسول الله ﷺ النبي ﷺ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ، وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: **«نَعَمْ، هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ»**[٣]، وفي رواية: **«يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»**[٤]، فهذه حالة استثنائية لا نظير لها.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٧١٢)، ومسلم: رقم (١٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٩٧).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: رقم (٢٠٩).

(٤) أخرجه البخاري: رقم (٣٨٨٥)، ومسلم: رقم (٢١٠).

وهناك شفاعاتٌ عامة يشترك فيها النبيون، والصديقون، والشهداء، والصالحون:

١ ـ (فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ لَهُ وَلِسَائِرِ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَغَيْرِهِمْ، فَيَشْفَعُ فِيمَنِ اسْتَحَقَّ النَّارَ أَن لَّا يَدْخُلَهَا، وَيَشْفَعُ فِيمَنْ دَخَلَهَا أَن يَخْرُجَ مِنْهَا): وهذان النوعان من الشفاعة تنكرهما المعتزلة والخوارج؛ يزعمون أن من توعده الله بعذاب فإنه يجب على الله أن ينفذ فيه وعيده، ولهذا سُمُّوا (وعيدية)، لقولهم بإنفاذ الوعيد، وإنكارهم الشفاعة لعصاة الموحدين، مع أن الأحاديث متواترة في إثباتها؛ ففي حديث الشفاعة الطويل: «فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا، فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي، فَيُؤْذَنُ لِي، وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الآنَ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ ـ أَوْ خَرْدَلَةٍ ـ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ المَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ»(١)، وفي رواية، قال: «فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ»(٢).

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٥١٠)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٩٣).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٨٣).

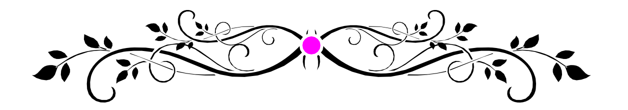
٢ ـ الشفاعة في رفع درجات بعض أهل الجنة، قال الله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

٣ ـ الشفاعة فيمن تساوت حسناتهم وسيئاتهم أن يدخلوا الجنة: وهم، على الراجح، أهل الأعراف.

٤ ـ الشفاعة لبعض المؤمنين في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب: كما في حديث عكاشة بن محصن؛ قَالَ النبي ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ أُمَّتِي، فَقِيلَ: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الأُفُقَ، فَقِيلَ: هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ، وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**»، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ وَلَمْ يُبَيَّنْ لَهُمْ، فَتَذَاكَرَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: أَمَّا نَحْنُ فَوُلِدْنَا فِي الشِّرْكِ، وَلَكِنَّا آمَنَّا بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَكِنْ هَؤُلَاءِ هُمْ أَبْنَاؤُنَا، فَبَلَغَ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**نَعَمْ**» فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ فَقَالَ: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ**»[١].



(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٧٥٢)، ومسلم: رقم (٢٢٠).



إخراج بعض عصاة الموحدين من النار بفضل الله ورحمته

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَيُخْرِجُ اللهُ مِنَ النَّارِ أَقْوَامًا بِغَيرِ شَفَاعَةٍ؛ بَلْ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَيَبْقَى فِي الْجَنَّةِ فَضْلٌ عَمَّنْ دَخَلَهَا مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، فَيُنْشِئُ اللهُ لَهَا أَقْوَامًا فَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ.

وَأَصْنَافُ مَا تَضَمَّنَتْهُ الدَّارُ الآخِرَةُ مِنَ الْحِسَابِ وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَتَفَاصِيلُ ذَلِكَ مَذْكُورَةٌ فِي الْكُتُبِ الْمُنَزَّلَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَالآثَارِ مِنَ الْعِلْمِ الْمَأْثُورِ عَنِ الأَنْبِيَاءِ، وَفِي الْعِلْمِ الْمَوْرُوثِ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ ذَلِكَ مَا يَشْفِي وَيَكْفِي، فَمَنِ ابْتَغَاهُ وَجَدَهُ).

الشَّرْح

في الحديث الصحيح القدسي أن الله تعالى يقول: «**شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ**»[(١)].

ولما تحاجت الجنة والنار قال الله تعالى، كما في الحديث

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٨٣).

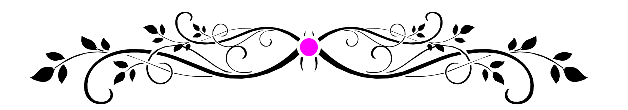
القدسي: «**أَنْتِ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ** - وَرُبَّمَا قَالَ: **أُصِيبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ** - **وَقَالَ لِهَذِهِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مِلْؤُهَا**»[(١)]، وعن أنس بن مالك ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا تَزَالُ جَهَنَّمُ تَقُولُ: هَلْ مِنْ مَزِيدٍ، حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعِزَّةِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَدَمَهُ فَتَقُولُ: قَطْ قَطْ، وَعِزَّتِكَ وَيُزْوَى بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ**»[(٢)]، يعني: اكتفيت؛ قد اصطكت - والعياذ بالله - على أهلها.

وقد ختم المصنف ما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر بأن تفاصيل أحواله مذكورة في جميع الكُتب المنزلة من السماء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [البقرة: ٦٢]، فما من شريعةٍ سماوية إلا وتضمنت ذكر هذه الثلاثة: الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، والعمل الصالح، وقد بقي منه بقية في كتب النصارى فيما يسمونه (رؤيا يوحنا)، وغيرها. وأما في كتب اليهود فالحديث عن اليوم الآخر قليلٌ جدًّا، وسر ذلك أنهم يعلمون أنهم مغبونون في ذلك اليوم، كما أقروا على أنفسهم: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ [البقرة: ٨٠]، وأما ما جاء به محمد ﷺ فكثير وفير، شاف كاف.

فينبغي لكل مؤمن أن يستلين قلبه بطلب العلم بأحوال المعاد؛ فإن هذا مما يُحيي القلب، ويُنعشه، وتحصل به التقوى.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٨٥٠)، ومسلم: رقم (٢٨٤٦)، واللفظ له.
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٧٣٨٤)، ومسلم: رقم (٢٨٤٨).



الإيمان بالقدر وبيان مراتبه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ؛ كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ).

الشَّرح

الإيمان بالقدر أحد أصول الإيمان، فقد ذكره الله تعالى في كتابه في غير ما موضع؛ فقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ۝٢﴾ [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

وذكره النبي ﷺ في حديث جبريل المشهور، وفيه «**الْإِيمَانُ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١)، فأعاد ذكر العامل، وفصل فيه، ما لم يُفصل فيما سبق من الأركان، وما ذاك إلا لأهميته، ومسيس الحاجة لتحقيقه.

وبعض أهل العلم يرى أن أصول الإيمان خمسة، وأن ركن القدر داخل في الإيمان بالله تعالى، وذلك لأن مراتبه تتعلق بصفات الله وأفعاله؛ فهو داخل في الإيمان بالله، لكن النبي ﷺ خصه بالذكر؛ من باب عطف الخاصِ على العام، لمزيد العناية، وبعضهم يجعل الأصول ستة، ويجعل الإيمان بالقدر أصلًا مستقلًّا.

(١) أخرجه مسلم: رقم (٨).

والناظر في كتاب الله يجد أن الله ـ تعالى ـ ذكر الأركان الخمسة في سياق واحد، دون القدر؛ كما في قول الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ [النساء: ١٣٦]، وأيًّا كان الأمر، فالخُلف فيه يسير؛ لا أثر له.

وكثير من الناس يلحقهم في باب القدر شبهة وإشكال، وربما أمسك عن السؤال ثقةً بالله، وحسن ظنٍ به، مع بقاء شيء يعتمل في خاطره، والذي ينبغي للإنسان أن يكون على بينة من أمره، فإنه ما من شيء، بحمد الله، في ديننا وعقيدتنا إلا واضح بيِّن؛ وقد وصف الله كتابه بأنه تبيان، ومُبين، وبيان، وما قد يخفى على أحد يتضح لغيره.

وبعضهم يُمسك عن السؤال استصحابًا لآثار وأحاديث في النهي عن الخوض في القدر؛ بعضها يصح، ومعظمها لا يصح. وما صح منها فليس المراد منه عدم الكلام في القدر مطلقًا، مثل حديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي القَدَرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ فَقَالَ: «**أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ**»[1]؛ فنهاهم عن الخوض فيه؛ **والجواب عن هذا**: أن المنهي عنه هو الخوض فيه بالباطل؛ إما بضرب بعض الآيات بعضها ببعض، وإما بما يدل على التسخط، وسوء الظن بالله تعالى، أو ما يدل على استطلاع المقدور والمغيَّب؛ مما لا سبيل للعلم به.

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢١٣٣).

ومما يُروى في ذلك أيضًا حديثُ: «**إِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَتِ النُّجُومُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا**»(١)، وعلى فرض صحته، فليس المراد الإمساك المطلق، ولكن المراد الإمساك عن الخوض في هذه المسائل بالباطل؛ بدليل أن ما ذكر معه لا يقصد بهما الإمساك المطلق؛ فعلم النجوم فيه ما هو محمودٌ مفيد، وفيه ما هو مذموم ضار؛ فعلم «التسيير» علمٌ نافع قال الله تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ١٦﴾ [النحل: ١٦]، وعلم «التأثير»، شرك في الربوبية. وكذلك ذكر الصحابة رضوان الله عليهم؛ فالإمساك المطلوب هو عدم الخوض فيهم بالباطل بتنقصهم وذكر مساوئهم، أما ذكر مناقبهم وفضائلهم وسيرهم العطرة فأمرٌ محمود، ولم يزل أهل العلم والسُّنَّة يُضمِّنون كتبهم مناقب الصحابة؛ أفرادًا وجماعات؛ فدل ذلك على أن الإمساك المطلوب هو الإمساك عن الخوض في القدر بالباطل، وإلا فكيف يخبر الله عنه في كتابه، ويخبر عنه نبيّه ﷺ في سُنَّته، ويُجيب عن الإشكالات التي طرأت على أصحابه في ذلك، ثم يقال: لا يُتكلم فيه؟!.

ولما حضرت عبادة بن الصامت رضي الله عنه الوفاة قَالَ لِابْنِهِ: (يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ)(٢)؛ فلا يمكنُ لأحدٍ أن يُحقق الإيمان إلا بالإيمان بالقدر.

قوله: (وَتُؤْمِنُ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَةُ): أعاد ذكر الوصف بالنجاة؛ لأن الذين ضلوا وهلكوا في هذا الباب كثير؛ إما من جهة الجبر، وإما من جهة إنكار القدر؛ **فأهل السُّنَّة والجماعة وسطٌ في هذا الباب بين طرفي ضلالة**:

(١) أخرجه الطبراني في الكبير: رقم (١٤٢٧، ١٠٤٤٨).
(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٤٧٠٠)، وأحمد: رقم (٢٢٧٠٥).

- قومٌ غلوا في إثبات أفعال الله، حتى سلبوا العبد فعله، ومشيئته، وقدرته، وجعلوه كالريشة في مهب الريح، وهؤلاء هم الجبرية، القائلون: العبد مجبورٌ على فعله.

- قوم غلوا في إثبات أفعال العباد، حتى أنكروا قدر الله السابق، وزعموا أن الله تعالى لم يخلق أفعال العباد، وأن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الله لم يشأها منهم، وأن لهم مشيئة مستقلة عن مشيئة الله تعالى.

وهدى الله أهل السُّنَّة والجماعة، لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فأثبتوا القدر السابق، وأثبتوا أفعال العباد، لكنهم جعلوها تابعةً لقدر الله تعالى، كما سيتبيَّن.

قوله: (بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ): المراد بالقدر هنا: المقدور؛ وذلك أن **لفظ «القدر» يحتمل أمرين**:

- **التقدير**: وذلك باعتبار صدوره عن الله، فهذا خيرٌ كله؛ كما قال النبي ﷺ: **«لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»**(١)، فالشر لا ينسب إلى الله؛ فكل ما قضاه الله وقدره فإنه خير كله؛ إما باعتبار حاله، أو باعتبار مآله.

- **المقدور**: فهذا ينقسم إلى خير وشر؛ فربما كان خيرًا؛ كالصحة، والغنى، والخصب، وربما كان شرًّا؛ كأضدادها من المرض، والفقر، والجدب.

قوله: (وَالإِيمَانُ بِالْقَدَرِ عَلَى دَرَجَتَينِ، كُلُّ دَرَجَةٍ تَتَضَمَّنُ شَيْئَيْنِ): أراد بالدرجةِ الأولى: مرتبتي: العلم والكتابة، وأراد بالدرجة الثانية:

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٧٧١).

مرتبتي: الخلق؛ المشيئة والخلق؛ وإنما قسم هذا التقسيم لأن منكري القدر **صنفان**:

ـ **القدرية الأولى (الغلاة)**: وهم الذين أنكروا جميع مراتب القدر. وقد ظهروا في أواخر عهد الصحابة، فعَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبَدٌ الْجُهَنِيُّ، فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ الْحِمْيَرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ، فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِد، فَاكْتَنَفْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمٰنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَؤُونَ الْقُرْآن، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنْ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنُف، قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَآءُ مِنِّي، وَالَّذِي يَحْلِفُ بِهِ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ لَوْ أَنَّ لِأَحَدِهِمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فَأَنْفَقَهُ، مَا قَبِلَ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شديد سواد الشعر)[(١)]، وساق الحديث، والشاهد منه، قوله: «**وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(٢)].

وقد شنَّع عليهم من أدركهم من صغار الصحابة؛ كابن عمر، وجابر بن عبد الله، وابن عباس، وقال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ لَأَعَضَّنَّ أَنْفَهُ حَتَّى أَقْطَعَهُ»[(٣)]؛ من شدة حنقه وتغيظه عليهم.

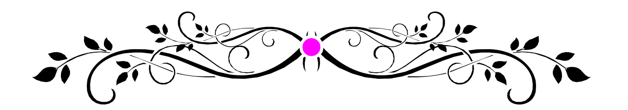
(١) أخرجه مسلم: رقم (٨).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٨).
(٣) أخرجه أحمد: رقم (٣٠٥٤).

فالقدرية الأولى أتباع معبد الجهني، ويقال أن معبدًا أخذ مقالته من رجلٍ مجوسي، أو نصراني، يقال له: (سَنْسَوَيْه) أو (سوسن)؛ لأن الاضطراب في أمر القدر موجودٌ في الأمم قبلنا؛ فانتقل إلى هذه الأمة كما أخبر النبي ﷺ: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: «**فَمَنْ**»(١).

- **المعتزلة**: أتباع واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، أرادوا تخفيف شناعة مقالة الغلاة، فأثبتوا الدرجة الأولى (العلم، والكتابة)، وأنكروا الدرجة الثانية (الخلق، والمشيئة). وقالوا: علم وكتب، لكن لم يشأ، ولم يخلق طاعة الطائع، ولا معصية العاصي؛ فلهذا جعل المصنف الإيمان بالقدر على درجتين.



(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٣٢٠)، ومسلم: رقم (٢٦٦٩).



الدرجة الأولى وما تتضمنه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِيمٌ بِما الْخَلْق عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ، ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ. «**فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ قَالَ لَهُ: اكْتُبْ. قَالَ: مَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**»[1]. فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [الحج: ٧٠]، وَقَالَ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد: ٢٢]، وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا: فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ

(١) أخرجه أحمد: رقم (٢٢٧٠٥)، وأبو داود: رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: رقم (٣٣١٩)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

أَمْ سَعِيدٌ[(١)]. وَنَحْوَ ذَلِكَ. فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ).

الشَّرْح

قوله: (فَالدَّرَجَةُ الأُولَى: الإيمَانُ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلِمٌ مِا الْخَلْق عَامِلُونَ بِعِلْمِهِ الْقَدِيم الَّذِي هُوَ مَوْصُوفٌ بِهِ أَزَلًا وَأَبَدًا، وَعَلِمَ جَمِيعَ أَحْوَالِهِم مِّنَ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي وَالأَرْزَاقِ وَالآجَالِ):

المرتبة الأولى من مراتب القدر: الاعتقاد الجازم بعلم الله المحيط بكل شيء، جُملةً وتفصيلًا، أزلًا وأبدًا، كليًّا وجزئيًّا، ما يتعلق بأفعاله سبحانه، من الآجال والأرزاق، وما يتعلقُ بأفعال عباده، من الطاعات والمعاصي؛ فقد علم ما كان، وما يكون، وما سوف يكون، وما لم يكن كيف لو كان يكون.

فالعلم صفةٌ من صفات الله الذاتية؛ فإن الله تعالى لم يزل، ولا يزال عليمًا، منزه عن الجهل، كما تقدم في أول هذه العقيدة من الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٧٥﴾ [البقرة: ٢٣١]، [الأنفال: ٧٥]، [التوبة: ١١٥]، [العنكبوت: ٦٢]، [المجادلة: ٧]، وقوله: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٦١]، وقوله: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ۝١٩﴾ [غافر: ١٩]، وأمثالها؛ فيجب أن يمتلئ القلب يقينًا بهذه الحقيقة.

وقولنا: (جملةً وتفصيلًا): ردٌّ على أهل الأهواء والبدع، الزاعمين أن الله يعلم جمل الأشياء دون تفاصيلها.

وقولنا: (كليًّا وجزئيًّا): ردٌّ على أهل الأهواء والبدع، الزاعمين أنه

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٥٤)، ومسلم: رقم (٢٦٤٣).

يعلم الكليات دون الجزئيات[(١)]، وقولنا: **(أزلًا)**: يعني: فيما مضى، وقولنا: **(أبدًا)**: فيما يستقبل، وقولنا: **(وما لم يكن كيف لو كان يكون)**: كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، وهم لن يردوا، لكن لو قدر أنهم ردوا، فقد علم الله أنهم يعودون لما نهوا عنه.

قوله: (ثُمَّ كَتَبَ اللهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَقَادِيرَ الْخَلْقِ):

المرتبة الثانية: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى كتب جميع المقادير من الطاعات، والمعاصي، والآجال، والأرزاق في اللوح المحفوظ. واللوح المحفوظ هو الكتاب المبين، وهو أمُّ الكتاب؛ الجامع لكل شيء. قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٢﴾ [يس: ١٢]، وقال: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ٢٢﴾ [البروج: ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩]. وقد ورد في صفته أحاديث، لكنها لا تثبت. ولا يلزم أن ندرك كيفيته لإثباته. ويكفي بأن نؤمن بكونه ظرفًا للمكتوبات.

قوله: (فَأَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: ما أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ. قال: اكْتُبْ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ): جاء في حديث رواه أهل السنن، وسنده حسن: («إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»)[(٢)]. وفي ضبط (أول) **وجهان**:

---

(١) الرد على المنطقيين: (١/ ١٠٤).

(٢) أخرجه أحمد: رقم (٢٢٧٠٥)، وأبو داود: رقم (٤٧٠٠)، والترمذي: رقم (٣٣١٩)، وقال: حديث حسن صحيح غريب.

- الرفع على الابتداء: وخبره (القلم) وبه تتم الجملة، فيدل على أولية خلق القلم.

- النصب على الظرفية: يعني: ساعة خلق الله القلم، أو حين خلق الله القلم، أو بكونها اسم إن، كما في الحديث.

والله تعالى إذا قال للشيء كن فإنه يكون، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة. فجميع المقدورات مكتوبة، فعَنْ طَاوُسٍ رَحِمَهُ اللهُ أَنَّهُ قَالَ: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، يَقُولُونَ كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى الْعَجْزِ وَالْكَيْسِ، أَوِ الْكَيْسِ وَالْعَجْزِ**»[1]؛ يعني: صفات الناس، من الحزم والكياسة، أو العجز والتفريط، مكتوبة؛ فاللوح المحفوظ متضمن لجميع المقادير، وإن دقت.

قوله: (**فَمَا أَصَابَ الإِنْسَانَ لَمْ يَكُن لِّيُخْطِئَهُ، وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُن لِّيُصِيبَهُ، جَفَّتِ الأَقْلَامُ، وَطُوِيَتِ الصُّحُفُ**): هذه عباراتٌ نبويةٌ أثرية جاءت في أحاديث. فقد رفع ذلك بعض الصحابة إلى النبي ﷺ؛ (فعَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ، قَالَ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، خَشِيتُ أَنْ يُفْسِدَ عَلَيَّ دِينِي وَأَمْرِي، فَأَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: أَبَا الْمُنْذِرِ، إِنَّهُ قَدْ وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ هَذَا الْقَدَرِ، فَخَشِيتُ عَلَى دِينِي وَأَمْرِي، فَحَدِّثْنِي مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ، فَقَالَ: «لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا، أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قُبِلَ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، فَتَعْلَمَ أَنَّ مَا

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٥٥).

أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ» وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ أَخِي عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَتَسْأَلَهُ، فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ، فَسَأَلْتُهُ، فَذَكَرَ مِثْلَ مَا قَالَ أُبَيٌّ وَقَالَ لِي: وَلَا عَلَيْكَ أَنْ تَأْتِيَ حُذَيْفَةَ، فَأَتَيْتُ حُذَيْفَةَ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ مِثْلَ مَا قَالَا، وَقَالَ: ائْتِ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَاسْأَلْهُ، فَأَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَسَأَلْتُهُ، فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وأَهْلَ أَرْضِهِ، لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ كَانَ لَكَ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، أَوْ مِثْلُ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا تُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا قَبِلَهُ مِنْكَ حتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ كُلِّهِ، فَتَعْلَمَ أنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَأَنَّكَ إِنْ مُتَّ عَلَى غيْرِ هَذَا دَخَلْتَ النَّارَ**»[(١)]، وجاء في وصية النبي ﷺ لابن عباس الجملتان الأخيرتان؛ وهما: «**رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ**»[(٢)]؛ أي: أن الله تعالى كتب ما الخلق عاملون؛ فما في اللوح المحفوظ لا يزاد فيه، ولا ينقص، ولا يُغير، ولا يُبدل.

قوله: (**كَمَا قَالَ سبحانه وتعَالَى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَـٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾** [الحج: ٧٠]): هذه الآية جمعت مرتبتي: العلم والكتابة؛ فما أدلها من آية!

قوله: (**وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى**

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (٢١٥٨٩)، وأبو داود: رقم (٤٦٩٩)، وابن ماجه: رقم (٧٧)، واللفظ له.

(٢) أخرجه أحمد: رقم (٢٦٦٩)، والترمذي: رقم (٢٥١٦)، وقال حديث حسن صحيح.

كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ [الحديد: ٢٢]):

«مصيبة»: نكرة في سياق الشرط تدل على العموم؛ فتتناول جميع الحوادث الأرضية والنفسية، و«نبرأها»: نخلقها ونخرجها للعيان؛ فهذه الآية من أعظم أدلة القدر.

قوله: (وَهَذَا التَّقْدِيرُ التَّابِعُ لِعِلْمِهِ سُبْحَانَهُ يَكُونُ فِي مَوَاضِعَ جُمْلَةً وَتَفْصِيلًا): أي: الدرجة الأولى المتضمنة للعلم والكتابة، يكون في مواضع مجملًا، وفي مواضع مفصلًا.

قوله: (فَقَدْ كَتَبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَا شَاءَ. وَإِذَا خَلَقَ جَسَدَ الْجَنِينِ قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ؛ بَعَثَ إِلَيْهِ مَلَكًا، فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، فَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ: رِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَعَمَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَمْ سَعِيدٌ، وَنَحْوَ ذَلِكَ): **فالتقادير أربعة أنواع**:

- **التقدير الكوني أو العام**: هو ما في اللوح المحفوظ؛ فهذا التقدير شامل لجميع المخلوقات.

- **التقدير العمري أو الجنيني**: هو ما دل عليه حديث عبد الله بن مسعود قال: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِك عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِك مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِك، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بِكَتْبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ**»[1]، فهذه المكتوبات الأربعة، أو الكلمات الأربع، يستنسخها الملك من اللوح المحفوظ؛ فلا تعارض بين هذا التقدير، وبين التقدير الكوني.

---

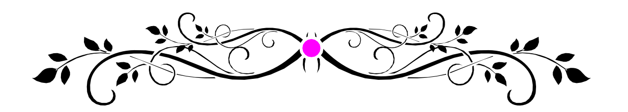
(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٢٠٨)، ومسلم: رقم (٢٦٤٣).

- **التقدير السنوي**: هو الذي يقضيه الله تعالى في ليلة القدر؛ قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤]، فتقادير العام من الصحة، والمرض، والحياة، والموت، وخلافه، يقع في ليلة القدر؛ فليلة القدر سُميت بهذا الاسم لسببين: لعظيم قدرها، ولأنه يقدر فيها حوادث العام؛ وبه يتبيَّن خطأ بعض الناس الذين يسمون ليلة النصف من شعبان، أو ليلة السابع والعشرين، «ليلة المحو والكتب»!، فإن المحو والكتابة والتقدير إنما يكون في ليلة القدر، وليس هذا تقديرًا حادثًا؛ بل هو مستمد مما في اللوح المحفوظ، يجري تجديده في صحائف الملائكة.

- **التقدير اليومي**: وهو ما دل عليه قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝٢٩﴾ [الرحمٰن: ٢٩]، فهو ﷻ يأمر وينهى، ويقضي ما يشاء، ويجري من الأقدار كل حين ما لا حصر له، وما لا يُحيط به إلا هو سبحانه؛ فهذا التفصيل لا يتنافى مع التقدير الإجمالي الذي في اللوح المحفوظ.

قوله: (فَهَذَا التَّقْدِيرُ قَدْ كَانَ يُنْكِرُهُ غُلاةُ الْقَدَرِيَّةِ قَدِيمًا، وَمُنْكِرُهُ الْيَوْمَ قَلِيلٌ): أي: الدرجة الأولى المتضمنة لمرتبتي العلم والكتابة، كان القدرية الأولى، أصحاب معبد الجهني، ينكرونه، لكن لشناعة هذه المقالة، وتضمنها وصف الله بالجهل، انحسرت وتلاشت، أو ضعفت، حتى كانت في زمن شيخ الإسلام لا يكاد يُعرف لها منكر، ولأن أهل الأهواء والبدع استعاضوا عنها بإنكار الدرجة الثانية.

۞ ۞ ۞



الدرجة الثانية وما تتضمنه

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

قوله: (وَأَمَّا الدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ؛ فَهِيَ مَشِيئَةُ اللهِ النَّافِذَةُ، وَقُدْرَتُهُ الشَّامِلَةُ، وَهُوَ: الإِيمَانُ بِأَنَّ مَا شَاءَ اللهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، وَأَنَّهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِنْ حَرَكَةٍ وَلَا سُكُونٍ؛ إِلَّا بِمَشِيئَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ، لَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ، فَمَا مِنْ مَخْلُوقٍ فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللهُ خَالِقُهُ سُبْحَانَهُ، لا خَالِقَ غَيْرُهُ، وَلَا رَبَّ سِوَاهُ).

الشَّرْح

الدرجة الثانية تتضمن مرتبتين:

ـ **مرتبة المشيئة:** وهي المرتبة الثالثة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي: الاعتقاد الجازم بمشيئة الله النافذة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، ولا يكون في ملكه ما لا يريد.

وقد تقدم في أول هذا الشرح أن الإرادة الربانية تنقسم إلى: كونية، وشرعية؛ فالإرادة الكونية: هي المشيئة، والإرادة الشرعية هي المحبة؛ فما شاء الله كونًا لا بد من وقوعه، وما أحب شرعًا فقد يقع، وقد لا يقع، والمقصود هاهنا: المشيئة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ

أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾ [النحل: ٤٠]، فلا يُتصور أن يشاء الله شيئًا ثم لا يقع، أو يشاء العبدُ شيئًا، والله لم يشأه، فتقع مشيئة العبد، وتتخلف مشيئة الرب؛ هذا ممتنع، فمشيئته ﷻ متعلقةٌ بكل حركةٍ وسكون؛ لأنها مقتضى ربوبيته؛ فالرب هو السيد المدبر، الآمر الناهي.

- **مرتبة الخلق**: وهي المرتبة الرابعة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي: الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى خالق كل شيء؛ فالله الخالق وما سواه مخلوق، وأن الله خلق جميع الموجودات؛ ذواتها، وصفاتها، وحركاتها، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠١]، [الفرقان: ٢]، وقال: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

وهذه الدرجة الثانية أنكرتها المعتزلة، وشبهتهم في ذلك: كيف يترتب ثوابٌ وعقاب على أفعال العباد التي شاءها منهم، وخلقها فيهم؟! كيف يستحقون الجنة وهو من شاء طاعاتهم وخلقها؟! وكيف يستحقون النار وهو من شاء معاصيهم وخلقها؟! هذا يقتضي - في زعمهم - وصفه بالظلم؛ فحملهم هذا الفهم القاصر على إنكار المشيئة والخلق، تنزيهًا لله عن الظلم، بزعمهم.

وجواب هذه الشبهة أن يقال: إن الله، سبحانه وبحمده، قد قدر منذ الأزل ما الخلق عاملون، وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، لكنه أخفى قدره عن عباده، وأظهر لهم شرعه، وأعطاهم من الأدوات والآلات ما يتمكنون فيه من الفعل أو الترك، وعذرهم فيما لا طاقة لهم به، وقال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني دخل النار؛ فقد غيَّب عنهم سبحانه كتاب القدر، وأظهر لهم كتاب الشرع، وقال: اعملوا! فإن عمل صالحًا، بمحض إرادته، ومجاهدته لهواه، استحق الثواب، وإن

عمل سوءًا، بسبق إصراره، واتباعه لهواه، استحق العقاب؛ لأنه لا يعلم قبل أن يعمل ما قدَّر الله عليه، وكتبه، وهذا عين العدل؛ فتهاوت بذلك شبهة القدرية.

وكل إنسان يُميز في نفسه بين أفعاله الاضطرارية، وأفعاله الاختيارية، بدليل: أنه في أموره الدنيوية يختار من الأعمال ما يلائمه، ولا يتَّكل على القدر؛ بل يسعى في مصالحه الخاصة؛ فإذا أراد مالًا ضرب في الأرض، وخرج في البرد القارس، أو في الحر اللاهب يطلب رزقه، ولم يتَّكل على القدر السابق، ولم يقل: إن كان لي رزق فسيأتيني في قعر بيتي! وإذا أراد الولد بذل المهر وتزوج، ولم يقل: إن كان الله قسم لي ذرية فسيطرقون عليّ الباب! فالله ﷻ كما هدانا لما يُصلحنا في معاشنا، هدانا لما يُصلحنا في معادنا، فكيف نُعمِل ما يصلح دنيانا أخذًا بالأسباب، ولا نُعمِل ما يصلح آخرانا اتكالًا على القدر؟!

وقد عرض هذا الخاطر للصحابة، رضوان الله عليهم، وسألوا عنه النبي ﷺ، فلم يعنفهم، وأجابهم بجواب مقنع فيه برد اليقين، وانثلاج الصدور؛ (فعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ فِي جَنَازَةٍ، فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الأَرْضَ، فَقَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ، وَمَقْعَدُهُ مِنَ الجَنَّةِ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَفَلَا نَتَّكِلُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ العَمَلَ؟ قَالَ: «**اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُيَسَّرُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ**»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥، ٦] الآيَةَ)[١].

فالعبد مدعوٌ إلى أن يؤمن بالقدر، ويعمل بالشرع، ويُحسن الظن

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٩٤٩)، ومسلم: رقم (٢٦٤٧).

بربه؛ فما أمر الله به امتثله، وما نهاه عنه اجتنبه، ويرجو رحمته، ويخشى عذابه.

فإن قيل: هل العبد مسيرٌ أم مخيّر؟

فالجواب: العبد مُيسّر! لا مُسيّر ولا مُخيّر؛ قال الله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ [الليل: ٧]، وقال: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ١٠]، وعَنْ عِمْرَانَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فِيمَا يَعْمَلُ العَامِلُونَ؟ قَالَ: «**كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ**»(١)؛ فلا يقال مسيّر بإطلاق؛ لأن الله أثبت للعبد مشيئة حقيقية؛ فقال: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨﴾ [التكوير: ٢٨]، وأثبت له فعلًا حقيقيًّا؛ فقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ﴾ [الليل: ٥، ٦]، وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ﴾ [الليل: ٨، ٩]؛ فأسند الإعطاء، والاتقاء، والتصديق للمطيع، كما أسند البخل، والاستغناء، والتكذيب للعاصي. ولا يقال مُخيّر بإطلاق؛ لقول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٩].

وإنما يكون الأمر ظلمًا ـ وحاشا أن يكون ـ لو أن الله، سبحانه، أطلع عباده على مقاديرهم، ثم أمرهم، ونهاهم! أما أن يُغيِّب الله ذلك عنهم، ويبيّن لهم ما يتقون، ثم يأمرهم وينهاهم، فيأتون ما يأتون، ويذرون ما يذرون، عن بينة وسبق إصرار، ومحض اختيار؛ فهذا ليس من الظلم في شيء.

وقد أنكر الله ﷻ على المشركين احتجاجهم بالقدر؛ فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ولا ريب أن الله لو شاء ما أشركوا، ولا آباؤهم، ولا حرموا من شيء، لكن ليس الشأن هنا! وإنما في احتجاجهم بالقدر على

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٥٥١)، ومسلم: رقم (٢٦٤٩).

شركهم وتحريمهم ما أحل الله، فهل تتم لهم الحجة؟ كلا! **فقد أبطلها الله من ثلاثة وجوه:**

الأول: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: فسمى مقالتهم كذبًا، والكذب هو مخالفة الخبر للواقع.

الثاني: ﴿حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]: ولو كان لهم حجةٌ في القدر ما أذاقهم الله بأسه؛ لأن الله حكم عدل مقسِط لا يظلم مثقال ذرة.

الثالث: ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآ﴾ [الأنعام: ١٤٨]: أي: هل اطلعتم على اللوح المحفوظ فوجدتم أنكم تشركون، وأنكم تحرمون ما أحل الله، ففعلتم ذلك بناء على اطلاعكم؟ كلا! بل حقيقة الأمر: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ [الأنعام: ١٤٨].

وهذه الدعوى ينتحلها بعض البطالين، العطالين، من الفساق! فتجد أحدهم إذا نهي عن معصية، قال: هذا شيء مقدر كتبه الله عليَّ!، فيحتج بقدر الله على معصية الله، أو إذا أُمِر بطاعة، قال: لو كتب الله لي ذلك لفعلته! فيقال له: وما يدريك أن الله ﷻ قد كتب عليك، أو لم يكتب عليك؟ إنما علمت ذلك بعد وقوع الفعل منك. مثال ذلك: إذا اشترى إنسان عنقودًا من عنب، بإمكانه أن يأكله حبةً حبة؛ يسمي الله في أوله، ويحمد الله في آخره، فيؤجر، وبإمكانه أن يعصره، ويدعه يتخمر فيشربه؛ فيسكر، ويأثم، فالأول مأجور، والثاني مأزور، وكل منهما أتى ما أتاه بمحض إرادته، وسبق إصراره، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: ٤٦].

فالذي يحتج بقدر الله على معصية الله لا حجة له؛ إذ كيف يحتج بشيءٍ لم يعلم أن الله قدره عليه إلا بعد صدوره منه؟! لو علم أن هذا هو قدر الله عليه، قبل فعله، لكان معذورًا، وأنى له!

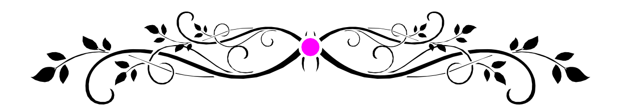
والذي يحتج بقدر الله على معصية الله لا يحتج به في أموره الدنيوية؛ فإذا جاء البرد، لبس الملابس الدافئة، فإذا قيل له: لم تفعل هذا؟ قال: أخشى أن يلحقني مرض، وصدق، ولو قيل له: إن كان الله قد كتب عليك مرضًا فستمرض، ولو لبست جميع الثياب! لم يقبل أن يخرج عاريًا في شدة البرد، مع أنه يحتج بقدر الله على معصية الله.

ويقال إن سارقًا رُفع إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأمر بقطع يده، فقال: مهلًا يا أمير المؤمنين، إنما سرقت بقدر الله، فقال عمر رضي الله عنه: ونحن نقطع يدك بقدر الله، وأضاف شيخنا ابن عثيمين رحمه الله وأيضًا: بشرع الله، ولهذا عتب عمر رضي الله عنه على أبي عبيدة حينما وقع طاعون عمواس بالشام؛ فلم يدخل عمر رضي الله عنه دمشق؛ فكتب إليه أبو عبيدة: (أَفِرَارًا مِن قَدَرِ اللهِ؟! فَقَالَ عُمَرُ: لو غَيْرُكَ قَالَهَا يا أَبَا عُبَيْدَةَ؟! نَعَمْ نَفِرُّ مِن قَدَرِ اللهِ إلى قَدَرِ اللهِ)(١).

فلا حرج على الإنسان أن يستدفع القدر بالدعاء، وبكل وسيلةٍ صحيحة ممكنة؛ قال صلى الله عليه وسلم: «**احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**»(٢). فبيّن ما ينبغي للحازم تُجاه الأمور المستقبلة، وما ينبغي للصابر حيال الأمور الماضية، وهذا من أعظم أسباب السعادة والفلاح.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٧٢٩)، ومسلم: رقم (٢٢١٩).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٦٦٤).



عدم التعارض بين القدر والشرع، ولا بين تقدير الله للمعاصي وبغضه لها

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمَعَ ذَلِكَ؛ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ، وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ. وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ).

الشَّرح

لما قرَّر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مراتب القدر، وأورد أدلتها من الكتاب والسُّنَّة، بيَّن أن ذلك لا ينافي الأمر والنهي، وأنه لا تلازم بين المحبة والمشيئة، فقد يحب ما لا يشاء، وقد يشاء ما لا يحب، لحكمة غائية.

وقد انقسم الناس، في العلاقة بين الشرع، والقدر، إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: **المشركية**: نسبةً إلى المشركين، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]؛ فأثبتوا القدر، وأنكروا الشرع، وأعفوا أنفسهم من الأمر والنهي؛ فهؤلاء يقابلهم في فِرق الأمة «الجبرية»، القائلون: العبد مجبور على فعله، **والجبرية صنفان:**

ـ **زنادقة الصوفية**: الذين يزعمون الشهود الكوني، وأن أفعالهم وتصرفاتهم بمنزلة حفيف الأشجار، وجريان الماء في الأنهار، وتعاقب الليل والنهار، وأنهم كالريشة في مهب الريح، وكالقشة فوق سطح الماء! فيعفون أنفسهم من الأوامر والنواهي، ويزعمون أنهم مستغرقون في بحر وحدة الوجود، ويسوغون لأنفسهم غشيان المعاصي والكبائر، كما قال قائلهم:

أصبحت منفعلًا لما تختاره   مني ففعلي كله طاعات

ـ **الأشاعرة**: الذين حاولوا تلفيق مقالةً بين مقالة الجبرية ومقالة أهل السُّنَّة؛ فأثبتوا المراتب الأربع، وزعموا أنهم يثبتون للعبد قُدرةً ومشيئةً، لكنها قدرة غير مؤثرة، يحصل الفعل عندها لا بها!

فوافقوا أهل السُّنَّة في إثبات القدر السابق، وبذلك فارقوا المعتزلة، لكنهم لم يحسنوا فهم عقيدة السلف، فظنوا أنَّ إثبات القدر السابق يمنع إثبات مشيئة وقدرة حقيقية للعبد؛ فقالوا بنظرية (الكسب)، ولا علاقة لهذا اللفظ بقول الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لكنهم ألبسوا بدعتهم هذا اللفظ الشرعي تأنيسًا لها؛ فزعموا أن الله تعالى يحدث قدرة مقارنةً للفعل الذي يصدر من العبد، ولم يستطيعوا أن يعبروا عن هذا بلغة واضحة مفهومة! لأنه أمر غير متعقل؛ حتى أنشد بعضهم:

مما يقال ولا حقيقة عنده   معقولة تدنو إلى الأفهام

الكسب عند الأشعري والحال   عند البهشمي وطفرة النظام

وقد اضطربت عبارات متكلميهم في تعريف «الكسب»، وهذا ملخصها من شفاء العليل:

١ ـ قال القاضي: الكسب ما وجدوا عليه قدرة محدثة.

٢ ـ وقيل: إنه المتعلق بالقادر على غير جهة الحدوث.

٣ ـ وقيل: إنه المقدور بالقدرة الحادثة.

٤ ـ وقال الإسفرائيني: حقيقة الكسب من المكتسب وقوعه بقدرته مع انفراده به.

٥ ـ وقال الأشعري وابن الباقلاني: الواقع بالقدرة الحادثة هو كون الفعل كسبًا، دون كونه موجودًا أو محدثًا؛ فكونه كسبًا وصفٌ للوجود بمثابة كونه معلومًا.

٦ ـ ولخص بعض متأخريهم هذه العبارات بأن قال: الكسب عبارة عن الاقتران العادي بين القدرة المحدثة والفعل؛ فإن الله سبحانه أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لا بهما؛ فهذا الاقتران هو الكسب[(١)].

٧ ـ وقال الصاوي، في شرح منظومة (جوهرة التوحيد): (هو تعلق قدرة العبد وإرادته بالفعل، فإذا تعلقت قدرة العبد وإرادته بالفعل، فمن عظيم قدرة الله تعالى إيجاد الفعل عند قدرة العبد لا بقدرته وإرادته، وذلك كقطع السكين مثلًا: فإن القطع عند مرور السكين لا بالسكين، فإنه يمكن تخلفه. فمقارنة قدرة العبد وإرادته لإيجاد الله هو المسمى «بالكسب»)[(٢)].

٨ ـ ما يقع به المقدور من غير صحة انفراد القادر به.

٩ ـ ما يقع به المقدور في محل قدرته.

القسم الثاني: **المجوسية**: نسبةً إلى المجوس؛ فإنّ المجوس شذّوا

---

(١) شفاء العليل لابن القيم: (ص٢٠٩ ـ ٢١٠).

(٢) شرح الصاوي على جوهرة التوحيد: (ص١٤٩ ـ ١٥٠).

عن بني آدم فأثبتوا خالقًا مع الله؛ فأثبتوا الشرع، وأنكروا القدر، ويشابهم، في فرق الأمة، «القدرية»، القائلون: إن العبد يخلق فعل نفسه، **والقدرية صنفان:**

- **القدرية الأولى، «الغلاة»**: الذين أنكروا جميع مراتب القدر، وإمامهم، وشيخهم معبد الجهني، الذي ظهر في أواخر الصحابة.

- **المعتزلة**: الذين أثبتوا العلم والكتابة، وأنكروا المشيئة والخلق.

ووجه تسميتهم مجوسًا؛ لأنهم يثبتون خالقًا مع الله، وهو العبد؛ فيزعمون أن العبد يخلق فعل نفسه، لكنهم يعظمون الأمر والنهي، بمعنى: أنهم يلزمون أنفسهم بفعل الأوامر، واجتناب المناهي؛ ولهذا جعلهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ أقل شرًا وخبثًا من الفرقة الأولى؛ الجبرية، لالتزامهم بالشريعة، وإن كانوا قد وقعوا في أمر عظيم، حينما أخلُّوا بمقتضى الربوبية.

القسم الثالث: **الإبليسية**: نسبة إلى إبليس، وذلك أن إبليس كان مقرًّا بالقدر، مقرًّا بلزوم الشرع، لكن زعم أن بينهما تناقضًا، كما حكى الله عنه بقوله: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ﴾ [الإسراء: ٦١، ٦٢]؛ فاعترض، مع كونه يثبت الربوبية لله، وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ۝١٢﴾ [الأعراف: ١٢]؛ فهو يثبت الخلق، ويرى أن لله أن يأمره وينهاه، ولذلك كان في عداد الملائكة؛ كما قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [الأعراف: ١١]، فلما وقع في قلبه ما وقع من الكبر والحسد، زعم أن بين الشرع والقدر تناقضًا.

القسم الرابع: **أهل السُّنَّة والجماعة**: الذين أقروا بالشرع والقدر، على وجه لا تعارض فيه، واعتقدوا أن الله قدر المقادير قبل خلق

السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعلم من سيطيعه ومن سيعصيه، وعلم أهل الجنة وأهل النار، وكتب ذلك عنده في اللوح المحفوظ، ووقعت أفعال العباد وفق مشيئته، وبقدرته وخلقه، وقد أخفى عنهم قدرهم، وأظهر لهم شرعه، وجعل لهم إرادةً حقيقةً، وقدرة حقيقيةً، بها يأتون وبها يذرون، وأعطاهم من الأدوات والآلات ما يتمكنون به من الفعل أو الترك، وعذرهم فيما لا طاقة لهم به، ورتب الثواب والعقاب على ما كسبوه، أو اكتسبوه.

قوله: (وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أَمَرَ الْعِبَادَ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رُسُلِهِ وَنَهَاهُمْ عَنْ مَعْصِيَتِهِ): أي: مع ما تقدم من إثبات القدر السابق، فلا تعارض بين القدر والشرع، كما قال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤].

قوله: (وَهُوَ سُبْحَانَهُ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ وَالْمُحْسِنِينَ وَالْمُقْسِطِينَ، وَيَرْضَى عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، وَلا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ، وَلَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ، وَلَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ، وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهُ الْكُفْرَ، وَلَا يُحِبُّ الْفَسَادَ):

لا تلازم بين المشيئة والمحبة؛ الله تعالى يحب التقوى، ويحب المتقين، ويحب الإحسان، ويحب المحسنين، ويحب القسط، ويحب المقسطين، ومع ذلك لم يشأ جعل الناس جميعًا على هذه الأوصاف؛ فليس كل ما أحبه شاءه، كما أنه يكره الكفر والكافرين، ويكره الفسق والفاسقين، ويكره الفساد والفاسدين، ولا يرضى هذه الأفعال، ومع ذلك شاء وجودها وقدَّرها؛ قال تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ [الزمر: ٧].

فإن قال قائل: لِمَ يشاء ما لا يحب؟ ولِمَ يحب ما لا يشاء؟ فيقال: لله تعالى حكمة بالغة في كل ما يقدِّر؛ وقد تكون حكمةً آنية، وقد تكون حكمةً مآليةً.

مثال ذلك: خلق إبليس، وما ترتب عليه من الكفر، والفسوق، والعصيان، قدَّره، لا لذاته، وإنما لمآلاته، وما يترتب عليه من الحكم والمصالح؛ فلولا خلق إبليس ما تميز المؤمنون من الكفار، ولا الأبرار من الفجار، ولا قام سوق الجنة والنار، ولا وجدت التوبة والاستغفار، ولا رفع علم الجهاد، ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ بل ولا عُرِف الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ كأسماء العزة والجلال، وأسماء الجمال والكمال، فإن هذه إنما تتبدى بحصول هذه الأمور المتقابلة.

مثال آخر: خلق الأمراض، والعقارب، والحيات، والذباب، يظن بعض السذج قاصري النظر، أن هذا خلاف الحكمة! فإن الله تعالى جعل الدنيا دار ابتلاء وكبد، ولم يجعلها دار جزاء، ونعيم، ورغد؛ فينشأ من هذه المعاناة تكفير السيئات، ورفعة الدرجات، والتوق إلى بلوغ الجنات.

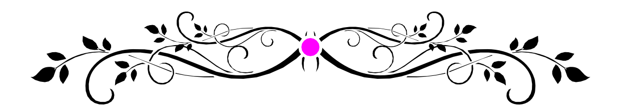
فالله ﷻ حكيم في كل ما قدر، كما أنه حكيم في كل ما شرع، والواجب على المؤمن أن يحسن الظن بالله تعالى، وأن لا يعتقد في الله إلا المثل الأعلى، وأن يطهر قلبه من كل ظن سوء؛ فإن سوء الظن أصل الكفر، وإنما كفر من كفر بسبب سوء ظنه بربه، لهذا قال إبراهيم: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٧﴾ [الصافات: ٨٧]، وقال: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣﴾ [فصلت: ٢٣].

فإذا ظن العبد بربه الظن الحسن، وأنه لا يصدر منه، سبحانه وبحمده، في شرعه، وقدره إلا ما هو خير، فهو المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان، ومن اتهم الله تعالى في شرعه أو قدره فهو الكافر، المرتاب قلبه بالكفر والأوهام؛ ولهذا قال نبيُّنا ﷺ: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ**

فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[(١)]، وقال مؤمنو الجن بأدب: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن: ١٠]؛ فلما كان الكلام عن الشر، لم يسندوه إلى الله بالاسم الظاهر، وأتوا بالفعل الذي لم يسم فاعله تأدبًا مع الله، وقال فتى موسى: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الكهف: ٦٣]، فنسب السبب المباشر إلى الشيطان، ولم يضفه إلى الله، مع أن كل شيء بقدر.



(١) أخرجه مسلم: رقم (٧٧١).



عدم التعارض بين إثبات القدر، وإسناد أفعال العباد إليهم حقيقة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً، وَاللهُ خَالَقَ أَفْعَالَهُم. وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ، وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ، وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي، وَالصَّائِمُ. وِلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، وَلَهُمْ إِرَادَةٌ، وَاللهُ خَالِقُهُمْ وَخالق قُدْرَتَهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]، وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ، وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإِثْبَاتِ، حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ، وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حِكَمَها وَمَصَالِحَهَا).

الشَّرح

هذه الجمل المتتابعة منها ما يردُّ على الجبرية، ومنها ما يردُّ على القدرية: **قوله**: (وَالْعِبَادُ فَاعِلُونَ حَقِيقَةً): ردٌّ على الجبرية؛ لأن الجبرية تزعم أن العبد لا يفعل حقيقةً، وأنه كالريشة في مهب الريح، وكالقشة فوق ظهر الماء، وكالمسمار في الترس، لا مشيئة له، ولا فعل؛ وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٨]؛ فأسند المشيئة والاستقامة إلى العباد، فهم فاعلون حقيقةً، لكنها لا تخرج عن

مشيئة الله؛ بمقتضى ربوبيته، كما قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٩].

قوله: (وَاللهُ خَالِقَ أَفْعَالَهُم): ردٌّ على القدرية، القائلين: العبد يخلق فعل نفسه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الفرقان: ٢]، وأصرح من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات: ٩٦].

قوله: (وَالْعَبْدُ هُوَ: الْمُؤْمِنُ وَالْكَافِرُ، وَالْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَالْمُصَلِّي وَالصَّائِمُ): ردٌّ على الجبرية؛ أي: أن هذه الأفعال، من العبادات أو المخالفات، تقوم فيه، وتضاف إليه حقيقة، لا صورة؛ قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢]؛ أتى بصيغة «اسم الفاعل»، الذي يدل على قيام الوصف به حقيقة. فلا يسمى مؤمنًا، إلا من آمن، ولا برًّا إلا من تبرر، ولا مصليًّا إلا من صلى، وهكذا أضدادها؛ قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾﴾ [الليل: ٥، ٦]، فأسند الله الإعطاء والتقوى والتصديق إلى العبد حقيقةً لا مجازًا، وبالمقابل: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [الليل: ٨، ٩]، فأسند البخل، والاستغناء، والتكذيب، إلى العبد حقيقة، لا مجازًا.

ويستدل الجبرية على شبهتهم بقول الله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، وأن حركة العبد حركة صورية، وأن أفعاله قهرية! وهذه الآية نزلت في غزوة بدر، حين أخذ النبي ﷺ كفًّا من تراب فرمى به معسكر الكفار، فما بقي رجل منهم إلا دخل في عينه منه شيء.

والجواب: أن الآية ردٌّ عليكم، وهكذا كل من استدل بدليل صحيح على قضية باطلة، فإن دليله ينقلب عليه؛ وذلك أن الله تعالى

أسند الرمي إلى نبيِّه، فقال: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧]، وهذا يدل على إسناد الفعل للعبد، والرمي يتناول شيئين: القذف، والإصابة؛ فأما القذف فوقع قطعًا من النبي ﷺ، وأما الإصابة فمن الله ﷻ؛ أي: أن الله أوصل رميك إلى عين كل واحد من المشركين.

ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا، لصح أن يقال: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى، وما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى؛ وانسحب على جميع التصرفات التي تصدر من العبد، مما ينزه الله عن ذكره، ولا يقول بهذا عاقل، فضلًا عن مؤمن.

قوله: (وَلِلْعِبَادِ قُدْرَةٌ عَلَى أفعالهم وَلَهُمْ إِرَادَةٌ): هذا ردٌّ على الجبرية أيضًا؛ فغلاة الجبرية تنفي قدرة العبد مطلقًا، ومُقتصِدُوهم يجعلونها غير مؤثرة، ويسمونها «الكسب»، **والدليل على أن للعباد قدرة وإرادة الشرع، والحس**:

ـ **أما الشرع**: فالقرآن مليء بإسناد الأعمال إلى العباد؛ كقوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣] فهم يأتون ويشاءون، والأمثلة التي يسند الله ـ تعالى ـ فيها الأفعال إلى الأقوام والأشخاص كثيرة، وفيرة.

ـ **أما الحس**: فهو الوَجْد الذي يجده كل إنسان؛ فيميز بين أفعاله الاختيارية، وأفعاله الاضطرارية، فكل حي متحرك يفعل بمحض إرادته؛ يأكل، ويشرب، وينقل الخطى، ويصلي ويصوم؛ لا يتحرك بصورة آلية.

قوله: (وَاللهُ خَالِقُهُمْ وخالق قُدْرَتهُمْ وَإِرَادَتَهُمْ): رد على القدرية؛ فالله خالق كل شيء، بما في ذلك صفاتهم وحركاتهم، طاعاتهم ومعاصيهم، فقد أودع الله فيهم هذه الخصائص، كما أودع القوى المختلفة في المخلوقات؛ فأودع في الماء خاصية الإرواء، وأودع في

الطعام خاصية الإشباع، وأودع الله في النار خاصية الإحراق، وأودع الله في السكين خاصية القطع، كذلك أودع الله في العباد خاصية الإرادة والفعل، لكن عقول هؤلاء المبطلين تعثرت في فهم هذه الأمور، مع بداهتها، وشهادة الحس بها.

قوله: (كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]): هاتان الآيتان فيهما شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، وقناعة العقول؛ تغنيان عن كلام كثير مما يقوله المنظِّرون؛ فأثبتتا للعباد مشيئة، وفعلًا، مندرجين تحت مشيئة الله، وفعله.

قوله: (وَهَذِهِ الدَّرَجَةُ مِنَ الْقَدَرِ يُكَذِّبُ بِهَا عَامَّةُ الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ سَمَّاهُمُ النَّبِيُّ: مَجُوسِ هَذِهِ الأُمَّةِ)؛ أي: الدرجة الثانية المتضمنة لإثبات المشيئة والخلق، يشترك في إنكارها القدرية الأولى؛ أتباع معبد الجهني، والمعتزلة المتأخرون.

قوله: (وَيَغْلُو فِيهَا قَومٌ مِنْ أَهْلِ الإثْبَاتِ حَتَّى سَلَبُوا الْعَبْدَ قُدْرَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ): وهم الجبرية؛ وسماهم أهل الإثبات؛ لأنهم غلوا في إثبات أفعال الله، وأنكروا أفعال العباد، فلا يثبتون للعبد قدرةً حقيقةً، ولا اختيارًا حقيقيًّا، ويزعمون أن إثبات ذلك يقتضي إثبات فاعل غير الله، وذلك شرك في الربوبية!

وقد بلغ بهم الحال حتى أن سلبوا الأشياء خصائصها؛ فسلبوا النار خاصية الإحراق، وقالوا: وقع عندها لا بها! يعني: أن الله خلق الاحتراق لحظة مقارنة النار للحطب! وسلبوا الماء خاصية الإرواء، قالوا: حصل عنده لا به! يعني: إن الله خلق الري لحظة مقارنة الماء لشفتيك وانحداره في جوفك لا به! وسلبوا السكين خاصية القطع،

وقالوا: حصل القطع عنده لا به! أي: أن الله خلق القطع لحظة مقارنة السكين لرقبة الذبيحة، لا به! فسلبوا الأشياء خواصها وطبائعها، وهكذا في الطعوم والروائح والألوان، وطردوا ذلك في طاعات العباد ومعاصيهم؛ فلهذا كانوا ضُحَكَةً للعقلاء، واستطال عليهم القدرية من المعتزلة، وسخروا منهم، وحق لهم أن يسخروا.

وقد جزم المصنف بتسمية النبي ﷺ، للقدرية النفاة «**مجوس هذه الأمة**»، والحديث الوارد في ذلك مختلف في ثبوته ورفعه، ولكن التشبيه صحيح؛ لأنهم شابهوا المجوس في إثبات خالق مع الله؛ فإن المجوس يثبتون إلـٰهًا للنور، يخلق الخير، وإلـٰهًا للظلمة، يخلق الشر، وهؤلاء القدرية أثبتوا خالقِين بعدد الناس؛ لأن كل مكلف عندهم يخلق فعل نفسه.

قوله: (وَيُخرِجُونَ عَنْ أَفْعَالِ اللهِ وَأَحْكَامِهِ حُكْمَهَا وَمَصَالِحَهَا): هذه من طامات الجبرية، فإنهم أنكروا الحكمة والتعليل، وقالوا: إن الله تعالى يفعل لمحض المشيئة، لا يفعل شيئًا لشيء! وهذا من العجب.

ونفي الحكمة والتعليل طعن في الربوبية، فإن من أسماء الله الحسنى «الحكيم»، والحكمة: وضع الشيء في موضعه، وما أكثر ما ترد لام التعليل، وكي، وباء السببية، في القرآن؛ كقوله الله ﷻ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقوله: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٦٠]، وأمثالها كثير، وكلها تدل على أن الله يفعل شيئًا لشيء، وهو مقتضى الكمال.

وقد عقد ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ، في كتابه الحافل «شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل»، بابين في بيان الحكمة

والتعليل، والرد على منكريها، وهذا الكتاب من أحسن، إن لم يكن أحسن، ما ألف في القدر؛ فمن أراد أن يتبين هذا الأمر، ويستقصي جوانبه وأطرافه، فعليه به؛ فإنه اسم على مسمى.

إشكالات وجوابها:

يشكل على بعض الناس نصوص في باب القدر، **منها:**

- **قول النبي ﷺ: «لَا يَرُدُّ الْقَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»**[1]: هل الدعاء يصرف القضاء المبرم المكتوب، فيقع خلاف ما كان في اللوح المحفوظ؟

الجواب: كلا، ولكن المقصود بالقضاء في قوله: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»، ليس الذي في أم الكتاب، وإنما الأمر الذي توافرت أسبابه ودواعيه، فيكون الله تعالى قد قدر في الأزل أن يعترضه سبب آخر هو الدعاء، فيرتفع الدعاء، وينزل القضاء؛ فيعتلجان في السماء، فربما غلب الدعاءُ القضاءَ فصُرف عنه.

مثال ذلك: قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]؛ فقد خرج منهم يونس عليه السلام مغاضبًا، بعد أن يأس منهم، فكانوا مستحقين لنزول العذاب، وكاد أن يطبق عليهم، وينزل بساحتهم، لولا أنهم آمنوا، وخرجوا في طلب نبيّهم، فكشف الله بإيمانهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا، ومتعوا إلى حين؛ وذلك هو المكتوب سلفًا في اللوح المحفوظ.

فلو قدرنا أن إنسانًا دعا الله سبحانه وتعالى فصرف عنه البلاء، بسبب الدعاء،

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢١٣٩).

فالذي في اللوح المحفوظ أن الله تعالى كتب البلاء، وكتب الدعاء، فيكون في سابق علمه ـ سبحانه ـ كتابة السبب والمسبب، والأثر والمؤثر، فلا يخرج شيء عن قضاء الله، ولا يقال: إن الله غيَّر ما كتب.

ـ **قوله تعالى**: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾ [الرعد: ٣٩]: هل يقع محو وإثبات في القدر؟

الجواب: إن المحو والإثبات، ها هنا، لا يتعلق بالمصائب، أو الأقدار، وإنما يتعلق بالحسنات والسيئات؛ فيمحو الله من السيئات، ويثبت من الحسنات ما يشاء، كما ورد في حديث: «**إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لِيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوِ الْمُسِيءِ، فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً**»[(١)]، فقد يتوب العبد فتمحى سيئته، ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]؛ فالأمر لا يتعلق بالمقدرات، وإنما يتعلق بالحسنات والسيئات؛ وعلى فرض أنه يتعلق بالمصائب والمقدرات، فإن هذا لا يطال ما في أم الكتاب؛ لأنه قال: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ٣٩﴾، وأم الكتاب: اللوح المحفوظ، لا يتغير ما كتب فيه، وإنما يتغير ما في صحف الملائكة، فيما يبدو لهم من مقتضى الأحوال.

ـ **قول النبي ﷺ**: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[(٢)]: هل يمكن أن يتغير ما قدر من الرزق والأجل؟

الجواب: لا إشكال في معنى الحديث، وإن كان قد استشكله بعض الشراح، وأتوا بأجوبة مُغربة، حتى قال بعضهم ما فحواه: قد

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: رقم (٧٧٦٥)، واللفظ له، والبيهقي في شعب الإيمان: رقم (٦٦٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٠٦٧)، ومسلم: رقم (٢٥٥٧).

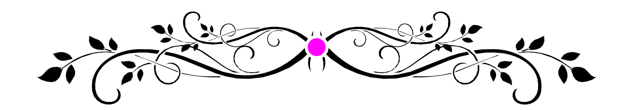
قدر الله له قدرين، فإن هو وصل رحمه فأجله مائة، ورزقه مائة، وإن هو قطع رحمه فأجله خمسين، ورزقه خمسين! فيكون الأمر محتملًا، وهذا جواب متهافت ضعيف؛ لأنه يقتضي أن الله لم يقدر المقادير، ولم يفرغ من العباد، فيتنافى هذا مع أصل الإيمان بالقدر.

ومنهم من حمله على الأمر المعنوي، بأن المقصود البركة، بمعنى: أن يبارك له في رزقه وعمره؛ وهذا خلاف ظاهر الحديث.

ولا إشكال بحمد الله، فإنما قال النبي ﷺ ما قال ليكشف عن سُنَّة من سنن الله في قدره، وهو أن الله ـ تعالى ـ يمد في أجل واصل الرحم، ويبسط له في رزقه؛ فحفز النبي ﷺ أمته بذلك على صلة أرحامهم، كما لو قلت لصاحبك: إن أردت أن تعيش صحيحًا معافى، فاعتدل في مطعمك، ومشربك، ونومك، وتجنب ما يضرك، بناءً على سنن الله المطردة في خلقه، وكما تقول لصاحبك: إذا ذهبت في طريق سفر، ورمت السلامة من الحوادث، فلا تتجاوز السرعة المقررة، وانتبه لعلامات المرور.

وبالجملة؛ فكل ما قد يخطر بالبال في باب القدر، فإنها قد تشكل على شخص، ولا تشكل على غيره، ودين الإسلام محكم متين: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، فينبغي لمن وقع في نفسه شيء أن يسأل فإنما شِفاء العِيّ السؤال.





مسألة الإيمان وحكم مرتكب الكبيرة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ: أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ؛ قَوْلُ الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ، وَعَمَلُ: الْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ. وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ).

الشَّرْح

هذه مسألة شريفة من أعظم مسائل الدين والاعتقاد؛ وهي مسألة الإيمان، وقد كانت من أوائل المسائل التي وقع فيها الافتراق في أمة محمد ﷺ؛ فإن أول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة الخوارج، وهي تتعلق بحد الإيمان وحقيقته؛ إذ كانت الخوارج تقول بكفر مرتكب الكبيرة، فنشأ بإزائها قول مضاد؛ وهو قول المرجئة، كما سيتبين.

قوله: (وَمِنْ أُصُولِ): الأصول جمع أصل، وهو ما يُبنى عليه غيره؛ فهذه المسألة من المسائل الكبار، والأصول العظام، عند أهل السُّنَّة والجماعة.

قوله: (أَنَّ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ قَوْلٌ، وَعَمَلٌ): حقيقة الإيمان، عند أهل السُّنَّة والجماعة: أن الإيمان مركب من القول والعمل؛ لا القول وحده، ولا العمل وحده؛ بل مجموع الأمرين. قال الإمام البخاري رحمه الله: (لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَهْلِ الْحِجَازِ وَمَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ وَالْكُوفَةِ وَالْبَصْرَةِ وَوَاسِطَ وَبَغْدَادَ وَالشَّامِ وَمِصْرَ لَقِيتُهُمْ كَرَّاتٍ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، ثُمَّ

قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ، أَدْرَكْتُهُمْ وَهُمْ مُتَوَافِرُونَ مُنْذُ أَكْثَرَ مِنْ سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً، أَهْلَ الشَّامِ وَمِصْرَ وَالْجَزِيرَةِ مَرَّتَيْنِ، وَالْبَصْرَةِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، فِي سِنِينَ ذَوِي عَدَدٍ؛ بِالْحِجَازِ سِتَّةَ أَعْوَامٍ، وَلَا أُحْصِي كَمْ دَخَلْتُ الْكُوفَةَ وَبَغْدَادَ مَعَ مُحَدِّثِي أَهْلِ خُرَاسَانَ، مِنْهُمْ ـ وذكر خمسة وأربعين رجلًا من كبار المحدثين...، فَمَا رَأَيْتُ وَاحِدًا مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ: أَنَّ الدِّينَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ؛ وَذَلِكَ لِقَوْلِ اللهِ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ [البينة: ٥](١)؛ فهذا محل إجماع بين أهل السُّنَّة والجماعة.

قوله: (قَوْلُ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وعَمَلُ الْقَلْبِ، وَاللِّسَانِ، وَالْجَوَارِحِ): هذا تفصيل بعد إجمال؛ فقد بيّن أن القول له شعبتان: قول القلب، وقول اللسان، وأن العمل له ثلاث شعب: عَمَلُ الْقَلْبِ، وعمل اَللِّسَانِ، وعمل اَلْجَوَارِحِ؛ **فآل إلى خمس شعب**:

الأولى: **قول القلب**: وهو اعتقاده وتصديقه ويقينه؛ أي: ما يعقد عليه القلب من اليقينيات، والمعارف الضروريات؛ كاعتقاد الإنسان بأن الله واحد لا شريك له، وأنه مستحق لصفات الكمال ونعوت الجلال، وأنه أرسل رسلًا، وأنزل كتبًا، وأنه جعل يومًا يحاسَب فيه الناس ويجازَون؛ فإمّا إلى الجنة، وإما إلى النار؛ وقول القلب هو أصل الإيمان.

الثانية: **قول اللسان**: وهو الاستعلان بالشهادتين؛ أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله؛ فإن هاتين الجملتين بوابة الإسلام؛ فلا يُحكم لأحد بإسلام حتى ينطق بهما، فمن أبى أن ينطق

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: (١/ ١٩٤).

بهما فإنه لا يُحكم بإسلامه؛ بل القول المتفق عليه، عند السلف، أنه لو أقر بهما بقلبه، وأبى أن ينطق بهما بلسانه، من غير عذر، فإنه كافر ظاهرًا وباطنًا؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَأَمَّا «الشَّهَادَتَانِ» إذَا لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِمَا مَعَ الْقُدْرَةِ فَهُوَ كَافِرٌ بِاتِّفَاقِ الْمُسْلِمِينَ وَهُوَ كَافِرٌ بَاطِنًا وَظَاهِرًا عِنْدَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا وَجَمَاهِيرِ عُلَمَائِهَا وَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ الْمُرْجِئَةِ وَهُمْ جهمية الْمُرْجِئَةِ: كَجَهْمِ وَالصَّالِحِيِّ وَأَتْبَاعِهِمَا إلَى أَنَّهُ إذَا كَانَ مُصَدِّقًا بِقَلْبِهِ كَانَ كَافِرًا فِي الظَّاهِرِ دُونَ الْبَاطِنِ وَقَدْ تَقَدَّمَ التَّنْبِيهُ عَلَى أَصْلِ هَذَا الْقَوْلِ وَهُوَ قَوْلٌ مُبْتَدَعٌ فِي الْإِسْلَامِ لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ الْإِيمَانَ الْبَاطِنَ يَسْتَلْزِمُ الْإِقْرَارَ الظَّاهِرَ؛ بَلْ وَغَيْرَهُ وَأَنَّ وُجُودَ الْإِيمَانِ الْبَاطِنِ تَصْدِيقًا وَحُبًّا وَانْقِيَادًا بِدُونِ الْإِقْرَارِ الظَّاهِرِ مُمْتَنِعٌ)[١].

الثالثة: **عمل القلب**: وهو ما يتحرك به القلب من النيات والإرادات، وهو قدر زائد عن اعتقاد القلب وتصديقه. والمراد به: ما يقوم في القلب من المحبة والخوف والرجاء والتوكل، ونحو ذلك من الأعمال القلبية.

الرابعة: **عمل اللسان**: وهو ما يلهج به اللسان من الكلم الطيب؛ كالتسبيح، والتهليل، والتحميد، والتكبير، وتلاوة القرآن، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، فإن هذا كله إيمان. وهو قدر زائد على مجرد الاستعلان بالشهادتين.

الخامسة: **عمل الجوارح**: وهو ما يتحرك بها الإنسان بجوارحه؛ اليدين والرجلين وسائر أعضائه، من العبادات؛ كالركوع والسجود،

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٧/ ٦٠٩).

والقيام والقعود، والطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، ونقل الخطا إلى المساجد، وإماطة الأذى عن الطريق، ونحو ذلك. فهذا كله من الإيمان.

وبهذا يتبين أن مفهوم الإيمان عند أهل السُّنَّة والجماعة يتناول الدين كله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢].

والأدلة على أن هذه الأمور الخمسة داخلة في حد الإيمان وحقيقته، كثيرة:

فالدليل على أن قول القلب من الإيمان: قول النبي ﷺ في حديث جبريل حين سأله عَنِ الْإِيمَانِ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[(١)].

والدليل على أن قول اللسان من الإيمان: قول الله ﷻ: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقول النبي ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَمَنْ قَالَهَا فَقَدْ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ إِلَّا بِحَقِّهِ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ**»[(٢)].

والدليل على أن عمل القلب من الإيمان: قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]، ووجل القلب وخشيته من عمل القلب. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢]،

(١) أخرجه مسلم: رقم: (٨).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٣٩٩)، ومسلم: رقم (٢٠).

والتوكل من عمل القلب، وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨]، والطمأنينة من عمل القلب، وأمثال هذا كثير.

والدليل على أن عمل الجوارح من الإيمان، قول الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]؛ فإن هذه الآية نزلت بعد تحويل القبلة، فعَنِ البَرَاءِ رضي الله عنه: (أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ صَلَّى إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ البَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى، أَوْ صَلَّاهَا، صَلَاةَ العَصْرِ وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ، فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ المَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، قَالَ: أَشْهَدُ بِاللهِ، لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ البَيْتِ، وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى القِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ البَيْتِ رِجَالٌ قُتِلُوا، لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة: ١٤٣])[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لَمَّا وُجِّهَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْكَعْبَةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، فَكَيْفَ بِمَنْ مَاتَ مِنْ إِخْوَانِنَا قَبْلَ ذَلِكَ، الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يُصَلُّونَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟» فَأَنْزَلَ اللهُ ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣])[2]، ولم يقل صلاتكم، فسمى الصلاة إيمانًا.

ومن الأدلة الجامعة لهذه الخصال: قول النبي ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا**

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد: رقم (٣٢٤٩)، وأبو داود: رقم (٤٦٨٠)، والترمذي: رقم (٢٩٦٤)، وابن حبان في صحيحه: رقم (١٧١٧).

إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(١)؛ فقوله: «**فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**»: يدل على قول القلب، وقول اللسان؛ لأنه يقولها بلسانه معتقدًا إياها بقلبه، وقوله: «**وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ**»: يدل على عمل الجوارح، وقوله: «**وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»، يدل على عمل القلب إذ الحياء عمل قلبي.

فتبيَّن ـ بحمد الله ـ أن ما ذهب إليه أهل السُّنَّة والجماعة، من أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل، هو القول الصحيح، الذي تدل عليه النصوص.

وقد زعم بعضهم أن **معنى الإيمان في اللغة**: التصديق، حتى إن بعض اللغويين حكى الاتفاق على ذلك، واستدلوا بقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف: ١٧]، والصحيح: أن الإيمان نوع خاص من التصديق؛ فإنه يتضمن معنى الائتمان؛ فلا يقال: (آمن)، إلا عن شيء غيبي؛ بخلاف الأمور التي يمكن التحقق الحسي منها، فلو قال لك قائل: طلعت الشمس، لم تقل: آمنت له، أو آمنت به؛ لأن هذا أمر يدرك، أما الأمور المغيبة الخفية، التي يكون مدارها على الثقة والائتمان، فيعبر عن قبولها والرضى بها والانقياد لها بلفظ: «الإيمان»؛ فليس الإيمان مرادفًا للتصديق، لكنه تصديق خاص، ورجح بعض أهل العلم تفسيره بالإقرار، لتضمنه القبول، والرضا، والانقياد؛ وبهذا يتطابق المعنى اللغوي مع المعنى الشرعي.

وربما عبّر أهل السُّنَّة بتعريفات مقاربة، مؤداها واحد؛ قال شيخ الإسلام: (مَنْ قَالَ مِنْ السَّلَفِ: الْإِيمَانُ قَوْلٌ وَعَمَلٌ أَرَادَ: قَوْلَ الْقَلْبِ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٩)، ومسلم: رقم (٣٥)، واللفظ له.

وَاللِّسَانِ وَعَمَلَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ؛ وَمَنْ أَرَادَ الِاعْتِقَادَ رَأَى أَنَّ لَفْظَ الْقَوْلِ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ إلَّا الْقَوْلُ الظَّاهِرُ أَوْ خَافَ ذَلِكَ فَزَادَ الِاعْتِقَادُ بِالْقَلْبِ، وَمَنْ قَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ قَالَ: الْقَوْلُ يَتَنَاوَلُ الِاعْتِقَادَ وَقَوْلَ اللِّسَانِ، وَأَمَّا الْعَمَلُ فَقَدْ لَا يُفْهَمُ مِنْهُ النِّيَّةُ فَزَادَ ذَلِكَ، وَمَنْ زَادَ اتِّبَاعَ السُّنَّةِ فَلِأَنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ لَا يَكُونُ مَحْبُوبًا لِلَّهِ إلَّا بِاتِّبَاعِ السُّنَّةِ وَأُولَئِكَ لَمْ يُرِيدُوا كُلَّ قَوْلٍ وَعَمَلٍ إنَّمَا أَرَادُوا مَا كَانَ مَشْرُوعًا مِنْ الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ، وَلَكِنْ كَانَ مَقْصُودُهُمْ الرَّدَّ عَلَى «الْمُرْجِئَةِ» الَّذِينَ جَعَلُوهُ قَوْلًا، فَقَطْ فَقَالُوا: بَلْ هُوَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَالَّذِينَ جَعَلُوهُ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ فَسَّرُوا مُرَادَهُمْ كَمَا سُئِلَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللهِ التستري عَنْ الْإِيمَانِ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: قَوْلٌ وَعَمَلٌ وَنِيَّةٌ وَسُنَّةٌ لِأَنَّ الْإِيمَانَ إذَا كَانَ قَوْلًا بِلَا عَمَلٍ فَهُوَ كُفْرٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا بِلَا نِيَّةٍ فَهُوَ نِفَاقٌ وَإِذَا كَانَ قَوْلًا وَعَمَلًا وَنِيَّةً بِلَا سُنَّةٍ فَهُوَ بِدْعَةٌ)[١].

فلا ينكر وجود اختلاف في التعبيرات، فإن مآلها إلى حقيقة واحدة، فأهل السُّنَّة والجماعة مُطبِقون على أن الإيمان له حقيقة مركبة من القول والعمل.

أما المخالفون في هذا الباب فأصناف شتى، **لكنهم يؤولون إلى طائفتين**:

إحداهما: **المرجئة**: والوصف الجامع لهم: إخراج العمل عن مسمى الإيمان، ولذلك سموا مرجئة؛ لأنهم أرجئوا العمل عن مسمى الإيمان؛ أي: أخروه، **وهم طبقات**:

أولًا: **الجهمية**: المنسوبون إلى الجهم بن صفوان السمرقندي،

---

(١) مجموع الفتاوى: (٧/ ١٧١).

وهم الذين اجتمعت فيهم الجيمات الثلاث الخبيثة؛ جيم التجهم؛ أي: نفي الصفات، وجيم الجبر: إنكار أفعال العباد، وجيم الإرجاء: إخراج العمل عن مسمى الإيمان؛ وهم أشد طبقات المرجئة؛ قالوا: الإيمان: معرفة القلب فقط! فمن عرف بقلبه فهو مؤمن، وقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب!

ولا ريب أن مجرد تصور هذا القول كافٍ في إسقاطه، فإنه لو كان الإيمان مجرد المعرفة:

- لكان مشركو العرب مؤمنين؛ فإنهم قد عرفوا، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ۝٩﴾ [الزخرف: ٩]، وقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]، فلازم ذلك أن يكون من سمّاهم الله مشركين، مؤمنين؛ لأنهم قد عرفوا.

- ولكان أبو طالب، الذي مات على ملة عبد المطلب مؤمنًا؛ لأنه قد صرح بالمعرفة، حتى إنه أنشد أبياتًا في هذا، منها قوله:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ ... مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينَا
لَوْلَا الْمَلَامَةُ أَوْ حِذَارُ مَسَبَّةٍ ... لَوَجَدْتَنِي سَمْحًا بِذَاكَ مُبِينَا

فهو قد عرف، لكن هذه المعرفة لم تنقله من الكفر إلى الإيمان؛ فعن العَبَّاس بْنُ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه، قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «**هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**»(١).

- ولكان اليهود والنصارى مؤمنين؛ لأن الله تعالى قد قال عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]؛ فشهد الله لهم بالمعرفة، فلو

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٨٨٣)، ومسلم: رقم (٢٠٩).

كان مجرد المعرفة كافٍ في إثبات الإيمان، لما أكفرهم الله ـ تعالى ـ في كتابه، في أكثر من ثلاثة مواضع؛ ثلاثة منها في سورة المائدة، وهي من آخر ما أنزل من القرآن.

ـ ولكان فرعون وملؤه مؤمنين؛ لأن الله تعالى قد قال عنهم: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]، وهذا ليس مجرد معرفة فقط؛ بل معرفة ويقين، ومع ذلك فهم أكفر الكافرين، فقد شهد عليه موسى عليه السلام، فقال: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾ [الإسراء: ١٠٢] فقد علِم، لكن عِلْمه ذلك لم يُثبت له وصف الإيمان.

ـ ولكان إبليس مؤمنًا؛ لأن إبليس قد عرف الله وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [ص: ٨٢]، وقال: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٢]، [ص: ٧٦]، وقال: ﴿فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: ٣٦]، [ص: ٧٩].

فأين تذهب الجهمية؟! لا شك أن مقالتهم ساقطة، وأنها من أبعد الأقوال في باب الإيمان.

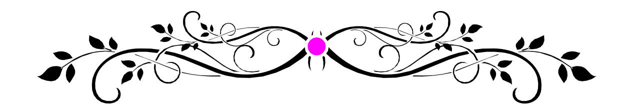
ثانيًا: **الكرامية**: وهم المنسوبون إلى محمد بن كرّام السجستاني؛ زعموا أن الإيمان قول اللسان! فمن قال بلسانه فهو مؤمن ظاهرًا وباطنًا، وهذه مقالة ساقطة أيضًا؛ لأن لازمها أن يكون المنافقون مؤمنين؛ إذ المنافقون يقولون بألسنتهم، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾ [المنافقون: ١]، فكيف يدّعي هؤلاء الكرامية أن مجردَ قول اللسان دليلُ الإيمان ظاهرًا وباطنًا! ومن تناقضهم أنهم يحكمون بأن المنافق مؤمن في

الدنيا، مخلد في النار في الآخرة! وقد أخطأ بعض الناس، ومنهم ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ حين نسبوا إلى الكرامية أنهم يقولون: إن المنافق في الجنة، فقد ظنوا أن لازم القول قول؛ والواقع أنهم لا يلتزمون بذلك.

ثالثًا: مرجئة الفقهاء؛ أي: فقهاء الكوفة، وهم أصحاب أبي حنيفة، وشيخه حماد بن أبي سليمان ـ رحمهم الله ـ؛ فقد خالفوا جمهور أهل السُّنَّة والجماعة، وقَصَروا الإيمان على قول اللسان، واعتقاد القلب فقط، وقالوا: الأعمال ليست داخلة في مسمى الإيمان وحقيقته؛ بل هي ثمرة له، وقدر خارج عنه، وقد جرى على هذا الإمام الطحاوي، صاحب العقيدة الطحاوية، وفيها: (والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان)، ولم يذكر عمل الأركان، وهذا من أهم ما يستدرك على العقيدة الطحاوية.

ومقالة مرجئة الفقهاء، على قصورها ليست بعيدة؛ وذلك أنهم يوافقون جمهور أهل السُّنَّة والجماعة في الأحكام، ويخالفونهم في الأسماء.





مقارنة بين مذهب أهل السُّنَّة والجماعة، ومذهب مرجئة الفقهاء

مواضع الاتفاق:

١ ـ يجب على الناس امتثال أوامر الله، واجتناب مناهيه.

٢ ـ المطيع محمود في الدنيا، مثاب في الآخرة.

٣ ـ العاصي مذموم في الدنيا، مستحق للعقوبة في الآخرة.

٤ ـ مرتكب الكبيرة لا يخرج عن الإيمان، ولا يوصف بالكفر.

٥ ـ وجوب إقامة الحدود والتعزيرات، ولزوم الكفارات، على ما تقتضيه الشريعة.

فلهذا قال من قال: الخلاف بين جمهور أهل السُّنَّة ومرجئة الفقهاء خلاف لفظي، صوري، وليس خلافًا حقيقيًّا، معنويًّا.

مواضع الاختلاف:

١ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يدخلون العمل في حقيقة الإيمان، ومسماه، وحدِّه، وتعريفه. ومرجئة الفقهاء يخرجون العمل عن مسمى الإيمان، ويقولون: العمل قدر زائد عن الإيمان، والإنسان يمكن أن يكون مؤمنًا بلا عمل؛ فالعمل ثمرة لا أصل.

٢ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يقولون: الإيمان يزيد وينقص، ومرجئة الفقهاء يقولون: الإيمان لا يزيد، ولا ينقص؛ بل هو شيء واحد؛ لأن الإيمان عندهم هو التصديق؛ فإما أن يوجد كله، أو يعدم كله.

٣ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يوجبون الاستثناء في الإيمان، وهو أن يقول: أنا مؤمن، إن شاء الله؛ لأن الإيمان عندهم خصال ومراتب، فيوجبون الاستثناء في الإيمان، خوف تزكية النفس بادّعاء استكمال خصال الإيمان، وقد (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَبْدِ اللهِ فَقَالَ: إِنِّي لَقِيتُ رَكْبًا فَقُلْتُ: مَنْ أَنْتُمْ؟ قَالُوا: «نَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ قَالَ: فَقَالَ: أَلَا قَالُوا نَحْنُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»)[1]، ومرجئة الفقهاء يمنعون الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم شيء واحد هو التصديق؛ فلو استثنى، لعدّوا ذلك شكًّا وتردُّدًا، **والتفصيل في هذه المسألة أن يقال:**

ـ إن كان الحامل على الاستثناء في الإيمان خوف تزكية النفس، فالاستثناء واجب.

ـ وإن كان الحامل على الاستثناء في الإيمان الشك والتردد في أصل الإيمان، فالاستثناء محرم.

ـ وإن كان الحامل على الاستثناء هو التبرك بذكر المشيئة، فهذا جائز؛ فقد قال الله ـ تعالى ـ، في أمر يقيني مقطوع فيه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

٤ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يرون أن الكفر ينقسم إلى قسمين: اعتقادي، وعملي، ويقولون: الكفر يتعلق بالقلب، وباللسان، وبالجوارح، كما أن الإيمان يتعلق بالقلب، وباللسان، وبالجوارح؛ فتعلقه بالقلب: بالجحود والاستحلال، وتعلقه باللسان: بتلفظه بكلمة الكفر عالمًا، عامدًا، مختارًا، وتعلقه بالجوارح: بفعل الكفر، عامدًا، عالمًا، مختارًا؛ كالسجود لغير الله، أو إهانة المصحف، أو قتل نبي أو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب الإيمان: رقم (٢٣)، والقاسم بن سلام في كتاب الإيمان: رقم (١٠).

سبه، ومرجئة الفقهاء لا يرون الكفر إلا كفر الاعتقاد، وهو الجحود والاستحلال؛ فيقصرون الكفر على القلب فقط بناءً على أصلهم؛ وهو أن الإيمان هو التصديق.

٥ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يرون أنَّ الإيمان يتفاضل ويتفاوت؛ فيميزون بين أصل الإيمان، والإيمان الواجب، والإيمان الكامل، ومرجئة الفقهاء يرون أن الإيمان واحد، لا تفاضل فيه؛ إما أن يوجد كله، أو يذهب كله، غير أنهم يثبتونه بمجرد التصديق بالجنان، والنطق باللسان؛ وناتج ذلك أن أهل السُّنَّة والجماعة يرون أن المؤمنين يتفاضلون في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢]، ومرجئة الفقهاء يرون أن المؤمنين سواء، لا تفاضل بينهم، وأن التفاضل في الأعمال، والأعمال خارج الإيمان، كما قال الطحاوي: «والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء». ويقولون: إيمان أفجر الناس؛ كإيمان أتقى الناس! إيمان أفجر الناس؛ كإيمان أبي بكر وعمر!

٦ ـ أهل السُّنَّة والجماعة يرون أن الولاية تتفاوت بحسب الإيمان؛ فيوالى المؤمن بقدر ما عنده من إيمان؛ قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]، ومرجئة الفقهاء يجعلون الولاية واحدة؛ لا فرق بين المؤمنين، كما أجمل الطحاوي ذلك بقوله: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمٰن».

ومع ذلك فالخطب سهل، والخُلف بين جمهور أهل السُّنَّة والجماعة، وبين مرجئة الفقهاء مُحتمل، حتى إن الأئمة لا يشنعون عليهم

التشنيع البليغ، الذي يشنعونه على غلاة المرجئة؛ لأنا وإياهم متفقون في الأحكام، وإن اختلفنا في الألفاظ؛ فالجميع يأمر بفعل أوامر الله، واجتناب مناهيه، وإقامة الحدود والتعزيرات، ورسوم الدين المختلفة، وأما مسألة التكفير، فرغم أنهم يقصرون الكفر على الجحود والاستحلال، إلا أنهم من أوسع المذاهب في التكفير! لأنهم يجعلون بعض الأعمال والأقوال علامة على كفر القلب، كما لو قال: «مصيحف» أو «مسيجد».

والمحذور في مقالة مرجئة الفقهاء ما نبَّه عليه شارح الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي رَحِمَهُ اللهُ بقوله: (وَإِذَا كَانَ النِّزَاعُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ نِزَاعًا لَفْظِيًّا، فَلَا مَحْذُورَ فِيهِ سِوَى مَا يَحْصُلُ مِنْ عُدْوَانِ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ عَلَى الْأُخْرَى وَالِافْتِرَاقِ بِسَبَبِ ذَلِكَ، وَأَنْ يَصِيرَ ذَلِكَ ذَرِيعَةً إِلَى بِدَعِ أَهْلِ الْكَلَامِ الْمَذْمُومِ مِنْ أَهْلِ الْإِرْجَاءِ وَنَحْوِهِمْ، وَإِلَى ظُهُورِ الْفِسْقِ وَالْمَعَاصِي، بِأَنْ يَقُولَ: أَنَا مُؤْمِنٌ مُسْلِمٌ حَقًّا كَامِلُ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ وَلِيٌّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللهِ! فَلَا يُبَالِي بِمَا يَكُونُ مِنْهُ مِنَ الْمَعَاصِي. وَبِهَذَا الْمَعْنَى قَالَتِ الْمُرْجِئَةُ: لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ لِمَنْ عَمِلَهُ! وَهَذَا بَاطِلٌ قَطْعًا)[١].

وقد ألف أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللهُ وهو من كبار الأئمة: «كتاب الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته»، فذكر مقالة أهل السُّنَّة، ودلل عليها، وثنّى بمقالة مرجئة الفقهاء، ورد عليها، وقال: (قد ذكرنا ما كان من مفارقة القوم إيانا في أن العمل من الإيمان، على أنهم وإن كانوا لنا مفارقين، فإنهم ذهبوا إلى مذهب قد يقع الغلط في مثله. ثم حدثت فرقة ثالثة شذّت عن الطائفتين جميعًا، ليست من أهل العلم

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي: (٢/ ٤٧٠).

ولا الدين، فقالوا: الإيمان معرفة بالقلوب بالله وحده، وإن لم يكن هناك قول ولا عمل! وهذا منسلخ عندنا من قول أهل الملل الحنفية)[(١)]؛ فميَّز بين مرجئة الفقهاء، وغلاة المرجئة، وذمهم ذمًّا ذريعًا، ونفاهم من الدين والملة؛ وهذا يُنَبِه طالب العلم إلى استعمال العدل والإنصاف في أحكامه؛ فلا يحشر المخالفين في خندق واحد؛ بل يميز بينهم؛ فأهل البدع ليسوا سواءً؛ منهم من يكون قريبًا من السُّنَّة، ومنهم من يكون بعيدًا؛ فلا يعامل الجميع معاملة واحدة؛ بل يعامل كل أحد بما يليق به، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، وقال: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

الثانية: **الوعيدية**: ويتناول فرقتين: الخوارج والمعتزلة، وسموا وعيدية؛ لأنهم قالوا بإنفاذ الوعيد؛ قالوا: كل من توعده الله بعقوبة أخروية، فإنه يجب على الله أن ينفذ فيه وعيده، وينكرون أحاديث الشفاعة المتواترة في أن الله ـ تعالى ـ يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة، مثقال برة، مثقال شعيرة، مثقال خردلة، من إيمان، كما نطقت بذلك الأحاديث الصحيحة المتواترة، ويردون ذلك كله.

وتقر الوعيدية بأن الإيمان قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان؛ لكنهم يفسدون ذلك، أيما إفساد، بقولهم بكفر مرتكب الكبيرة؛ فعندهم أن من ترك واجبًا، أو فعل محرمًا، حبط إيمانه كله.

وأول بدعة ظهرت في الإسلام بدعة الخوارج؛ فكفّروا أصحاب الجمل، وصفِّين، والحكمين. وانحازوا إلى موضع يقال له: حروراء، وأمَّروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي، ثم إن عليًّا رضي الله عنه قال: ندعهم ما ودعونا؛ وراسلهم عدة مرات فيما ينقمون عليه، لكن القوم أبوا إلا

(١) كتاب الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام: (ص٥٩).

العناد والإغلاق، كما وصفهم النبي ﷺ، بقوله: «**تَمْرُقُ مَارِقَةٌ فِي فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ**»[(١)]، **والمراد بالفُرقة ما وقع في الأمة من الخلاف بين أهل الشام، وأهل العراق؛ بين عليٍّ** رضي الله عنه، ومعاوية رضي الله عنه، وبين عليٍّ رضي الله عنه، وطلحة والزبير رضي الله عنهما وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلَاتَكُمْ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، وَيَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الْقِدْحِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الْفُوقِ**»[(٢)]، فكأنهم دخلوا في الدين، وخرجوا منه بسرعة فائقة.

وقد ناظرهم حبر هذه الأمة وترجمان القرآن، عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما في حادثة مشهورة، فيها فوائد وعبر، ننقلها بطولها. قَالَ رضي الله عنه: لَمَّا خَرَجَتِ الْحَرُورِيَّةُ اجْتَمَعُوا فِي دَارٍ، وَهُمْ سِتَّةُ آلَافٍ، أَتَيْتُ عَلِيًّا رضي الله عنه فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَبْرِدْ بِالظُّهْرِ لَعَلِّي آتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فَأُكَلِّمَهُمْ، قَالَ: إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ، قَالَ: قُلْتُ: كَلَّا، قَالَ: فَخَرَجْتُ آتِيهُمْ، وَلَبِسْتُ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنْ حُلَلِ الْيَمَنِ، فَأَتَيْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَمِعُونَ فِي دَارٍ، وَهُمْ قَائِلُونَ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا: مَرْحَبًا بِكَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ، فَمَا هَذِهِ الْحُلَّةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: مَا تَعِيبُونَ عَلَيَّ؟ لَقَدْ رَأَيْتُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ مَا يَكُونُ مِنَ الْحُلَلِ، وَنَزَلَتْ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ [الأعراف: ٣٢]، قَالُوا: فَمَا جَاءَ بِكَ؟ قُلْتُ: أَتَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٥٠٥٨)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١٠٦٤).

صَحَابَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، لِأُبَلِّغَكُمْ مَا يَقُولُونَ، وَتُخْبِرُونَ بِمَا تَقُولُونَ، فَعَلَيْهِمْ نَزَلَ الْقُرْآنُ، وَهُمْ أَعْلَمُ بِالْوَحْيِ مِنْكُمْ، وَفِيهِمْ أُنْزِلَ وَلَيْسَ فِيكُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَا تُخَاصِمُوا قُرَيْشًا، فَإِنَّ اللهَ يَقُولُ: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ۝٥٨﴾ [الزخرف: ٥٨]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَأَتَيْتُ قَوْمًا لَمْ أَرَ قَوْمًا قط أَشَدَّ اجْتِهَادًا مِنْهُم، مُسَهَّمَةً وُجُوهُهُمْ مِنَ السَّهَرِ، كَأَنَّ أَيْدِيَهُمْ وَرُكَبَهُمْ ثَفِنٌ، عَلَيْهِمْ قُمُصٌ مُرَحَّضَةٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ: لَنُكَلِّمَنَّهُ وَلَنَنْظُرَنَّ مَا يَقُولُ، قُلْتُ: أَخْبِرُونِي مَاذَا نَقَمْتُمْ عَلَى ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَصِهْرِهِ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ؟ قَالُوا: ثَلَاثًا، قُلْتُ: مَا هُنَّ؟ قَالُوا: أَمَّا إِحْدَاهُنَّ، فَإِنَّهُ حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ، قَالَ اللهُ ﷻ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وَمَا لِلرِّجَالِ وَمَا لِلْحُكْمِ؟ فَقُلْتُ: هَذِهِ وَاحِدَةٌ، قَالُوا: وَأَمَّا الْأُخْرَى، فَإِنَّهُ قَاتَلَ وَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، فَلَئِنْ كَانَ الَّذِينَ قَاتَلَ كُفَّارًا لَقَدْ حَلَّ سَبْيُهُمْ وَغَنِيمَتُهُمْ، وَإِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ مَا حَلَّ قِتَالُهُمْ، قُلْتُ: هَذِهِ ثِنْتَانِ، فَمَا الثَّالِثَةُ؟ قَالُوا: إِنَّهُ مَحَا اسْمَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَهُوَ أَمِيرُ الْكَافِرِينَ، قُلْتُ: أَعِنْدَكُمْ سِوَى هَذَا؟ قَالُوا: حَسْبُنَا هَذَا، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَرَأْتُ عَلَيْكُمْ مِنْ كِتَابِ اللهِ وَمِنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ مَا يَرُدُّ بِهِ قَوْلَكُمْ أَتَرْضَوْنَ؟ قَالُوا: نَعَمْ، فَقُلْتُ لَهُمْ: أَمَّا قَوْلُكُمْ: حَكَّمَ الرِّجَالَ فِي أَمْرِ اللهِ، فَأَنَا أَقْرَأُ عَلَيْكُمْ مَا قَدْ رَدَّ حُكْمَهُ إِلَى الرِّجَالِ فِي ثَمَنِ رُبْعِ دِرْهَمٍ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌۚ﴾ [المائدة: ٩٥]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، فَنَشَدْتُكُمْ بِاللهِ أَحُكْمُ الرِّجَالِ فِي أَرْنَبٍ وَنَحْوِهَا مِنَ الصَّيْدِ أَفْضَلُ أَمْ حُكْمُهُمْ فِي دِمَائِهِمْ وَإِصْلَاحِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ، وَأَنْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَوْ شَاءَ لَحَكَمَ وَلَمْ يُصَيِّرْ ذَلِكَ إِلَى الرِّجَالِ، وَفِي الْمَرْأَةِ وَزَوْجِهَا قَالَ اللهُ ﷻ:

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾ [النساء: ٣٥]، فَجَعَلَ اللهُ حُكْمَ الرِّجَالِ سُنَّةً مَاضِيَةً، أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: قَاتَلَ فَلَمْ يَسْبِ وَلَمْ يَغْنَمْ، أَتَسْبُونَ أُمَّكُمْ عَائِشَةَ، ثُمَّ تَسْتَحِلُّونَ مِنْهَا مَا يُسْتَحَلُّ مِنْ غَيْرِهَا؟ فَلَئِنْ فَعَلْتُمْ لَقَدْ كَفَرْتُمْ، وَهِيَ أُمُّكُمْ، وَلَئِنْ قُلْتُمْ: لَيْسَتْ بِأُمِّنَا لَقَدْ كَفَرْتُمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]؛ فَأَنْتُمْ تَدُورُونَ بَيْنَ ضَلَالَتَيْنِ، أَيُّهُمَا صِرْتُمْ إِلَيْهَا صِرْتُمْ إِلَى ضَلَالَةٍ، فَنَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، قُلْتُ: أَخْرَجْتُ مِنْ هَذِهِ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: وَأَمَّا قَوْلُكُمْ: مَحَا نَفْسَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأَنَا آتِيكُمْ بِمَنْ تَرْضَوْنَ، أُرِيكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَوْمَ الْحُدَيْبِيَةِ كَاتَبَ الْمُشْرِكِينَ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو وَأَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: «**اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ**»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: لَا وَاللهِ مَا نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولَ اللهِ مَا قَاتَلْنَاكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُكَ، اكْتُبْ يَا عَلِيُّ: هَذَا مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**»، فَوَ اللهِ لَرَسُولُ اللهِ ﷺ خَيْرٌ مِنْ عَلِيٍّ، وَمَا أَخْرَجَهُ مِنَ النُّبُوَّةِ حِينَ مَحَا نَفْسَهُ، قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: فَرَجَعَ مِنَ الْقَوْمِ أَلْفَانِ، وَقُتِلَ سَائِرُهُمْ عَلَى ضَلَالَةٍ)(١)، وقيل: خرج بأكثر من ذلك؛ بسبب هذه المحاورة العلمية.

وهذا يدل على أنه ينبغي أن تواجه الشبهات بالحجج والبينات؛ فإنه ما من شبهة إلا وفي وُجَاهِها حجة، وما من قاصمة إلا ولها من الله عاصمة، وهذا أمر يتفاوت فيه الناس؛ فمن الناس من يُرزق العلم

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك: رقم (٢٦٥٦)، والبيهقي في السنن الكبرى: رقم (١٦٧٤٠).

والحكمة، ومنهم من يرزق علمًا دون حكمة، ومنهم من يرزق حكمة دون علم، ومنهم من لا علم، ولا حكمة؛ فعلى طالب العلم أن يجمع بين العلم والحكمة، لينال أعلى المراتب، ويحقق أحسن النتائج.

ثم وقع منهم عدوان وقطع طريق على المسلمين، حتى إنه مر بهم عبد الله بن خباب بن الأرت ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عن أبيه ـ، وكانت امرأته حاملًا، فلما أقبل عليهم استوقفوه، وقالوا: ابن صاحب رسول الله ﷺ انزل فحدثنا عن أبيك عن رسول الله ﷺ، وكان عاملًا لعلي على بعض أعماله، فلما هشوا وبشوا له نزل، ورأى رجلًا منهم يمد يده إلى تمرة سقطت من نخلة، فقمع أحدهم يده بالسيف! وقال: تأكل مالًا لا يحل لك! ثم قالوا له: ما تقول في هذا الرجل؟ فقال: ابن عم رسول الله، وزوج ابنته، فقالوا: كافر، فقال: لا، فقاموا عليه وقتلوه، وبقروا بطن زوجته.

فلما بلغ منهم الأذى مبلغه ندب عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المهاجرين والأنصار إلى قتالهم، وقال: هؤلاء الذين حدثنا عنهم رسول الله ﷺ وقال: «**لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ**»[(١)]؛ فقاتلهم المهاجرون والأنصار في معركة النهروان، وقال لهم علي: إنه لا يقتل منكم إلا عشرة، ولا ينجو منهم إلا عشرة، فكان كما قال؛ لأن النبي ﷺ أخبره بذلك، ولما انقشع غبار المعركة، قال: ابحثوا عن ذي الثُّدَيَّة، رجل وصفه النبي ﷺ، كما في تتمة حديث أبي سعيد المتقدم: «**آيَتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يَدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ**» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: (أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنِّي كُنْتُ مَعَ عَلِيٍّ حِينَ قَاتَلَهُمْ، فَالْتُمِسَ فِي القَتْلَى فَأُتِيَ بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِي نَعَتَ النَّبِيُّ ﷺ)[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٤٣٢)، ومسلم: رقم (١٠٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٣)، واللفظ له، ومسلم (١٠٦٤).

لم يصف النبي ﷺ فرقة من الفرق كما وصف الخوارج؛ وذلك لالتباس أمرهم؛ لأن ظاهرهم دين وصلاح، فيغتر الناس بهم؛ فلذلك وصفهم النبي ﷺ بأوصاف خُلقية وخِلقية، لم يصفها غيرهم.

ثم إن هذه المقالة انتقلت بعد ذلك إلى المعتزلة؛ فأزالوا اسم الإيمان عن مرتكب الكبيرة، لكن لم يحققوا عليه اسم الكفر؛ بل جعلوه في منزلة بين منزلتين؛ لا مؤمن ولا كافر! فأتوا بقول لم يُسبَقوا إليه في الإسلام، ولا ريب أن هذا قول ساقط؛ فإن الله ﷻ قد جعل الناس قسمين اثنين، لا ثالث لهما، فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢]، فلذلك كانت مقالة الخوارج، من حيث الاطراد، أطرد من مقالة المعتزلة، وقد اتفق الفريقان، في الحكم الأخروي، على مرتكب الكبيرة بأنه مخلد في النار.



زيادة الإيمان ونقصانه

❁ **قوله: (وَأَنَّ الْإِيمَانَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ، وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ)**:

لما كان للإيمان حقيقة مركبة، وخصال متعددة، متعلقة بالقلب، واللسان، والجوارح؛ صار قابلًا للزيادة والنقصان، **وقد دل ناطق الكتاب على هذا في ستة مواضع**:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣].

٢ ـ وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأنفال: ٢].

٣ ـ وقال: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [التوبة: ١٢٤].

٤ ـ وقال: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب: ٢٢].

٥ ـ وقال: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَـٰنًا ۙ﴾ [المدثر: ٣١].

٦ ـ وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ ۗ﴾ [الفتح: ٤].

فتبيَّن، بحمد الله، أن لفظ «الزيادة» قد تواتر في كتاب الله تعالى، وما كان قابلًا للزيادة فهو قابل للنقصان؛ فإن بين الزيادة والنقصان تلازم عقلي؛ فكل أمر يزيد فإنه ينقص؛ لأنه قبل أن يزيد كان أنقص منه بعد أن زاد، وقد تواتر هذا عن السلف؛ قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(ذَهَبَ السَّلَفُ إِلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَأَنْكَرَ ذَلِكَ أَكْثَرُ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَقَالُوا: مَتَى قبل ذَلِكَ كَانَ شَكًّا. قَالَ الشَّيْخُ مُحْيِي الدِّينِ: وَإِلَّا ظهر الْمُخْتَارُ أَنَّ التَّصْدِيقَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ بِكَثْرَةِ النَّظَرِ وَوُضُوحِ الْأَدِلَّةِ، وَلِهَذَا كَانَ إِيمَانُ الصِّدِّيقِ أَقْوَى مِنْ إِيمَانِ غَيْرِهِ، بِحَيْثُ لَا يَعْتَرِيهِ الشُّبْهَةُ. وَيُؤَيِّدُهُ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَعْلَمُ أَنَّ مَا فِي قَلْبِهِ يَتَفَاضَلُ، حَتَّى إِنَّهُ يَكُونُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ الْإِيمَانُ أَعْظَمَ يَقِينًا وَإِخْلَاصًا وَتَوَكُّلًا مِنْهُ فِي بَعْضِهَا. وَكَذَلِكَ فِي التَّصْدِيقِ وَالْمَعْرِفَةِ بِحَسَبِ ظُهُورِ الْبَرَاهِينِ وَكَثْرَتِهَا. وَقَدْ نَقَلَ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ الْمَرْوَزِيُّ فِي كِتَابِهِ «تَعْظِيمُ قَدْرِ الصَّلَاةِ» عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ نَحْوَ ذَلِكَ، وَمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ صَرَّحَ بِهِ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي مُصَنَّفِهِ عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَمَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، وَالْأَوْزَاعِيِّ، وابن جُرَيْجٍ، وَمَعْمَرٍ، وَغَيْرِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ فُقَهَاءُ الْأَمْصَارِ فِي عَصْرِهِمْ. وَكَذَا نَقَلَهُ أَبُو الْقَاسِمِ اللَّالِكَائِيُّ فِي كِتَابِ السُّنَّةِ عَنِ الشَّافِعِيِّ، وَأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهْوَيْهِ، وَأَبِي عُبَيْدٍ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَئِمَّةِ. وَرَوَى بِسَنَدِهِ الصَّحِيحِ عَنِ الْبُخَارِيِّ قَالَ: لَقِيتُ أَكْثَرَ مِنَ أَلْفِ رَجُلٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِالْأَمْصَارِ، فَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا مِنْهُمْ يَخْتَلِفُ فِي أَنَّ الْإِيمَانَ قَوْلٌ وَعَمَلٌ، وَيَزِيدُ وَيَنْقُصُ. وَأَطْنَبَ ابن أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّالِكَائِيُّ فِي نَقْلِ ذَلِكَ بِالْأَسَانِيدِ عَنْ جَمْعٍ كَثِيرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَكُلِّ مَنْ يَدُورُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَحَكَاهُ فُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ وَوَكِيعٌ عَنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَقَالَ الْحَاكِمُ فِي «مَنَاقِبِ الشَّافِعِيِّ»: حَدَّثَنَا أَبُو الْعَبَّاسِ الْأَصَمُّ أَخْبَرَنَا الرَّبِيعُ قَالَ: سَمِعت الشَّافِعِي يَقُول: الْإِيمَان قَول وَعمل، يزِيد وَيَنْقُصُ. وَأَخْرَجَهُ أَبُو نُعَيْم فِي تَرْجَمَةِ الشَّافِعِيِّ مِنَ الْحِلْيَةِ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ عَنِ الرَّبِيعِ، وَزَادَ: يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ، ثُمَّ تَلَا: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنٗا﴾ الْآيَةَ [المدثر: ٣١]. ثُمَّ شَرَعَ الْمُصَنِّفُ يَسْتَدِلُّ لِذَلِكَ

بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ مُصَرِّحَةٍ بِالزِّيَادَةِ، وَبِثُبُوتِهَا يَثْبُتُ الْمُقَابِلُ فَإِنَّ كُلَّ قَابِلٍ لِلزِّيَادَةِ قَابِلٌ لِلنُّقْصَانِ ضَرُورَةً)[١].

لكن قد رُوي عن الإمام مالك، وعن عبد الله بن المبارك، رحمهما الله، ما يدل على التحفظ على لفظ النقصان؛ فالإمام مالك عنه روايتان: رواية بموافقة الجماعة، ورواية يقول: أقول: يزيد، ولا أقول: ينقص.

وقد أجيب عن ذلك بجوابين:

الجواب الأول: أن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ خشي أن يعبر بلفظ النقصان؛ فيتخذ الخوارج ذلك ذريعة إلى باطلهم، ودعواهم، أنه يزول اسمه بزوال بعضه.

الجواب الثاني: أن يقال: إنه أراد مراعاة لفظ القرآن؛ فالقرآن فيه لفظ الزيادة، وليس فيه لفظ النقصان.

ولكن لفظ النقصان ورد في السُّنَّة؛ فقد قال النبي ﷺ عن النساء: «**مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ**»[٢]، فهذا دليل من السُّنَّة على أن الإيمان ينقص؛ لأن نقص الدين هو نقص الإيمان، وأدلة زيادة الإيمان، ونقصانه، من كلام الصحابة الكرام، والتابعين لهم بإحسان، أكثر من أن تحصر.

كما أن ما ذكره الله تعالى من تفاضل أهل الإيمان فيه دليل على زيادته ونقصانه؛ كقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾

(١) فتح الباري لابن حجر: (١/ ٤٦ ـ ٤٧).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٤٦٢).

[فاطر: ٣٢]، فدل تفاضل أهل الإيمان فيه، على أنه يزيد وينقص؛ فالظالم لنفسه يمكن أن يكون مقتصدًا، والمقتصد يمكن أن يكون سابقًا بالخيرات، وذلك بفعل الواجبات، وترك المحرمات، أو بفعل المستحبات، وترك المكروهات، والعكس بالعكس.

كما أن ذلك أمر وجدي؛ يجده كل إنسان في نفسه؛ فإن الإنسان إذا عمل بطاعة الله استروح، وأحس ببهجة الإيمان وحلاوته، وإذا غشي شيئًا من الحرمات أحس بانقباض في قلبه، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: (الْإِثْمَ حَوَازُّ الْقُلُوبِ)[1]، يعني: إنه يحز القلب كما يحز الحبل المعصم.

فالدلائل متكاثرة على ذلك، والشيخ رحمه الله ذكر شيئًا من أبين أسباب الزيادة، وأسباب النقصان؛ وهي الطاعة والمعصية.

والواقع أن أسباب زيادة الإيمان، وأسباب نقصانه، أكثر من ذلك؛ فمنها:

أولًا: **النظر في ملكوت السماوات والأرض؛** فإن من سرح طرفه في ملكوت السماوات والأرض بعين باصرة، وعقل متدبر، زاد إيمانًا؛ قال الله عز وجل: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ١٠١﴾ [يونس: ١٠١]، والإعراض عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، والإغراق في الغفلة سبب لنقص الإيمان، وقد لفت الله الأنظار إلى بديع صنعه، فقال: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ مِهَٰدٗا ٦ وَٱلۡجِبَالَ أَوۡتَادٗا ٧ وَخَلَقۡنَٰكُمۡ أَزۡوَٰجٗا ٨ وَجَعَلۡنَا نَوۡمَكُمۡ سُبَاتٗا ٩ وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ لِبَاسٗا ١٠ وَجَعَلۡنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشٗا ١١ وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ١٢ وَجَعَلۡنَا سِرَاجٗا وَهَّاجٗا ١٣

---

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزهد: (١٢٥)، والطبراني في الكبير: رقم (٨٧٤٨)، والبيهقي في الشعب: رقم (٥٠٥١)، وذكره الهيثمي في المجمع (١/١٧٦)، رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات.

وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾﴾ [النبأ: ٦ ـ ١٦]، لكنهم لا يعتبرون، ولا ينظرون بنور الله، فلذلك ما زادهم ذلك إلا كفرًا، وبعدًا.

ثانيًا: **تدبر القرآن**؛ فإن من نظر في القرآن، وتأمله وتدبر معانيه زاد إيمانه؛ ولهذا قال الله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقد نعى الله على المشركين إعراضهم عن تدبر القرآن، فقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤]، فدل ذلك على أن الإعراض عن تدبر القرآن يُنقص الإيمان.

ثالثًا: **فعل الطاعة تقربًا إلى الله تعالى**، وهذا قيد مهم؛ لأن مِن الناس مَن يفعل بعض الأمور المستحسنة، لا بنية الطاعة، والتقرب إلى الله؛ فحينئذٍ لا تنفعه في زيادة الإيمان، كمن يفعل ذلك مراءاةً للناس؛ كشهود الجماعة، أو الجمعة، أو الخروج للجهاد في سبيل الله، وهو لا يريد بذلك وجه الله، فلا يزيده ذلك من الله قربًا، ولا إيمانًا، ومما ينقص الإيمان: ترك الطاعة، فمن ترك طاعة، أوجبها الله تعالى عليه، نقص إيمانه بقدر ما ترك، فمن ترك واجبًا فإنه ظالم لنفسه، وأما من ترك مستحبًا، فإنه مقتصد، كما سبق تفصيله.

رابعًا: **ترك المعصية خوفًا من الله تعالى**، وهذا أيضًا قيد مهم؛ لأن من الناس من يترك المعصية لأسباب أخرى؛ فيترك شرب الخمر، أو تعاطي المخدرات، حفاظًا على الصحة، فهذا لا يحصل به زيادة إيمان؛ لكن إن تركه طاعة لله ﷻ زاد إيمانه. **ومثاله**: أن يصرف الإنسان نظره عما حرم الله، فترك المعصية خوفًا من الله تعالى يزيد الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾

[الملك: ١٢]، وفعل المعصية ينقص الإيمان بقدر ما اقترف من المعاصي، ويكون ذلك بحسب قوة الداعي أو ضعفه، وبحسب كبر المعصية وصغرها؛ فهي تتفاوت، ولهذا قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: شَيْخٌ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ**»[(١)].

وعنه ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمُسْبِلُ، وَالْمَنَّانُ، وَالْمُنَفِّقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ**»[(٢)].

وعنه ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَةً، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ**»[(٣)]، فهؤلاء لما ضعف الداعي في حقهم كان نقص إيمانهم أشد؛ والأشيمط: هو الكهل الذي شاب صدغاه؛ فلا مسوغ له للوقوع في الزنا؛ فلذلك كان نقص إيمانه أعظم من نقص إيمان الشاب لو زنا، مع تحريمه عليهما، والعائل المستكبر: هو الصعلوك الذي لا يملك شيئًا، فالداعي للكبر في حقه ضعيف، وإن كان الكبر مذمومًا في حق الغني والفقير.

فعلى العاقل أن يسعى في زيادة رصيده من الإيمان أعظم من سعيه في زيادة رصيده من المال، وعامة الناس يسعون جاهدين إلى جمع

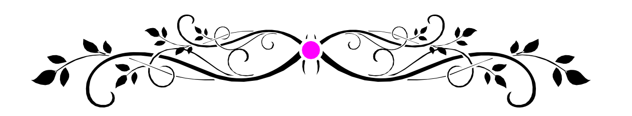
(١) أخرجه مسلم: رقم (١٠٧). (٢) أخرجه مسلم: رقم (١٠٦).
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: رقم (٦١١١)، والبيهقي في شعب الإيمان: رقم (٤٥١١)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: (٤/ ٧٨): رجاله رجال الصحيح.

الحطام، وتكديس الأرصدة في الحسابات، ولا يفكر أكثرهم في زيادة رصيده من الإيمان، ولا يتعاهد قلبه، ولا ينظر هل أدى ما خلق لأجله من محبة الله، وخشيته، ورجائه! ويدعه مضمارًا تسرح فيه جيوش الغفلات، والشبهات، والشهوات.

واعتقاد أن الإيمان يزيد وينقص، ينشئ في النفس حافزًا لزيادة الإيمان، بخلاف طرفي الضلالة في هذا الباب، وهما المرجئة والوعيدية، فإن اعتقادهم أن الإيمان شيء واحد؛ إما أن يوجد كله أو يعدم كله، لا يحملهم على الازدياد؛ كأنما يقولون: تجاوزنا القنطرة، وحصلنا على المراد، وحققنا الإيمان، ولم يبقى ما يسعى له.

كما أن الوعيدية، وإن كان يدخلون العمل في مسمى الإيمان، لما كانوا يهدرون الإيمان بمجرد فعل كبيرة، أو ترك واجب، فيؤدي ذلك بصاحبه إلى اليأس والقنوط من رحمة الله، فلا يطلب زيادة الإيمان.





اسم مرتكب الكبيرة وحكمه

اختلف الناس في اسم مرتكب الكبيرة، في الدنيا، وفي حكمه في الآخرة، فانقسموا إلى **طرفين ووسط**:

أولًا: الأسماء:

الطرف الأول: **المرجئة**: يعدّون مرتكب الكبيرة «مؤمنًا كامل الإيمان»، ويقولون: إيمان أفجر الناس كإيمان أتقى الناس؛ كإيمان أبي بكر وعمر، وجبرائيل وميكائيل؛ لأن الإيمان عندهم التصديق.

الطرف الثاني: **الوعيدية**: يزيلون عن مرتكب الكبيرة اسم الإيمان، غير أن الخوارج تطرد القول، فتقول: «كافر»، وأما المعتزلة، فقالوا: خرج من الإيمان ولم يدخل في الكفر، فهو: «في منزلة بين منزلتين»؛ لا مؤمن ولا كافر.

الوسط: أهل السُّنَّة والجماعة: يعدون مرتكب الكبيرة «مؤمنًا ناقص الإيمان»، أو يقولون: مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، ولا يزيلون عنه وصف الإيمان؛ لأنهم يرون أن الإيمان مراتب ودرجات، فلا يعطونه الاسم المطلق، ولا يسلبونه مطلق الاسم.

ثانيًا: الأحكام:

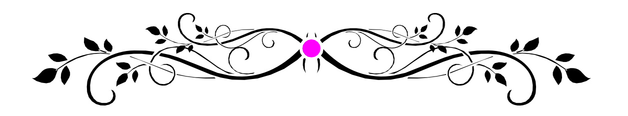
الطرف الأول: **المرجئة**: غلاتهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فهو في الجنة مهما عمل من

الكبائر، أما مرجئة الفقهاء فيقولون بما تقول به أهل السُّنَّة والجماعة. قال الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله، ونرجوا للمحسنين من المؤمنين، ولا نأمن عليهم، ونستغفر لمسيئهم، ونخاف عليهم، ولا نقنطهم»

الطرف الثاني: **الوعيدية**: من الخوارج والمعتزلة، قالوا: إنه مخلد في النار.

الوسط: **أهل السُّنَّة والجماعة**: قالوا: إن مرتكب الكبيرة تحت المشيئة والإرادة في الآخرة؛ إن شاء الله عفا عنه، وأدخله الجنة، وإن شاء عذبه بذنبه، ومآله إلى الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨]، ولأحاديث الشفاعة المتواترة الدالة على أن الله تعالى يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة، مثقال ذرة، مثقال برة، مثقال شعيرة، مثقال خردلة، أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، من النار.

۞ ۞ ۞



الرد على الوعيدية

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

❁ (وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ؛ بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي، كما قال سبحانه في آيةِ القِصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠]، وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسْمَ الإيمَانِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَلَا يُخَلِّدُونَهُ فِي النَّارِ؛ كَمَا تَقُولُهُ الْمُعْتَزِلَةُ؛ بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ؛ فِي مِثْلِ قَوْله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الإيمَانِ الْمُطْلَقِ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وَقَوْلُهُ ﷺ: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلا يَسرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نَهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ**

يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[(١)] . وَنَقُولُ: هُوَ مُؤْمِنٌ نَاقِصُ الإِيمَانِ، أَوْ مُؤْمِنٌ بِإِيمَانِهِ فَاسِقٌ بِكَبِيرَتِهِ، فَلَا يُعْطَى الاسْمَ الْمُطْلَقَ، وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ).

الشَّرْح

قوله: (**وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ لَا يُكَفِّرُونَ أَهْلَ الْقِبْلَةِ بِمُطْلَقِ الْمَعَاصِي وَالْكَبَائِرِ، كَمَا يَفْعَلُهُ الْخَوَارِجُ**): يعني: مع اعتقادهم أن الإيمان قول وعمل، ويزيد وينقص، لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر؛ أي: لا يكفرون بأي معصية، أو بأي كبيرة، وذلك أن المعاصي والكبائر تنقسم إلى قسمين: مكفِّر وما ليس بمكفِّر؛ فالسجود لغير الله، والاستهزاء بدين الله، وإلقاء المصحف ـ شرفه الله ـ في القاذورات، وقتل نبي وسبه، ونحو ذلك مكفرات، ولا ريب؛ أما الزنا، والسرقة، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، ونحوها من المعاصي العملية، فلا تكفر فاعلها ولا تخرجه من الملة، ومصطلح «أهل القبلة»: يراد به عموم من تسمى بالإسلام، واستقبل الكعبة، فهو لفظ واسع، يندرج فيه أهل السُّنَّة، وأهل البدع غير المكفِّرة، وقد تقدم أن الخوارج يكفرون مرتكب الكبيرة؛ فبرأ أهل السُّنَّة من طريقتهم.

قوله: (**بَلْ الْأُخُوَّةُ الْإِيمَانِيَّةُ ثَابِتَةٌ مَعَ الْمَعَاصِي، كما قال سبحانه في آيةِ القِصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ١٧٨]، وقال: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾ [الحجرات: ٩ ـ ١٠]**): استدل الشيخ رَحِمَهُ اللهُ على عدم الكفر بمطلق المعاصي

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٧٧٢)، ومسلم: رقم (٥٧).

والكبائر بإثبات الله تعالى وصف الأخوة الإيمانية لمرتكب الكبيرة، بتسمية الله القاتل أخًا للمقتول في آية القصاص، مع أن القتل من أعظم الكبائر، وبتسمية الطائفتين المقتتلتين مؤمنتين، مع أن اقتتال المسلمين فيما بينهم كبيرة، وتوعد على ذلك، فقال: «**إِذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ**»[1].

ففي هاتين الآيتين رد ناسف لمذهب الخوارج، الذين يزيلون اسم الإيمان عن مرتكب الكبيرة، فأين يذهبون؟! وسيذكر المصنف آية ثالثة، وهي قوله ﷻ، في كفارة قتل الخطأ: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]، فقد أجمع الفقهاء على أن مَن أعتق عبدًا زانيًا، سارقًا، مغتابًا، نمامًا، مقترفًا لأنواع الكبائر، أجزأه ذلك.

قوله: (وَلَا يَسْلُبُونَ الْفَاسِقَ الْمِلِّيَّ اسم الإيمان بالكليَّة): يسلبون؛ أي: يزيلون، والفسق لغةً: الخروج، تقول العرب: فسقت التمرة، إذا خرجت من قشرها، وسمي العاصي فاسقًا لخروجه عن طاعة الله ﷻ، ووصفه بالْمِلِّيَّ: نسبة إلى ملة الإسلام؛ فهم لا يزيلون اسم الإيمان، بالكلية، عن مرتكب الكبيرة.

قوله: (ولا يُخلِّدونه في النار كما تقوله المعتزلة): أي: ولا يحكمون بخلوده في النار، كما تقوله المعتزلة، وذلك أن المعتزلة توافق الخوارج على مسألة سلب الفاسق الملي اسم الإيمان، وإن لم تبلغ به أن تسميه كافرًا، لكنها تخلده في النار؛ فلذلك أسند هذه الجملة إلى المعتزلة، ولم يُضِف إليهم وصفه بالكفر في الدنيا؛ فبيَّن الشيخ براءة أهل السُّنَّة من طريقة الخوارج، ومن طريقة المعتزلة.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٨٧٥)، ومسلم: رقم (٢٨٨٨).

قوله: (بَلِ الْفَاسِقُ يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ فِي مِثْلِ قَوْله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]): إجماعًا، ولو شابها شيء من الكبائر، فتقع بها الكفارة، سواء كانت كفارة يمين، أو جماع في نهار رمضان، أو ظهار، أو قتل خطأ، كما في هذه الآية.

قوله: (وَقَدْ لَا يَدْخُلُ فِي اسْمِ الْإِيمَانِ الْمُطْلَقِ، كَمَا فِي قَوْله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]: الإيمان المطلق؛ أي: الإيمان الكامل، فهذا قد لا يقع لكثير ممن يسمون مؤمنين؛ لأنه لا تجتمع فيهم جميع هذه الصفات، وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجرات: ١٥].

قوله: (وقول النبي ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَنْتَهِبُ نُهْبَةً ذَاتَ شَرَفٍ يَرْفَعُ النَّاسُ إِلَيْهِ فِيهَا أَبْصَارَهُمْ حِينَ يَنْتَهِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ»)[1]: فمن قارف شيئًا من هذه الأمور الأربعة، وما شابهها؛ زال عنه اسم الإيمان المطلق، وزعمت الخوارج والمعتزلة أن الإيمان الذي نفاه النبي ﷺ هو الإيمان كله؛ فلم يبقَ له من الإيمان شيء! وهذا من أظهر ما يستدلون به. ولا يتم لهم ذلك؛ بل الإيمان الذي نفاه النبي ﷺ، في هذه الأحوال الأربعة، هو الإيمان الواجب، ولو كان المنفي أصل الإيمان لما اكتُفي بقطع يد السارق، ولا بجلد الزاني غير المحصن، ولا بجلد شارب الخمر؛ بل كان يقتل كفرًا؛ فعاد هذا الدليل الذي استدلوا به دليلًا عليهم، وهذا من أفراد قاعدة عظيمة؛

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٧٧٢)، ومسلم: رقم (٥٧).

وهو: «أن كل من استدل بدليل صحيح على قضية باطلة فإن الدليل يعود دليلًا عليه، لا له»، وهذا مصداق قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ فكل من أراد أن يُسخِّر القرآن لباطله، فإن القرآن يغلبه، ويعلو عليه.

وقد يعبر بعض الشراح بأن المنفي هو الإيمان الكامل؛ وهم يريدون بالكمال، هنا، الكمال الواجب، لا الكمال المستحب؛ فليُنتبه لهذا.

قوله: (ونقول: هو مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته)، وهذا عين العدل والإنصاف، فإنه لم يستكمل خصال الإيمان الواجبة، بسبب فسقه، ولم يخرج عن حد الإيمان بمعصيته، فلا يقال بكفره؛ فحقيقة أمره أنه تمده مادتان: مادة إيمان، ومادة فسق، لم تبلغ الكفر.

قوله: (فَلَا يُعْطَى الِاسْمَ الْمُطْلَقَ)؛ أي: فلا يستحق اسم الإيمان الكامل.

قوله: (وَلَا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الِاسْمِ)؛ أي: لا ينفى عنه الإيمان بالكلية، وهذا هو القسطاس المستقيم، وميزان الاعتدال، والوسطية، كما هي طريقة أهل السُّنَّة والجماعة في جميع أبواب الدين.

هذا هو اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة في مسألة الإيمان، لا يختلفون عليه، منذ نشأت الخوارج والمرجئة، غير أنه في العقود الأخيرة حصل شغبٌ في مسألة الإيمان؛ بسبب وجود غلاة التكفير، فقابلهم بعض المتسنِّنَة، المنتسبين إلى طريقة السلف، بما ظنوه إصلاحًا، لكنهم أخطئوا؛ حيث قابلوا فساد مقالتهم، بفساد مثله؛ فقالوا: «العمل شرط

كمال، لا شرط صحة»! وهذه لفظة دخيلة على أهل السُّنَّة والجماعة؛ لم يقل بها أحد من السلف، وإنما قال بها الأشاعرة، وهي عبارة متناقضة؛ لأن الشرط يلزم من عدمه العدم، فكيف يكون شرطًا، ويكون في الوقت نفسه مجرد كمال، وليس ركنًا وأصلًا؟! وقد صدر عن اللجنة الدائمة للإفتاء، بالمملكة العربية السعودية، بيانات متعددة حول هذه المسألة، والرد على من قال بها.

وربما شبَّه هؤلاء بنصوص لتأييد مقالتهم، وهذا من المتشابه الذي يجب أن يرد إلى المحكم؛ فإن المؤمن إذا اشتبه عليه شيء فعليه أن يرد المتشابه إلى المحكم، كما هي طريقة الراسخين في العلم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ [آل عمران: ٧]؛ فإذا جاءت النصوص الصريحة، الصحيحة، البينة الدلالة على أمر ما، ثم عُرِض نصٌّ مُشكل؛ فعلى المؤمن أن يعتصم بالمحكم، ويحمل المتشابه عليه.

ومن ذلك مثلًا: ما يَستدِل به بعضهم؛ «**مَنْ كَانَ آخِرُ كَلَامِهِ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ**»(١)، قالوا: هذا قد دخل الجنة بمجرد كلمة لا إلٰه إلا الله! فهذا لا يقضي على ما قدمنا؛ من أن الإيمان قول، وعمل؛ قول القلب، واللسان، وعمل القلب، واللسان، والجوارح، ولا يستلزم ألا يكون قائلها قد عمل ما عمل، كما أن مراد النبي ﷺ أن يقولها معتقدًا لها، متهيئًا للعمل بمقتضاها، فلو قالها قائل، ولم يُتح له العمل، فهو عامل حكمًا، كما جرى للغلام اليهودي، الذي أتاه النبي ﷺ في مرض

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٣١١٦)، وللحديث شاهد عند البخاري: رقم (٣٤٣٥)، ومسلم: (٢٩)، من حديث عبادة بن الصامت، وعند البخاري فقط من حديث عتبان بن مالك: رقم (٤٢٥).

موته، وأمره أن يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فنظر إلى أبيه كأنما يستشيره، فقال له أبوه: أطع أبا القاسم، فشهد شهادة الحق، فلم يلبث أن خرج النبي ﷺ، فقال: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ**»[(١)]؛ وفي رواية: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ بِي مِنَ النَّارِ**»[(٢)].

وكما في قصة أصيرم بني عبد الأشهل؛ (قَالَ الْحُصَيْنُ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ: قُلْتُ لِمَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ: كَيْفَ كَانَ شَأْنُ الْأُصَيْرِمِ؟ قَالَ: كَانَ يَأْبَى الْإِسْلَامَ عَلَى قَوْمِهِ فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَخَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، إِلَى أُحُدٍ بَدَا لَهُ الْإِسْلَامُ فَأَسْلَمَ، فَأَخَذَ سَيْفَهُ، فَغَدَا حَتَّى أَتَى الْقَوْمَ فَدَخَلَ فِي عُرْضِ النَّاسِ، فَقَاتَلَ حَتَّى أَثْبَتَتْهُ الْجِرَاحَةُ، قَالَ: فَبَيْنَمَا رِجَالُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ يَلْتَمِسُونَ قَتْلَاهُمْ فِي الْمَعْرَكَةِ إِذَا هُمْ بِهِ، فَقَالُوا: وَاللهِ إِنَّ هَذَا لَلْأُصَيْرِمُ، وَمَا جَاءَ؟ لَقَدْ تَرَكْنَاهُ وَإِنَّهُ لَمُنْكِرٌ لِهَذَا الْحَدِيثَ، فَسَأَلُوهُ مَا جَاءَ بِهِ؟ قَالُوا: مَا جَاءَ بِكَ يَا عَمْرُو، أَحَدَبًا عَلَى قَوْمِكَ، أَوْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ؟ قَالَ: بَلْ رَغْبَةً فِي الْإِسْلَامِ، آمَنْتُ بِاللهِ وَرَسُولِهِ، وَأَسْلَمْتُ، ثُمَّ أَخَذْتُ سَيْفِي فَغَدَوْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ فَقَاتَلْتُ حَتَّى أَصَابَنِي مَا أَصَابَنِي، قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ مَاتَ فِي أَيْدِيهِمْ، فَذَكَرُوهُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»)[(٣)]؛ فهذا الرجل لم يدرك أن يعمل؛ حتى كان أبو هريرة يُلغِز بهذا، ويقول: (حَدِّثُونِي عَنْ رَجُلٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ لَمْ يُصَلِّ قَطُّ، فَإِذَا لَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ سَأَلُوهُ: مَنْ هُوَ؟ فَيَقُولُ: أُصَيْرِمُ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٣٥٦).

(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٣٠٩٥).

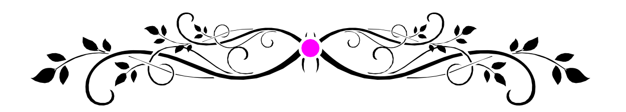
(٣) أخرجه أحمد: رقم (٢٣٦٣٤)، وقال ابن حجر، في كتاب الإصابة: هذا إسناد حسن: (٧/ ٣٤٠).

عَمْرُو بْنُ ثَابِتِ بْنِ وَقْشٍ)[١]، وربما يقال: بل عمل! وكفى بالجهاد في سبيل الله عملًا.

وكذلك أيضًا ما ورد في أحاديث الشفاعة: «**فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ**»[٢]، فإن الذي نفاه النبي ﷺ عملًا معينًا، أو خيرًا معينًا، وكل نص موهم أو مُشكل، يجب أن ينظر إليه في سياق النصوص المحكمة الأخرى.



(١) أخرجه أحمد: رقم (٢٣٦٣٤).
(٢) أخرجه مسلم: رقم (١٨٣).



الصحابة رضوان الله عليهم

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

﴿ (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، كَمَا وَصَفَهُمُ اللهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠]، وَطَاعَةَ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: **«لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ»**)(١).

الشَّرح

جرت طريقة المصنفين في الاعتقاد، بعد بيان أصول الإيمان، وما يلتحق بذلك من كبار المسائل: كمسألة القرآن، ومسألة الإيمان، ونحوهما، أن يُفرِدوا فصلًا يتعلق بأصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه، وقرابته.

وسبب إدراج ذلك في متون الاعتقاد من جهتين:

الجهة الأولى: أن الصحابة الكرام هم الواسطة، بيننا، وبين نبيّنا ﷺ، في الدين، ولهذا كان الإمام أبو حَنِيفَةَ يَقُولُ: (إِذَا جَاءَ الكلام

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: رقم (٢٥٤٠).

عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَعَلَى الرَّأْسِ وَالْعَيْنِ، وَإِذَا جَاءَ عَنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ نَخْتَارُ مِنْ قَوْلِهِمْ، وَإِذَا جَاءَ عَنِ التَّابِعِينَ زَاحَمْنَاهُمْ)[١]؛ فلا ريب أن الصحابة الكرام لهم مزية ومنزلة؛ إذ أن الله تعالى اختارهم لصحبة نبيّه ﷺ، عن علم وحكمة، فشهدوا التنزيل، وعلموا التأويل، وفهموا عن النبي ﷺ، مراده، وهم أصفى الخلق قلوبًا، وأصدقهم ألسنة، وأقلهم تكلفًا، وهم النُّزَّاع من القبائل؛ ففيهم بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، فضلًا عن قبائل العرب؛ فجمع الله خيرة خلقه في ذلك الزمان إلى خيرة أنبيائه ﷺ، كي يكونوا أهل صحبته ونصرته، والجهاد في سبيله، والفقه في دينه.

الجهة الثانية: وقوع الطعن في الصحابة من بعض طوائف الضلال: كالخوارج والرافضة؛ فإن الخوارج طعنوا في أصحاب عليّ ومعاوية، والحكمين، وأصحاب الجمل وصفين، وكفروهم، وكذلك الروافض؛ زعموا أن عامة الصحابة ارتدوا عن الإسلام، حيث لم يبايعوا عليًّا بالخلافة بعد وفاة النبي ﷺ، ولم يستثنوا إلا أفرادًا يُعدون على الأصابع.

قَالَ الإِمامُ النَّسائيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: (إِنَّما الإسلامُ كدارٍ لها بابٌ، فبابُ الإسلام الصَّحابةُ؛ فَمنْ آذى الصَّحابةَ إِنَّما أرادَ الإسلامَ؛ كَمنْ نَقرَ البابَ إِنَّما يُرِيدُ دخولَ الدَّارِ قال: ومن أراد معاوية، فإنما أراد الصحابة)[٢].

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا رأيت رجلًا يذكر أحدًا من الصحابة بسوء فاتهمه على الإسلام)[٣].

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى للبيهقي: رقم (٤٠).
(٢) أخرجه المزي في تهذيب الكمال: (١/ ٣٤٠).
(٣) المسائل والرسائل المروية عن أحمد في العقيدة للأحمدي: (٢/ ٣٦٣).

وقال أبو زرعة الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: (إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول ﷺ، عندنا حق، والقرآن حق، وإنما أدى إلينا هذا القرآن والسُّنَّة أصحاب رسول الله ﷺ، وإنما يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسُّنَّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة)[(١)].

فمن هاتين الجهتين صار أهل العلم يُدخلون باب الصحابة في أبواب الاعتقاد، وإلا فإن مسألة الصحابة تلتحق بالحديث، ومصطلح الحديث، والتاريخ، والسير، والمغازي.

قوله: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ): عدَّه أصلًا، والأصل: ما يُبنى عليه غيره.

قوله: (سَلَامَةُ قُلُوبِهِمْ وَأَلْسِنَتِهِمْ لأَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ): أصحاب: جمع صاحب أو صحابي، ذكرًا أو أنثى. والصحابي: من لقي النبي ﷺ، مؤمنًا به، في حياته، يقظة، ومات على ذلك، وهذا تعريف جامع مانع، وبيانه:

- **(من لقي)**: يلزم منه ثبوت اللقيا، وهو أولى من قولنا: (من رأى)؛ لأنه ربما كان أعمى. أو يقال: من اجتمع بالنبي ﷺ.

- **(مؤمنًا به)**: فمن لقيه غير مؤمن به لم تثبت له صحبة، وهذا وقع لكثيرين لقيهم النبي ﷺ، في المواسم، ولم يستجيبوا له، ثم قُدِّر أن أسلموا بعد وفاته ﷺ.

- **(في حياته)**: فلو قدر أنه لقيه بعد موته، لم تثبت له صحبة، وقد

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في الكفاية: (٩٧).

وقع هذا لأبي ذؤيب الهذلي الشاعر؛ فقد قدم المدينة في اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ، ورآه مسجى.

- **(يقظة)**؛ فمن لقيه في المنام لا يعد صحابيًّا.

وهاهنا يُلغز بمسألة نادرة، فيقال: من هو النبي الصحابي؟

والجواب: هو عيسى عليه السلام! وذلك أنك لو طبقت عليه حد الصحبة لوجدته منطبقًا؛ فقد لقي النبي ﷺ، في حال الحياة؛ فإن عيسى قد رفعه الله إليه؛ لم يمت: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقال في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]، وقد لقيه النبي ﷺ، في السماء الرابعة ليلة المعراج، فاجتمع بالنبي ﷺ، مؤمنًا به قطعًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٨١]؛ بل قد بشر به بني إسرائيل قبل رفعه، كما قال تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

- **(ومات على ذلك)**: فلو قدر أنه ارتد عن الإسلام، ومات على الردة، لزال عنه وصف الصحبة؛ لأنه يزول عنه ما هو أعظم منها، وهو وصف الإسلام، فإذا زال وصف الإسلام زال ما دونه، ولو قدر أنه ارتد ثم رجع إلى الإسلام، لعاد له وصف الصحبة، وقد وقع هذا لكثيرين منهم: طليحة بن خويلد الأسدي، الذي كان صحابيًّا، ثم ادعى النبوة، ثم منَّ الله تعالى عليه وأسلم، وحسن إسلامه.

أما من آمن في زمن النبي ﷺ، ولم يلقه، فإنه يسمى: «مخضرمًا»، مثل النجاشي رحمه الله فقد كان ملكًا بأرض الحبشة، فأسلم، وآوى

المهاجرين، وأهدى النبي ﷺ، الهدايا، لكنه لم يلقه؛ بسبب ما هو فيه من الملك. ومثل أويس القرني رحمه الله فقد كان مؤمنًا بالنبي ﷺ، في حياته، ولم يمنعه من الهجرة إلا بره بأمه.

والصحابة كثيرون جدًّا، يكفي أن نعلم أن الذي حج معه ﷺ في حجة الوداع أكثر من أربعين ألفًا، ينطبق عليهم حد الصحبة.

ومراتب الصحبة متفاوتة، وقد ذكر ابن الجوزي رحمه الله **ثلاث مراتب للصحبة**:

١ ـ أعلاها: الملازمة التامة؛ كملازمة أبي بكر، وعمر، وخاصة أصحابه، فهؤلاء هم التلاد الأوائل، والأصحاب الذين ينطبق عليهم حد الصحبة انطباقًا تامًّا.

٢ ـ من لقي النبي ﷺ، في مجالس دون ذلك؛ لا تبلغ حد الملازمة.

٣ ـ من رأى النبي ﷺ، لمرة؛ كالذي جرى في حجة الوداع لكثير من الناس.

فهم، رضوان الله عليهم، وإن شملهم جميعًا لفظ الصحبة، لكنهم يتفاوتون في مراتبهم، وفضائلهم، كما سيأتي، وقد قرر العلماء أن الصحابة كلهم عدول ثقات؛ ولهذا لا تضر جهالة الصحابي في سند الحديث، فقد زكّاهم الله تعالى تزكية مطلقة فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ۝٢٩﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم

﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]؛ فلا مطعن في أصحاب رسول الله ﷺ، ولا يُحتاَج للسؤال عن حالهم.

فالواجب تجاههم أمران:

- **سلامة القلوب**: من الغل، والحقد، والشحناء، وسوء الظن، وما أشبه ذلك.

- **سلامة الألسنة**: من اللعن، والسب، والقذف، والشتم، وما أشبه ذلك.

وقد استدل المصنف لتقرير هذا الأصل بآية وحديث:

- أما الآية: **فقول الله** ﷻ: (﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠])، وذلك في سياق ذكر أطباق المؤمنين في سورة الحشر، فبدأ بالمهاجرين، وثنّى بالأنصار، وثلَّث بالتابعين لهم بإحسان، وذكر دعاءهم لهم، وسؤالهم سلامة قلوبهم تجاههم، وقد استنبط الإمام مالك ؒ من سياق هذه الآيات أن الرافضة لا يستحقون الفيء! فقد ذكر الله في أول هذه الآيات مصارف الفيء، فقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧]، ثم قال بعد ذلك: ﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ [الحشر: ٨] فجعل اللام للتمليك، يعني: أن الفيء مستحق لفقراء المهاجرين، ومن عطف عليهم، ولما كان وصف التابعين لا ينطبق على الرافضة؛ بل يناقضه، لم يدخلوا في الاستحقاق؛ لأن في قلوبهم غلٌّ لمن سبقوا من المهاجرين والأنصار، وفي ألسنتهم بذاءة في الوقيعة بهم؛ حتى قيل: لو قيل لليهود: من خير ملتكم؟ لقالوا: أصحاب موسى، ولو قيل للنصارى: من خير ملتكم؟ لقالوا: أصحاب عيسى، ولو قيل

للرافضة: من شر ملتكم لقالوا: أصحاب محمد، والخوارج كذلك؛ فإن الخوارج قد كفَّروا عليًّا وأصحابه، وطلحة والزبير، وعائشة وأصحاب الجمل، ومعاوية وأصحاب صفين والحكمين، وليس شيء أعظم من التكفير! فكلا الفريقين في قلبه غل، وفي لسانه بذاء.

ـ وأما الحديث: فقول النبي ﷺ، في المتفق عليه: (**لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ**)[1]: هذا هو القسم الذي إذا اجتهد النبي ﷺ، في تأكيد أمر من الأمور عبر به، و«**أُحُد**»: جبل كبير معروف، شمال المدينة، متوحد بين الجبال، ولذلك سمي أُحدًا، والمد: ربع الصاع، وهو قدر ما يملأ كفيَّ الإنسان المعتدل الخلقة، والصاع أربعة أمداد، والنصيف: نصف المد، فيكون ثمن الصاع، والمعنى: لو استحال له جبل أُحد ذهبًا فأنفقه في سبيل الله، لم يبلغ ثواب مد ينفقه أحد الصحابة.

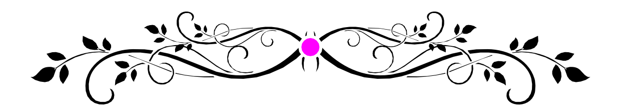
فهذان دليلان على فضل الصحبة والصحابة، وذلك لسابقتهم في الهجرة، والنصرة، والجهاد في سبيل الله، والعلم والعبادة، وغير ذلك، من الفضائل التي اختصهم الله تعالى بها.

هذا هو الواجب تجاه الصحابة؛ سلامة القلوب والألسنة، ومن لازم ذلك: حصول المحبة والمودة والموالاة، ولهذا قال نبيُّنا ﷺ في الصحيح: «**آيَةُ الإِيمَانِ حُبُّ الأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الأَنْصَارِ**»[2].

❁ ❁ ❁

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٧٣)، ومسلم: رقم (٢٥٤٠).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (١٧)، ومسلم: رقم (٧٤).



فضائل الصحابة ومراتبهم

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

﴿ (وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ أَوَ السُّنَّةُ أَوَ الإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ. فَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ـ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ـ وَقَاتَلَ، عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْده وَقَاتَلَ، وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ. وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ، وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ: «**اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[١]، وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ؛ بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِمِائَة. وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؛ كَالْعَشَرَةِ، وَثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ).

الشَّرْح

قوله: (وَيَقْبَلُونَ مَا جَاءَ بِهِ الْكِتَابُ أَوَ السُّنَّةُ أَوَ الإِجْمَاعُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ وَمَرَاتِبِهِمْ):

لما ذكر المصنف الواجب تجاه عموم الصحابة، نبَّه على تفاضلهم، وأنهم ليسوا سواءًا؛ فإذا كان أنبياء الله، عليهم الصلاة

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: رقم (٢٤٩٤).

والسلام، يتفاضلون؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فمن دونهم من باب أولى.

والتفاضل بين أصحاب رسول الله ﷺ، تارة يكون بالوصف، وتارة يكون بالعين. **فمن أوجه المفاضلة بالوصف:**

أولًا: الإنفاق قبل الفتح والقتال: **قال المصنف**: (**وَيُفَضِّلُونَ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ ـ وَهُوَ صُلْحُ الْحُدَيْبِيَةِ ـ وَقَاتَلَ عَلَى مَنْ أَنْفَقَ مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلَ**)؛ قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]، والمراد بالفتح هنا: صلح الحديبية؛ لأن الله تعالى سماه فتحًا؛ فقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]، وقد كان صلح الحديبية منعطفًا مهمًّا في السيرة النبوية؛ فصار كل ما بعده فتحًا للإسلام ونصرًا للمسلمين، وما قبله دِوَل؛ فيوم بدر نصر، وأُحد هزيمة، والأحزاب بين بين، فمن أنفق من قبل الفتح، وقاتل، أعظم درجة ممن أنفق من بعد، وقاتل، إذ كان الإنفاق من قبل، والقتال فيه تعريض للنفوس للتلف، والأموال للفناء، وبعد صلح الحديبية اطمأن الناس، وكثر الدخول في الإسلام، فلهذا ميَّز الله بين الحالين.

ثانيًا: تفضيل المهاجرين على الأنصار: **قال المصنف**: (**وَيُقَدِّمُونَ الْمُهَاجِرِينَ عَلَى الأَنْصَارِ**): المهاجر: من انتقل من مكة، قبل فتحها، إلى المدينة، يريد الله ورسوله؛ لقوله ﷺ: «**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ**»(١)، وكذلك لو هاجر من غير مكة إلى المدينة، ولزم النبي ﷺ، فهو مهاجر، ولهذا كان النبي ﷺ، ينهى عن

(١) أخرجه البخاري: رقم (٥٤)، ومسلم: رقم (١٩٠٧).

تعرب المهاجر، وهو أن يرجع إلى باديته؛ فللهجرة فضل عظيم، وقد نال المهاجرين عنت، ومشقة، وأذى في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الحشر: ٨]؛ كانوا ينفذون بجلودهم، ويدعون أموالهم، وبيوتهم، وأهليهم لله تعالى، كما وقع لصهيب الرومي رضي الله عنه حين هاجر، فلحقته قريش، وكان قد قدم عليهم فقيرًا؛ لا يملك شيئًا، فأغناه الله، فلما أدركوه أرادوا أن يردوه، فقال لهم: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ لَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنِّي مِنْ أَرْمَاكُمْ رَجُلًا، وَايْمُ اللهِ لَا تَصِلُونَ إِلَيَّ حَتَّى أَرْمِيَ بِكُلِّ سَهْمٍ مَعِي فِي كِنَانَتِي، ثُمَّ أَضْرِبَ بِسَيْفِي مَا بَقِيَ فِي يَدِي مِنْهُ شَيْءٌ، ثُمَّ افْعَلُوا مَا شِئْتُمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ دَلَلْتُكُمْ عَلَى مَالِي وَقَيْنَتِي بِمَكَّةَ وَخَلَّيْتُمْ سَبِيلِي»، قَالُوا: نَعَمْ، فَفَعَلَ فَلَمَّا قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ قَالَ: «**رَبِحَ الْبَيْعَ أَبَا يَحْيَى رَبِحَ الْبَيْعَ أَبَا يَحْيَى**»، **قَالَ: وَنَزَلَتْ** ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾»[1].

فالمهاجرون أفضل من الأنصار، ومما يدل على فضلهم عليهم أن الله تعالى إذا ذكر الفريقين بدأ بالمهاجرين، ومن بدأ الله تعالى به فهو أفضل، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، وللأنصار رضي الله عنهم لهم فضل عظيم؛ فقد بذلوا أموالهم وأنفسهم في صيانة الدين، حتى إنه ما نزل مهاجر على أنصاري إلا بقرعة، ويكفيهم فضلًا ما وصفهم الله به بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

(١) أخرجه الحارث ابن أبي أسامة في مسنده: رقم (٦٧٩)، واللفظ له، والحاكم في المستدرك: رقم (٥٧٠٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

﴿يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ [الحشر: ٩]، فهم يبذلون بسخاوة نفس، وطيب خاطر، لا يتبعونه بمنٍّ، ولا أذى، ولا إدلاء.

ثالثًا: تفضيل البدريين: **قال المصنف**: (**وَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ قَالَ لأَهْلِ بَدْرٍ ـ وَكَانُوا ثَلاثَمِائَةٍ وَبِضْعَةَ عَشَرَ ـ: «اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»**): هذه آية قد نسخت تلاوتها وبقي حكمها، والدليل على قرآنيتها قول النبي ﷺ، لعمر: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[(١)]؛ فلهذا كانت «البدرية» وصفًا كريمًا، ومنقبة عظيمة لصاحبها.

رابعًا: تفضيل أصحاب بيعة الرضوان: **قال المصنف**: (**وَبِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ بَايَعَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ؛ كَمَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ[(٢)]؛ بَلْ لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وَرَضُوا عَنْهُ،كما في الآية، وَكَانُوا أَكْثَرَ مِنْ أَلْفٍ وَأَرْبَعِ مِائَةٍ**): قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]، وقد بايعوا النبي ﷺ، على الموت، فقد كان بينه وبين قريش سفارات، وكان من آخر هذه السفارات أن بعث عثمان رضي الله عنه فأشيع في معسكر المسلمين أن عثمان قد قتل، فدعا النبي ﷺ، أصحابه إلى بيعة الموت، فبايعوه؛ حتى إنه كان معهم منافق، يقال له الجد بن قيس، جعل يتخفى خلف بعيره؛ فلا شك أن هذه منقبة عظيمة.

قال ابن الجوزي رحمه الله: (فصل في مراتب الصحابة: المهاجرون في الجملة أفضل من الأنصار، وهم الذين هجروا أوطانهم، وخرجوا إلى

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٠٠٧)، ومسلم: رقم (٢٤٩٤).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٩٦).

رسول الله ﷺ وهم ينقسمون: فمنهم المهاجرون الأولون، واختلف فيهم؛ فروي عن أبي موسى وسعيد بن المسيب، قالا: من صلى إلى القبلتين فهو من المهاجرين الأولين. وروي عن الشعبي وابن سيرين أنهما قالا: المهاجرون الأولون من أدرك بيعة الرضوان، ثم الصحابة على سوابقهم وأعمالهم، وربَّ متأخر في الإسلام سبق متقدمًا، كعمر رضي الله عنه. ورب غائب عن بدر وبيعة الرضوان سبق أكثر أهلها، كعثمان. والسبب الذي انقطعت به الهجرة فتح مكة، قال النبي ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ**»[(١)][(٢)].

فتبين أن الفضل العام لا يقضي على الفضل الخاص، ولذلك ذكر المصنف رحمه الله بعض أوجه المفاضلة بالأعيان:

قوله: (**وَيَشْهَدُونَ بِالْجَنَّةِ لِمَنْ شَهِدَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ، كَالْعَشَرَةِ**):

قال ﷺ: «**عَشَرَةٌ فِي الجَنَّةِ: أَبُو بَكْرٍ فِي الجَنَّةِ، وَعُمَرُ فِي الجَنَّةِ، وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَطَلْحَةُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ وَأَبُو عُبَيْدَةَ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ**». قَالَ: فَعَدَّ هَؤُلَاءِ التِّسْعَةَ وَسَكَتَ عَنِ العَاشِرِ، فَقَالَ القَوْمُ: نَنْشُدُكَ اللهَ يَا أَبَا الأَعْوَرِ، مَنِ العَاشِرُ؟ قَالَ: نَشَدْتُمُونِي بِاللهِ، أَبُو الأَعْوَرِ فِي الجَنَّةِ: «أَبُو الأَعْوَرِ هُوَ: سَعِيدُ بْنُ زَيْدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ»[(٣)]؛ فهؤلاء هم العشرة المبشرون بالجنة على لسان محمد ﷺ؛ فكانوا يمشون بين الناس، ويُعلم

(١) أخرجه البخاري: رقم: (٢٧٨٣)، ومسلم: رقم (١٨٦٤).

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير، ابن الجوزي: (١/ ٧١).

(٣) أخرجه الترمذي: رقم (٣٧٤٨)، وقال الترمذي: وسمعت محمدًا؛ أي: البخاري، قال: هو أصح من الحديث الأول: (٣٧٤٧)، وأخرجه أحمد في فضائل الصحابة: رقم (٨٥)، والحاكم في المستدرك: رقم (٥٨٥٨). وصححه الألباني، في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان (١٠/ ١١٠).

أنهم في الجنة، وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، كما سيأتي، وأما بقيتهم فبين العلماء خلاف في تفضيل بعضهم على بعض؛ فمن شُهِد له بالجنة، لا ريب، أنه أصاب خيرًا عظيمًا، وتبوأ منزلة سامية.

قوله: (وَثَابِتِ بْنِ قِيْسِ بنِ شَمَّاسٍ): لحصول البشارة له بالجنة، لما نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: ٢]؛ (فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، افْتَقَدَ ثَابِتَ بْنَ قَيْسٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَا أَعْلَمُ لَكَ عِلْمَهُ، فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ، مُنَكِّسًا رَأْسَهُ، فَقَالَ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: شَرٌّ، كَانَ يَرْفَعُ صَوْتَهُ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، فَأَتَى الرَّجُلُ فَأَخْبَرَهُ أَنَّهُ قَالَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ مُوسَى بْنُ أَنَسٍ: فَرَجَعَ المَرَّةَ الآخِرَةَ بِبِشَارَةٍ عَظِيمَةٍ، فَقَالَ: «**اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ**»(١)).

قوله: (وَغَيْرِهِم مِّنَ الصَّحَابَةِ): مثل: عكاشة بن محصن الأسدي رضي الله عنه؛ لما سأل النبي ﷺ أن يدعو الله أن يجعله من السبعين ألفًا، الذين يدخلون الجنة بلا حساب، فقال: «**أَنْتِ مِنْهُمْ**»(٢).

ومثل الحسن والحسين رضي الله عنهما قال عنهما النبي ﷺ: «**الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ سَيِّدَا شباب أهل الْجنَّة**»(٣).

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٦١٣)، واللفظ له، ومسلم: رقم (١١٩).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٥٧٠٥)، ومسلم: رقم (٢٢٠).
(٣) أخرجه أحمد: رقم (١٠٩٩٩)، والترمذي: رقم (٣٧٦٨).

ومثل بلال؛ فقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ، قال لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ: «**يَا بِلَالُ، حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ**». قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي: أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ، إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ[(١)].

ومثل آل ياسر رضي الله عنهم لما يروى أنه ﷺ قال: «**أَبْشِرُوا آلَ يَاسِرٍ، مَوْعِدُكُمُ الْجَنَّةُ**»[(٢)]، وهم ياسر، وزوجه سمية، وابنه عمار.

ومثل عبد الله بن سلام رضي الله عنه فعن سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ: (مَا سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ، يَقُولُ: لِأَحَدٍ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ، إِلَّا لِعَبْدِ اللهِ بْنِ سَلَامٍ)[(٣)]، فهؤلاء المعينون لا شك أنَّ لهم فضل خاص.

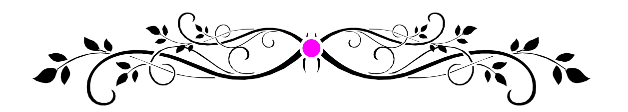
❁ ❁ ❁

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١١٤٩)، واللفظ له، ومسلم: رقم (٢٤٥٨).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط: رقم (١٥٠٨)، والحاكم في المستدرك: رقم (٥٦٦٦)؛ وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح غير إبراهيم بن عبد العزيز المقوم وهو ثقة: (٩/ ٢٩٣).

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٣٨١٢)، ومسلم: رقم (٢٤٨٣).



مسألة المفاضلة بين الصحابة رضي الله عنهم ومسألة الخلافة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

﴿ (وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ. وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ، وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ رضي الله عنهم؛ كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ، وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانُ فِي الْبَيْعَةِ. مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما ـ بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ـ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ: وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّم قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ، وَإِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ ـ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ، لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ. وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ أَهْلِهِ).

الشَّرْح

قوله: (**وَيُقِرُّونَ بِمَا تَوَاتَرَ بِهِ النَّقْلُ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه وَغَيْرِهِ مِنْ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا: أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ**):

بعد أن ذكر المصنف ~~رحمه الله~~ ما تقدم من المفاضلة العامة، والمفاضلة الخاصة، اعتنى بمسألة أخص، وهي المفاضلة بين الخلفاء الأربعة؛ فبيَّن أن أهل السُّنَّة مجمعون على خيرية أبي بكر، ثم عمر ~~رضي الله عنهما~~ لتواتر النقل في ذلك عن أمير المؤمنين علي ~~رضي الله عنه~~ أنه قال على منبر الكوفة، زمن خلافته بعد ظهور الغلاة فيه: «خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ»[(١)]، وأُثِر عنه أيضًا أنه قال: «لا يُفَضِّلُنِي عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ أَوْ لا أَجِدُ أَحَدًا يُفَضِّلُنِي عَلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ إِلا وَجَلَدْتُهُ جَلْدَ حَدِّ الْمُفْتَرِي»[(٢)]، يعني: حد القذف، ثمانين جلدة.

قال شيخ الإسلام: (روي عن علي من نحو من ثمانين وجهًا وأكثر، أنه قال على منبر الكوفة: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر)[(٣)]؛ وذلك أنه قد نبغت نابغة في زمنه صاروا يفضلونه على أبي بكر وعمر؛ بل قد وجد في زمنه فرقة السبئية؛ أتباع عبد الله بن سبأ اليهودي، الذي زعم، هو وأصحابه، أن عليًّا هو الله! ـ تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا ـ، فما كان من علي ~~رضي الله عنه~~ إلا أن خدَّ لهم الأخاديد في أبواب كِندة، في الكوفة، وأضرم فيها النار، وقذفهم فيها، وقال:

لـمـا رأيـت الأمـر أمـرًا مـنـكـرًا أجـجـت نـاري ودعـوت قـنـبـرا

ومن قرأ في مناقب الصحابة لا يخالجه شك أن أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكر الصديق ~~رضي الله عنه~~ الذي نوّه الله بذكره في كتابه، فقال: ﴿إِذْ يَـقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْـزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وقال النبي ﷺ:

(١) أخرجه أحمد: رقم (٨٣٤).

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في السُّنَّة: رقم (١٣١٢)، وابن أبي عاصم في السُّنَّة: رقم (١٢١٩)، والبيهقي في الاعتقاد: (ص٣٥٨).

(٣) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٤/ ٤٠٧).

«**إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنَ النَّاسِ خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلَامِ أَفْضَلُ، سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا المَسْجِدِ، غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ**»(١)، فكان أبو بكر يقول: بل المن، والفضل لله ورسوله. ومناقب أبي بكر أكثر من أن تحصر، لكن إذا أعمى الله البصائر لم تدرِك ذلك؛ فالروافض اللئام لا يذكرون أبا بكر إلا بسوء، والله قد زكاه في كتابه، ونبيّه ﷺ، كذلك، لكن القوم مطموسون؛ غلبت عليهم شِقوتهم.

ثم عمر رضي الله عنه فإن له من الفضائل في الإسلام ما لا ينكره إلا مكابر، وقد كان اليوم الذي أسلم فيه فتحًا على المسلمين؛ خرج المسلمون صفين؛ صفٌّ عليه حمزة، وصفٌّ عليه عمر؛ فكان ذلك نقلًا للدعوة من المرحلة السرية إلى الجهرية، وهو الذي دوَّن الدواوين، ومصَّر الأمصار، وقال عنه النبي ﷺ، في الرؤيا المنامية: «**أُرِيتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أَنْزِعُ بِدَلْوِ بَكْرَةٍ عَلَى قَلِيبٍ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ فَنَزَعَ ذَنُوبًا، أَوْ ذَنُوبَيْنِ نَزْعًا ضَعِيفًا، وَاللهُ يَغْفِرُ لَهُ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فَاسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا يَفْرِي فَرِيَّهُ حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ، وَضَرَبُوا بِعَطَنٍ**»(٢)، يشير إلى فترة خلافته، وما سيجري فيها من الفتوح، وهذا القدر من التفضيل مجمع عليه عند أهل السُّنَّة؛ لا يختلفون فيه.

قوله: (وَيُثَلِّثُونَ بِعُثْمَانَ): أي: يجعلونه في المرتبة الثالثة، بعد أبي بكر وعمر، ومناقبه رضي الله عنه، مشهورة، وقد زوّجه النبي ﷺ، رقية، فلما ماتت زوَّجه أم كلثوم؛ فلقب بذي النورين، (وعَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمٰنِ

---

(١) اخرجه البخاري: رقم (٤٦٧).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٨٢)، ومسلم: رقم (٢٣٩٣).

السُّلَمِيِّ، قَالَ: لَمَّا حُصِرَ عُثْمَانُ، أَشْرَفَ عَلَيْهِمْ فَوْقَ دَارِهِ، ثُمَّ قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ حِرَاءَ حِينَ انْتَفَضَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اثْبُتْ حِرَاءُ فَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ صِدِّيقٌ أَوْ شَهِيدٌ**»؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ فِي جَيْشِ العُسْرَةِ: «**مَنْ يُنْفِقُ نَفَقَةً مُتَقَبَّلَةً**»، وَالنَّاسُ مُجْهَدُونَ مُعْسِرُونَ؛ فَجَهَّزْتُ ذَلِكَ الجَيْشَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. ثُمَّ قَالَ: أُذَكِّرُكُمْ بِاللهِ هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رُومَةَ لَمْ يَكُنْ يَشْرَبُ مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا بِثَمَنٍ؛ فَابْتَعْتُهَا فَجَعَلْتُهَا لِلْغَنِيِّ وَالفَقِيرِ وَابْنِ السَّبِيلِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ، نَعَمْ، وَأَشْيَاءَ عَدَّدَهَا)[(١)].

والدليل على تفضيل هؤلاء الثلاثة الكرام حديث ابْنِ عُمَرَ ﵄ قَالَ: (كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﵃)[(٢)].

قوله: (وَيُرَبِّعُونَ بِعَلِيٍّ): أي: يجعلونه في المرتبة الرابعة في الفضل، وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من آمن به من الصبيان، وزوَّجه ابنته فاطمة، وله مناقب شهيرة.

قوله: (**كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الآثَارُ وَكَمَا أَجْمَعَ الصَّحَابَةُ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانُ فِي الْبَيْعَةِ**): استدل المصنف على هذا الترتيب في الفضل **بدليلين**:

أحدهما: دلالة الآثار؛ فالمستقرئ لأحاديث السير والمناقب يستنبط هذا.

الثاني: إجماع الصحابة على تقديم عثمان على عليّ في البيعة؛ فإن

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٣٦٩٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٥٥).

عمر رضي الله عنه كان قد عهد إلى الباقين من العشرة المبشرين بالنظر في أمر الخلافة، فلما اجتمعوا استعفى طلحة، والزبير، وعبد الرحمٰن بن عوف رضي الله عنهم وبقي الأمر دائرًا بين علي وعثمان رضي الله عنهما فانتدب عبد الرحمٰن بن عوف للفصل في هذه القضية، فصار يسائل الناس، حتى إنه كان يسأل ربات الخدور، فخلص إلى أن الناس لا يعدلون بعثمان أحدًا؛ ولهذا رُوي عن أيوب السختياني، وأحمد بن حنبل، والدارقطني، رحمهم الله، قولهم: (من قدّم عليًّا على عثمان فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار)[١]؛ يعني: تنقصهم، واستهجن رأيهم؛ فهذا هو القول المقدم الذي استقر عليه أهل السُّنَّة والجماعة.

قوله: (مَعَ أَنَّ بَعْضَ أَهْلِ السُّنَّةِ كَانُوا قَدِ اخْتَلَفُوا فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رضي الله عنهما بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى تَقْدِيمِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ؛ أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟ فَقَدَّمَ قَوْمٌ عُثْمَانَ وَسَكَتُوا، أَوْ رَبَّعُوا بِعَلِيٍّ، وَقَدَّمَ قَوْمٌ عَلِيًّا، وَقَوْمٌ تَوَقَّفُوا. لَكِنِ اسْتَقَرَّ أَمْرُ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَى تَقْدِيمِ عُثْمَانَ، ثُمَّ عَلِيٍّ)؛ فآلت الأقوال في المفاضلة بين علي وعثمان، **إلى ثلاثة**:

أحدها: تقديم عثمان، والسكوت عمن بعده، أو التربيع بعلي، وهو الذي استقر عليه أهل السُّنَّة والجماعة، على اختلاف مذاهبهم الفقهية، وقرروه في متونهم العقدية.

الثاني: تقديم علي على عثمان.

الثالث: التوقف.

قال الإمام أحمد رحمه الله في أصول السُّنَّة: (وخير هذه الأمة بعد نبيِّها: أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، نقدم

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: (٤/٤٢٨).

هؤلاء الثلاثة كما قدّمهم أصحاب رسول الله ﷺ، لم يختلفوا في ذلك. ثم بعد هؤلاء الثلاثة أصحاب الشورى الخمسة: علي بن أبي طالب، وطلحة والزبير وعبد الرحمٰن بن عوف وسعد، كلهم يصلح للخلافة، وكلهم إمام. ونذهب في ذلك إلى حديث ابن عمر ﷺ: «كُنَّا نَعُدُّ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ حَيٌّ وَأَصْحَابُهُ مُتَوَافِرُونَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ ثُمَّ نَسْكُتُ»[(١)]، ثم من بعد أصحاب الشورى أهل بدر من المهاجرين، ثم أهل بدر من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ على قدر الهجرة والسابقة، أولًا فأول)[(٢)].

قوله: (وَإِنْ كَانَتْ هَذِه الْمَسْأَلَةُ ـ مَسْأَلَةُ عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ ـ لَيْسَتْ مِنَ الأُصُولِ الَّتِي يُضَلَّلُ الْمُخَالِفُ فِيهَا عِنْدَ جُمْهُورِ أَهْلِ السُّنَّةِ، لَكِنِ الَّتِي يُضَلَّلُ فِيهَا: مَسْأَلَةُ الْخِلَافَةِ)؛ فالأصل في المسائل العقدية تضليل المخالف، لكن هناك مسائل لا يبلغ الأمر فيها مبلغ التضليل والتبديع، وهي قلائل ونوادر؛ منها هذه المسألة؛ مسألة تفضيل علي على عثمان، ومنها مسألة هل رأى النبي ﷺ ربه، أم لا؟ لا يضلل فيها المخالف؛ لأن الخلاف محفوظ عن السلف.

قوله: (وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُؤْمِنُونَ أَنَّ الْخَلِيفَةَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، ثُمَّ عَلِيٌّ): لا يختلف أهل السُّنَّة والجماعة في مسألة الخلافة، وأن ترتيبهم شرعًا هو الواقع فعلًا؛ ولا يلتفت لقول الشيعة، ولا يؤبه له، فإنه غير معتبر.

قوله: (وَمَنْ طَعَنَ فِي خِلَافَةِ أَحَدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ؛ فَهُوَ أَضَلُّ مِنْ حِمَارِ

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (٤٦٢٦)، وابن أبي عاصم في السُّنَّة: رقم (١١٩٥)، وابن أبي شيبة في المصنف: رقم (٣١٩٣٦)، وأصله في البخاري: رقم (٣٦٥٥، ٣٦٩٧).
(٢) أصول السُّنَّة للإمام أحمد: (ص٣٥ ـ ٣٨).

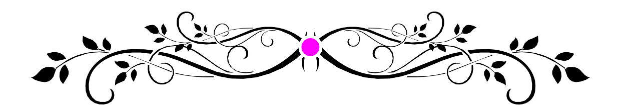
أَهْلِهِ): هذه عبارة مأخوذة من قول الإمام أحمد: (من لم يربع بعلي في الخلافة فهو أضل من حمار أهله)[(١)]؛ يعني: أنه غاية في الضلال والبلادة؛ قال عبد الله ابن الإمام أحمد: (سَأَلْتُ أَبِي عَنِ التَّفْضِيلِ بَيْنَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ؟ فَقَالَ أَبِي رَحِمَهُ اللهُ: أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ الرَّابِعُ مِنَ الْخُلَفَاءِ قُلْتُ لِأَبِي: إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِخَلِيفَةٍ، قَالَ: هَذَا قَوْلُ سُوءٍ رَدِيءٌ. وَقَالَ: أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ ﷺ: يَقُولُونَ لَهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَفَنُكَذِّبُهُمْ وَقَدْ حَجَّ بِالنَّاسِ وَقَطَعَ وَرَجَمَ فَيَكُونُ هَذَا إِلَّا خَلِيفَةً)[(٢)].

كما أن الروافض يدخلون في هذا الوصف دخولًا أوليًّا؛ فإن الروافض يطعنون في خلافة أبي بكر، وعمر، وعثمان، جميعًا، والحقيقة أنهم يطعنون في عليّ رضي الله عنه شعروا أو لم يشعروا! لأن عليًّا رضي الله عنه قد بايع الثلاثة طوعًا، واختيارًا، وكان لهم نعم الوزير والمعين؛ فإن كانت الخلافة حقًّا له، فكيف يتخلى عن حق أحقَّه الله له؟! وإن زعموا أنه فعل ذلك تقية؛ فهذا طعن في شجاعته، ونصحه للأمة؟! وإن كان رضي الله عنه أقرَّ بذلك ووسعه، وهو الواقع، فليسعهم ما وسعه؛ إن كانوا يحبونه حقًّا، وصدقًا.

فتبيَّن أن القوم فيهم، من الغباء والسفه، ما لا يخفى؛ ولذلك قال الشعبي رحمه الله عن الرافضة: «لو كانوا من النعم لكانوا حمرًا، ولو كانوا من الطير لكانوا رخمًا»[(٣)]؛ فلا عقل، ولا نقل.

---

(١) ذكرها ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» عنه: (ص١٦٣).
(٢) عبد الله بن أحمد في السُّنَّة: (٢/ ٥٩٠).
(٣) انظر: مجموع الفتاوى: (٤/ ٤٧٢).



حقوق أهل البيت

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ، وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[1]. وَقَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه، وَقَدِ اشْتَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ ـ فَقَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي**»[2]. وَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ اصْطَفَى بَنِي إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»)[3].

الشَّرْح

هذا خصوص بعد عموم، فقد بيَّن المصنف رَحِمَهُ اللهُ فيما مضى موقف أهل السُّنَّة والجماعة من الصحابة، ولا ريب أن حد الصحبة ينطبق

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٠٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه: رقم (١٤٠)، وأحمد: رقم (١٧٧٧)، وابن أبي شيبة في المصنف: رقم (٣٢٢١٣)، والبزار: رقم (٢١٧٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة: رقم (٤٧٠)، والحاكم في المستدرك: رقم (٦٩٦٠). قال شيخ الإسلام في اقتضاء الصراط المستقيم: له شواهد تؤيد معناه. (١/ ٤٢٨).

(٣) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٧٦).

انطباقًا أوليًّا على من آمن به من أهل بيته ﷺ؛ فهم صحابة وقرابة؛ فلهم مزيد حق؛ لاتصالهم بالنسب الشريف.

قوله: (وَيُحِبُّونَ أَهْلَ بَيْتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَيَتَوَلَّوْنَهُمْ):

وأهل البيت: هم الذين تحرم عليهم الصدقة؛ تكرمة لهم؛ لأنها أوساخ الناس؛ (فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رضي الله عنهما، تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**كِخْ كِخْ**» لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لَا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ**»[(١)]، وقد أعاضهم الله عنها بمصرف كريم؛ الغنيمة والفيء، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال: ٤١]، وقال: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الحشر: ٧].

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: (قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا فِينَا خَطِيبًا، بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بِكِتَابِ اللهِ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ**»، فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَرَغَّبَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ: «**وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**». فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ؟ أَلَيْسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ؟ قَالَ: نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ، قَالَ: وَمَنْ هُمْ؟ قَالَ: هُمْ آلُ عَلِيٍّ، وَآلُ عَقِيلٍ، وَآلُ جَعْفَرٍ، وَآلُ عَبَّاسٍ، قَالَ: كُلُّ هَؤُلَاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ؟

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (١٤٩١)، ومسلم: رقم (١٠٦٩).

قَالَ: نَعَمْ)[١]؛ فهم أربعة بيوت، وألحق الفقهاء بهم بنو المطلب، لقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو الْمُطَّلِبِ شَيْءٌ وَاحِدٌ**»[٢]. **فمن حقوق أهل البيت:**

- **محبتهم ومودتهم مودة خاصة؛** لقرابتهم من النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]، وقد ذكر ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ الاختلاف في تفسير المودة في القربى، وخلص إلى القول: (وَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، وَأَشْبَهُهَا بِظَاهِرِ التَّنْزِيلِ قَوْلُ مَنْ قَالَ: مَعْنَاهُ: قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِلَّا أَنْ تَوَدُّونِي فِي قَرَابَتِي مِنْكُمْ، وَتَصِلُوا الرَّحِمَ الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)[٣].

- **موالاتهم**: أي: مناصرتهم، وأصل الولاية من الولْي؛ أي: الدنو، وذلك يقتضي المودة والنصرة. لكن حيث عطفه على المحبة اختص اللفظ الأول بالمودة، والثاني بالنصرة.

قوله: (**وَيَحْفَظُونَ فِيهِمْ وَصِيَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؛ حَيْثُ قَالَ يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ**): غدير خم: هذا موضع في الطريق إلى تبوك، خطب فيه النبي ﷺ، خطبة قال فيها: «**أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[٤]؛ فلا شك أنها وصية نبوية جديرة بالرعاية، والعناية، والحفظ، والصون؛ تقتضي مودتهم وإجلالهم وموالاتهم، وذلك في حق من كان منهم على الإسلام والسُّنَّة، أما من لم يكن كذلك فلا، ولا كرامة؛ كأبي لهب، أو من ضل منهم، فيما بعد، وابتدع؛ فإن الأصل في المحبة الإيمان، والاتباع.

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٠٨).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٥٠٢).
(٣) تفسير الطبري: جامع البيان: (٢١/ ٥٣٠).
(٤) أخرجه مسلم: رقم (٢٤٠٨).

فمن نال من أهل بيت النبي ﷺ، بمسبة أو أذى، فعليه من الله ما يستحق، ومن أعظم من طاله أذىً، من آل بيت النبي ﷺ، الحسين بن علي رضي الله عنه وعن أبيه، وأمه؛ فإنه قد وقع عليه من الكرب، والشدة، والقتل، من بعض أمراء بني أمية، وقوادهم، ما لا يخفى، وقُتل رضي الله عنه شهيدًا في كربلاء، فيجب الترضي عنه، ومحبته، وبغض قاتليه، ومن سعى في دمه؛ فإن هؤلاء هم النواصب حقًّا، الذين ناصبوا أهل بيت رسول الله ﷺ، العداء، ولكن لا نغلو كما تغلو الرافضة، وتجعل من يوم استشهاده مأتمًا، وتضرب فيه القامات، وتشق الرؤوس، وغير ذلك من الحماقات، التي لو خرج الحسين رضي الله عنه لكان أول من ينكرها عليهم.

قوله: (وَقَدْ قَالَ أَيْضًا لِلْعَبَّاسِ عَمِّه، وَقَدِ شَكَى إِلَيْهِ أَنَّ بَعْضَ قُرَيْشٍ يَجْفُو بَنِي هَاشِمٍ، فَقَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحِبُّوكُمْ؛ للهِ وَلِقَرَابَتِي»)[١]؛ هذا حديث رواه الإمام أحمد، وغيره، وسنده منقطع، وقال شيخ الإسلام، وابن كثير: له شاهد، ووصله الطبراني بإسناد صحيح؛ فجمع بين الوصفين: المحبة الإيمانية في الله، ومحبة القربى من رسول الله ﷺ.

قوله: (وَقَالَ: إِنَّ اللهَ اصْطَفَى إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ كِنَانَةَ قُرَيْشًا، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ)[٢]؛ فدل ذلك على أن نبيّنا ﷺ، هو صفوة الصفوة؛ قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]،

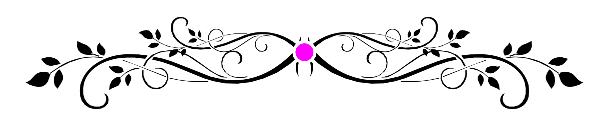
---

(١) أخرجه ابن ماجه: رقم (١٤٠) وأحمد: رقم (١٧٧٧)، وابن أبي شيبة في المصنف: رقم (٣٢٢١٣)، والبزار: رقم (٢١٧٥)، والمروزي في تعظيم قدر الصلاة: رقم (٤٧٠)، والحاكم في المستدرك: رقم (٦٩٦٠).

(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٢٧٦).

ولما قال مشركو العرب: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]؛ رد عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]؛ فهو ﷺ، محل رحمته، كما دل على فضل المؤمنين من قرابته على سائر الناس.





أزواج النبي ﷺ

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَيَتَوَلَّوْنَ أَزْوَاجَ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُقِرُّون بَأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ ؓ أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ. وَالصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ ؓ، الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «**فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ؛ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ**»)(١).

الشَّرْح

لمّا ذكر المصنف ما يستحقه عموم أهل البيت، ذكر ما يستحقه خاصة أهل بيته من أزواجه، ولا ريب أن أزواج النبي ﷺ، من أهل البيت؛ خلافًا للروافض، الذين يخرجونهن، أو بعضهن، من مسمى أهل البيت، وقد قال الله تعالى في سياق خطاب نساء النبي ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ فدل ذلك على أن أزواجه ﷺ، ورضي الله عنهن، يدخلن دخولًا أوليًّا في هذا الوصف؛ وأنهن أهل بيته ﷺ، بنص الكتاب؛ فأين يذهبون؟!

قوله: (أمهات المؤمنين): هذا وصف قرآني؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، لكن هذه الأمومة أمومةٌ في الاحترام،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤١١)، ومسلم: رقم (٢٤٣١).

لا في المحرمية؛ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: (وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ أَيْ: فِي الْحُرْمَةِ وَالِاحْتِرَامِ، وَالْإِكْرَامِ وَالتَّوْقِيرِ وَالْإِعْظَامِ، وَلَكِنْ لَا تَجُوزُ الْخَلْوَةُ بِهِنَّ، وَلَا يَنْتَشِرُ التَّحْرِيمُ إِلَى بَنَاتِهِنَّ وَأَخَوَاتِهِنَّ بِالْإِجْمَاعِ)[(١)].

قوله: (**وَيُقِرُّون بَأَنَّهُنَّ أَزْوَاجُهُ فِي الآخِرَةِ: خُصُوصًا خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أُمَّ أَكْثَرِ أَوْلَادِهِ، وَأَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ وَعَاضَدَهُ عَلَى أَمْرِه، وَكَانَ لَهَا مِنْهُ الْمَنْزِلَةُ الْعَالِيَةُ**): تزوج النبي ﷺ، إحدى عشرة امرأة، وتوفي عن تسع منهن، وأولهن، وأفضلهن، على أحد القولين، خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وكان قد تزوجها قبل البعثة؛ بل إنها هي التي خطبت نفسها إليه! فحين ذهب النبي ﷺ، بتجارتها إلى الشام، رأى غلامها، «ميسرة»، من كريم أخلاق النبي ﷺ، ما رأى، وحدّثها بما رأى؛ فرغبت فيه، فكان أن تزوجها النبي ﷺ، وهو ابن خمس وعشرين، ولها أربعون سنة، فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نعم المرأة، والزوجة الصالحة، **وقد ذكر المصنف طرفًا يسيرًا من مناقبها، فمن ذلك**:

ـ **أنها أم أكثر أولاده**: بل جميع أولاد النبي ﷺ؛ من بنين وبنات، سوى ابنه إبراهيم، منها؛ فإن إبراهيم كان من سرِّيته، مارية القبطية، وأبناؤه: القاسم، والطيب، والطاهر، وبناته: رقية، وزينب، وأم كلثوم، وفاطمة، ولا شك أن هذا مما يرفع قدر المرأة عند زوجها؛ فلهذا تجد الناس إذا أرادوا أن يعظموا قدر المرأة عند زوجها قالوا: أم أولادك.

ـ **أنها أول من آمن به إطلاقًا**: وهذا جلي بيِّن في حديث بدء الوحي، الذي صدّر به البخاري صحيحه؛ فإن النبي ﷺ، لما نزل من حراء ترتعد فرائصه، (فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فَقَالَ:

---

(١) تفسير ابن كثير: (٦/ ٣٨٠).

«**زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي**» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الخَبَرَ: «**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**» فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلَّا وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ العُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الكِتَابَ العِبْرَانِيَّ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابْنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ**»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا.)[1].

- **معاضدتها إياه**: فكان ﷺ، يأوي إليها، حين يلقى من قومه الأذى؛ فتسكن عنه ما يجد، وتشد أزره، وتسري عنه؛ لوفور عقلها، وحسن تبعلها.

- **منزلتها العالية عند النبي ﷺ**: في حياتها، وبعد مماتها، حتى إنه كان ﷺ، يُكرم صويحباتها، ويحتفي بهن، ويهدي إليهن؛ حفظًا لحقها، ووفاء لها؛ (فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ، أُخْتُ خَدِيجَةَ، عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خَدِيجَةَ، فَارْتَاعَ لِذَلِكَ،

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣)، ومسلم: رقم (١٦٠).

فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هَالَةَ**»! قَالَتْ: فَغِرْتُ، فَقُلْتُ: مَا تَذْكُرُ مِنْ عَجُوزٍ مِنْ عَجَائِزِ قُرَيْشٍ، حَمْرَاءِ الشِّدْقَيْنِ، هَلَكَتْ فِي الدَّهْرِ، قَدْ أَبْدَلَكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهَا)[(١)].

وعن عائشةَ رضي الله عنها (قالت: لما بعثَ أهلُ مكةَ في فداءِ أسراهُم بَعَثَتْ زينبُ في فداءِ أبي العاص بمالٍ، وبعثتْ فيه بقلادَةٍ لها كانت عند خديجةَ أدخلَتْهَا بها على أبي العاصِ، قالتْ: فلمَّا رآها رسولُ الله ﷺ، رقَّ لها رِقَّةً شديدةً وقال: «**إن رأيتُم أن تُطْلِقُوا لها أسيرَهَا، وترُدُّوا عليها الذي لَها**»، قالوا: نعم[(٢)]، فهذا يدل المنزلة العالية لها عنده ﷺ، ولهذا لم يتزوج النبي ﷺ، عليها؛ إكرامًا لها.

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خَيْرُ نِسَائِهَا مَرْيَمُ ابْنَةُ عِمْرَانَ، وَخَيْرُ نِسَائِهَا خَدِيجَةُ**»[(٣)]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: «أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «**يَا رَسُولَ اللهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ**»[(٤)]، والقصب: اللؤلؤ المجوف، وهذه بشارة لها رضي الله عنها وتفاصيل فضائلها كثيرة في كتب السير والتواريخ.

قوله: (الصِّدِّيقَةَ بِنْتَ الصِّدِّيقِ): هكذا لقَّبها المصنف، ولا ريب أن عائشة رضي الله عنها عظيمة التصديق لرسول الله ﷺ، حافظة للعلم، وعاءٌ له،

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٨٢١)، ومسلم: رقم (٢٤٣٧).
(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٢٦٩٢)، وأحمد: رقم (٢٦٣٦٢).
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٣٢)، ومسلم: رقم (٢٤٣٠).
(٤) أخرجه البخاري: رقم (٣٨٢٠)، ومسلم: رقم (٢٤٣٢).

وقد صدَّق الله مقولتها في حادثة الإفك، وأكذب الذين جاؤوا به، وأبوها الصديق حقًّا، خير هذه الأمة بعد رسول الله ﷺ، كما تقدم.

قوله: (الَّتِي قَالَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ: «فَضْلُ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ»)[(١)]: هذا التمثيل يدل على فضل عائشة رضي الله عنها على سائر النساء، والثريد هو خبز باللحم، كما قال الشاعر:

إذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحْمِ فَذَاكَ أَمَانَةَ اللّهِ الثَّرِيدُ

وقد خطبها النبي ﷺ، وعقد عليها، وهي بنت ست سنين، وبنى بها وهي بنت تسع سنين، وفي هذا ردٌّ بليغ على الذين يحظرون نكاح الصغيرات؛ استجابة للأنظمة الدولية! فقد تحيض المرأة وتكتمل أنوثتها لتسع سنين؛ فإن النساء يتفاوتن في البنية وكمال الخلقة، والمنظمات الدولية تلزم، أو تلجئ، الدول إلى سن القوانين المنافية للشريعة، في حين تغض الطرف عن العلاقات المحرمة بين الجنسين! فمدار الأمر على القدرة، والأهلية للزواج من عدمها.

وقد كانت عائشة رضي الله عنها حِبَّ رسول الله ﷺ، في حياته؛ يشتاق إلى يومها، ويأنس بها، ويمازحها، ويسابقها؛ جعلها الله مستراحًا لفؤاده، وكانت فتاة ذكية نابهة، تحفظ عن رسول الله ﷺ، ما يصدر عنه من قول، أو فعل؛ فلذلك كثرت روايتها؛ مقارنة ببقية أمهات المؤمنين، فحفظ الله تعالى سُنَّة نبيّه ﷺ، البيتيّة، التي لا يطلع عليها آحاد الناس، بأمهات المؤمنين؛ وخصوصًا عائشة رضي الله عنها وظلت تحظى بهذه المنزلة لدى رسول الله ﷺ حتى مرَّضته، وتوفي ورأسه في حجرها، بين حاقنتها وذاقنتها؛ (تَقُولُ عَائِشَةَ رضي الله عنها: إِنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ عَلَيَّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٣٤٣٣)، ومسلم: رقم (٢٤٣١).

تُوُفِّيَ فِي بَيْتِي، وَفِي يَوْمِي، وَبَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، وَأَنَّ اللهَ جَمَعَ بَيْنَ رِيقِي وَرِيقِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ. دَخَلَ عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ، وَبِيَدِهِ السِّوَاكُ، وَأَنَا مُسْنِدَةٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُحِبُّ السِّوَاكَ، فَقُلْتُ: آخُذُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: (أَنْ نَعَمْ) فَتَنَاوَلْتُهُ، فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، وَقُلْتُ: أُلَيِّنُهُ لَكَ؟ فَأَشَارَ بِرَأْسِهِ: (أَنْ نَعَمْ) فَلَيَّنْتُهُ، فَأَمَرَّهُ، وبَيْنَ يَدَيْهِ رَكْوَةٌ أَوْ عُلْبَةٌ ـ يَشُكُّ عُمَرُ ـ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ، يَقُولُ: «**لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ**» ثُمَّ نَصَبَ يَدَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ)[(١)]. وفي رواية: (مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ وَإِنَّهُ لَبَيْنَ حَاقِنَتِي وَذَاقِنَتِي)[(٢)]، فكانت عائشة آخر العهد به رضي الله عنها ومناقبها كثيرة في كتب التاريخ، والسيرة.

وكذلك يجب تولِّي بقية أمهات المؤمنين، ومحبتهن واحترامهن، **وهنَّ**:

- سودة بنت زمعة العامرية القرشية رضي الله عنها تزوجها النبي ﷺ، بعد خديجة، وهو بمكة. توفيت سنة خمس وخمسين.

- حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنها تزوجها النبي ﷺ، سنة ثلاث. توفيت سنة خمس وأربعين.

- زينب بنت جحش الأسدية القرشية رضي الله عنها توفيت سنة عشرين.

- هند بنت أمية المخزومية، أم سلمة رضي الله عنها تزوجها النبي ﷺ، سنة أربع، وعاشت بعده ستين سنة. توفيت سنة اثنتين وستين.

- رملة بنت أبي سفيان الأموية، أم حبيبة رضي الله عنها. توفيت سنة اثنتين، أو أربع وأربعين.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٤٤٩).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٤٤٤٦).

- صفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية ﵂ تزوجها النبي ﷺ، بعد خيبر. توفيت في خلافة معاوية ﵁.

- ميمونة بنت الحارث الهلالية ﵂ تزوجها النبي ﷺ، بسرف، سنة سبع. توفيت سنة إحدى وخمسين.

- جويرية بنت الحارث الخزاعية ﵂ تزوجها النبي ﷺ، بعد غزوة المريسيع. توفيت سنة خمسين.

- زينب بنت خزيمة الهلالية ﵂ تزوجها النبي ﷺ، في السُّنَّة الثالثة للهجرة، ولم تلبث معه إلا يسيرًا، ثم توفيت سنة أربع.



موقف أهل السُّنَّة والجماعة من الروافض والنواصب ومروياتهم في الصحابة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

﴿وَيَتَبَرَّؤُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وَمِنْ طَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ.

وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمِنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ. وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ؛ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ. وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا يَصْدُرُ مِنْهُمْ ـ إِنْ صَدَرَ ـ، حَتَّى إِنَّهُمْ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيْسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ. وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ. ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ

مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ. فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ: إنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ. ثُمَّ الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ فِي جَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ؛ مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْمٍ وَبَصِيرَةٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ تَعَالَى).

الشَّرْح

قوله: (وَيَتَبَرّءُونَ مِنْ طَرِيقَةِ الرَّوَافِضِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَ الصَّحَابَةَ وَيَسُبُّونَهُمْ. وطَرِيقَةِ النَّوَاصِبِ الَّذِينَ يُؤْذُونَ أَهْلَ الْبَيْتِ بِقَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ):

المخالفون لأهل السُّنَّة والجماعة في باب الصحابة طائفتان:

إحداهما: **الروافض**: وسبب تسميتهم بذلك، ما ذكره عبد القاهر البغدادي، وغيره، قال: (وَكَانَ زيد بْن عَليّ قد بَايعه على إِمَامَته خَمْسَة عشر ألف رجل، من أهل الْكُوفَة، وَخرج بهم على والى الْعرَاق، وَهُوَ يُوسُف بن عمر الثقفي، عَامل هِشَام بن عبد الْملك على الْعِرَاقِيّين، فَلَمَّا اسْتمرّ الْقِتَال، بَينه وَبَين يُوسُف بن عمر الثقفي، قَالُوا لَهُ: إنا ننصرك على أعدائك بعد أَن تخبرنا بِرَأْيك فِي أبي بكر وَعمر، اللَّذين ظلما جدك عليّ بن أبي طَالب! فَقَالَ زيد: إِنِّي لَا أَقُول فيهمَا إِلَّا خيرًا، وَمَا سَمِعت أبي يَقُول فيهمَا إلا خيرًا، وإنما خرجت على بنى أمية، الَّذين قَاتلُوا

جدي الْحُسَيْن، وأغاروا على الْمَدِينَة يَوْم الْحرَّة، ثمَّ رموا بَيْت الله بِحجر المنجنيق وَالنَّار. ففارقوه عِنْد ذَلِك، حَتَّى قَالَ لَهُم: رفضتموني! وَمن يَوْمئِذٍ سموا «رافضة»)[(١)].

وهذا هو الاسم الذي ينبغي أن يدمغوا به، عليهم من الله ما يستحقون، فلا والله، ما هم بشيعة؛ لأن الشيعة تعني: التشيع، والمناصرة، وهم في الواقع أول من خذل علي بن أبي طالب ﷺ وأبناءه من بعده، وإن ادّعوا، زورًا وبهتانًا، أنهم أهل نصرته؛ بل إنهم خذلوا آل البيت جميعًا، بعد أن جروهم إلى المآزق، فنتج قتلهم وأذيتهم، ولا زالوا ـ إلى يومنا هذا ـ يدّعون الدعاوى العريضة، ويزعمون محبة أهل البيت، ويصورون لأتباعهم أن أهل السُّنَّة أعداء لأهل البيت، وكذبوا، وخابوا، وخسروا؛ ولذلك فهم أمة مخذولة، لا تقوم لهم قائمة إلا يتبعها سقوط وانهيار، وإذا استطالوا في بعض الأزمنة، ومدوا أذرعتهم إلى بعض بلاد المسلمين، وعاثوا فيها فسادًا، فمآل أمرهم إلى بوار.

وقد وقع لهم في بعض حقب التاريخ استطالة؛ ففي القرن الرابع، الذي يسميه الذهبي: «قرن الرفض»، امتد أثر الرافضة إلى معظم الممالك الإسلامية؛ فتمكن «البويهيون في بغداد، وتسلطوا على خلفاء بني العباس، وتمكن «العبيديون» من حكم المغرب، ومصر، وأطراف الشام، وفلسطين، وتسموا بالفاطميين، وحاشا هذا النسب الشريف من بني عبيد بن ميمون القداح، وكانوا، كما قال الذهبي ﷺ: (كانوا أربعة عشر متخلفًا، لا مستخلفًا)[(٢)]، وتمكن «القرامطة» في الأحساء

---

(١) الفرق بين الفرق: (ص٢٥).
(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي: (١٢/ ٣٦٧).

والبحرين، وتمكن «الصليحيون» في اليمن، وتمكن «الحمدانيون» في حلب وأعمالها، حتى لم يكد يسلم من بلاد الإسلام إلا الشام، والحجاز، ثم إن الله تعالى، بفضله ومنِّه وكرمه، قشع هذه الكربة؛ فجاء عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، رحمهما الله، من بلاد الموصل، وجاهدوا الصليبيين، وقضوا على الدولة العبيدية الخبيثة، عن طريق صلاح الدين الأيوبي، وجاء «السلاجقة»، من المشرق، فقضوا على «البويهيين»، ودالت دولة «القرامطة» و«الصليحيون»، وعادت أعلام السُّنَّة ترفرف على الممالك الإسلامية، وهذا من ابتلاء الله الناس بعضهم ببعض.

وينبغي لطالب العلم أن يقرأ التاريخ؛ لأن في التاريخ عبرة ومنهاج، ودروس وعظات، فيما جرى في مطاويه من هؤلاء الأدعياء، الذين هم في حقيقتهم مجوس حاقدون على الإسلام وأهله، موتورون من إطفاء نار المجوسية والكسروية؛ ركبوا موجة التشيع ليموِّهوا على السذج والبسطاء بمحبة أهل بيت رسول الله ﷺ، وفي هذه الأزمنة ركبوا الموجة السياسية، والتظاهر بالعداء لأمريكا وإسرائيل، إلى غير ذلك من الجعجعة، وهم أولياء لهم، وصِلاتهم حميمة، وثيقة بكل من تظاهروا بعداوتهم، لكنهم يذرون الرماد في العيون، كما يقال، ليبدو وكأنهم أوصياء على قضايا الأمة، والذب عن فلسطين، والمسجد الأقصى! وليس لهم في ذلك إلا الدعاوى العريضة، وإثارة الفتن، والشغب، والاحتراب في أنحاء البلاد الإسلامية، وحسبك ما فعلوه بالشام، وأهلها، شاهدًا صارخًا، ودليلًا دامغًا على شؤمهم على أهل الإسلام؛ فإلى الله المشتكى.

الثانية: **النواصب**: جمع ناصب، وهو من ناصب أهل بيت

رسول، الله ﷺ، العداء بقول أو عمل، والمقصود بهم الخوارج؛ فإنهم خرجوا في زمن عليّ رضي الله عنه وكفروه، بدعوى أنه حكم الرجال في كتاب الله، وكفروا أهل الجمل، وأهل صفين، وطلبوا من عليّ رضي الله عنه أن يجدد إسلامه! وجرى بينهم وبين عليّ رضي الله عنه والصحابة، وقائع سبق ذكرها.

فأهل السُّنَّة والجماعة يبرؤون من هؤلاء وهؤلاء، وهم وسط بينهم كما تقدم.

وقد احتملت كتب التواريخ جملة من الأخبار المتعلقة بالفتنة بين الصحابة؛ فبيَّن المصنف الطريقة المنصفة، العادلة، المقنعة، تجاه الآثار المروية في مساوئ بعضهم:

قوله: (وَيُمْسِكُونَ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ): كان الصحابة، رضوان الله عليهم، يدًا واحدة، وجبهة واحدة، زمن النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وعثمان، ثم وقعت الفتنة زمن عليٍّ رضي الله عنه؛ فلا يتوهم متوهم أن الشجار واقع بين عامة الصحابة، كلا؛ إنما وقع بين أفراد منهم؛ ابتلوا بهذه الفتنة، وهم: عليّ رضي الله عنه ومن معه، ومعاوية رضي الله عنه ومن معه، وطلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ومن معهم. وأما عامتهم فسلِموا وعوفوا من هذا الأمر، وكثير منهم ماتوا أو استشهدوا في الفتوح، قبل ذلك، وكثير ممن عاصر الفتنة؛ بل أكثرهم، اعتزل الفتنة.

فالواجب في هذا المقام الإمساك عما شجر بينهم؛ قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا تَقُولُ فِي أَهْلِ صِفِّينَ. قَالَ: «تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللهُ يَدَيَّ مِنْهَا، فَلَا أُحِبُّ أَنْ أَخْضِبَ لِسَانِي فِيهَا»[1]؛ ومعنى ذلك: أن لا يفتتح

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: (٩/ ١١٤).

الإنسان الحديث فيما شجر بين الصحابة، في الدروس والمحاضرات والمجالس؛ لأن من خاض في هذه الأخبار قد يلحقه شيءٌ من وحر الصدور والنقمة، وينقدح في خاطره معنىً فاسد؛ هو في عافية منه. لكن لو انتصب من يقع في الصحابة، وينال منهم، تعيّن حينئذٍ الدفع عنهم، والذب عن عرضهم، كما فعل ابن العربي المالكي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «العواصم من القواصم»، فحرر مواقف الصحابة، رضوان الله عليهم، وأجاب عنها بجوابٍ سديدٍ.

قوله: (وَيَقُولُونَ: إِنَّ هَذِهِ الآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ فِي مَسَاوِيهِمْ مِنْهَا مَا هُوَ كَذِبٌ، وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ، وَالصَّحِيحُ مِنْهُ هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ: إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ)؛ يوجد ركام من المرويات، دسها الروافض في كتب التاريخ، ومن أشهر هؤلاء الروافض، الذين ضخوا هذه المرويات المكذوبة: أبو مخنف، لوط بن يحيى الغامدي الكوفي، قال عنه الذهبي: «تالف لا يوثق به»[(١)]، **وقد جعلها المصنف ثلاثة أصناف**:

١ ـ (مَا هُوَ كَذِبٌ): الكذب: مخالفة الخبر للواقع، يعني: أنها مصنوعة موضوعة، وهذا أسهل ما يكون على الروافض؛ فإنهم أكذب أهل الأهواء، كما قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: (ما رأيت من أهل الأهواء أكذب على رسول الله ﷺ، من الرافضة)[(٢)].

٢ ـ (وَمَنْهَا مَا قَدْ زِيدَ فِيهِ وَنُقِصَ وَغُيِّرَ عَنْ وَجْهِهِ)؛ أي: أنه يوجد أصل لهذا الخبر، لكنه تعرض للتحريف؛ إما بزيادة، أو نقصان، أو

---

(١) ميزان الاعتدال: (٣/ ٤١٩).
(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة الكبرى: (٢/ ٥٤٥)، واللالكائي في شرح السُّنَّة: (٨/ ١٤٥٧).

تغيير؛ فلا ريب أنه قد وقعت حادثة الجمل، وصفين، والتحكيم؛ بل وأخبر النبي ﷺ، أنها ستقع، ويعمد بعض الناس، بدافع الغيرة أو الحمية، إلى إنكار وقوعها، ويزعم أنها: (أباطيل يجب أن تمحى من التاريخ)! ولا ريب أنه ذلك مغالطة؛ بل قد وقعت قطعًا، ابتلاءً من الله تعالى، لحكمة بالغة، وقد حفظت الأمة منها الدروس النافعة؛ لكن وقع في حكايتها زيادة، ونقصان، وتحريف، أخرجها عن سياقها الصحيح.

٣ ـ (وَالصَّحِيحُ مِنْهُ): هذا هو القسم الثالث من المرويات، ووقع في بعض النسخ: (وَعَامةُ الصَّحِيحُ مِنْهُ)، وهذا يدل على إنصاف المصنف، **وقد أجاب عن هذا القسم بأجوبة لائقة:**

١ ـ (هُمْ فِيهِ مَعْذُورُونَ؛ إِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُصِيبُونَ، وَإِمَّا مُجْتَهِدُونَ مُخْطِئُونَ)، يعني: أن ذلك صدر منهم عن اجتهاد، وبيان ذلك، أنه لما قتل عثمان رضي الله عنه وبايع الصحابة عليًّا رضي الله عنه رأى أن من أولى الأولويات أن يجمع كلمة المسلمين، وأن يبايعه العمال على الأمصار، ويدخلوا في الطاعة، وكان معاوية رضي الله عنه في الشام، فأخذته الغيرة والحمية؛ لما جرى لأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وكان معاوية رضي الله عنه من أولياء الدم؛ لأنه من بني عبد شمس؛ فأبى الدخول في البيعة، حتى يقتص من قتلة عثمان، وجرى بينهما مكاتبات، ورأى علي رضي الله عنه أن عليه الدخول في البيعة؛ كسائر المسلمين، ثم بعد أن يستتب الأمر يتتبع الجناة، ويقيم الحد. لكن الأمر عَظُم على معاوية ومن معه؛ فأبوا أن يدخلوا في بيعته، ونقل علي رضي الله عنه مقر الخلافة من المدينة إلى الكوفة في العراق، ولما احتدم الخلاف بين أهل العراق، وأهل الشام، رأى طلحة والزبير، ومعهم عائشة رضي الله عنهم أجمعين، أن هذا الخلاف لا ينتهي إلا أن يبايع المسلمون خليفة سوى عليّ ومعاوية؛ فخرجوا في جمع كثيف نحو العراق، لكي

يكون ذلك أدعى لحصول مقصودهم، فلما بلغوا موضعًا في الطريق، سعى المحرضون إلى إثارة الحرب بين العسكرين؛ فوقعت «وقعة الجمل»؛ فكان ذلك عن اجتهاد، ورغبة في الإصلاح، والمجتهد لا يخلو من حالين، كما قال النبي ﷺ: «**إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(١)، فالأجران: أجر الاجتهاد، وأجر الإصابة، والأجر الواحد: أجر الاجتهاد.

٢ ـ (**وَهُم مَّعَ ذَلِكَ لَا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ مَعْصُومٌ عَنْ كَبَائِرِ الإِثْمِ وَصَغَائِرِهِ بَلْ تَجُوزُ عَلَيْهِمُ الذُّنُوبُ فِي الْجُمْلَةِ**)، يعني: أنهم بشر خطاؤون؛ ليسوا معصومين، ومن تتبع السيرة النبوية، والسُّنَّة، يجد أنه قد وقع لبعض الصحابة أمور تستدرك.

٣ ـ (**وَلَهُم مِّنَ السَّوَابِقِ وَالْفَضَائِلِ مَا يُوجِبُ مَغْفِرَةَ مَا صَدَرَ مِنْهُمْ ـ إِنْ صَدَرَ، حَتَّى إِنَّهُ يُغْفَرُ لَهُم مِّنَ السَّيِّئَاتِ مَا لَا يُغْفَرُ لِمَنْ بَعْدَهُمْ؛ لأَنَّ لَهُم مِّنَ الْحَسَنَاتِ الَّتِي تَمْحُو السَّيِّئَاتِ مَا لَيسَ لِمَنْ بَعْدَهُمْ**): قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، فحسناتهم، رضوان الله عليهم؛ من الهجرة، والنصرة، والجهاد، والعلم، والعمل، عظيمة، ماحية للسيئات، مذهبة لآثارها، على فرض صدورها.

٤ ـ (**وَقَدْ ثَبَتَ بِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ**): قال ﷺ: «**خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ**»(٢)، وحسبك بهذه التزكية النبوية، فإنها تطُمُّ جميع المثالب المزعومة.

٥ ـ (**وَأَنَّ الْمُدَّ مِنْ أَحَدِهِمْ إِذَا تَصَدَّقَ بِهِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ جَبَلِ أُحُدٍ**

(١) أخرجه البخاري: برقم (٧٣٥٢)، ومسلم: رقم (١٧١٦).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٢٦٥٢)، ومسلم: رقم (٢٥٣٣).

ذَهَبًا مِمَّن بَعْدَهُمْ): فهذا التضعيف العظيم للحسنات، الذي اختصوا به، تتضاءل عنده السيئات.

٦ ـ (ثُمَّ إِذَا كَانَ قَدْ صَدَرَ مِنْ أَحَدِهِمْ ذَنْبٌ؛ فَيَكُونُ قَدْ تَابَ مِنْهُ، أَوْ أَتَى بِحَسَنَاتٍ تَمْحُوهُ، أَو غُفِرَ لَهُ؛ بِفَضْلِ سَابِقَتِهِ، أَوْ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِين هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِشَفَاعَتِهِ، أَوْ ابْتُلِيَ بِبَلَاءٍ فِي الدُّنْيَا كُفِّرَ بِهِ عَنْهُ): هذه خمسة أنواع من المكفرات، للصحابة الكرام منها النصيب الأوفر، فلا شك أنهم أسعد الناس بهذه المكفرات: من التوبة والاستغفار، والحسنات الماحية، ومغفرة أرحم الراحمين، والسابقة في الدين، وشفاعة سيد المرسلين، الذين هم أحق الناس بها، والبلاء الدنيوي؛ بمرض، أو همٍّ، أو غمٍّ، أو غير ذلك، فكل هذه المكفرات تقضي على المساوئ المدّعاة.

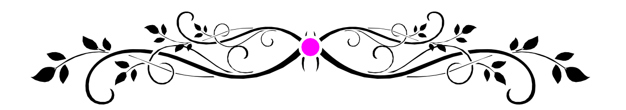
قوله: (فَإِذَا كَانَ هَذَا فِي الذُّنُوبِ الْمُحَقَّقَةِ؛ فَكَيْفَ فِي الأُمُورُ الَّتِي كَانُوا فِيهَا مُجْتَهِدِينَ إِنْ أَصَابُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرَانِ، وَإِنْ أَخْطَأُوا؛ فَلَهُمْ أَجْرٌ وَاحِدٌ، وَالْخَطَأُ مغْفُورٌ): وقد تقدم بيان وجه اجتهادهم، وتراوحهم بين الأجر، والأجرين.

قوله: (ثم الْقَدْرَ الَّذِي يُنْكَرُ مِنْ فِعْلِ بَعْضِهِمْ قَلِيلٌ نَزْرٌ مَغْمُورٌ بِجَنْبِ فَضَائِلِ الْقَوْمِ وَمَحَاسِنِهِمْ من الإِيمَانِ بِاللهِ، وَرَسُولِهِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ، وَالْهِجْرَةِ، وَالنُّصْرَةِ، وَالْعِلْمِ النَّافِعِ، وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ)؛ أي: على تقدير ثبوتها، فإنها لا تكاد تُذكر؛ فإنها كالنقطة في البحر، وقد أصابوا من هذه الفضائل الحظ الأوفر، واختصوا ببعضها، دون سائر الأمة.

قوله: (وَمَن نَّظَرَ فِي سِيرَةِ الْقَوْمِ بِعِلْم وَبَصِيرَةٍ، وَعَدْلٍ، وَمَا مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم بِهِ مِنَ الْفَضَائِلِ؛ عَلِمَ يَقِينًا أَنَّهُمْ خَيْرُ الْخَلْقِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ؛ لَا كَانَ

وَلا يَكُونُ مِثْلُهُمْ، وَأَنَّهُمْ هُمُ الصَّفْوَةُ مِنْ قُرُونِ هَذِهِ الأُمَّةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الأُمَمِ وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ): هذا هو الواجب نحو أصحاب رسول الله ﷺ، وعلينا أن نعزز هذا الاعتقاد وننشره بين الناس؛ لأننا في زمنٍ تطاول فيه الأقزام على العظام، وصاروا ينالون منهم؛ فعلينا أن ننشر فضائلهم، ومناقبهم، وسيرهم الحميدة، ونقطع الطريق على هؤلاء البغاة، والمفسدين، من الروافض، وأشباههم.





كرامات الأولياء

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

۞ (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ، كالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ وَغَيْرِهَا، وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

الشَّرْح

قوله: (وَمِنْ أُصُولِ أَهْلِ السُّنَّةِ: التَّصْدِيقُ بِكَرَامَاتِ الأَوْلِيَاءِ):

الكرامات لغةً: جمع كرامة. قال ابن منظور: (والكَرَامَةُ: اسْمٌ يُوضَعُ للإكرام)[١]. **واصطلاحًا:** أمر خارق للعادة يجريه الله على يد رجل صالح.

الأولياء: جمع وَلِي، مأخوذ من الولْي، وهو الدنو والقُرب، وأولياء الله هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣]؛ فمن كان لله تقيًّا كان لله وليًّا، فالولاية ليست دعوى، ولا تحصل بالوراثة! وإنما تنال بتقوى الله ﷻ؛ فبعض الجهال يظن أن الولاية تتسلسل كابرًا عن كابر، ويقول: هذا البيت بيت أولياء! والتقي:

(١) لسان العرب: (١٢/ ٥١٢)

هو الممتثل أوامر الله، المجتنب مناهيه، ولا ريب أن لأولياء الله تعالى منزلة عليّة، وقد أجزل الله الثناء عليهم، فقال في الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**»[(١)]؛ فلأولياء الله تعالى منزلة خاصة عند الله تعالى، في الدنيا والآخرة؛ فهم في الدنيا في حفظه، وصونه، وحماه، وفي الآخرة لهم الدرجات العلى في الجنة.

قوله: (وَمَا يُجْرِي اللهُ عَلَى أَيْدِيهِم مِّنْ خَوَارِقِ الْعَادَاتِ فِي أَنْوَاعِ الْعُلُومِ وَالْمُكَاشَفَاتِ وَأَنْوَاعِ الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ): **خرق العادة ثلاثة أنواع**:

أحدها: **الآيات**: وهي ما يجريه الله على أيدي أنبيائه تصديقًا لهم، وإقامةً للحجة على أقوامهم، ولا يضاهيها شيء من الخوارق مطلقًا، ويسميها بعضهم (معجزات)، والأْولى تسميتها آيات؛ موافقة للقرآن.

الثاني: **الكرامات**: وهي ما يجريه الله تكرمة لبعض عباده الصالحين، مما لم يألفه الناس، إما لحاجتهم الخاصة، وإما لحاجة الناس العامة، ويكون ذلك دليلًا على صلاحهم، ودليلًا على صحة نبوة النبي الذي اتبعوه؛ فإنه لولا اتباعهم له لما نالوها.

الثالث: **السحر**: وهي ما يقع من التخييل، والشعوذات للسحرة الكفرة، الفجرة، بالاستعانة بالشياطين؛ يموهون بها على الناس.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٦٥٠٢).

والكرامات تتعلق بأمرين:

- **العلوم والمكاشفات**: بأن يُخبِر الولي، بإلهام من الله تعالى، بما لم تجر العادة به، كإخبار أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن الذي في بطن امرأته أنثى، فكان كذلك؛ (عَنْ عَائِشَةَ، أَنَّ أَبَاهَا نَحلَهَا جُذَاذَ عِشْرِينَ وَسْقًا مِنْ مَالِهِ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ جَلَسَ فَتَشَهَّدَ وَحَمِدَ اللهَ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ: أَمَّا بَعْدُ يَا بُنَيَّةُ فَإِنَّ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ غِنًى بَعْدِي لَأَنْتِ، وَإِنَّ أَعَزَّ النَّاسِ عَلَيَّ فَقْرًا بَعْدِي أَنْتِ، وَإِنِّي كُنْتُ نَحَلْتُكِ جُذَاذَ عِشْرِينَ وَسْقًا مِنْ مَالِي فَوَدِدْتُ أَنَّكِ كُنْتِ جَذَذْتِيهِ وَحُزْتِيهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مَالُ الْوَارِثِ، وَإِنَّمَا هُمَا أَخَوَاكِ وَأُخْتَاكِ، قُلْتُ: هَذَا أَخَوَايَ فَمَنْ أُخْتَايَ؟ قَالَ: ذُو بَطْنِ بِنْتِ خَارِجَةَ فَإِنِّي أَظُنُّهَا جَارِيَةً)[1].

وكاطِّلاع عمر رضي الله عنه على جند من المسلمين، بأرض العراق، عليهم سارية بن زنيم، وقد كاد أن يحاط بهم؛ (فعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ عُمَرَ رضي الله عنه خَطَبَ يَوْمًا بِالْمَدِينَةِ فَقَالَ: يَا سَارِيَةُ بْنَ زَنِيمٍ الْجَبَلَ، مَنِ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ، قَالَ: فَقِيلَ لَهُ: تَذْكُرُ سَارِيَةَ، وَسَارِيَةُ بِالْعِرَاقِ؟... فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى قَدِمَ سَارِيَةُ فَقَالَ: سَمِعْتُ صَوْتَ عُمَرَ فَصَعِدْتُ الْجَبَلَ)[2].

- **الْقُدْرَةِ وَالتَّأْثِيرَاتِ**: فإن الله تعالى يمكّن بعض صالحي عباده من فعلٍ لا يقع لغيرهم، ويصنع الله لهم ما لا يصنع لغيرهم، **ومن أمثلة**

---

(١) كرامات الأولياء من شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: (٩/١٢٣).

(٢) كرامات الأولياء من شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: (٩/١٢٨).

ذلك: ما وقع للعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه عند فتح البحرين؛ فعَنْ أَبِي السَّلِيلِ ضُرَيْبِ بْنِ نُفَيْرٍ، (قَالَ: كُنْتُ مُرَافِقًا لِلْعَلَاءِ بْنِ الْحَضْرَمِيِّ، حِينَ بُعِثَ إِلَى الْبَحْرَيْنِ، فَسَلَكْنَا مَفَازَةً، فَعَطِشْنَا عَطَشًا شَدِيدًا، حَتَّى خَشِينَا عَلَى أَنْفُسِنَا الْهَلَاكَ، وَمَا نَدْرِي مَا مَسَافَةُ الْأَرْضِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لَهُ، فَنَزَلَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيمُ، يَا عَلِيُّ، يَا عَظِيمُ، اسْقِنَا، قَالَ: فَإِذَا نَحْنُ بِسَحَابَةٍ، كَأَنَّهَا جَنَاحُ طَائِرٍ، قَدْ أَظَلَّتْنَا، حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى خَلِيجٍ مِنَ الْبَحْرِ، مَا خِيضَ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَلَا خِيضَ بَعْدَهُ، فَالْتَمَسْنَا سُفُنًا فَلَمْ نَجِدْ، فَذَكَرْنَا ذَلِكَ لَهُ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قَالَ: يَا حَلِيمُ، يَا عَلِيمُ، يَا عَظِيمُ، أَجِرْنَا، ثُمَّ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ، ثُمَّ قَالَ: جُوزُوا بِاسْمِ اللهِ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمَشَيْنَا عَلَى الْمَاءِ، فَوَاللهِ مَا ابْتَلَّتْ قَدَمٌ، وَلَا خُفُّ بَعِيرٍ، وَلَا حَافِرُ دَابَّةٍ، وَكَانَ الْجَيْشُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ، فَلَمَّا جُزْنَا قَالَ: هَلْ تَفْقِدُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَأَتَيْنَا الْبَحْرَيْنِ، فَافْتَتَحَهَا، وَأَقَامَ بِهَا سَنَةً، ثُمَّ مَاتَ، رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ)[(١)].

وقد أفرد الإمام أبي القاسم اللالكائي رحمه الله جزءًا من ديوانه الحافل، (شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة)، في حكاية كرامات الأولياء، وذكر عشرات الأمثلة.

وقد انقسم الناس في هذا الباب إلى طرفين ووسط:

ـ **قوم غلوا في إثبات الكرامات**: وهم الصوفية، حتى ادعوها لكل من هب ودب، ومشى ودرج، وصاروا يتوسعون في حكايتها، ولا يأبهون لإثباتها؛ فإنهم يزعمون لأوليائهم، زورًا وبهتانًا، من القَصص

(١) كرامات الأولياء من شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة للالكائي: (٩/ ١٦٢).

والخرافات ما لا يخطر ببال، ولا يدور بخيال، ويتوسعون في هذا بغرض تكثير الأتباع، وتعظيم الذوات، ومن قرأ في «طبقات الشعراني» وجد العجب العجاب من المخاريق والدعاوى العريضة.

- **قوم غلوا في إنكار الكرامات**: وهم المعتزلة، وقالوا: لا يمكن أن تخرق العادة إلا لنبي، وإلا لالتبس النبي بالولي، والتبس النبي بالساحر! هذه شبهتهم. **والجواب**:

- لا يمكن أن يلتبس النبي بالولي؛ لأن الولي لا يدعي النبوة؛ الولي من أشد الناس إزراءً على نفسه، وحطًّا لها، واتضاعًا لله ﷻ فكيف يتصور أن يقول الولي عن نفسه إنه نبي؟! بل ولا يدعي أنه ولي، هذا من أبعد البعيد، وأمحل المحال.

ويلتحق بهؤلاء المنكرين، من يسخر بالكرامات دون تحقق، وتمحيص، ويبادر إلى وصفها بالخرافات، وهذا كثير عند الماديين العصرانيين.

- ولا يمكن أن يلتبس النبي بالساحر، أو الولي بالساحر؛ لأن بين أولياء الرحمٰن، وأولياء الشيطان فُرقان عظيم؛ شتان بين النبي، الذي دلائل الصدق، والصلاح بادية عليه، في أقواله، وأفعاله، وسيرته، وبين الساحر، الخبيث، النجس، الذي يشرك بالله، ويأكل أموال الناس بالباطل، ويطأ الفرج الحرام، ويغشى صنوف المنكرات؛ لا يمكن أن يلتبس هذا بهذا، والناس تدرك الفرق بين الطيب والخبيث، والصادق والكاذب. وأين تذهبون؟ وماذا تصنعون بما أخبر الله تعالى به في كتابه من إثبات السحر؟ كما في قصة سحرة فرعون، وفي قول الله تعالى: ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فلا شك أن

للسحر حقيقة وتأثير، لكن ليست حقيقته قلب الأعيان والذوات، وإنما التخييل والأذى.

ـ **قوم توسطوا**: وهم أهل السُّنَّة والجماعة؛ فأثبتوا كرامات الأولياء؛ إما رحمة به وتنفيسًا وفرجًا، مثل ما وقع لصلة بن أشيم؛ كان في مفازة؛ فمات جواده، فسأل الله تعالى أن يبقيه له، فرد الله عليه روحه، حتى بلغ باب منزله، ثم قال لابنه: يا بني انزع اللجام، فإن الفرس عارية، ثم وقع الجواد ميتًا، وإما لحاجة الأمة، كما استسقى معاوية رضي الله عنه بيزيد بن الأسود الجرشي، فسقوا.

قوله: (**كَالْمَأْثُورِ عَنْ سَالِفِ الأُمَمِ فِي سُورَةِ الْكَهْفِ**): يشير إلى ما جرى للفتية أصحاب الكهف، فقد ناموا ثلاثمائة وتسع سنين، ثم بعثهم الله تعالى! وما جرى من الخضر، صاحب موسى عليه السلام على القول أنّه ولي، وما مكَّن الله به ذا القرنين من بناء الردم العظيم، حتى قال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّيۖ﴾ [الكهف: ٩٨].

قوله: (**وَعَنْ صَدْرِ هَذِهِ الأُمَّةِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَسَائِرِ قُرُونِ الأُمَّةِ، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**): تقدم ذكر طائفة من كرامات الأولياء لبعض الصحابة والتابعين، وهي سارية باقية في أمة محمد ﷺ؛ بحمد الله. فلا عجب أن يجري الله تعالى على أيدي عباده الصالحين في هذه الأزمنة، وما بعدها، من الكرامات ما يكون لطفًا بهم، وتعزيزًا لأمرهم، ودِلالة على صدق اتباعهم لنبيِّهم، فإذا صح ذلك بالسند، وثبت بالنقل الصحيح؛ وجب تصديقه، ولا يجوز أن يقابل بالاعتراض، ووصف من قاله بالدروشة والسذاجة؛ فإن الكرامة باقية في أمة محمد ﷺ.

وكأن المصنف رحمه الله يشير بوجودها إلى يوم القيامة، إلى ما يجري

زمن المهدي، في آخر الزمان، حيث يكثر المال جدًّا، حتى إن الرجل يخرج بصدقته فلا يجد من يقبلها! وحتى إن الأرض تخرج خيراتها، حتى يستظل الرهط بقحف الرمانة! وحتى أن اللقحة من الإبل تكفي الفئام من الناس!



منهج أهل السُّنَّة والجماعة في الاستدلال وسبب تسميتهم

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَاتِّبَاعُ وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، حَيثُ قَالَ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيْينَ مِنْ بَعْدِي، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ**»، وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الِاجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ. وَالإِجمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدينِ. وَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ. وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلَافُ،

وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةِ)[١].

الشَّرح

هذا فصل مهم يتعلق بمنهج الاستدلال؛ فإن من كمال فهم عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة معرفة مصادرهم في الاستدلال، وطريقتهم فيه.

قوله: (ثُمَّ مِنْ طَرِيقَةِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ اتِّبَاعُ آثَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاطِنًا وَظَاهِرًا): من أخص خصائص أهل السُّنَّة والجماعة «الاتباع»، قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، وقال: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٨﴾ [الأعراف: ١٥٨]، والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود بالأمور الباطنة: مسائل الاعتقاد العلمي والعملي، وبالأمور الظاهرة: الشرائع التعبدية؛ من الأقوال والأفعال، فأهل السُّنَّة والجماعة أسعد الناس بسُنَّة النبي ﷺ، فلا يبلغهم شيء عن نبيِّهم ﷺ، إلا تمسكوا به، وحرصوا على تطبيقه، ولم يكن من دأب السلف أن يقولوا: أواجب هذا، أم سُنَّة؟ محرم هذا، أم مكروه؟ إنما وقع هذا في المتأخرين، أما السلف الصالح فإذا علموا شيئًا من سُنَّة نبيّهم ﷺ، فعلوه، ولم يدخلوا في حيل ومماكسات؛ بل يعملون بقول النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه أبو داود: رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: رقم (٢٦٧٦)، وابن ماجه: رقم (٤٣)، وأحمد: رقم (١٧١٤٤)، وابن حبان في صحيحه: رقم (٥)، والحاكم في المستدرك: (٣٢٩).

قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وقال الحاكم: حديث صحيح ليس له علة.

«مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ»[١]؛ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وهذا يفسر استثقال بعض الناس سُنَّة النبي ﷺ، وفرح آخرين بها! فمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيرًا، طابت نفسه، وقرت عينه، وسهل انقياده، ومن ضعفت عنده هذه المعاني ثقل عليه اتباع السُّنَّة، ودخل في مماكساتٍ، وتتبعٍ للرخص، والفتاوى الشاذة.

وهل يدخل في اتباع آثار رسول الله ﷺ، الآثار الحسية؛ بأن يقصد الإنسان المواضع التي نزل فيها النبي ﷺ، فينزل فيها؟ والمواضع التي قضى فيها حاجته، فيقضي فيها حاجته؟ وقع هذا من عبد الله بن عمر رضي الله عنهما فكان يتحرى ذلك في أسفاره، والظاهر أن هذا لا يدخل في دائرة الاتباع المشروع؛ لأن هذا وقع منه ﷺ، بحكم الطبيعة، والجِبلة، ومقتضيات الحال، لا بحكم الدين والتعبد.

وما فعله ﷺ، بمقتضى الجِبِلَّة؛ كالأكل والشرب والنوم، فلا حكم له بحد ذاته، ولكن قد تتعلق به سُنَّة؛ لسبب، أو وصف، وكذلك ما فعله ﷺ، بحسب العادة؛ كالملبس، والمركب، والمسكن، فلا حكم له بحد ذاته، لكن تتعلق به سُنَّة؛ لسبب، أو وصف، كما هو مبسوط في كتب أصول الفقه؛ فالاتباع المقصود هو ما يتعلق بالعقائد الباطنة، والشرائع الظاهرة.

قوله: (وَاتِّبَاعُ سَبِيلِ السَّابِقِينَ الأَوَّلِينَ): ثمَّ سبيلان: قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٢٨٨)، ومسلم: رقم (١٣٣٧)، واللفظ له.

مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ [النساء: ١١٥]، وقال: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنعام: ٥٥]؛ فالواجب اتباع سبيل المؤمنين، ومجانبة سبيل المجرمين، وقد استدل المصنف بوصية النبي ﷺ:

قوله: (عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي): وسُنَّة النبي ﷺ: كل ما أضيف إليه من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة.

قوله: (وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ): الخلفاء الراشدون: هم من خلف النبي ﷺ، في أمته، بالعلم النافع، والعمل الصالح، ويدخل فيهم الخلفاء الأربعة دخولًا أوليًّا، ويدخل في ذلك: العلماء، والأمراء الصالحون؛ كعمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ والإمام أحمد بن حنبل، والشافعي، ومالك، وسفيان، والأوزاعي، وأمثالهم، ممن أطبقت الأمة على فضلهم، والثناء عليهم؛ فهم خلفاء راشدون.

قوله: (تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ): التمسك يكون بالأيدي، والعض يكون بالنواجذ، والنواجذ: آخر الأضراس؛ كناية عن شدة التمسك، والعمل.

قوله: (وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ): ذلك أن اقتصادًا في اتباع خيرٌ من اجتهاد في ابتداع؛ فلا فائدة أن يستكثر الإنسان من عمل بدعي؛ لأنه لا يزيده من الله إلا بعدًا؛ فالبدعة مذمومة، بكل حال.

وقد بيَّن الرسول ﷺ، البدعة بقوله: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»(١)، وقوله: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ**

(١) أخرجه البخاري: رقم (٢٦٩٧)، ومسلم: رقم (١٧١٨).

رَدٌّ»[١]؛ فكل إحداث في الدين فهو بدعة، وعرّفها الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ بتعريف أصولي فقال: (طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى)[٢].

ـ فقوله: (طريقة في الدين): تخرج أمور الدنيا؛ فلا تتعلق بالمساكن، والمراكب، والملابس، إلا أن يكون لوصف من الأوصاف؛ كالنهي عن ثوب الشهرة، أو لبس الأحمر والمعصفر للرجال، أو الضيق والعاري والشفاف للنساء.

ـ وقوله: (مخترعة): يعني على غير مثال سابق.

ـ وقوله: (تضاهي الشرعية): يعني: تماثل الأشياء المشروعة؛ لأن المبتدعة يحدثون أمورًا تشابه العبادات المشروعة؛ ليسلِّكوها بين العامة: كإحداثهم الاحتفال بالمولد النبوي.

قوله: (يقصد بالسير عليها المبالغة في التعبد لله تعالى): قصد مبتدعها بالتزامها المبالغة في العبادة، وكل من أحدث بدعة، فقد هدم سُنَّة، وفي الصحيح غنية عن الضعيف، والشيطان إذا لم يظفر من العبد بشرك أكبر، ولا أصغر، أوقعه في البدعة؛ فإن البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية.

والبدع أنواع ومراتب: فمنها: بدع مكفرة، وبدع مفسقة، ومنها: بدع اعتقادية، وبدع عملية، وبسط هذا يطول؛ فينبغي لطالب العلم أن يميز بين البدع، فالبدعة التي تتعلق بأمر عقدي؛ كبدعة الخوارج، والقدرية، والمرجئة، ليست كبدعة من أحدث أورادًا، أو اتخذ سبحة، أو خرقة؛ وكلها مردودة على أصحابها، لكن يُفرق بين ما يتعلق

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٧١٨).

(٢) الاعتصام للشاطبي: (ص٤٧).

بأصل الدين وأُسِّه، وبين ما يتعلق بالسلوك، فيُعطى كل شيء ما يستحقه.

قوله: (وَيَعْلَمُونَ أَنَّ أَصْدَقَ الْكَلامِ كَلامُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ): قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، وقال: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾ [النساء: ١٢٢]، وعَنْ جَابِرٍ، قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيْنَاهُ، وَعَلَا صَوْتُهُ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيْشٍ يَقُولُ: «**صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ**»، وَيَقُولُ: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**»، وَيَقْرُنُ بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ السَّبَّابَةِ، وَالْوُسْطَى، وَيَقُولُ: «**أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[(١)]، وينبغي لطالب العلم أن يستهل الخطب، والدروس، والمواعظ، بهذه الكلمات، ونحوها.

قوله: (وَيُؤْثِرُونَ كَلَامَ اللهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ كَلامِ أَصْنَافِ النَّاسِ، وَيُقَدِّمُونَ هَدْيَ مُحَمَّدٍ ﷺ، عَلَى هَدْيِ كُلِّ أَحَدٍ. وَلِهَذَا سُمُّوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ): قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٥١].

فمن أعظم خصائص أهل السُّنَّة والجماعة تعظيم النصوص، وتقديمها على الآراء، وأقوال الرجال، وهذا أمر ينبغي أن يتفطن له طالب العلم خاصة، فإذا أردت أن تقرر أمرًا من الأمور فابدأ بذكر الآيات، وثنِّ بذكر الأحاديث، ثم اذكر كلام أهل العلم، ثم تكلم بما يفتح الله عليك؛ فلا بد من تعظيم كلام الله، وتعليق الناس به، والتعويل

---

(١) أخرجه مسلم: (٨٦٧).

عليه، وهذا هو ما يسمى: «بالتأصيل»، فإن التأصيل هو الرد إلى الأصول.

كما أن من شأن أهل السُّنَّة والجماعة العناية بالآثار النبوية، والأحاديث المحمدية؛ فهم أهل الرواية والدراية؛ ولهذا لم يزل أهل السُّنَّة والجماعة يشتغلون بطلب العلم، والرحلة في طلب الحديث، وتدارسه، وروايته، وتحمله وأدائه؛ فهم أسعد الناس بهذا الوصف؛ ولهذا سموا أهل الكتاب والسُّنَّة، لكونهم يُؤثرون كلام الله على كلام كل أحد، ويُقدِّمون هدي محمد ﷺ، على هدي كل أحد.

قوله: (**وَسُمُّوا أَهْلَ الْجَمَاعَةِ؛ لأَنَّ الْجَمَاعَةَ هِيَ الاِجْتِمَاعُ، وَضِدُّهَا الْفُرْقَةُ، وَإِنْ كَانَ لَفْظُ الْجَمَاعَةِ قَدْ صَارَ اسْمًا لِنَفْسِ الْقَوْمِ الْمُجْتَمِعِينَ**): هذا لقب آخر من ألقاب أهل الحق، وهو «الجماعة»، وقد بيَّن المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سبب التسمية، وأنها مستمدة من الاجتماع المنافي للفرقة، وليس للقوم المجتمعين على أي حال.

فمن أصول أهل السُّنَّة والجماعة: الدعوة إلى الوحدة والائتلاف، وذم الفرقة والاختلاف؛ قال الله ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فلم يزل أهل السُّنَّة والجماعة يجتمعون على الحق، ويدعون غيرهم إلى ذلك، ولم يزل أهل البدع أهل شذوذ، وفُرقة، وخروج عن الجماعة.

وعلى طالب العلم أن يدرك هذا المقصد الأصيل، في طريقة أهل السُّنَّة والجماعة، فلا يكون مِعْوَل هدم، ولا سبب تَشْظٍّ في الأمة، وقد

يوجد في بعض طلاب العلم من يحب الشقاق، والتنابز بالألقاب، وتفريق الأمة، وتصنيف الناس، حتى في المسائل الاجتهادية؛ التي يسوغ فيها الخلاف، لكن أهل السُّنَّة الراسخين يميزون بين ما يكون موجبًا للمفاصلة، وما بين ما يحتمل فيه الخلاف؛ فعليك، يا طالب العلم، أن تكون عاقلًا حكيمًا لبيبًا، وألا تحشر المخالفين في خندق واحد؛ عليك أن تفرق بين ما يستحق أن تنتصب لذمِّه، والتحذير منه، ومن أصحابه؛ من أهل البدع المحققة، وبين ما يكون من جنس الأمور الاجتهادية الفرعية، التي تختلف فيها الأنظار، فتلتمس الأعذار، ولا يمنعك ذلك من أن تقول الحق، وتدعو إليه.

ينبغي للعالم اللبيب أن يكون: «قويًّا في الحق، رفيقًا بالخلق»؛ فإذا جمع هذين الوصفين نفع الله به نفعًا عظيمًا؛ لأنه إن كان قويًّا في الحق، على فظاظة وشدة، نفر الناس منه، وإذا كان رفيقًا مجاملًا على حساب العلم، لم يحصل المقصود؛ يجب أن يكون الخطاب واضحًا، والأسلوب رفيقًا.

قوله: (**وَالإِجِمَاعُ هُوَ الأَصْلُ الثَّالِثُ الَّذِي يُعْتَمَدُ عَلَيْهِ فِي الْعِلْمِ وَالدينِ**): الإجماع عند الأصوليين: (اتفاق علماء أمة محمد ﷺ، بعد وفاته، على مسألة من المسائل في عصر من العصور)[1]؛ فإذا انعقد اكتسب الحكم صفة القطعية؛ لأن الله لا يجمع الأمة على ضلالة، فقد جعل العصمة في سبيل المؤمنين، كما تقدم، وقد جاء في الحديث المشهور: «**إِنَّ أُمَّتِي لَا تَجْتَمِعُ عَلَى ضَلَالَةٍ**»[2].

---

(١) انظر: إرشاد الفحول: (٧١).

(٢) أخرجه أبو داود: رقم (٤٢٥٣)، والترمذي: رقم (٢١٦٧)، وابن ماجه: رقم (٣٩٥٠)، واللفظ له.

=

قوله: (فَهُمْ يَزِنُونَ بِهَذِه الأُصُولِ الثَّلاثَةِ جَمِيعَ مَا عَلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَعْمَالٍ بَاطِنَةٍ أَوْ ظَاهِرَةٍ مِمَّا لَهُ تَعَلُّقٌ بِالدِّينِ): هذه المعايير الثلاثة: الكتاب، والسُّنَّة، والإجماع، ميزان دقيق، وقسطاس مستقيم؛ يعول عليها أهل السُّنَّة والجماعة، ويردون إليها مسائل النزاع، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: ٥٩]، بخلاف غيرهم، من أهل الأهواء:

- فمنهم من ينصب «العقل» ميزانًا، ولا يرفع رأسًا بالآثار، وهم المتكلمون.

- ومنهم من يتخذ «الذوق»، و«الوجد»، و«الكشف» ميزانًا، وهم الصوفية.

وجميعها موازين طائشة، غير منضبطة؛ تختلف باختلاف العقول والأذواق.

قوله: (وَالإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْضَبِطُ هُوَ مَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ؛ إِذْ بَعْدَهُمْ كَثُرَ الاخْتِلَافُ، وَانْتَشَرَتِ الأُمَّةِ): الإجماع عزيز! فالمنضبط منه ما كان في صدر هذه الأمة، ثم تعذر انعقاده لعلّتين:

- كثرة الاختلاف، وتعدد المذاهب والأقوال.

- انتشار الأمة في أقطار الأرض، وصعوبة الإحاطة بالمقالات.

وروي عن الإمام أحمد أنه قال: (من ادعى الإجماع فهو

= قال الترمذي: هذا حديث غريب من هذا الوجه. قال المباركفوري: الحديث قد استدل به على حجية الإجماع، وهو حديث ضعيف، لكن له شواهد. انظر: تحفة الأحوذي: (٦/ ٣٢٢).

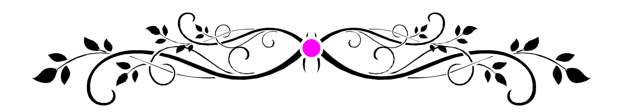
كاذب)[(١)]، فلعله يريد بذلك ما جرى بعد انتشار الأمة في الآفاق، وتفرق العلماء في الأمصار، أو أنه رَحِمَهُ اللهُ قصد قضايا أعيان، كان المعتزلة يدَّعون فيه الإجماع لترويج باطلهم؛ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: (قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي رِوَايَةِ ابْنِهِ عَبْدِ اللهِ: مَنِ ادَّعَى الْإِجْمَاعَ فَقَدْ كَذَبَ، لَعَلَّ النَّاسَ قَدِ اخْتَلَفُوا. هَذِهِ دَعْوَى بِشْرٍ الْمَرِيسِيِّ وَالْأَصَمِّ، وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَعْلَمُ النَّاسَ اخْتَلَفُوا. قَالَ فِي رِوَايَةِ الْمَرُّوذِيِّ: كَيْفَ يَجُوزُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ: أَجْمَعُوا! إِذَا سَمِعْتَهُمْ يَقُولُونَ: أَجْمَعُوا فَاتَّهِمْهُمْ. لَوْ قَالَ: إِنِّي لَا أَعْلَمُ لَهُمْ مُخَالِفًا جَازَ. وَقَالَ فِي رِوَايَةِ أَبِي طَالِبٍ: هَذَا كَذِبٌ مَا أَعْلَمُهُ أَنَّ النَّاسَ مُجْمِعُونَ؟ وَلَكِنْ يَقُولُ: لَا أَعْلَمُ فِيهِ اخْتِلَافًا. فَهُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِهِ: إِجْمَاعَ النَّاسِ. وَقَالُوا فِي رِوَايَةِ ابْنِ الْحَارِثِ: لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدَّعِيَ الْإِجْمَاعَ، لَعَلَّ النَّاسَ اخْتَلَفُوا.

وَلَيْسَ مُرَادُهُ بِهَذَا اسْتِبْعَادَ وُجُودِ الْإِجْمَاعِ، وَلَكِنَّ أَحْمَدَ وَأَئِمَّةَ الْحَدِيثِ بُلُوا بِمَنْ كَانَ يَرُدُّ عَلَيْهِمُ السُّنَّةَ الصَّحِيحَةَ بِإِجْمَاعِ النَّاسِ عَلَى خِلَافِهَا)[(٢)].

وهل يمكن أن ينعقد الإجماع الآن؟ ربما أمكن تفادي العلة الثانية؛ انتشار الأمة، لتوفر وسائل الاتصال الحديثة والسريعة، لكن تبقى العلة الأولى؛ كثرة الاختلاف؛ فقد تمذهب الناس، وحُفظ الخلاف.



(١) انظر: الإحكام للآمدي: (١/ ١٧٠)، وتيسير التحرير: (٣/ ٢٤٠).
(٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة: (ص٦١١ ـ ٦١٢).



الصفات السلوكية والخلقية لأهل السُّنَّة والجماعة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

❁ (ثُمَّ هُم مَّعَ هَذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ: وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا، وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ. وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ لِلأُمَّةِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا**»[(١)]، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وَقَوْلِهِ ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ**»[(٢)]. وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ. وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «**أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا**»[(٣)]. وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وَتُعْطِيَ مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٤٨١)، ومسلم: رقم (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٦٠١١)، ومسلم: رقم (٢٥٨٦).

(٣) أخرجه أحمد: رقم (٧٤٠٢)، وأبو داود: رقم (٤٦٨٢)، والترمذي: رقم (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، لم يخرج في الصحيحين. (المستدرك: ١/ ٤٣).

حَرَمَكَ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ. وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ. وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا. وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ، مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ).

الشَّرْح

بعد أن فرغ المصنف من ذكر منهج الاستدلال، انتقل إلى ذكر جوانب مهمة، يغفل عنها كثير من المنتسبين إلى السُّنَّة، وهو ما يتعلق بالسلوك والأخلاق، فربما ظن بعض الناس أن العقيدة مجرد محفوظات متنيّة، لا شأن لها بالمسائل المسلكية والخلقية، وهذا غلط فظيع! فينبغي لطالب العلم أن يتزين بزينة الإيمان، وأن يتحلى بحِلية العلم، ويقرن القول بالعمل.

قوله: (**ثُمَّ هُم مَّعَ هّذِهِ الأُصُولِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ، وَيَنْهَونَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ**): لا ريب أن من أبرز صفات أمة محمد ﷺ، وأعظم علامات خيريّتها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؛ لأمر الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ووصفه إياها بعد ذلك بقوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فأمة محمد ﷺ، أمة السيادة والقيادة والريادة؛ تقود الناس إلى الجنة بالسلاسل، كما جاء، فهم رحمة على الناس؛ لأن نبيّهم ﷺ، كان رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

لكن ينبغي أن يقيد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بما ذكر المؤلف: (عَلَى مَا تُوجِبُهُ الشَّرِيعَةُ)، وذلك بتحقيق **ثلاثة شروط**؛ شرط قبله، وشرط معه، وشرط بعده:

الشرط الأول: العلم، ويكون قبله، فمن أمر ونهى بغير علم أفسد أكثر مما أصلح.

الشرط الثاني: الرفق، ويكون معه، فمن كان فظًّا غليظًا انفض الناس عنه، وردوا قوله.

الشرط الثالث: الصبر، ويكون بعده، فلا يجزع لما يقع عليه من أذى قولي، أو فعلي. ولهذا قال لقمان لابنه: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ﴾ [لقمان: ١٧].

قوله: (وَيَرَوْنَ إِقَامَةَ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ وَالْجُمَعِ وَالأَعْيَادِ مَعَ الأُمَرَاءِ أَبْرَارًا كَانُوا أَوْ فُجَّارًا): استقر مذهب أهل السُّنَّة والجماعة على طاعة الأمراء، أبرارًا كانوا، أو فجارًا؛ لأن في طاعتهم وحدة الصف، واجتماع الأمة، وفي الخروج عليهم إزهاق الأرواح، وسفك للدماء، وقد جرَّب المسلمون، في عصور متقدمة، ما يترتب على الخروج على الولاة فوجدوا شؤم مغبته؛ خرج الحسين بن علي ـ رضي الله عنه، وعن أبيه ـ على بني أمية بإغراء من الروافض إلى «كربلاء»، ثم خذلوه، فوقع ما وقع من قتله رضي الله عنه واستشهاده، وخرج الفقهاء مع عبد الرحمٰن بن الأشعث، وفيهم سعيد بن جبير، والشعبي، على الحجاج بن يوسف الثقفي، فأوقع فيهم مقتلة عظيمة في «دير الجماجم»، فصار أهل السُّنَّة والجماعة يتواصون بما دلت عليه الأحاديث الصحيحة الصريحة، من الصبر على جور الولاة، وعدم الخروج عليهم، ونقض بيعتهم.

وقد أمر ﷺ بالسمع والطاعة، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ

رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»[(١)].

وأمر بالصبر على جور الولاة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود، قَالَ: (قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذَلِكَ؟ قَالَ: «**تُؤَدُّونَ الْحَقَّ الَّذِي عَلَيْكُمْ، وَتَسْأَلُونَ اللهَ الَّذِي لَكُمْ**»[(٢)].

ونهى عن الخروج عليهم، ومنابذتهم، فعَنْ جُنَادَةَ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ، قَالَ: دَخَلْنَا عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ وَهُوَ مَرِيضٌ، فَقُلْنَا: حَدِّثْنَا أَصْلَحَكَ اللهُ، بِحَدِيثٍ يَنْفَعُ اللهُ بِهِ سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: دَعَانَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَبَايَعْنَاهُ، فَكَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَيْنَا: «**أَنْ بَايَعَنَا عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي مَنْشَطِنَا وَمَكْرَهِنَا، وَعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وَأَثَرَةٍ عَلَيْنَا، وَأَنْ لَا نُنَازِعَ الْأَمْرَ أَهْلَهُ**»، قَالَ: «**إِلَّا أَنْ تَرَوْا كُفْرًا بَوَاحًا عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ فِيهِ بُرْهَانٌ**»[(٣)].

فمنع النبي ﷺ الخروج على الولاة إلا بتوفر أربعة شروط ثقال:

الشرط الأول: الرؤية المحققة: التي يحصل بها العلم القطعي، لا الظنون، والبلاغات، والإشاعات.

الشرط الثاني: كونه كفرًا، فإن كان فسقًا لم يبح الخروج؛ كشرب الخمر، أو الزنا، أو الربا، أو الظلم.

الشرط الثالث: أن يكون بواحًا؛ أي: ظاهرًا باديًا مستعلنًا، فإن كان خفيًّا فلسنا مأمورين بالتنقيب والبحث.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٠٣)، ومسلم: رقم (١٨٤٣)، واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري: رقم (٧٠٥٥)، ومسلم: رقم (١٧٠٩).

الشرط الرابع: البرهان: وهو الدليل الشرعي القطعي؛ من آية محكمة، أو سُنَّة ثابته.

وهناك شرط خامس تدل عليه عمومات الشريعة: وهو القدرة، فلو تحققت الشروط الأربعة السابقة، ولم تتحقق القدرة؛ لم يبح الخروج؛ لأن الله قد قال للمسلمين في مكة: ﴿كُفُّوٓاْ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء: ٧٧].

فلا يجوز التغرير بالأمة، والمجازفة بها بالثورات، وتعريضها للضرر المحقق؛ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَعَلَّهُ لَا يَكَادُ يَعْرِفُ طَائِفَةً خَرَجَتْ عَلَى ذِي سُلْطَانٍ، إِلَّا وَكَانَ فِي خُرُوجِهَا مِنَ الْفَسَادِ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي أَزَالَتْهُ. وَاللهُ تَعَالَى لَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ كُلِّ ظَالِمٍ وَكُلِّ بَاغٍ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَا أَمَرَ بِقِتَالِ الْبَاغِينَ ابْتِدَاءً بَلْ قَالَ: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [سُورَةُ الْحُجُرَاتِ: ٩] فَلَمْ يَأْمُرْ بِقِتَالِ الْبَاغِيَةِ ابْتِدَاءً، فَكَيْفَ يَأْمُرُ بِقِتَالِ وُلَاةِ الْأَمْرِ ابْتِدَاءً؟»

وقد كان منهج الصحابة يختلف عن منهج القراء، فعَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيٍّ، قَالَ: أَتَيْنَا أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، فَشَكَوْنَا إِلَيْهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ، فَقَالَ: «**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ، حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**»، سَمِعْتُهُ مِنْ نَبِيِّكُمْ ﷺ(١)، فكان منهج الصحابة الصبر، حتى يُستراح من فاجر، أو يستريح الإنسان، وكان منهج القرَّاء الخروج، فجرى ما جرى في فتنة ابن الأشعث؛ فعلى طالب العلم أن يتروى في هذه الأمور، وينظر في عواقبها، ويحفظ وحدة الأمة، ويحذر أن يسعى في حل عقد البيعة، ولو بشبر؛ فإن من فارق الجماعة قيد شبر فمات، فميتته جاهلية.

(١) أخرجه البخاري: رقم (٧٠٦٨).

قوله: (وَيُحَافِظُونَ عَلَى الْجَمَاعَاتِ، وَيَدِينُونَ بِالنَّصِيحَةِ للأُمَّةِ): كما أمر النبي ﷺ: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «**لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ**»[(١)]؛ فعلى العبد المؤمن أن يكون قلبه مسكونًا بالنصح والشفقة، لا يكن همّه التشفي، أو الانتقام، أو الوقيعة، أو الخوض في أعراض المسلمين.

قوله: (وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوصِ[(٢)]؛ يَشُدُّ بَعْضَهُ بَعْضًا»، وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ[(٣)]، وقوله: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الواحد؛ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ؛ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ»)[(٤)]: هذا هو الواجب بين المؤمنين أن يتعاضدوا، ويتعاونوا على مصالحهم، ويرفد بعضهم بعضًا، ويعين بعضهم بعضًا، **وهذان مثلان نبويان بديعان**:

أحدهما: ظاهري عملي، كما البنيان المرصوص، الذي ليس فيه ثغرة.

الثاني: باطني قلبي: كما الجسد الواحد، شكواه واحدة؛ فلو أصابك ألم في طرف أصبعك لوجدت الصداع في رأسك، ولو أصابك وعكة في بطنك لأحسست بإنهاك في جميع بدنك، فهكذا ينبغي أن يكون المؤمنون، في أصقاع الأرض، يحسون بالرابطة الإيمانية، ويتعاونون على البر والتقوى.

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (٥٥).
(٢) هذه اللفظة يشهد لها قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾.
(٣) أخرجه البخاري: رقم (٤٨١)، ومسلم: رقم (٢٥٨٥).
(٤) أخرجه البخاري: رقم (٦٠١١)، ومسلم: رقم (٢٥٨٦).

قوله: (**وَيَأْمُرُونَ بِالصَّبْرِ عِنْدَ الْبَلاءِ، وَالشُّكْرِ عِنْدَ الرَّخَاءِ وَالرِّضَا بِمُرِّ الْقَضَاءِ. وَيَدْعُونَ إِلَى مَكَارِمِ الأَخْلاقِ، وَمَحَاسِنِ الأَعْمَالِ، وَيَعْتَقِدُونَ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا»**)[(١)]: **للإنسان صورتان**:

- صورة ظاهرة: وهي البنية الجسدية؛ من طول أو قصر، وبياض أو سواد، وقوة أو ضعف، وهي الصورة الخَلقية.

- صورة باطنة: وهي ما جبل عليه من طباع وسجايا وأخلاق، حسنة أو قبيحة، وهي الصورة الخُلقية؛ فينبغي أن تحرص على تزيين صورتك الباطنة أعظم من حرصك على تزيين صورتك الظاهرة؛ باكتساب الأخلاق الكريمة، والآداب الرفيعة.

والأخلاق نوعان: جبليٌّ، وكسبيٌّ. فإن جبلك الله على أخلاق حميدة؛ فاحمد الله تعالى عليها، وسخرها في مرضاته، وإن جبلك على أخلاق ذميمة؛ فاسعْ للتخلص منها، واكتساب أضدادها، وكل ذلك ممكن، فقد قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وقد ذكر المصنف رحمه الله ثلاثة من محاسن الأخلاق والأعمال: الصبر، والشكر، والرضا، وهي من أعظم أسباب السعادة؛ عَنْ صُهَيْبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد: رقم (٧٤٠٢)، وأبو داود: رقم (٤٦٨٢)، والترمذي: رقم (١١٦٢)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح، لم يخرج في الصحيحين. (المستدرك: ١/ ٤٣).

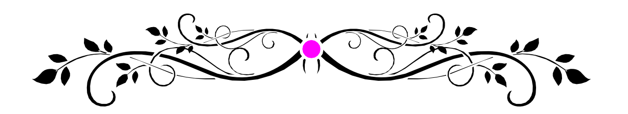
(٢) أخرجه مسلم: رقم (٢٩٩٩).

قوله: (وَيَنْدُبُونَ إِلَى أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَك، وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَك، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَك. وَيَأْمُرُونَ بِبِرِّ الْوَالِدَيْنِ، وَصِلَةِ الأَرْحَامِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالإِحْسَانِ إِلَى الْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ، وَالرِّفْقِ بِالْمَمْلُوكِ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْفَخْرِ، وَالْخُيَلاءِ، وَالْبَغْيِ، وَالاسْتِطَالَةِ عَلَى الْخَلْقِ بِحَقٍّ أَوْ بِغَيْرِ حَقٍّ. وَيَأْمُرُونَ بِمَعَالِي الأَخْلَاقِ، وَيَنْهَوْنَ عَنْ سَفْسَافِهَا): هذه طائفة من الأعمال الصالحة، والقربات الفاضلة، كل واحد منها يستحق أن يُفرَد له باب، والمقصود: أن من شأن أهل السُّنَّة والجماعة العناية بالجوانب المسلكية والخلقية؛ فإن الله بعث نبيّه ﷺ، بأمرين: قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]، فالهدى هو العلم النافع، ودين الحق هو العمل الصالح؛ فكن يا طالب العلم شامة بين الناس؛ بحسن خلقك، وعملك الصالح، كن قدوة وأسوة لغيرك؛ بالإحسان إلى الخلق، ونفعهم، والسعي في مصالحهم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وهكذا بقية الخصال الإيمانية العظيمة، التي قال عنها النبي ﷺ: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ـ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ ـ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[1].

قوله: (وَكُلُّ مَا يَقُولُونَهُ وَيَفْعَلُونَهُ مِنْ هَذَا وَغَيْرِهِ؛ فَإِنَّمَا هُمْ فِيهِ مُتَّبِعُونَ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ): هذا إجمال لعموم طريقة أهل السُّنَّة والجماعة؛ فما دعا إليه الكتاب والسُّنَّة أخذوا به، وما نهى عنه الكتاب والسُّنَّة أمسكوا عنه؛ فلذلك كانوا زينة الدنيا والدين، وكانوا بركة على العالمين.

---

(١) أخرجه البخاري: رقم (٩)، ومسلم: رقم (٣٥)، واللفظ له.



الدين والطريقة

قال المؤلف ـ رحمه الله تعالى ـ:

(وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ، لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ، أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ. وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «**هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَومَ وَأَصْحَابِي**»[(١)]، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ. وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ، وَالشُّهَدَاءِ، وَالصَّالِحُونَ، وَمِنْهُمُ أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ، وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ، وَفِيهِمُ أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ، وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «**لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ**»[(٢)].

---

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك: رقم (٤٤٤)، والمروزي في كتاب السُّنَّة: رقم (٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٤١)، ومسلم: رقم (١٠٣٧)، ورقم (١٥٦)، بألفاظ متقاربة.

الشَّرْح

قوله: (وَطَرِيقَتُهُمْ هِيَ دِينُ الإسْلَامِ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا ﷺ):

دين الله واحد؛ هو الإسلام، الذي بعث الله به جميع أنبيائه ورسله، من لدن نوح إلى محمد ﷺ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فدين الله واحد، ليس لله أديان متعددة، كما يتوهم بعض الناس! فإن قال قائل: ما بال اليهودية والنصرانية، أليست أديانًا لله؟ فالجواب: كلا، اليهودية والنصرانية ليست أديانًا لله، اليهودية: هي ما آل إليه دين موسى عليه السلام بعد تحريف الأحبار، والنصرانية: هي ما آل إليه دين عيسى عليه السلام بعد تحريف الرهبان، أما ما جاء به موسى وعيسى عليهما السلام فهو الإسلام، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥]، وقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]؛ **لكن لفظ الإسلام له معنيان**:

- **معنى عام**: وهو الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهو الذي جاء به جميع أنبياء الله؛ قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

- **معنى خاص**: وهو ما بعث الله به محمدًا ﷺ، من العقائد الصحيحة، والشرائع العادلة، والأخلاق القويمة، والآداب العالية، فهذا هو الإسلام الذي لا يقبل الله دينًا سواه، بعد بعثة نبيّه محمد ﷺ، فقد

قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٌّ، وَلَا نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ»(١).

وبهذا يتبين بطلان الدعوة إلى «توحيد الأديان»، أو «التقريب بين الأديان»، أما «الحوار بين أتباع الأديان» فيجب أن يكون حوار دعوة، لا مجرد دعوة إلى الحوار؛ فحوار الدعوة يتمثل بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤]، أما الدعوة إلى الحوار، فهدفها كما يقول دعاتها: التعرف على الآخر، كما يحب أن يعرف، وعدم انتقاده أو إدانته، أو التفكير في استمالته ودعوته، واعتبار ذلك خيانة للحوار!

قوله: (لَكِنْ لَمَّا أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ، أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً؛ كُلُّهَا فِي النَّارِ؛ إِلَّا وَاحِدَةً، وَهِيَ السُّنَّةُ والْجَمَاعَةُ، صَارَ الْمُتَمَسِّكُونَ بِالإسْلامِ الْمَحْضِ الْخَالِصِ عَنِ الشَّوْبِ هُمُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ): بيَّن الشيخ سبب التسمي بأهل السُّنَّة والجماعة، مع أن الله تعالى قد قال في القرآن ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهو أن النبي ﷺ، أخبر بأن هذه الأمة التي يتسمى جميع فئاتها بالمسلمين، يفترقون على ثلاثة وسبعين فرقة؛ اثنتان وسبعون بدع وأهواء، وواحدة على السُّنَّة، فلذلك اختصوا بهذا الاسم، للدلالة على الإسلام الخالص، من الأخلاط الرديئة.

قوله: (وَفِي حَدِيثٍ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: «هُمْ مَنْ كَانَ عَلَى مِثْل مَا أَنَا عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه مسلم: رقم (١٥٣).

الْيَومَ وَأَصْحَابِي»)[1]: هذه زيادة صححها الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ وهي تبين أن الفرقة الناجية هم من كان على مثل ما عليه النبي ﷺ، وأصحابه، في العلم والعمل؛ فأهل السُّنَّة والجماعة: هم الذين اجتمعوا على الأخذ بسُنَّة النبي ﷺ، والعمل بها ظاهرًا وباطنًا؛ في الأقوال، والأفعال، والاعتقادات، وهو الذي عليه السلف الصالح؛ من أهل القرون الثلاثة الفاضلة من السلف، ومن سار على طريقتهم من الخلف، وخرج من ذلك أهل البدع والأهواء؛ مثل: الخوارج، والروافض، والمرجئة، والقدرية، ونحوهم.

قوله: (وَفِيهِمُ الصِّدِّيقُونَ): جمع صدِّيق، وهو: الذي بلغ الغاية في التصديق.

قوله: (وَالشُّهَدَاءِ): جمع شهيد، وهو: الذي قُتل لتكون كلمة الله هي العليا.

قوله: (وَالصَّالِحُونَ): جمع صالح، وهو: الممتثل لأوامر الله، المجتنب لمناهيه.

وقد جمع الله هؤلاء المنعم عليهم في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

قوله: (وفيهم أَعْلامُ الْهُدَى، وَمَصَابِيحُ الدُّجَى، أُولو الْمَنَاقِبِ الْمَأْثُورَةِ، وَالْفَضَائِلِ الْمَذْكُورَةِ): من المحدثين، والفقهاء، والعباد، والمجاهدين، وغيرهم، ممن يطول المقام بذكرهم. وأسماؤهم لامعة

(١) أخرجه الترمذي: رقم (٢٦٤١)، والحاكم في المستدرك: رقم (٤٤٤)، والمروزي في كتاب السُّنَّة: رقم (٥٩).

كالنجوم في السماء، موجودة في الكتب المصنفة في المناقب وأعلام النبلاء.

قوله: (وَفِيهِمُ الأَبْدَالُ): الأبدال: هم الذين كلما مات منهم أحد أبدله الله بغيره، فلم يزل الله تعالى يتعاهد هذه الأمة بهم، كما جاء في الحديث: «**يَحْمِلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُدُولُهُ، يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِينَ، وَانْتِحَالَ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ**»(١)، فكلما ذهب عالم أبدله بغيره، فتظل الأمة في مدد مستمر من عند الله، وهذا من تكفل الله بحفظ الدين.

قوله: (ومنهم أَئِمَّةُ الدِّينِ، الَّذِينَ أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى هِدَايَتِهِمْ وَدِرَايَتِهِمْ): أئمة الدين: هم المتبوعون في مسائل الدين؛ كالأئمة الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، وغيرهم: كسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، والشعبي، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم كثير؛ يطول المقام بذكرهم، رحمهم الله، والإمامة في الدين تنال بالعلم واليقين، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: ٢٤].

قوله: (وَهُمُ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ الَّذِينَ قَالَ فِيهِمُ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةً، لَا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ، وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ؛ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»)(٢): إما أن الله تعالى ينصرهم بالحجة والبيان، وهذا أمر لا يتخلف، أو بالسيف والسنان، وهذا قد يتخلف،

---

(١) أخرجه البزار: رقم (٩٤٢٣)، والبيهقي في السنن الكبرى: رقم (٢٠٩١١)، وابن وضاح في البدع: رقم (١، ٢)، وصححه الألباني في المشكاة: رقم (٢٤٨).
(٢) أخرجه البخاري: رقم (٣٦٤١)، ومسلم: رقم (١٠٣٧)، ورقم (١٥٦)، بألفاظ متقاربة.

وقد يجتمع الأمران؛ فتبين بذلك أن كل هذه الألقاب مستحقة لأهل الحق؛ فهم أهل الكتاب والسُّنَّة، هم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية.

قوله: (لَا يَضُرُّهُم مَّنْ خَالَفَهُمْ): يعني: في الأمور العلمية.

قوله: (وَلَا مَنْ خَذَلَهُمْ): في الأمور العملية.

(فنَسْأَلُ اللهَ العظيم أَنْ يَجْعَلَنَا مِنْهُمْ وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا، وَأَنْ يَهَبَ لَنَا مِن لَّدُنْهُ رَحْمَةً إِنَّهُ هُوَ الوَهَّابُ.
والحمد لله وحده، وصلى على خير خلقه محمد وآله وصحبه وسلَّم).

فهرس المراجع

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ **الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة = الإبانة الكبرى لابن بطة،** المؤلف: ابن بَطَّة العكبري؛ أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري الحنبلي، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، الناشر: دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٣ ـ **إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة،** المؤلف: البوصيري؛ أبو العباس شهاب الدين أحمد بن أبي بكر بن إسماعيل بن سليم بن قايماز بن عثمان البوصيري الكناني الشافعي، تحقيق: دار المشكاة للبحث العلمي، بإشراف: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٤ ـ **اجتماع الجيوش الإسلامية على حرب المعطلة والجهمية،** المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، الناشر: مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٥ ـ **الإحكام في أصول الأحكام،** المؤلف: علي بن محمد الآمدي، علق عليه: عبد الرزاق عفيفي، الناشر: المكتب الإسلامي، (دمشق ـ بيروت)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٢هـ.

٦ ـ **الأدب المفرد،** المؤلف: البخاري؛ محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٧ ـ **الأذكار،** المؤلف: النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، طبعة جديدة منقحة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨ ـ **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، المؤلف: الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، تحقيق: أحمد عزو عناية، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٩ ـ **الأسماء والصفات**، المؤلف: أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١٠ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، المؤلف: ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١١ ـ **أصول السُّنَّة**، المؤلف: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله، الناشر: دار المنار، الخرج، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

١٢ ـ **الاعتصام**، المؤلف: الشاطبي؛ إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الناشر: دار ابن عفان، الخُبر، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

١٣ ـ **الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**، المؤلف: أبو بكر البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ.

١٤ ـ **أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات**، المؤلف: مرعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

١٥ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة: السابعة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٦ ـ **ألفية ابن مالك في النحو والصرف**، المؤلف: محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين، الناشر: دار التعاون، مكة المكرمة.

١٧ ـ **البداية والنهاية**، المؤلف: ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، الناشر: دار الفكر، بيروت، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٨ ـ **بدائع الفوائد**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٩ ـ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، المؤلف: الشوكاني؛ محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

٢٠ ـ **البدع والنهي عنها**، المؤلف: محمد بن وضاح القرطبي، تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة، مصر، مكتبة العلم، جدة، السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ.

٢١ ـ **البعث والنشور**، المؤلف: أبو بكر البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي، حققه وضبطه وعلق عليه: أبو عاصم الشوامي الأثري، الناشر: مكتبة دار الحجاز للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٣٦هـ.

٢٢ ـ **بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث**، المؤلف: الحارث بن محمد بن أبي أسامة التميمي، المنتقي: نور الدين علي بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي الشافعي، تحقيق: د. حسين أحمد صالح الباكري، الناشر: مركز خدمة السُّنَّة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

٢٣ ـ **بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، الطبعة: الأولى، ١٤٢٦هـ.

٢٤ ـ **تاريخ ابن الوردي**، المؤلف: ابن الوردي؛ عمر بن مظفر بن عمر بن محمد ابن أبي الفوارس، أبو حفص، زين الدين ابن الوردي المعري الكندي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٢٥ ـ **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**، المؤلف: الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٦ ـ **تاريخ الخلفاء**، المؤلف: الجلال السيوطي؛ عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين، تحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

٢٧ ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، المؤلف: خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري، أبو عمرو، تحقيق: د. أكرم ضياء العمري، الناشر: دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٧هـ.

٢٨ ـ **تاريخ مدينة دمشق**، وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل أو اجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها، المؤلف: ابن عساكر؛ أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة: ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

٢٩ ـ **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، المؤلف: المباركفورى؛ أبو العلا محمد عبد الرحمٰن بن عبد الرحيم المباركفورى، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

٣٠ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، المؤلف: جلال الدين السيوطي؛ عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، تحقيق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٣١ ـ **التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. محمد بن عودة السعوي، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: السادسة، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٣٢ ـ **تذكرة الحفاظ**، المؤلف: الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، دراسة وتحقيق: زكريا عميرات، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٣٣ ـ **تعظيم قدر الصلاة**، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، تحقيق: د. عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: مكتبة الدار، المدينة النبوية، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ.

٣٤ ـ **التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان وتمييز سقيمه من صحيحه**، وشاذه من محفوظه، المؤلف: الألباني؛ أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: دار باوزير للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٣٥ ـ **تفسير أسماء الله الحسنى**، المؤلف: الزجاج؛ إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق، الناشر: دار الثقافة العربية، دمشق، ١٩٧٤م.

٣٦ ـ **تفسير القرآن العظيم مسندًا عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين = تفسير ابن أبي حاتم الرازي**، المؤلف: ابن أبي حاتم الرازي؛ أبو محمد عبد الرحمٰن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض، الطبعة: الثالثة، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٧ ـ **تفسير القرآن العظيم= تفسير ابن كثير**، المؤلف: ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٣٨ ـ **تفسير عبد الرزاق**، المؤلف: الصنعاني؛ أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، دراسة وتحقيق: د. محمود محمد عبده، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ.

٣٩ ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، المؤلف: ابن حجر؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: أبو عاصم حسن بن عباس بن قطب، الناشر: مؤسسة قرطبة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٤٠ ـ **تلقيح فهوم أهل الأثر في عيون التاريخ والسير**، المؤلف: ابن الجوزي؛ عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، الناشر: شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧م.

٤١ ـ **تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله من الأخبار**، المؤلف: أبو جعفر الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تحقيق: محمود محمد شاكر، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة.

٤٢ ـ **تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، المؤلف: الحافظ المزي؛ يوسف بن عبد الرحمٰن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، (١٤٠٠ ـ ١٤١٣هـ) (١٩٨٠ ـ ١٩٩٢م).

٤٣ ـ **التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد**، المؤلف: ابن منده؛ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده، تحقيق: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، دار العلوم والحكم، سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٤٤ ـ **تيسير التحرير على كتاب التحرير في أصول الفقه الجامع بين اصطلاحي الحنفية والشافعية لابن همام الإسكندري**، المؤلف: محمد أمين المعروف بأمير بادشاه الحسيني الحنفي الخراساني البخاري المكي، الناشر: مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٢م.

٤٥ ـ **جامع البيان عن تأويل آي القرآن = تفسير الطبري**، المؤلف: أبو جعفر الطبري؛ محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٤٦ ـ **جامع المسانيد والسُّنَن الهادي لأقوم سَنَن**، المؤلف: ابن كثير؛ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله الدهيش، الناشر: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

٤٧ ـ **الجامع المسند الصحيح المختصر من أُمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه = صحيح البخاري**، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٨ ـ **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، المؤلف: القرطبي؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

٤٩ ـ **الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع**، المؤلف: الخطيب البغدادي؛ أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب، المحقق: محمود الطحان، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٩م.

٥٠ ـ **الجامع لشعب الإيمان**، المؤلف: البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

٥١ ـ **الجامع لعلوم الإمام أحمد**، المؤلف: خالد الرباط، سيد عزت عيد، محمد أحمد عبد التواب، (بمشاركة الباحثين بدار الفلاح)، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

٥٢ ـ **الجواهر الحسان في تفسير القرآن = تفسير الثعالبي**، المؤلف: عبد الرحمٰن بن محمد بن مخلوف أبو زيد الثعالبي المكي، تحقيق: علي معوض، عادل عبد الموجود، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٥٣ ـ **جوهرة التوحيد**، المؤلف: إبراهيم بن إبراهيم اللقاني (برهان الدين اللقاني)، الناشر: دار السلام، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

٥٤ ـ **حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، تحقيق: علي السيد صبح المدني، محمد جميل أحمد غازي، الناشر: مطبعة المدني، القاهرة، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٥٥ ـ **حاشية السندي على سنن ابن ماجه = كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه**، المؤلف: نور الدين السندي؛ محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، الناشر: دار الجيل، بيروت.

٥٦ ـ **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، المؤلف: أبو نعيم؛ أحمد بن عبد الله الأصبهاني، الناشر: مطبعة السعادة، مصر، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

٥٧ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، المؤلف: ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

٥٨ ـ **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، المؤلف: ابن حجر العسقلاني؛ أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، الناشر: مجلس دائرة المعارف العثمانية، صيدر اباد، الهند، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

٥٩ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، المؤلف: أبو بكر البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥هـ.

٦٠ ـ **الذيل على طبقات الحنابلة**، المؤلف: ابن رجب؛ زين الدين عبد الرحمٰن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَّلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: د. عبد الرحمٰن بن سليمان العثيمين، الناشر: مكتبة العبيكان، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.

٦١ ـ **الرد على الجهمية**، المؤلف: أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، الناشر: دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٦٢ ـ **رسالتان في فتنة الدجال ويأجوج ومأجوج**، المؤلف: عبد الرحمٰن بن ناصر السعدي، تحقيق: أ.د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

٦٣ ـ **زاد المسير في علم التفسير**، المؤلف: ابن الجوزي؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

٦٤ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

٦٥ ـ **الزهد**، المؤلف: هَنَّاد بن السَّرِي بن مصعب بن أبي بكر بن شبر بن صعفوق بن عمرو بن زرارة بن عدس بن زيد التميمي الدارمي الكوفي، أبو السَّرِي، تحقيق: عبد الرحمٰن عبد الجبار الفريوائي، الناشر: دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٥م.

٦٦ ـ **زوائد عبد الله بن أحمد بن حنبل في المسند**، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن حنبل، تحقيق: عامر حسن صبري، الناشر: دار البشائر الإسلامية، بيروت، الطبعة: الأولى: ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٦٧ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**، المؤلف: الألباني؛ أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م.

٦٨ ـ **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة**، المؤلف: الألباني؛ أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: دار المعارف، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٦٩ ـ **السُّنَّة**، المؤلف: ابن أبي عاصم؛ أحمد بن عمرو بن الضحاك بن مخلد الشيباني، أبو بكر، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٠هـ.

٧٠ ـ **السُّنَّة**، المؤلف: عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، أبو عبد الرحمٰن، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، الناشر: دار ابن القيم، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٧١ ـ **السُّنَّة**، المؤلف: محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي، أبو عبد الله، تحقيق: سالم أحمد السلفي، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

٧٢ ـ **سنن ابن ماجه**، المؤلف: ابن ماجه؛ محمد بن يزيد القزويني، أبو عبد الله، وماجه اسم أبيه يزيد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية ـ فيصل عيسى البابي الحلبي.

٧٣ ـ **سنن أبي داود**، المؤلف: أبو داود؛ سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة، العصرية، صيدا ـ بيروت.

٧٤ ـ **سنن الترمذي**، المؤلف: الترمذي؛ محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م.

٧٥ ـ **سنن الدارقطني**، المؤلف: الدارقطني؛ أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٤م.

٧٦ ـ **السنن الصغرى للنسائي**، المؤلف: النسائي؛ أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٧٧ ـ **السنن الكبرى = سنن النسائي الكبرى**، المؤلف: النسائي؛ أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرحمٰن النسائي، تحقيق: مركز البحوث بدار التأصيل، الناشر: دار التأصيل، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

٧٨ ـ **السنن الكبير = السنن الكبرى**، المؤلف: البيهقي؛ أبو بكر أحمد بن الحُسَين بن عليٍّ البيهقي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م.

٧٩ ـ **سير أعلام النبلاء**، المؤلف: الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف: الشيخ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٨٠ ـ **السيرة النبوية لابن هشام**، المؤلف: ابن هشام؛ عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، أبو محمد، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الناشر: دار الجيل، بيروت، الطبعة: الأولى.

٨١ ـ **شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة**، المؤلف: اللالكائي؛ أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، الناشر: دار طيبة، الرياض، الطبعة: الثامنة، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٨٢ ـ **شرح اعتقاد أهل السُّنَّة للإمام أبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي**، المؤلف: أ.د. أحمد بن عبد الرحمٰن القاضي، الناشر: دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة: الأولى، ١٤٤٣هـ ـ ٢٠٢٢م.

٨٣ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، المؤلف: ابن أبي العز الحنفي؛ صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد بن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي ـ شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

٨٤ ـ **شرح المفصل للزمخشري**، المؤلف: ابن الصانع؛ يعيش بن علي بن يعيش ابن أبي السرايا محمد بن علي، أبو البقاء، موفق الدين الأسدي الموصلي، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه: الدكتور إميل بديع يعقوب، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

٨٥ ـ **شرح حديث النزول**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الخامسة، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

٨٦ ـ **شرح معاني الآثار**، المؤلف: الطحاوي؛ أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار ـ محمد سيد جاد الحق) من علماء الأزهر الشريف، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د. يوسف عبد الرحمٰن المرعشلي ـ الباحث بمركز خدمة السُّنَّة بالمدينة النبوية، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٨٧ ـ **الشريعة**، المؤلف: الآجُرِّيُّ؛ أبو بكر محمد بن الحسين بن عبد الله الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، الناشر: دار الوطن، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

٨٨ ـ **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، تحقيق: الحساني حسن عبد الله، الناشر: دار التراث، القاهرة.

٨٩ ـ **الصارم المسلول على شاتم الرسول**، المؤلف: ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: الحرس الوطني السعودي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: لا يوجد، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

٩٠ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، المؤلف: ابن حبان؛ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

٩١ ـ **صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، المؤلف: الألباني؛ أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت ـ دمشق، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٩٢ ـ **صحيح سنن أبي داود**، المؤلف: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: مؤسسة غراس للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٩٣ ـ **ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)**، المؤلف: الألباني؛ أبو عبد الرحمٰن محمد ناصر الدين، ابن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري، أشرف على طبعه: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي، الطبعة: المجددة والمزيدة والمنقحة.

٩٤ ـ **طبقات الحنابلة**، المؤلف: أبو الحسين محمد بن أبي يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي، الناشر: مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢م.

٩٥ ـ **طرح التثريب في شرح التقريب (المقصود بالتقريب: تقريب الأسانيد وترتيب المسانيد)**، المؤلف: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي، أكمله ابنه: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي، الناشر: الطبعة المصرية القديمة ـ وصورتها دور عدة منها (دار إحياء التراث العربي، ومؤسسة التاريخ العربي، ودار الفكر العربي).

٩٦ ـ **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، تحقيق: محمد أجمل الإصلاحي، خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩هـ.

٩٧ ـ **عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي**، المؤلف: أبو بكر ابن العربي؛ محمد بن عبد الله بن محمد المعافري، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٩٨ ـ **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت ـ مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

٩٩ ـ **العرش**، المؤلف: الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

١٠٠ ـ **العقود الدرية في ذكر بعض مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية**، المؤلف: محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي، شمس الدين، تحقيق: علي بن محمد العمران، الناشر: دار علم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ.

١٠١ ـ **عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي**، المؤلف: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي الجماعيلي الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، تقي الدين، تحقيق: مصعب بن عطا الله الحايك، الناشر: مؤسسة المؤتمن للتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م.

١٠٢ ـ **عقيدة السلف وأصحاب الحديث = الرسالة في اعتقاد أهل السُّنَّة وأصحاب الحديث والأئمة**، المؤلف: إسماعيل بن عبد الرحمٰن الصابوني، أبو عثمان، تحقيق د. ناصر بن عبد الرحمٰن الجديع، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٠٣ ـ **العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها**، المؤلف: الذهبي؛ محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، تحقيق: عبد الله بن صالح البراك، الناشر: دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

١٠٤ ـ **العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها**، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، الناشر: مكتبة أضواء السلف ـ الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٠٥ ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، المؤلف: ابن حجر؛ أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل العسقلاني، الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، الناشر: دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ.

١٠٦ ـ **الفتوحات المكية**، المؤلف: ابن عربي؛ محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٧ ـ **الفتوى الحموية الكبرى**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: د. حمد بن عبد المحسن التويجري، الناشر: دار الصميعي، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

١٠٨ ـ **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، المؤلف: عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٧٧م.

١٠٩ ـ **فضائح الباطنية**، المؤلف: الغزالي؛ محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، تحقيق: عبد الرحمٰن بدوي، الناشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية، الكويت.

١١٠ ـ **فضائل الصحابة**، المؤلف: أحمد بن حنبل؛ أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: د. وصي الله محمد عباس، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١١١ ـ **فوات الوفيات**، المؤلف: ابن شاكر الكتبي؛ محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمٰن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الأولى، الجزء: ١ ـ ١٩٧٣م، الجزء: ٢، ٣، ٤ ـ ١٩٧٤م.

١١٢ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**، المؤلف: أبو أحمد بن عدي الجرجاني، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود ـ علي محمد معوض: شارك في تحقيقه: عبد الفتاح أبو سنة، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١١٣ ـ **كتاب الأسماء والصفات**، المؤلف: أبو بكر البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، الناشر: مكتبة السوادي، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١١٤ ـ **كتاب الأصنام**، المؤلف: ابن بشر الكلبي؛ أبو المنذر هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي، تحقيق: أحمد زكي باشا، الناشر: دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة: الرابعة، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١٥ ـ **كتاب الإيمان «ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته»**، المؤلف: أبو عُبيد القاسم بن سلّام بن عبد الله الهروي البغدادي، تحقيق: محمد نصر الدين الألباني، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

١١٦ ـ **كتاب الإيمان**، المؤلف: ابن أبي شيبة؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١١٧ ـ **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ**، المؤلف: ابن خزيمة؛ أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان، الناشر: مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة: الخامسة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١١٨ ـ **كتاب الدعاء**، المؤلف: أبو القاسم الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

١١٩ ـ **كتاب الرد على المنطقيين**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت.

١٢٠ ـ **كتاب الروح**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي، أبو عبد الله، شمس الدين، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة.

١٢١ ـ **كتاب الزهد الكبير**، المؤلف: البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٢٢ ـ **كتاب الزهد والرقائق**، من رواية الحسين المروزي (وملحق بآخره زيادات من رواية نعيم بن حماد)، المؤلف: عبد الله بن المبارك المروزي، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، قام بنشره: محمد عفيف الزعبي، بإذن خطي من محققه حبيب الرحمٰن الأعظمي، ووكيل مجلس إحياء المعارف بـ(ماليكاون) ناسك (الهند).

١٢٣ ـ **كتاب الصلاة وأحكام تاركها**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، الناشر: مكتبة الثقافة، المدينة المنورة النبوية.

١٢٤ ـ **كتاب الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الناشر: دار العاصمة، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ.

١٢٥ ـ **كتاب الضعفاء الكبير**، المؤلف: أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي المكي، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٢٦ ـ **كتاب العين**، المؤلف: الخليل بن أحمد؛ الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرحمٰن، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال.

١٢٧ ـ **الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، المؤلف: ابن أبي شيبة؛ أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة الكوفي العبسي، تقديم وضبط: كمال يوسف الحوت، الناشر: (دار التاج ـ لبنان)، (مكتبة الرشد ـ الرياض)، (مكتبة العلوم والحكم ـ المدينة المنورة)، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٢٨ ـ **كتاب شرح الصاوي على جوهرة التوحيد**، المؤلف: أحمد بن محمد المالكي الصاوي، تحقيق: عبد الفتاح البزم، الناشر: دار ابن كثير، دمشق ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٢٩ ـ **الكفاية في علم الرواية**، المؤلف: الخطيب البغدادي؛ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي، تحقيق: أبو عبد الله السورقي، إبراهيم حمدي المدني، الناشر: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الطبعة: الأولى، ١٣٥٧هـ.

١٣٠ ـ **الكوكب الساطع نظم جمع الجوامع**، المؤلف: جلال الدين عبد الرحمٰن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد إبراهيم الحفناوي، الناشر: مكتبة الإيمان للطبع والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٣١ ـ لسان العرب، المؤلف: ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقي، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٤هـ.

١٣٢ ـ لسان الميزان، المؤلف: ابن حجر العسقلاني؛ أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حجر، تحقيق: دائرة المعارف النظامية، الهند، الناشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧١م.

١٣٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المؤلف: الهيثمي؛ أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

١٣٤ ـ مجموع الفتاوى، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمٰن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

١٣٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز = تفسير ابن عطية، المؤلف: ابن عطية؛ أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمٰن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

١٣٦ ـ مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، اختصره: ابن الموصلي؛ محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، تحقيق: سيد إبراهيم، الناشر: دار الحديث، القاهرة، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

١٣٧ ـ مختصر العلو للعلي العظيم وإيضاح صحيح الأخبار من سقيمها، المؤلف: الذهبي؛ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، حققه واختصره: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م.

١٣٨ ـ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: ابن قيم الجوزية؛ محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد، شمس الدين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٣٩ ـ المدخل إلى السنن الكبرى، المؤلف: البيهقي؛ أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، تحقيق: محمد عوامة، الناشر: دار اليسر للنشر والتوزيع، القاهرة، دار المنهاج للنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٧م.

١٤٠ ـ مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان: المؤلف: اليافعي؛ أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٤١ ـ المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، المؤلف: عبد الإلٰه بن سلمان بن سالم الأحمدي، الناشر: دار طيبة، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

١٤٢ ـ المستدرك على الصحيحين، المؤلف: أبو عبد الله الحاكم؛ محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ ـ ١٩٩٠م.

١٤٣ ـ مسند أبي داود الطيالسي، المؤلف: أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصري، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، الناشر: دار هجر، مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

١٤٤ ـ مسند أبي يعلى، المؤلف: أبو يعلى؛ أحمد بن علي بن المُثنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م.

١٤٥ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

١٤٦ ـ مسند البزار = البحر الزخار، المؤلف: البزار؛ أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي، تحقيق: محفوظ الرحمٰن زين الله (جـ ١ ـ ٩)، عادل بن سعد (جـ ١٠ ـ ١٧)، صبري عبد الخالق الشافعي (جـ ١٨)، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة: الأولى، (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م).

١٤٧ ـ **مسند الدارمي = سنن الدارمي**، المؤلف: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، الناشر: دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ ـ ٢٠٠٠م.

١٤٨ ـ **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ = صحيح مسلم**، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

١٤٩ ـ **مشكاة المصابيح**؛ المؤلف: الخطيب التبريزي؛ محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥م

١٥٠ ـ **المصنف = مصنف عبد الرزاق**، المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمٰن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي، الهند، يطلب من: المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ.

١٥١ ـ **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**، المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، أبو محمد، محيي السُّنَّة، تحقيق: محمد عبد الله النمر ـ عثمان جمعة ضميرية ـ سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥٢ ـ **معاني القرآن**، المؤلف: الفراء؛ يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء، أبو زكريا، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي، ومحمد علي النجار، وعبد الفتاح إسماعيل الشلبي، الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة، مصر، الطبعة: الأولى.

١٥٣ ـ **معجم ابن الأعرابي**، المؤلف: ابن الأعرابي؛ أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي، أبو سعيد، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٥٤ ـ **المعجم الأوسط**، المؤلف: أبو القاسم الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، وأبو الفضل عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١٥٥ ـ **المعجم الكبير**، المؤلف: أبو القاسم الطبراني؛ سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

١٥٦ ـ **معجم مقاييس اللغة**، المؤلف: ابن فارس؛ أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، دمشق، الطبعة: الأولى، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٥٧ ـ **مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسُّنَّة**، المؤلف: جلال الدين السيوطي؛ عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، الناشر: الجامعة الإسلامية، المدينة النبوية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.

١٥٨ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، المؤلف: أبو الحسن الأشعري؛ علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، عنى بتصحيحه: هلموت ريتر، الناشر: دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

١٥٩ ـ **الملل والنحل**، المؤلف: محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، أبي الفتح، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، الناشر: مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٨م.

١٦٠ ـ **مناقب الإمام أحمد بن حنبل**، المؤلف: ابن الجوزي؛ جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، الناشر: دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٢م.

١٦١ ـ **منهاج السُّنَّة في نقض كلام الشيعة القدرية**، المؤلف: ابن تيمية؛ تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

١٦٢ ـ **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، المؤلف: النووي؛ أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢هـ.

١٦٣ ـ **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، المؤلف: ابن تغر بردي؛ يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، حققه ووضع حواشيه: د. محمد محمد أمين، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣م.

١٦٤ ـ **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، المؤلف: ابن تغر بردي؛ يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى.

١٦٥ ـ **نقض الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد على المريسي الجهمي العنيد فيما افترى على الله ﷻ من التوحيد**، المؤلف: أبو سعيد الدارمي؛ عثمان بن سعيد بن خالد بن سعيد الدارمي السجستاني، تحقيق: رشيد بن حسن الألمعي، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

١٦٦ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، المؤلف: ابن الأثير؛ مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

١٦٧ ـ **الوصية الكبرى (رسالة شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أتباع عدي بن مسافر الأموي)**، المؤلف: ابن تيمية؛ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وجمعة عثمان ضميرية، الناشر: مكتبة الصديق، الطائف، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة